



الجمهورية العربية السورية

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

الفتوحات العربية الإسلامية لبِلادِ ما وراء النهر

٥٦-٩٦هـ/٦٧٦-٧١٥م

أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد: علي محمد بدوي

إشراف: الأستاذ الدكتور سهيل زكار

العام الدراسي

١٤٤٠-١٤٤١هـ/٢٠١٩-٢٠٢٠م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْفُتُوحَاتُ الْعَرَبِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ لِبِلَادِ مَا وَرَاءِ النَّهْرِ

٥٦-٩٦هـ/٦٧٦-٧١٥م



إلى من أرى التفاؤل بهم . . والسعادة فيهم . . إلى من تطلع لنجاحي
بنظرات أُمِّي . . . إلى أنس الدنيا . . . إلى القلوب الدافئة . . .
إخوتي وأخواتي الغوالي

الافتتاح

إلى الجسد الذي انحنى تحت أديم السماء وثوى فيه ثواءً غير ذي

قفول.....

إلى ذلك الوجه القمري الذي لا يفارقني في ليلي ونهاري

.....

إلى تلك العينين اللتين كنت أرى بهما سرّ وجمال

الحياة.....

إلى دعوات صالحاتٍ آناء الليل وأطراف النهار ما زلت أشعر بها

.....

أمي الحبيبة طيب الله ثراها

فهرس المحتويات

الصفحة	العنوان
ج	شكر وتقدير
د	الإهداء
هـ	فهرس المحتويات
ط	ملخص
ي	تقديم
ص	دلالة الرموز المستخدمة في الدراسة
١	عرض أهم المصادر والمراجع المستخدمة في الدراسة وتحليلها
١٧	الفصل الأول جغرافية بلاد ما وراء النهر
١٨	أولاً- تمهيد
١٩	ثانياً- إقليم المشرق الإسلامي
٢٣	ثالثاً- مفهوم بلاد ما وراء النهر
٢٦	رابعاً- الأقاليم الجغرافية لبلاد ما وراء النهر:
٢٦	١- إقليم الصغد.
٥٠	٢- إقليم خوارزم.
٥٧	٣- إقليم طخارستان.
٦٥	٤- إقليم فرغانة.
٦٨	٥- إقليم أشروسنة.
٧٠	٦- إقليم الشاش.
٧٥	الفصل الثاني أوضاع بلاد ما وراء النهر قبيل الفتح العربي الإسلامي
٧٧	أولاً- الأوضاع السياسية في بلاد ما وراء النهر

٨٠	١- ممالك بلاد ما وراء النهر
٨٤	٢- الترك ودويلاتهم في بلاد ما وراء النهر
٨٩	٣- نظام الحكم
٩٠	٤- ألقاب ملوك بلاد ما وراء النهر
٩٣	ثانياً- الأوضاع الاقتصادية في بلاد ما وراء النهر
٩٣	١- الموارد المائية
٩٦	٢- الزراعة
٩٨	٣- الثروة الحيوانية
٩٩	٤- الثروات الطبيعية
١٠٠	٥- التجارة
١٠٣	٦- البضائع والأسواق
١٠٦	٧- الصناعة
١٠٩	ثالثاً- الأوضاع الاجتماعية في بلاد ما وراء النهر
١٠٩	١- العناصر السكانية
١١٨	٢- الفئات السكانية
١٢١	٣- أهم مظاهر الحياة الاجتماعية
١٢٧	رابعاً- الأوضاع الدينية في بلاد ما وراء النهر
١٢٨	١- الديانة الزرادشتية
١٣٥	٢- الديانة البوذية
١٤٢	٣- الديانة المانوية
١٤٦	٤- الديانة المزدكية
١٤٩	٥- الديانة المسيحية
١٥٣	الفصل الثالث الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد ما وراء النهر
١٥٤	أولاً- دراسة في ماهية الفتوحات العربية الإسلامية

١٥٦	١- ميزات حركة الفتوحات العربية الإسلامية
١٥٦	أ- السرعة والرسوخ:
١٥٩	ب- مبشرات الفتح:
١٦٠	ج- حضارة الفتوحات
١٦٢	د- عجائب الفتوحات:
١٦٤	٢- دوافع حركة الفتوحات العربية الإسلامية
١٦٥	أ- الدافع الاقتصادي:
١٦٦	ب- الدافع ديني:
١٦٨	ثانياً- المحاولات الاستطلاعية المبكرة للفتوحات العربية الإسلامية في المشرق
١٦٨	١- تأسيس البصرة لتكون مسؤولة عن فتوحات المشرق
١٧٣	٢- خراسان ودورها في عمليات الفتح العربي الإسلامي لبلاد ما وراء النهر:
١٧٣	أ- تسمية خراسان
١٧٤	ب- موقع خراسان
١٧٥	ج- الفتح العربي الإسلامي لخراسان
١٨٥	ثالثاً- الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد ما وراء النهر زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان
١٨٨	١- زياد بن أبي سفيان ٤٥-٥٣هـ/٦٦٥-٦٧٣م:
١٩٣	٢- عبید الله بن زياد بن أبي سفيان والياً على خراسان ٥٤هـ/٦٧٤م
١٩٤	٣- سعيد بن عثمان بن عفان ٥٦هـ/٦٧٦م
١٩٨	٤- سلم بن زياد بن أبي سفيان ٦١هـ/٦٨٠م:
٢٠٢	رابعاً- الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد ما وراء النهر زمن الخليفة عبد الملك بن مروان.
٢٠٣	١- أمية بن عبد الله بن خالد الأموي ٧٤-٧٨هـ/٦٩٣-٦٩٧م:
٢٠٤	٢- الحجاج بن يوسف الثقفي ٧٨-٨٦هـ/٦٩٧-٧٠٤م:
٢٠٤	أ- المهلب بن أبي صفرة الأزدي ٧٩هـ/٦٩٨م:
٢٠٦	ب- يزيد بن المهلب ٨٣هـ/٧٠١م:

٢٠٨	الفصل الرابع الفتوحات العربية الإسلامية زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م)
٢٠٩	أولاً- التعريف بقتيبة بن مسلم الباهلي
٢٠٩	١- اسمه ونسبه
٢١٠	٢- أسرته
٢١١	٣- قبيلته
٢١٤	ثانياً- قتيبة بن مسلم الباهلي والحجاج بن يوسف الثقفي قبل عمليات الفتح
٢١٦	ثالثاً- ولاية قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان
٢١٨	رابعاً- فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي
٢١٨	أ- المرحلة الأولى: فتح طخارستان والطالقان والصغانيان
٢٢٠	ب- المرحلة الثانية: فتح بخارى
٢٣٤	ج- المرحلة الثالثة: فتح خوارزم وسمرقند
٢٤٢	د- المرحلة الرابعة: فتح فرغانة والشاش وكاشغر
٢٥٠	خامساً- مصرع قتيبة بن مسلم الباهلي
٢٦٤	سادساً- الاستراتيجية العسكرية لقتيبة بن مسلم الباهلي في الفتوحات
٢٧٩	سابعاً- قتيبة بن مسلم الباهلي القائد الحكيم
٢٨١	ثامناً- ما وراء النهر بعد مقتل قتيبة
٢٨٢	الخاتمة
٢٩٠	الملاحق
٣١١	المصادر والمراجع
	Abstract

ملخص

إن الحقبة الزمنية التي يتناولها البحث تعد جزءاً من تاريخ الدولة الأموية (٤١هـ-١٣٢/٦٦١م-٧٤٩م) ومن نتاج هذا التراث العربي هذه الدراسة المعنونة بـ "الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد ما وراء النهر ٥٦-٩٦هـ/٦٧٦-٧١٤م"؛ والمقصود ببلاد ما وراء النهر البلاد الواقعة بين نهر سيحون وجيحون، وقد عُدَّ نهر جيحون الحدَّ الفاصلَ بين إيران وطوران؛ لأن بلاد ما وراء النهر سكنتها الشعوب التركية والمغولية، وبشكل عام كان الترك هم الأقرب إلى نهر جيحون، وقد وصلت إليهم المؤثرات الفارسية، وكان المغول من ورائهم؛ وهم الأقرب إلى حدود الصين الذين تأثروا بالمؤثرات الصينية، ولاسيما تجارة الحرير، ولم يكن نهر جيحون فاصلاً جغرافياً فحسب بين بلدين؛ بل كان فاصلاً بين شعبين متحاربين دائماً، هما: فارس وطوران، أي بين خراسان وما وراء النهر.

بدأت فتوحات بلاد ما وراء النهر في مراحل مبكرة من الدولة العربية الإسلامية، وأخذ الفاتحون يتطلعون نحوها؛ لأنها أصبحت ملاذاً ليزدجرد الثالث اللائذ بها بعد هزيمته في فارس، فتجهزوا لإتمام عملياتهم بعد فتح الفتوح، ولم تستقر فتوحات المنطقة بشكل منظم إلا بعد أن أعاد عبد الملك بن مروان تأسيس الحكم الأموي، ووحدة أراضي الخلافة الأموية، وباتت الدولة الأموية في أيامه تمتد من بلخ على نهر جيحون حتى ميناء عدن، ومن دمشق إلى السوس في أقصى المغرب، وأصبح البحر المتوسط بحيرة شامية.

وترك عبد الملك بن مروان هذه الدولة مترامية الأطراف المحكومة مركزياً من دمشق لابنه الوليد، وبعد حكم الوليد بن عبد الملك الذي استمر عقداً من الزمن عصر ذروة الفتوحات العربية الإسلامية، ففي أيام الوليد فتحت السند، ووصل الإسلام إلى كشمير، وفتحت بلاد ما وراء النهر، ووصل الإسلام إلى أطراف الصين، وثبتت الفتح العربي للمغرب، ومنها إلى فتح الأندلس.

أما بلاد ما وراء النهر موضوع البحث فهي فتوح امتدت عقداً من الزمن وذلك في زمن ولاية قتيبة بن مسلم الباهلي لخراسان وتنقسم أعماله الحربية إلى أربع مراحل تمكن من خلالها بسط السيادة العربية الإسلامية على مناطق آسيا الوسطى بتثبيت أقدام العرب والإسلام فيها ولاسيما إقليم طخارستان والصغد وخوارزم وفرغانة والشاش وصولاً إلى مدينة كاشغر الصينية

تقديم

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً يليق بجلاله وعزته ورحمته وكرمه، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد:

فإن كان الجهاد كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عمود الإسلام، وذروة سنامه، فإن التاريخ عمود العلوم وذروته ولا شيء أكثر منه خطورة. إن أخطر ما أنتجه كيمياء الفكر هو التاريخ، ولا سيما تاريخ العرب والإسلام بفروعه المتعددة؛ كالتاريخ السياسي والحضاري والعسكري الذي هو موضوع البحث.

قد يجمع التاريخ بين العلم والفن، فهو علم من حيث البحث عن الحقيقة، وفن من حيث كتابته هذه الحقيقة، فجمع الجهد من طرفيه، فكان علماً وفناً بآن واحد؛ لأن الذي يؤلم التاريخ المؤرّخ الذي ابتعد كل البعد عن الصدق والأمانة والتحري لنقل الخبر بكل موضوعية وشفافية، ولا بد لكل دارس للتاريخ أن يتعامل معه بحيث يكون الهدف أولاً وأخيراً الوصول إلى الحقيقة التاريخية قدر المستطاع، فإن الخطأ في العلوم الطبية قد يؤدي بحياة شخص ما، ولكن عندما يخطئ المؤرخون في كتابة التاريخ تموت أمة بأكملها فكرياً وثقافياً؛ بل تكون هذه الأمة عدواً لدوداً لتاريخها، وكم تسمع من أقوال تحزُّ في النفوس حول تاريخ العرب والمسلمين كقولهم: التاريخ مُزوّر، وتاريخنا الأسود، وغيرها من العبارات التي يتفوه بها من زُرعت في أفكاره تشويهات عن التاريخ العربي الإسلامي، ولا سيما تاريخ فتوحات العرب المسلمين فقد صوّر بعض المؤرخين الفاتحين العرب على أنهم غزاة محتلون، بينما يشهد بعض مؤرخي الغرب المنصفين أن التاريخ لم يعرف فاتحين أرحم من الفاتحين العرب.

لقد لاقى تاريخ العرب والمسلمين الكثير من الدسائس، وأكثرها كانت في سير عمليات الفتوح العربية الإسلامية متهمين قادتها تارةً بالعنصرية والهمجية، وتارةً بالغدر ونهب خيرات البلاد المفتوحة؛ متناسين القواعد الصارمة التي وضعها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في الفتوحات العربية الإسلامية التي حاول كل معتمد أثيم أن ينال منها، ويمتطي جوادها الأصيل الذي يأبى أن يمتطيها إلا فارس أصيل يحسن معاملته، فعندما تمسك القادة بهذه القواعد كان النصر حليفهم، وبالتخلي عنها كان الذل والعار والشرذمة والانقسامات.

إن الحقبة الزمنية التي يتناولها البحث تعد جزءاً من تاريخ الدولة الأموية (٤١هـ-١٣٢/٦٦١-٦٦١هـ)

٧٤٩م) التي لحقها بعض المثالب في كتابة تاريخها، ولا سيما أنه كُتب في ظل معارضيتها زمن الدولة العباسية، ومما يكن فقد كان أغلب مؤرخي العرب المسلمين من القضاة الفقهاء والمحدثين والمفسرين، فكان الغرض الأول من تدوين العلوم في صدر الإسلام هو الشريعة، فكل علم يخدم ذلك الغرض هو واجب الدراسة، والاشتغال به وسيلة إلى مقصد ثانٍ، وقد جمع كثير من فقهاء المسلمين وأئمتهم بين الفقه والتاريخ كالطبري، وابن كثير، والذهبي، والسخاوي، وغيرهم؛ ولذلك كان أكثر علماء التاريخ يرون الاشتغال بالتاريخ لا كعلم بنفسه ولا لاكتساب براعة في معرفة القصص والأخبار؛ بل لخدمة الغرض الديني حتى يكون علم التاريخ أداة لفهم الفقه والشريعة بكل وجوهها.

كان تاريخ العرب والمسلمين أمام نوعين من المؤرخين الذي سَطَرُوا تاريخ العرب؛ النوع الأول: هم مؤرخون رسميون سَخَرُوا أقلامهم لتدوين ما يملئهم الأمل والملك. وما قول إبراهيم الصابئ في أثناء تدوين التاريخ لبني بويه من قبل عضد الدولة لأحد وزرائه أو زواره الذي سأله عما يفعل فقال له: "أباطيل أُنمقها وأكاذيب أُلَفقها".

والنوع الثاني: هم مؤرخون كتبوا التاريخ للتاريخ مخضعين التاريخ بحوادثه لعلم الجرح والتعديل، وتعاملوا مع الرواية كما تعاملوا مع الحديث الشريف كالطبري الذي كتب عدة روايات للحدث التاريخي الواحد ذاكراً للحدث بسلسلة من الرواة؛ تاركاً للقارئ معرفة غثها من سمينها، وذلك عن طريق روايتها الذين لهم تراجم في كتبها، وهنا لا بد من العمل على دراسة تاريخ الطبري دراسة تاريخية موثقة، واستخراج صحيح الطبري، وهذا يحتاج إلى جهود كثيفة ومتعاونة لتحقيق ذلك السبيل، ومنهم أيضاً أبو ريجان محمد بن أحمد البيروني الذي حاول السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين أن يجازيه على كتابه القانون المسعودي، فأرسل له ثلاثة جمال تنوء بأحمالها من الفضة، فردها قائلاً: "إنه يخدم العلم للعلم"، فهكذا كان تاريخ دولة بني أمية بين ما أراده السلطان، والخليفة، والسياسة، وبين ما أراده أهل الحقيقة وأهل الحق والصواب.

إن التراث العربي الإسلامي تراث غني جامع وشامل لكل فروع، وإن نتاج هذا التراث العريق الضاربة جذوره في عمق التاريخ الذي ارتفع شأنه حتى بلغ الثريا بصانعيه لجدير بالدراسة والاستفادة منه في كل وقت وحين. ومن هذه الفروع التراث العسكري والفتوحات العربية الإسلامية التي شهد لها القاصي والداني، وشهد لقادتها بالعبقريّة والذكاء، فدانت لهم البقاع في كل حذب وصوب.

ومن نتائج هذا التراث العربي هذه الدراسة المعنونة بـ "الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد ما وراء النهر ٥٦-٩٦هـ/٦٧٦-٧١٤م"؛ والمقصود ببلاد ما وراء النهر البلاد الواقعة بين نخري سيحون وجيحون، وقد عُدَّ نهر جيحون الحدَّ الفاصلَ بين إيران وطوران؛ لأن بلاد ما وراء النهر سكنتها الشعوبُ التركية والمغولية، وبشكل عام كان الترك هم الأقرب إلى نهر جيحون، وقد وصلت إليهم المؤثرات الفارسية، وكان المغول من ورائهم؛ وهم الأقرب إلى حدود الصين الذين تأثروا بالمؤثرات الصينية، ولاسيما تجارة الحرير، ولم يكن نهر جيحون فاصلاً جغرافياً فحسب بين بلدين؛ بل كان فاصلاً بين شعبين متحاربين دائماً، هما: فارس وطوران، أي بين خراسان وما وراء النهر.

بدأت فتوحات بلاد ما وراء النهر في مراحل مبكرة من الدولة العربية الإسلامية، وأخذ الفاتحون يتطلعون نحوها؛ لأنها أصبحت ملاذاً ليزدجرد الثالث اللائذ بها بعد هزيمته في فارس، فتجهزوا لإتمام عملياتهم بعد فتح الفتوح، ولم تستقر فتوحات المنطقة بشكل منظم إلا بعد أن أعاد عبد الملك بن مروان تأسيس الحكم الأموي، ووحدة أراضي الخلافة الأموية، وباتت الدولة الأموية في أيامه تمتد من بلخ على نهر جيحون حتى ميناء عدن، ومن دمشق إلى السوس في أقصى المغرب، وأصبح البحر المتوسط بحيرة شامية.

وترك عبد الملك بن مروان هذه الدولة مترامية الأطراف المحكومة مركزياً من دمشق لابنه الوليد، ويعد حكم الوليد بن عبد الملك الذي استمر عقداً من الزمن عصر ذروة الفتوحات العربية الإسلامية، ففي أيام الوليد فتحت السند، ووصل الإسلام إلى كشمير، وفتحت بلاد ما وراء النهر، ووصل الإسلام إلى أطراف الصين، وثبتت الفتح العربي للمغرب، ومنها إلى فتح الأندلس.

وتتحلى أهمية الدراسة وسبب الاختيار حول تولي الحجاج بن يوسف الثقفي مسؤولية عملية الفتح، ولاسيما بعد القضاء على ثورة ابن الأشعث. ويلاحظ أن الحجاج أعد استعدادات عسكرية ضخمة جداً للجيش الذي قاده محمد بن القاسم الثقفي لفتح السند بينما أسند فتح بلاد ما وراء النهر إلى مجموعة من القبائل العربية كان معظمها من أهل العراق، وهنا تذهب الأقوال إلى أنه نفى هذه القبائل إلى عمل عسكري خارجي، وهذا التعليل مردود، ويمكن القول: إن الحجاج وفر على نفسه نفقات الفتوحات، بل حصل مكاسب كبيرة؛ لأن القبائل امتلكت الإمكانات والاقتصاد الذاتي، ونجحت في تحقيق الفتوحات،

وأرسلت خُمس الغنائم والجزية إلى بيت المال، وهو حارب القبائل بالقبائل، ويضاف إلى هذا أنه يمكن القول: إن الحجاج بمشروع فتوح بلاد ما وراء النهر طَوَّقَ إمبراطورية الخزر، وأوقف القبائل التركية مساعدتها للخزر؛ لأن الخزر سكنوا أعالي أذربيجان (دريند) باب الأبواب، وكانت جبهتهم مُتَعَبَةً للدولة الأموية، وتتحلى الأهمية من خلال الدور المهم بعملية التعريب، والأعمال التجارية مع الصين، وإيقاف تدفق القبائل الطورانية على خراسان. فالفتح العربي الإسلامي لخراسان وحدها وصانها وحماها من الطورانيين.

تتبلور الإشكاليات في هذا البحث من خلال دوافع الفتح بعد تأمين أوضاع خراسان والقضاء على حكم الهياطلة، ودور الحجاج في استتباب الأمن في الهند الصغرى (أفغانستان) بعد القضاء على ثورة ابن الأشعث، وهل أراد بعد القضاء على ابن الأشعث إشغال قبائل العراق بعيداً في فتوحات السند وبلاد ما وراء النهر أم أنها دوافع إسلامية جهادية من أجل إعلاء كلمة الله وبأقل التكاليف على الخزانة الأموية؛ بل زاد من واردات بيت المال من خُمس الغنائم؟ وهل يمكننا القول: إن هذه الفتوحات ذات طابع اقتصادي أراد الحجاج من خلالها السيطرة على تجارة بخارى وغيرها من المراكز التجارية والإتجار مع الصين، أو فرض نفوذ إسلامي على الصين أم أنها وسيلة للضغط على الصين من خلال هذا الفتح لوقف المحاولات والمساعدات لأبناء يزدجر الملك الساساني لاسترداد ملكه الساساني، فضلاً عن ذلك لماذا لم يوجَّه الحجاج الجيوش إلى فتح طبرستان والديلم، الأمر الذي عاب عليه فيما بعد يزيد بن المهلب أيام سليمان بن عبد الملك كل هذه الأمور مجتمعة مع توفر الطموح لدى الحجاج، وكل هذه الأسئلة تجعل إعادة النظر في معالجتها من خلال المقولة: إن التاريخ خبر ورؤية وإظهار أهمية العصر الأموي من خلال الفتوحات التي تحققت آنذاك، فمواضيع هذه الفتوحات والإنجازات نالت كثيراً من الدراسات، وماتزال تستحق المزيد من البحث والتدقيق والتمحيص، ولاسيما في ضوء الحصول على مصادر ووثائق وآثار جديدة، وعلى ضوء التفسير والتعليل بمنطقية وبعيدة عن التحيز والعصبية والهوى.

وتألف البحث من مقدمة وعرض لأهم المصادر والمراجع، وأربعة فصول:

تناول **الفصل الأول** جغرافية بلاد ما وراء النهر، حيث تناول الفصل من خلال التمهيد العلاقة بين التاريخ والجغرافية وأن كلاً منهما متمم للآخر، فالجغرافية جسد بلا حركة، والتاريخ تلك الروح التي تمنح ذلك الجسد الحركة الموائمة لتضاريسه، ومن ثم الحديث عن إقليم المشرق وتقسيماته وما اختلف حوله

الجغرافيون، ومن ثم كان الحديث عن إقليم بلاد ما وراء النهر، وتقديم بعض الوصف، وما تغنى به البلدانون بطبيعة بلاد ما وراء النهر، ومن ثم تقسيم بلاد ما وراء النهر إلى ستة أقاليم يميز بينها وهي أقاليم جيحونية بالقرب من نهر جيحون، وأقاليم سيحونية على ضفاف نهر سيحون وهذه الأقاليم الستة هي: إقليم الصغد؛ وهو عاصمة بخارى وسمرقند وإقليم خوارزم، وإقليم طخارستان، وإقليم فرغانة، وإقليم أشروسنة، وإقليم الشاش، وتم الحديث عنها بشيء مفصل من حيث التسمية، ولفظها، وموقعها، والاختلافات حول كل إقليم وتوابعه من مدن وقرى بين الجغرافيين، وتم الاختزال الكبير حول جغرافية المنطقة، ولو أطلق العنان لدراساتها لكانت بنفسها أطروحة في جغرافية بلاد ما وراء النهر، وذكر البحث نشأة بعض المدن وما يخالفها من روايات أسطورية، ومناخها، وصفاتها، وتمت الاستعانة ببعض الخرائط التي ستكون بين ثنايا هذا العمل.

أما الفصل الثاني فقد خُصص لأوضاع بلاد ما وراء النهر قبيل الفتح العربي الإسلامي، حيث تم تقسيم الأوضاع في بلاد ما وراء النهر إلى أوضاع دينية، واقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وتمت دراسة كل منها على حدة، فقد كانت بلاد ما وراء النهر منطقة متوسطة بين عدة حضارات، فكانت جماعةً لعددٍ مُهمٍّ من الأديان، وتمت دراستها مع شيء من التفصيل؛ إذ تطرق البحث إلى نشأتها والشخصيات التي كانت مؤسّسة لها، أو أنهم رسل كما يرى أتباعها، ومواقع انتشارها، وطقوس العبادات، ومعابد كل منهم، وأهم التعاليم التي نادى بها رجالها، ومن هذه الديانات التي اعتنقها سكان بلاد ما وراء النهر الزرادشتية، والمناوية، والمزدكية، والبوذية، وكذلك النسطورية المسيحية.

أما الأوضاع الاجتماعية: فقد كانت البداية بالتعريف بالعناصر السكانية من الترك، وأشهر قبائلهم والفرس والأكراد، وتم الحديث عن فئات الشعب من النبلاء والملوك وأصحاب المهن، والتعريف ببعض مظاهر الحياة في بلاد ما وراء النهر، ولا سيما المرأة ودورها، وعن بعض الأعياد والملابس والزواج والأسرة.

أما الأوضاع الاقتصادية: فقد تم الحديث عن موارد المياه شريان الحياة في ما وراء النهر جيحون وسيحون، وبحيرة خوارزم، ثم مقومات الاقتصاد: الزراعة، وأهم المحاصيل الزراعية، والحديث عن الثروة الحيوانية وأماكن تربيتها في المدن، وعن الثروات الطبيعية الغنية في المنطقة ثم الحديث عن التجارة وأهم السلع والطرق التجارية، ثم الحديث عن الصناعات في ما وراء النهر كالصناعات النسيجية والمنتجات

الجلدية، وأهم الأسواق في بلاد ما وراء النهر.

أما الأوضاع السياسية: فكان الحديث من أجل تبيان الواقع السياسي المتفكك، وعرض أهم الممالك المتناحرة ثم الحديث عن دويلات الترك والهون البيض وإمبراطورية الغز، ثم الحديث عن مزايا الحكم في ممالك ما وراء النهر، ثم عرض جدول لألقاب الملوك ومن دونهم.

وبالنسبة **للفصل الثالث** فقد غطى التعريف بمهاية الفتوحات العربية الإسلامية من خلال الحديث عن ميزات الفتح العربي الإسلامي، وبعض الدوافع والادعاءات التي وجهت من أعداء العرب والمسلمين ثم الحديث عن طلائع الجيوش العربية وتحركاتها؛ أي الاستطلاعات الأولية للعمليات العسكرية الكبرى فيما بعد، والحديث عن البصرة لتكون مسؤولة عن فتوحات المشرق ثم الحديث بإيجاز عن خراسان وتسميتها، وموقعها، وأهم العمليات التي تمت من خلالها فتوحات المنطقة، وهذا الأمر لا بُدَّ منه كون خراسان قاعدة فتوحات ما وراء النهر، وهي مقر الجيوش المتقدمة لتحركات الفاتحين، والحديث في أثناء فتوح خراسان عن نفوذ بعض القادة إلى مناطق بلاد ما وراء النهر، ومن ثم كان الحديث عن الفتوحات، وقسمت بشكلها العام إلى ثلاث مراحل، وفي هذا الفصل تم الحديث عن أولى المرحلتين، وهما: المرحلة الأولى زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان، والمرحلة الثانية زمن الخليفة عبد الملك بن مروان.

أما **الفصل الرابع** فقد تناول المرحلة الثالثة من فتوحات بلاد ما وراء النهر التي عدت المرحلة الأخيرة والمنظمة لهذه الفتوح، وكان الحديث فيه بداية عن قتيبة بن مسلم الباهلي والتعريف به وبقبيلته، وبداية ظهور قتيبة بن مسلم على مسرح العمليات، وتوليته من قبل الحجاج على خراسان بمباركة الوليد بن عبد الملك، ومن ثم الحديث عن فتوحات قتيبة التي جعلت في أربع مراحل كانت البداية بطخارستان، ثم بخارى، ثم غدر نيزك، وبعدها يأتي فتح خوارزم وسمرقند لتكون نهاية الفتوحات مع فرغانة والشاش والوصول إلى الصين عند كاشغر، ثم الحديث عن مقتل قتيبة، ومن بعده الحديث عن مناقب قتيبة، واستراتيجيته في القيادة العسكرية، والحديث عنه بعيداً عن العمليات العسكرية، وما أبرزه من حكمة وثقافة.

وجاءت الخاتمة لتبرز أهم ما توصلت إليه الدراسة، وأهم النتائج مع فلسفة الأطروحة، ومن ثم ألحق البحث بمجموعة من الملاحق والخرائط توضح سير عمليات الفتوح، ومن ثم قائمة بالمصادر والمراجع، ووضع للبحث فهرس لسهولة الرجوع إلى المعلومة المطلوبة.

أما المنهج الذي اعتمد للوصول إلى الغاية المرجوة، فهو المنهج العلمي القائم على جمع الأخبار، والروايات من جميع المصادر والوثائق المتوفرة، ومعالجتها وفق منهج تحليلي وتركيبى استقرائى نقدي موضوعي كامل التوثيق وبلغة صحيحة، وكذلك عقد المقارنات اللازمة التي يقتضيها البحث مع دراسات أخرى حول هذا الموضوع، ولا سيما في العمليات العسكرية وبمنهجية البحث والتحري.

وفي الختام أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وقد استطاع البحث أن يخرج إلى النور من خلال الدراسة والجد والمثابرة، لتكون صورة الفتوحات العربية الإسلامية وبلاد ما وراء نهر واضحة للعيان، فإن كانت هناك هفوة أو تقصير فهو من نقص الإنسان الذي وسم بنقصانه وقصوره، فالكمال لله وذلك ليس مسوغاً للخطأ. فإن أصبتُ فمنه وبفضل الله سبحانه وتعالى عمّا يصفون وإن جانبُ الصواب فهو من تقصيري ومن نفسي.

ولا يسعني إلا أن أشكر الأستاذ الدكتور سهيل زكار شيخ مؤرخي بلاد الشام الذي تفضل بالإشراف على هذه الرسالة، وكان مرشداً و معلماً و معيناً، فقد كان صدره رحباً لأسئلتى، فتح لي مكتبته الغنية بأمهات كتب التاريخ وأصوله الجياد العتاق، و كان -أطال الله بقاءه -يستحثني على إنجاز هذه الرسالة، ويبادرني بالسؤال عنها. أثابه الله عني وعن طلبة الدراسات العليا خيراً في الدارين.

والعمل لا ينمو ولا يكبر إلا بتوجيهات وملاحظات الأساتذة لجنة الحكم فقد يسر الله لهذا البحث الدكتوراة فائزة كلاس، والدكتور عمار النهار، والدكتور جميل جمول، والدكتورة ناهد حسين، فلم أزجي وافر الشكر لما بذلوه من جهد طيب مبارك مشكور لتقويم ما اعوج من هذا البحث، وتصويب كل حرف أخطئ، وتعهّد كل حُكْمٍ أُشْرِفُ عليه. وغير شك أن مفيد من ملاحظاتهم القيمة التي ستُجِبُّ البحث، وتصوب ما فرطت به.

وإن أنسَ لن أنسى أساتذتي في قسم التاريخ فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله، فكيف بالذين علّموني؟ وقدموا أيادي العون فجزاهم الله عني كل خير لما أعطوني من وقتهم الثمين الذي لا يقدر بثمن، ومدّوا يد العون عندما أردتها، فوقفوا بجاني شموعاً يحرقون أنفسهم ليمهّدوا لي الدرب؛ شكراً وكل الشكر لجميع أساتذتي في قسم التاريخ بجامعة دمشق والشكر موصول إلى الدكتور حسام الناييف الذي كان لي أخاً وموجهاً أميناً، له مني خالص الود والمحبة وأثنى نحو أسرتي التي حَبَّتني من رعايتها ويسّرت لي بجلودها ما

لا يفیه جزاء غیر الإحسان

والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه، وهو ولي التوفيق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

دمشق في ٣٠ محرم ١٤٤١هـ/ ٢٩ أيلول ٢٠١٩م

دلالة الرموز المستخدمة في البحث

ص	صفحة
ج	جزء
مج	مجلد
تح	تحقيق
تر	ترجمة
تق	تقديم
ت	توفي
م	التاريخ الميلادي
هـ	التاريخ الهجري
ق. م	قبل الميلاد
هـ	هجري
" "	حصرت ضمنها الأقوال
مر	مراجعة
ط	طبعة
د.ت	دون تاريخ نشر
د.م	دون مكان نشر

المقاييس والمسافات والأطوال والأوزان

الميل	= ٤٠٠٠ ذراع
الفرسخ	= ٣ أميال
الشبر	= ٣٦ إصبع (من الأصابع)
الأصبع	= ٥ حبات شعير
الذراع	= ٣ أشبار
البريد	= ٤ فراسخ
اليوم	٢ بريد
المرحلة	٥ فراسخ وثلاث

عرض أهم المصادر والمراجع المستخدمة في الدراسة وتقديمها:

إن التاريخ رؤية وخبر، وكانت هذه الأخبار ضمن مصادر التاريخ التي تحتاج من يحلل مفرداتها. ويُقرأ التاريخ، ويُفسَّر ويُفهم تحت عنوان البحث والاستقصاء التاريخي الذي يعيد نفسه بشكل حلزوني لتستبين الحقائق كما أرادها أهلها. وما كان لهذا البحث أن يُكتب ويصارَ إلى ما هو عليه إلا بالمصادر والروايات والأخبار المتقاربة المتنوعة، ولا سيما أن البحث يسرد أحداثه في حقبة زمنية كُتبت في ظل معارضيهِ إبان حكم الخلافة العباسية الشائرة على حكم الأمويين. وكثيرة هي المصادر التي عُنت بسرد الروايات على اختلاف رواتها، ومنها ما كان مصادر تاريخية جغرافية أو كتب رحلات، ومن بينها كتب السيرة، كما لم تخلُ كتبُ الفتوح والمصادر الأدبية من هذه الأخبار؛ مما أدى إلى تنوع مصادر الدراسة. وفيما يأتي تعريف للمصادر التي كانت لها أهمية خاصة للبحث، وأهم هذه المصادر التي اعتمد عليها في الدراسة:

أولاً- المصادر الجغرافية والتاريخية: (حسب الأقدم في تاريخ الوفاة):

١- ابن خردادبة: أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م، كان جدُّه خردادبة مجوسياً، أسلم على يدي البرامكة، وتولى ابن خردادبة البريد بنواحي الجبل في أيام المعتمد، وكان راوية للأخبار، وقيل: إنه يأتي في تصانيفه بالغرائب، يُقدِّم المؤلف في كتابه "المسالك والممالك" معلومات جغرافية واقتصادية وسياسية كثيرة عن بلاد ما وراء النهر، كما أُفيد منه في ذكر قائمة لملوك ما وراء النهر قبيل الفتح العربي الإسلامي.

٢- ابن رسته: أبو علي أحمد بن عمر ت ٢٩٠هـ/٩٠٣م، عالم جغرافي فارسي الأصل، من أهل أصفهان رحل إلى بلاد العرب حاجاً، وقد أودع ابن رسته في كتابه "الأعلاق النفيسة" الذي يعد من كتب الجغرافية والتاريخ والتراجم معلومات متعلقة بالمدن والأقاليم الإسلامية، وما فيها من تضاريس ومدن وأنهار، واستفاض في الحديث عن بلده أصفهان، واستقى معلوماته من مصادر أدبية وجغرافية قديمة.

٣- اليعقوبي: أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح ت ٢٩٢هـ/٨٩٩م، مؤرخ جغرافي كثير الأسفار، من أهل بغداد كان جدُّه من موالي المنصور العباسي رحل إلى المغرب، وأقام مدة في أرمينيا، ودخل الهند، وزار الأقطار العربية؛ متنزلاً في أخباره، وهو بصورة عامة دقيق فيما أورده من

معلومات، وقد جاء أحياناً بمعلومات فريدة، وإن رواياته تمتاز بالاختصاص والتركيز. إن بعض ما يورده في تاريخه أصيل ذو قيمة تاريخية، وصنف كتباً جيدة منها "كتاب البلدان" الذي يعد من أقدم المصادر الجغرافية العربية، فقد قدم فيه مادة وافية عن كثير من البلدان بوصف سلس يميل إلى التحليل المنطقي، وقد عمل على تقسيم المنطقة التي قدم وصفاً لها إلى أربعة أقسام حسب تقسيم الجهات الأصلية، وكان مهتماً بالجغرافية السكانية؛ أي سكان كل مدينة كما فعل في إقليم ما وراء النهر، ولا سيما أنه يذكر المسافات بين المدن ويصف الأنهار التي تروي أراضيها، وتمت الإفادة من نصوصه التي تشير إلى وجود الدهاقين في تلك المدن، وكذلك قدّم معلومات مهمة عن الفتوح، والكتاب الثاني "تاريخ اليعقوبي"، وهو كتاب موسوعي جعله اليعقوبي قسمين: الأول تناول فيه العالم منذ بدأ الخليقة، وجعل القسم الثاني خاصاً بالتاريخ العربي الإسلامي حتى أيام المعتمد على الله العباسي، وقد اتّبع في كتابه هذا منهجاً جديداً في كتابة الحوادث التاريخية متخذاً من الدول وعهود الحكام أساساً لتنظيم تاريخه، وكانت معلوماته غزيرة عن الفتوح وقاداته، وهو من المصادر التي درست ما وراء النهر وفتوحها، ولا سيما قضية فتح سمرقند وغدر نيزك ومقتله، ويذكر بعض الأساطير حول فتح سمرقند وعلاقتها باسم الوالي قتيبة بن مسلم الباهلي، ويورد الخطب التي كانت بين قتيبة والحجاج، ولا يغفل ذكر المهالبة ودورهم في الأحداث، وهروبهم من السجن والالتجاء إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك في فلسطين.

٤- ابن الفقيه: أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني ت ٣٤٠هـ/٩٥١م، أودع في كتابه "مختصر كتاب البلدان" معلومات ثمينة استقها ممن سبقه، وهي نوعان: إما كتابية من بعض المصادر أو سماعية، وهي لشيوخ سمع منهم، أمثال: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، وأبو حامد بن جعفر المستملي مع إضافات من معلوماته الخاصة، وقدم وصفاً للمدن والبحار والأنهار ومواقعها ومصباتها، وتمت الإفادة منه بمعلومات عن بلاد ما وراء النهر ومدنها واقتصادها، وذكر فيه الترك وقبائلهم وشرائعهم وبعض أخبارهم، وهو لا يخلو من معلومات تاريخية وسياسية، وكذلك الحديث عن الخراج وما يتعلق ببعض الأمور الاقتصادية.

- ٥- الاصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م، ويعد كتابه "الممالك والممالك" من المصادر المهمة، وذكر أن هذا الكتاب قد أُخذت معلوماته من كتاب سابق هو "صور الأقاليم" لأبي زيد البلخي، ومن أفضل الكتب الجغرافية التي تناولت إقليم ما وراء النهر، قدّم فيه معلومات قيمة عن الإقليم وموقعه وحدوده، وتعداد أشهر رساتيقه، وأيضاً أنهاره وخصوبة تربته والنشاط الزراعي والصناعي والحرفي، وقد وصل في كتابه إلى العصر الإخشيدي.
- ٦- ابن حوقل: محمد أبو القاسم النصيبي ت بعد ٣٦٧هـ/٩٧٩م، جغرافي ومؤرخ ورحالة كان يجوب كل البلاد، ويمتاز بوصفه الدقيق والمفصّل، وقد عمل في التجارة في أثناء رحلاته، ويعد كتاب "صورة الأرض" من أشهر أعماله، وهو من المصادر المهمة التي تناولت بلاد ما وراء النهر من حيث السكان والمكان والمناخ، إذ ذكر أسماء الأمصار والمدن وحدّد مواقعها. ومعلوماته هذه مستخلصة من كتاب الاصطخري، وقد زوّد كتابه بعدد من الخرائط والتصاویر الرائعة المهمة جداً.
- ٧- مؤلف مجهول كتابه حدود العالم كتبه سنة ٣٧٢هـ/٩٨٢م، ويعد هذا الكتاب المترجم من اللغة الفارسية إلى العربية كتاباً مهماً في جغرافية ما وراء النهر والتعريف بالمدن وحدودها مع أن معلوماته مختصرة، ولكنها مفيدة جداً، فقد قدم وصفاً سلساً وواضحاً عن كل مدينة.
- ٨- المقدسي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الشامي البشاري ت ٣٨٠هـ/٩٩١م، ويقال له البشاري، رحالة جغرافي، ولد في القدس وعمل في التجارة، فطاف أكثر بلاد الإسلام، وامتاز المقدسي عن سائر علماء البلدان بكثرة ملاحظاته وسعة نظره، وقيل عنه: لم يتجول سائح في البلاد كما تجول المقدسي، ولم ينتبه أحد أو يحسن ترتيب ما علم به مثله، وصنّف كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" فهو كتاب جغرافي موسوعي مهم تضمن معلومات كثيرة عن النواحي الزراعية والصناعية والعقاير والمعادن والنقود في ما وراء النهر، كما أنه يفصّل في ذكر المدن التي تقوم بها الأنشطة الاقتصادية، ويشير أيضاً إلى القبائل العربية التي نزلت في هذه المدن، وفيه أخبار عن العادات والتقاليد والأجناس واللغات التي كانت سائدة في ما وراء النهر.

٩- الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله ت ٥٦٠هـ/١١٦٥م، يعد كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" الذي ألفه للملك روجر الثاني بناء على طلبه، وفرغ من تأليفه بعد خمسة عشر عاماً، ورسم الإدريسي خريطة كروية شاملة للعالم، معتمداً فيها على خريطة بطليموس بعد تصحيحها، أعظم وثيقة علمية جغرافية لما يحتويه من وصف للمدن والمسافات، ويضم سبعين خريطة، ويجعل بلاد الشرق وما وراء النهر حتى حدود الصين في الإقليم الأول، واهتم بذكر زراعات المدن وخصوبة تربها، ووصف التحصينات ومناير كل مدينة على حدة، وقد استفاد البحث من كتاب نزهة المشتاق في ستة وعشرين موضعاً فقط في الفصل الجغرافي.

١٠- الحموي: ياقوت بن عبد الله ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، مؤرخ ثقة، من أئمة الجغرافيين، ومن العلماء باللغة والأدب وكان أديباً شاعراً، مؤرخاً، إخبارياً، متفنناً. أصله من الروم، ومن كتبه "معجم البلدان"؛ أوسع معجم جغرافي لبلاد الإسلام، يتناول الحديث عن الجغرافية التاريخية والسياسية والاقتصادية واجتماعية، مع أنه جاء متأخراً عن العصر الأموي من حيث عرضه لتاريخ الأقاليم والمدن منذ العصور القديمة، مع ذلك عرض أهم الأحداث التي وقعت فيه، وكانت له فوائد متعددة؛ فضلاً عما فيه من معلومات جغرافية، فقد كان العرض الجغرافي للمدن والأقاليم في ترتيب أبجدي مائع؛ وكان يشير أيضاً إلى فتوح البلدان، وكيف كان فتحها صلحاً أو عنوة، كذلك تحدث عن ميزات السكان وخصائصهم، والتعريف بوحدات القياس كالفرسخ والبريد، كما أنه اعتمد على الشعر العربي والنثر والأمثال، وقد استشهد الحموي بأكثر من خمسة آلاف بيت شعر، كما تمتعت كتاباته بالنقد والتمحيص، ووصل بها إلى حقب متأخرة.

١١- خليفة بن خياط ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م، وهو محدث ومؤرخ من ثقات أهل البصرة، كان خليفة ثقة لدى معظم أئمة الحديث، ويعد كتابه "التاريخ" من أقدم الحوليات في التاريخ العربي الإسلامي؛ إذ يبدأ من السنة الأولى للهجرة، وينتهي عند سنة ٢٣٠هـ/٨٤٤م، واعتمد طريقة المحدثين بذكر سلسلة الرواة؛ يتحدث عن العصر الأموي، لاسيما حقبة الخليفة عبد الملك بن مروان، وينقل عن رواة عدة، منهم: عوانة بن الحكم، وأبو اليقظان، وابن الكلبي، وأبو عبيدة، والمدائني، والأصمعي، وابن عياش. اتسم كتاب التاريخ بالإيجاز في سرد أخباره، كما أن روايته مختصرة ومرتبطة بحسب السنين، وهو من

المصادر التاريخية المهمة عن الفتوحات العربية الإسلامية زمن الخلفاء الراشدين والأمويين، ولكنه لم يتطرق بشكل مباشر إلى الدهاقين وعلاقتهم بالولاة إلا في نص واحد، وهو علاقة دهاقين بلخ مع الوالي قتيبة بن مسلم، كما أنه لا يبدي اهتماماً كبيراً بالأحداث التي وقعت في بلاد ما وراء النهر ومع أن معلوماته مختصرة إلا أن الكتاب من المصادر المهمة جداً في الفتوح والإدارة.

١٢- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م، وقيل المروزي، نزيل بغداد النحوي اللغوي المؤرخ المحدث، وقد حدث عن إسحاق بن راهويه، ومحمد بن زياد بن عبيد الله الزياتي، وزباد بن يحيى الحساني، وأبي حاتم السجستاني. كان من أوعية العلم، وله من التصانيف الكثير، واعتمد البحث على بعضها فمن كتبه "المعارف" الذي يتميز بطابعه الموسوعي، ويحتوي على معلومات مهمة عن خلافة عبد الملك ونشأته الأولى، كما أنه يذكر بإيجاز أهم الأحداث في عصره، ولا يذكر ابن قتيبة في كتابه هذا المصادر التي أخذ منها معلوماته، فقد استفاد من المصادر المكتوبة، ومن الروايات الشفهية، وأمدَّ البحث ببعض أخبار الأتراك وبعض ممالكهم فيما وراء النهر، وتحدث عن فتوحات الدولة العربية الإسلامية. وكذلك كتابه "عيون الأخبار" من كتب الأدب المهمة، وهو يشبه إلى حدٍّ ما كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، ويورد الكثير من الأخبار حول العصبية القبلية، ويمكن استنتاج كثير من الأحداث من خلال القصائد والأشعار التي يذكرها حول قضية مقتل قتيبة.

١٣- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م، أحد المؤرخين العرب، وهو من بغداد، ويرى بعضهم يرى أنه من أصول فارسية، وقد عمل بالترجمة من الفارسية إلى العربية، تلقى علومه على يد العديد من العلماء، أمثال: عبد الله بن صالح بن مسلم العجلي الكوفي، وعفان بن مسلم، وأبو عبيد القاسم بن سلام البغدادي، وأبو الحسن علي بن محمد المدائني، وغيرهم، وكان مقرباً من الخلفاء كالمأمون، وكان نديماً للمتوكل، صنّف العديد من الكتب، أهمها في هذا البحث "أنساب الأشراف"، وهو كتاب عام للتاريخ العربي الإسلامي تحدث فيه عن الأنساب والتراجم والأدب وأُرخ للجوانب الاجتماعية والاقتصادية أكثر من الجوانب العسكرية والسياسية، وبدأ الحديث عن أنساب القبائل العدنانية، وأشراف بني هاشم، ورتب تراجمه بحسب التسلسل الزمني باستثناء بعض الحالات، وهو

مصدر غني وثمين لتاريخ العصر الأموي ومن أفضل المصادر، وقد اهتم بالسند وهو من القلائل الذين عالجوا تاريخ الأمويين بصورة موضوعية كما خصص جزءاً كبيراً من كتابه لخلافة الوليد. أما كتابه الثاني، فهو "فتوح البلدان"، ويظهر أنه مختصر عن كتاب أطول منه، سماه «كتاب البلدان الكبير» ولم يكمله، ويتحدث هذا الكتاب عن أخبار الفتوح العربية الإسلامية للبلدان من أيام النبي صلى الله عليه وسلم. كما يضم إضافة إلى الفتوح أبحاثاً عمرانية وسياسية، أخباره كانت أخباره مرتبة بحسب الأقاليم إلا أنها موجزة لا استطراد فيها، ولقد أمدَّ هذا الكتاب الدراسة بمعلومات جيدة عن أسماء المدن وتواريخ فتحها وحكامها، وتمت الاستفادة من هذا المصدر؛ لأنه قدم مادة غزيرة عن مفاوضات الصلح التي تمت مع قادة العرب المسلمين، فهو يتناول مفاوضات صلح كل مدينة على حدة بعد فتحها، وكذلك حديثه عن مقتل الوالي قتيبة بن مسلم الباهلي .

١٤ - الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داؤود ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م، من كتبه "الأخبار الطوال" "المعارف" يتناول فيهما الأحداث التاريخية منذ بداية التاريخ ويبالغ في رواياته كثيراً، لاسيما في حديثه عن مثالب قبيلة قتيبة بن مسلم الباهلي، وربما كان دافعه أنه فارسي، وكذلك حديثه عن فتح بخارى، وقضية خاتون، ووصايتها على الحكم، وفتح الطالقان وبخارى، ويورد أيضاً بعض أخبار ممالك ما وراء النهر، ويورد أحياناً روايات أسطورية، ورواياته مع غموضها لا تخلو من الأصالة، والجدير بالذكر أن الدينوري مثل بكتابه الأخبار الطوال مرحلة انتقالية من الخبر إلى مجموعة من الأخبار الأطوال، ويعد الأقدم في المصادر التاريخية التي تتحدث عن عهوده الأولى المبكرة.

١٥ - الطبري: أبو جعفر بن جرير ت ٣١٠هـ/٩٢٢م، وهو من ثقات المؤرخين والمفسرين عراقي الهوى والدار، وقد أكد أنه بنو محمد صلى الله عليه وسلم انتهى عصر الرسل وبدأ عصر الملوك، وكتابه في التاريخ يحوي أخبار الجناح الشرقي من العالم الإسلامي، وليس للجناح الغربي فيه حظ يذكر، وقلب الشرق عند الطبري هو العراق دار الخلافة العباسية، عُرف عنه الأمانة والنزاهة والترفع عن عشرة ذوي السلطان. قال ابن الأثير: "أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ، وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق، وكان مجتهداً في أحكام الدين لا يقلد أحداً؛ بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه، اهتم الطبري بالأسانيد وأوردها بعناية، واعتمد في كتابه "تاريخ الرسل والملوك" في معظم رواياته

على المدائني الذي بدوره أخذ عن شهود عيان، أمثال: محمد بن المثنى الأزدي وإياس بن زهير بن حيان التميمي، وكلاهما من القادة العرب، وفي بعضها الآخر يعود إلى مصعب بن حيان النبطي، عن أخيه مقاتل بن حيان النبطي الذي كان رئيساً للموالي زمن قتيبة بن مسلم، وفي بعض الأحيان يجمع العديد من الروايات ويؤلفها، ومثال ذلك ما ذكره عن قصة غدر نيزك وموقف الوالي قتيبة بن مسلم منه، ويعد الطبري من أكثر المؤرخين الذين اهتموا بإقليم ما وراء النهر، إلا أن هذا الاهتمام كان في معظمه سياسياً وعسكرياً أما المجالات الاجتماعية والاقتصادية فلم يرد في هذا المصدر شيء عنها إلا بعض المعلومات القليلة المبعثرة، وهو يعد المصدر الرئيس في موضوع الدراسة، فقد جاءت أخباره شاملة ودقيقة في أخبار فتوح ما وراء النهر، كما يعد من أهم المصادر التاريخية من حيث التسلسل التاريخي للأحداث، وأغزرها مادة، ولا سيما في الخطب والمراسلات التي كانت بين الخلفاء وولايتهم، وما أورده الطبري من المعلومات كان المصدر الرئيس لمن تلاه من المؤرخين، ولا سيما ابن الأثير ومسكويه وابن كثير وابن خلدون الذين اكتفوا في الغالب بتلخيص ما جاء في الطبري؛ مضيفين إليه بعض الأخبار مع حذف الروايات المتكررة، ويتميز الطبري بأنه حفظ كثيراً من روايات المؤرخين الأولين مع روايتها ومصادرها، كما اهتم بضبط زمن الحوادث بحسب الترتيب الحولي، واهتم بالإسناد، ويورد للحادثة الواحدة أكثر من رواية، وينتهي كتابه سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م، وأهم صفة في تاريخ الطبري أنه لا يبدي رأيه؛ وإنما يذكر الحادثة بسندها كما هي وكأن لسان حاله يقول: أنا لست مسؤولاً عن زيادة أو نقصان؛ وإنما مهمتي نقل الخبر فقط لا غير. وقد غطى تاريخ الطبري الحقبة المدروسة كاملة، ففي فتوحات قتيبة تم الاعتماد عليه في تسعة وستين موضعاً، وكانت معلوماته كافية وشاملة مع تداخل بعض الروايات في الحادثة الواحدة، وتمت الاستفادة منه في جميع فصول الدراسة.

١٦- ابن الأعمش: أحمد الكوفي ت ٣١٤هـ/٩٢٦م، مؤرخ من أهل الكوفة، ويسمى كتابه "الفتوح"، ويعد من الكتب التاريخية المهمة التي أرخت للقرنين الأول والثاني الهجريين، وينتهي بالتحديد أيام الرشيد العباسي، وهو من أقدم الكتب التي تناولت التاريخ العربي الإسلامي، وتمت الاستفادة منه في دراسة أخبار الفتوحات في منطقة ما وراء النهر ومعاهدات الصلح، ولا سيما الجزء الثالث منه، ويحتوي على معلومات مهمة عن استقرار العرب في ما وراء النهر، وأوضاعهم والمنازعات القبلية هناك،

وتكشف رواياته أيضاً شعوراً عدائياً تجاه الحجاج بن يوسف الثقفي، فكان من المصادر التاريخية الرئيسة للدراسة، وتم الاعتماد عليه في فتوحات قتبية في أربعة وعشرين موضعاً، وأغلبها يعيل إلى أن قتبية اتبع الخدعة والمكيدة.

١٧ - المقدسي: المطهر بن طاهر البلخي ت ٣٢٢هـ/٩٣٤م، مؤرخ، نسبته إلى بيت المقدس، ينسب إليه كتاب "البدء والتاريخ"، وقيل في كشف الظنون لحاجي خليفة: إنه للبلخي أحمد بن سهل، وهو أمر غير صحيح. وتأتي أهمية الكتاب من أنه شامل للأحداث من بدء الخليقة وحتى نهاية عصر الخليفة العباسي المطيع ٣٦٤هـ/٩٧٤م، و يقدم صورة واضحة عن الأنبياء والملوك وقصص بعضها أسطوري، ويتحدث عن الديانة الزرادشتية و المزدكية مركزاً على طبيعة معتنقي هذه الديانة، كما تمت الإفادة منه في الحديث عن القبائل التركية، والفتوحات في ما وراء النهر، ولاسيما مقتل قتبية، ولكن معلوماته مختصرة وموجزة، ويعتمد على الأسانيد في نقل الخبر.

١٨ - المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م، عالم مشهور من القرن الرابع الهجري من ذرية عبد الله بن مسعود. مؤرخ، رحالة، بحّاث، من أهل بغداد أقام بمصر وتوفي فيها، وكان معتزلياً، وهو لا يشير إلى مصادره في كتابيه "مروج الذهب" و"التنبيه والإشراف". ولا يخلو المصدران من فائدة مع قلة المعلومات عن تاريخ ما وراء النهر فيهما، فقدم هذان المصدران معلومات تتعلق بموضوع الدراسة، وتمت الإفادة منها في موضوع التقسيمات الاجتماعية، كما يشير إلى الدهاقنة والهياطلة؛ فضلاً عن اهتمامه بالفكر الديني، وفيه عرض مهم للديانات، ويضاف إلى كتاب مروج الذهب أن له أهمية في الحديث عن العناصر التركية والكردية، وتوزعهم في بلاد ما وراء النهر، وقد جمع فيه التاريخ والجغرافية.

١٩ - النرخسي: أبو بكر محمد بن جعفر ت ٣٤٨هـ/٩٥٩م، كتابه "تاريخ بخارى" يُعدُّ هذا المؤلف من الكتب ذات الأصل العربي الذي انتهى مؤلفه منه سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م، وألّف للأمير نوح بن نصر الساماني، ثم قام أحمد بن نصر القباوي، وهو من قبا من فرغانة بترجمته إلى الفارسية بعد أن حذف منه ما رآه فضولاً، وأضاف إليه بعض الإضافات، وذلك سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م، وهذا العنوان "تاريخ بخارى" المترجم عن الفارسية من أهم المؤلفات التي تناولت تاريخ مدينة بخارى، والحديث عن

فتوحات العرب المسلمين لبخارى، ويقدم وصفاً جغرافياً وسياسياً وتاريخياً واقتصادياً لبخارى، تمت الاستفادة منه في الدراسة في أكثر من ستين موضعاً منها.

٢٠- مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب ت ٤٢١هـ / ١٠٢٨م، مؤرخ، أصله من الري، وسكن أصفهان، وتوفي فيها، اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة، ثم أولع بالتاريخ والأدب والإنشاء، وكان قيماً على خزانة كتب ابن العميد، ثم كتب عَضُد الدولة بن بويه، فلقَّب بالخازن، ثم اختص ببهاء الدولة البويهى وعظم شأنه عنده. وقال أبو حيان في جملة وصفه: (لطيف الألفاظ، سهل المأخذ، مشهور المعاني شديد التوقي، ضعيف الترقى، يتناول جهده ثم يقصر، وله مأخذ وغرائب من الكذب، ولربما ما زالت الزرادشتية فيه. وكتابه "تجارب الأمم وتعاقب الهمم" الذي أخذه من تاريخ الطبري بصورة فيها اختصار بعض الشيء، ويمكن القول: إنه صورة مصغرة عن تاريخ الطبري، وهو على شكل حوليات انتهى به إلى السنة التي مات فيها عَضُد الدَّوْلَة ٣٧٢هـ/٩٨٢م، وأهم ما فيه هو أنه كان شاهد عيان على سياسة دولة بني بويه، اعتمد عليه البحث في أربعين موضعاً في الفتوحات وأوضاع بلاد ما وراء النهر، ولا سيما الأوضاع الدينية.

٢١- البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي ت ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م، فيلسوف، رياضي، مؤرخ. وله تصانيف كثيرة، منها: كتابه "الآثار الباقية عن القرون الخالية"، يذكر معلومات مهمة عن بعض العادات الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في بلاد ما وراء النهر كالأعياد المعروفة عندهم، والحديث عن الدهاقنة في الفصل الثاني قبيل الفتح العربي الإسلامي للمنطقة.

٢٢- ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م، علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف، ومنها: كتاب "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"، وهو كتاب في التاريخ العام يبدؤه منذ بدء الخليقة حتى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م، وقد رتبّه صاحبه على السنين، ويعد من المصادر التي تم الاعتماد عليها في الحديث عن فتوحات ما وراء النهر، وأهم الأحداث التي حصلت في أثناء مجريات الفتوح، وتوجد إشارات إلى القبائل التي شاركت في فتوح ما وراء النهر واستيطانها، ويقدم مادة مهمة عن أوضاع المنطقة قبل

الفتح، ولا سيما الدينية منها، وتمت العودة إليه فقط في حوادث الفتوحات في عشرين موضع، واحتوى على ثلاثة آلاف وثلاثمائة ترجمة، ويكون بذلك قد جمع بين التاريخ والتراجم.

٢٣- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م، المؤرخ الإمام، من العلماء بالنسب والأدب، سكن الموصل، تأتى أهمية كتابه "الكامل في التاريخ" كونه من كتب التاريخ العام، وهو مرتب على السنين الذي افتتحه مؤلفه بذكر بدء الخلق حتى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م، وتمت الإفادة منه في مختلف فصول الرسالة في ثمانين موقعاً منها، فتناول فتوحات الدولة الأموية في بلاد ما وراء النهر، وفي الحديث عن ديانات بلاد ما وراء النهر في بحث الأوضاع الاجتماعية لبلاد ما وراء النهر قبيل الفتح، وجاءت رواياته مطابقة لروايات الطبري في معظمها، ويعد كتاب الكامل مكملًا لكتاب الطبري؛ بل هو على وجه العموم نسخة ثانية منه، وكذلك كتابه "اللباب في تهذيب الأنساب" وهو عبارة عن كتاب الأنساب للسمعاني، وقام ابن الأثير باختصاره وتهذيبه، ويشمل على الأنساب والبطون والقبائل والأماكن. وتمت الإفادة منه في الفصل الأول في جغرافية بلاد ما وراء النهر.

٢٤- ابن العديم: عمر بن أحمد بن أبي جرادة ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م، يُعدُّ كتابه "بغية الطلب في تاريخ حلب" من أهم المصادر التاريخية، وفيه اقتبس من كتاب تاريخ دمشق لابن عساكر، وتناول أخباراً كثيرة عن الفتوح التي تمت على يد العرب المسلمين، ثم بدأ بالترجمة للأعلام مرتبة على حروف المعجم، ولم يقتصر على أعلام حقب تاريخ الإسلام؛ بل تناول أعلام ما قبل الإسلام، وقد اختلف عن ابن عساكر الذي كان محدثاً، أما ابن العديم فقد كان سياسياً، وكذلك ذكر ابن العديم المدن وما انطوت عليها من تطورات في النواحي الإدارية والعسكرية، وكيفية فتحها وتحصينها.

٢٥- ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م، حافظ مؤرخ فقيه، يُعدُّ كتابه "البداية والنهاية" من أدق كتب التاريخ الإسلامي من حيث الترتيب والتنسيق، وهو كتاب في التاريخ العام، مرتب على السنين، أوجز فيه عرض بعض الأحداث التاريخية، وبدأه بذكر خلق السموات والأرض والملائكة إلى أن انتهى في آخر كتابه في الحديث عن يوم القيامة والعرض والحشر والنشر لكنه تميز بالموضوعية، كان بحق المرأة

الصادقة والمصدر الأصيل لأهل التاريخ، وتمت الاستعانة بكتاب البداية والنهاية في أكثر من خمسين موضعاً في الرسالة، ولا سيما فتوحات قتيبة والحديث عن السكان والأمراء.

٢٦- أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م، مؤرخ جغرافي، قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين، واطَّلَعَ على كتب كثيرة في الفلسفة والطب، وعلم الهيئة (الأجرام السماوية قريب من علم الفلك)، ونظم الشعر، وأجاد الموشحات، ومن كتبه "المختصر في أخبار البشر"، ويعرف بتاريخ أبي الفداء، وهو من كتب التاريخ العام الذي بدأه صاحبه منذ بدء الخليقة حتى تاريخ وفاته، وقد أفاد البحث في الفصل الثاني في الحديث عن الأديان في بلاد ما وراء النهر.

٢٧- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٦م، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي، أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس، اشتهر بكتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، ويعد من الكتب الضخمة ذات الطبع الموسوعي، يتناول فيه جميع ميادين العلم والمعرفة من الشريعة والتاريخ والجغرافية والاقتصاد وال عمران والاجتماع والسياسة والطب، وتناول فيه أحوال البشر وطبائعهم، وتطور الأمم والشعوب، ونشوء الدولة وأسباب انهيارها مركزاً في تفسير ذلك على مفهوم العصبية واضحاً بنظريته هذه أساس علم الاجتماع، يتألف الكتاب من ثمانية أجزاء، الجزء الأول منه يتضمن: مقدمة ابن خلدون المشهورة التي تضمنت نظريته في التاريخ على أنه فرع من الفلسفة، وأنه لا بد من تحليل الحوادث التاريخية بدراسة طبائع البشر والعمران وأنظمة الحكم والسلطان واستقصاء عللها وأسبابها لفهم التاريخ واستخلاص منه العبر، وتناول في بقية الأجزاء الستة أخبار العرب وأجيالهم ودولهم ومن عاصرهم من الدول المشاهير منذ بدء الخليقة إلى عصره، ثم أخبار البربر وأجيالهم وما كان بديار المغرب خاصة والمشرق عامة من الملك والدول، والجزء الثامن فهارس عامة. وقد أفاد كتاب ابن خلدون الدراسة في اثنين وأربعين موضعاً منها في الحديث عن الديانات التي كانت في بلاد ما وراء النهر، والكيانات السياسية التي كانت فيها، وكذلك ألقاب ملوكهم، وقدم مادة جيدة في الفتوحات

العربية الإسلامية للمنطقة المدروسة في العصرين الراشدي والأموي، وكذلك الحديث عن المهالبة ودورهم آنذاك.

٢٨- ابن العماد: الإمام شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي الدمشقي ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م، كتابه "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، أُرِخ فيه لحقبة زمنية طويلة تمتد لعشرة قرون، اعتمد الترتيب الزمني في سرد الأحداث، وقد أفاد البحث في تقديم معلومات عن الفتوحات العربية الإسلامية، وما ارتبط بها من أحداث.

ثانياً: مصادر الأنساب:

١- ابن الكلبي: هشام أبو المنذر بن محمد بن السائب ت ٢٠٤هـ/٨١٩م، وقد أفاد البحث بكتابه كتاب "أنساب الخيل"، وكتاب "جمهرة النسب" الذي نظمه تبعاً للقبائل العربية ذاكراً علاقاتها النسبية، وأبرز رجالها، ودورهم في السياسة والإدارة، كما أشار إلى مواضع سكن هذه القبائل. علاقاتها النسبية، وأبرز رجالها، ودورهم في السياسة والإدارة، كما أشار إلى مواضع سكن هذه القبائل.

٢- ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي ت ٣٢١هـ/٩٣٣م، وهو أشهر العلماء وأعلم الشعراء، وكتابه "الاشتقاق" وهو كتاب مهم في علم الأنساب، وتمت الاستفادة منه بالتعريف إلى أسرة قتيبة بن مسلم والحديث عن مقتله أيضاً.

٣- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م، ويُعدُّ من أكثر علماء الإسلام تصنيفاً وتأليفاً، وهو عالم ونسابة وأديب متكلم، عالم بعلوم الحديث، فيلسوف عصره ووزير سياسي لبني أمية، ويُعدُّ كتابه "جمهرة أنساب العرب" من الكتب المهمة في علم الأنساب عند العرب، وقد أفاد البحث في أكثر من موضع، وهذا الكتاب من أدق كتب الأنساب؛ لأن ابن حزم استفاد من جميع كتب الأنساب التي كانت تسبق كتابه، واستخلص مادته منها، وفيه بعض الإشارات إلى الأحداث التاريخية.

٤- السمعاني: عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م، مؤرِّخ رَحَّالة من حَفَّاظ الحديث. مولده ووفاته بمرو، يُعدُّ كتابه "الأنساب" من الكتب الجامعة للقبائل والبطون والمذاهب وأسماء الأماكن والبلدان، أفاد الدراسة في معرفة كثير من الشخصيات، وتحدَّث بشكل واسع النطاق من حيث الزمان والمكان؛ لأنه اتصف بكثرة الترحال.

٥- ابن الأثير: علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م، كتابه "اللباب في تهذيب الأنساب" سبق الحديث عنه.

٦- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري ٩١١هـ/١٥٠٥م، إمام حافظ مؤرخ أديب، وكتابته "لبُّ اللباب في تحرير الأنساب" مختصر كتاب الأنساب لابن الأثير، وعمل السيوطي على تنقيحها، واستدرك النقص الذي فيه، وقام بترتيبه بحسب الحروف، وأفاد البحث بتعريفات كثيرة، ولا سيما في الفصل الأول.

ثالثاً: المصادر الأدبية:

١- أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ت ٢٠٩هـ/٨٢٤م، من أئمة العلم بالأدب واللغة، مولده ووفاته في البصرة، قال الجاحظ: لم يكن في الأرض أعلم بجميع العلوم منه، وكان إباحياً، شعوبياً. قال ابن قتيبة: كان يبغض العرب، وصنف في مثالبهم كتباً، ولما مات لم يحضر جنازته أحد، لشدة نقده معاصريه. وكتابته "نقائض جرير والفرزدق" أرخ لصراع القبائل فيما بينها، فيعدُّ من أهم الكتب التي تعالج التعصب القبلي بين القيسية واليمانية، تم الاعتماد عليه في الفصل الثالث من هذه الدراسة، كما يتحدث أبو عبيدة بتفاصيل لا يوردها غيره عن خبر مقتل قتيبة بن مسلم الباهلي وكثير من الأشعار، وتم استخدام المجلد الأول من مجلداته الثلاثة.

٢- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء الليثي ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م، كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته في البصرة فُلج في آخر عمره، وكان مشوّة الخلقة، مات والكتاب على صدره، قتلت مجلدات من الكتب وقعت عليه. له تصانيف كثيرة تمت الاستفادة منها، وهي: "البيان والتبيين" وهو يلي كتاب الحيوان من حيث الحجم، وهو كتاب أدبي يتطرق إلى موضوعات عدة، ومنها الديانات التي استفاد البحث منها، وخطبة زياد المسماة بالبتراء، وقد أراد الجاحظ من وراء هذا الكتاب أن يكون البيان هو الأخبار والنصوص والخطب وكلام الأعراب، وأراد من التبيين هو النقد الأدبي والتبيين. وكتابته "الحيوان" وتحدث فيه عن العرب وأحوالهم وعاداتهم وعلومهم، وبعض مسائل الفقه والدين، وهو أول كتاب جامع وضع في علم الحيوان، وكانت الإفادة منه في الحديث عن الأوضاع الاقتصادية في بلاد ما وراء النهر قبل الفتح العربي الإسلامي للمنطقة، ومراسلات يزدجرد

وملك الصين. وكتابه "رسائل الجاحظ" وهي مجموعة من الرسائل النادرة، وكل رسالة تبحث في موضوع محدد بدراسة معمقة، وقد أفادَ البحثُ بدراسةً جيدةً عن الأتراك وقبائلهم وعاداتهم، ومن كتبه أيضاً "التاج"، وكتاب "المحاسن والأضداد".

٣- ابن عبد ربه: أحمد بن محمد الأندلسي ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م، الأديب الإمام، شاعر الغزل والزهد من أهل قرطبة، ومن كتبه "العقد الفريد"؛ أشهر كتب الأدب، يجمع بين النثر والشعر، وفيه لمحات تاريخية وشيء من البلاغة والنقد والعروض والموسيقا، ويتضمن شيئاً من الأخبار عن إقليم ما وراء النهر في العصر الأموي، وكان موضوعياً إلى حد كبير، ولم يتخذ موقف الدفاع عنهم، ويمكن استخلاص الأخبار المتعلقة بإقليم ما وراء النهر من خلال الخطب والمراسلات الواردة في هذا الكتاب، كما يذكر علاقة العرب والموالي.

٤- النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم ت ٧٣٣هـ/١٣٣٣م، عالم غزير الاطلاع، من أشهر كتبه "نهاية الأرب في فنون الأدب"؛ كتاب كبير جداً، وهو أشبه بدائرة معارف، جُمعت فيه خلاصة التراث العربي من الأدب والتاريخ، وقد أفادَ البحثُ في الحديث عن الفتوحات وماهيتها، وبعض عمليات الفتوح.

٥- القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري ت ٨٢١هـ/١٤١٨م، المؤرخ الأديب، وهو من بيت علم، وفي أبنائه وأجداده علماء أجلاء، أفضل تصانيفه "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"؛ فيه فنون كثيرة من التاريخ والأدب ووصف البلدان والممالك والملابس والعادات والتقاليد وغيرها من الموضوعات، وتمت الإفادة منه في الحديث عن الأوضاع الاجتماعية والسكانية والأوضاع الاقتصادية، وممالك ما وراء النهر وملوكها.

وهناك كتب أدبية أخرى، منها: كتاب "لطائف المعارف" للثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م. والمبرد: محمد بن يزيد ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م، "الكامل في اللغة والأدب". والأفطسي: أمين الدولة محمد بن محمد بن هبة الله العلوي الحسيني أبو جعفر ٥١٥هـ/١١٢١م، "المجموع اللفيف".

رابعاً: كتب التراجم والطبقات:

تم الاعتماد على كثير من كتب التراجم والطبقات، وتمت الإفادة منها في الترجمة لجميع الشخصيات التي وردت في هذا الدراسة، من أهم هذه الكتب:

١- ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع الزهري ت ٢٣٠ هـ/ ٨٤٥ م، مؤرخ ثقة، من حفاظ الحديث، ولد في البصرة، وسكن في بغداد، وتوفي فيها وصحب الواقدي، فكتب له، وروى عنه، وعرف بكتاب الواقدي، قال الخطيب البغدادي: إن ابن سعد من أهل العدالة، وحديثه يدل على صدقه، و كتابه "الطبقات الصحابة" الذي يعرف "بطبقات ابن سعد" هو أقدم كتب التراجم، وقد استقى ابن سعد معلوماته من مصادر أقدم كان يذكرها في الغالب كقتادة، وثابت البناني، وقد أفاد البحث بالتعريف ببعض الشخصيات.

٢- الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٨ م، حافظ، مؤرخ، علامة محقق تركماني الأصل، من أهل ميفارقين، مولده ووفاته في دمشق. ومن كتبه: "تاريخ الإسلام"، تناول فيه تاريخ الإسلام من بدء الهجرة حتى سنة ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م، ويتميز كتابه بالكمية الهائلة التي يحتوي عليها من التراجم؛ فضلاً عن أنه يتميز بذكر الأحداث الحولية، ولا يقتصر في تراجمه على المشاهير والأعلام؛ وإنما تضم رجالاً غير مشاهير؛ بل إن بعضاً منهم يُعدُّون من الجاهيل، وترجم فيه للشخصيات الدينية والسياسية المهمة، ويوضح أحياناً بعض الروايات المبهمة اعتماداً على مصادر لم تعتمد المصادر المبكرة، أو على كتب غير متوفرة، أما عن المؤلفات الأخرى للذهبي هي "العبر في خبر من غبر"، و"سير أعلام النبلاء" وغيرها من المصنفات القيمة التي اعتمد المؤلف فيها منهج الترتيب بحسب السنوات، وجمع فيه الحوادث والوفيات، فقد أمدت هذه المصادر بمعلومات قيمة عن أغلب الشخصيات الواردة في الدراسة.

خامساً: المراجع والدراسات الحديثة:

اعتمدت في إعداد هذه الدراسة على عدد من المراجع العربية والمعرّبة التي تنوعت ما بين مراجع عربية وكتب وبحوث ودوريات، فقد تعددت الدراسات التي تناولت تاريخ بلاد ما وراء النهر، ومن أهمها: كتاب "بلدان الخلافة الشرقية" لمؤلفه كي لسترنج، وترجع أهمية هذا المرجع إلى أنه استقى معلوماته من المصادر

الجغرافية الأصلية، وقد أفاد الدراسة في معرفة إقليم ما وراء النهر وأحواله الجغرافية ذات الأهمية الاستراتيجية، وكذلك قدم وصفاً للغلات الزراعية والتجارية وأهم الصناعات، وتم الاعتماد على كتابات المستشرق الروسي بارتولد، ومنها: "تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي"، و"تاريخ الترك في آسيا الوسطى" التي كان لها أهمية خاصة في فهم النظم السياسية والإدارية والاجتماعية للإمارات التركية في منطقة ما وراء النهر، والتي لها علاقة مباشرة بتاريخ العرب المسلمين وفتوحاتهم لتلك المنطقة، والمعلومات التي أفادت منها الدراسة من كتابات بارتولد كثيرة ومفيدة للغاية؛ لأن الدراسات العربية تخلو تقريباً من أي دراسة علمية للتاريخ التركي القديم. وتم الاعتماد على كتاب محمود محمد الخلف "الفتح الإسلامي لبلاد ما وراء النهر"، وقد أفاد البحث بكثير من مراحل الرسالة، ولا سيما أوضاع بلاد ما وراء النهر قبيل الفتح العربي الإسلامي، وكتاب "أرباع خراسان" لقحطان الحديشي، ويعد هذا الكتاب موسوعة لمدن خراسان وما وراء النهر وقراه مع التفصيل الممل، وقدم محمود شيث خطاباً كتباً لها قيمة كبيرة وهي "قادة فتح بلاد فارس"، و"قادة الفتح الإسلامي في ما وراء النهر" التي تمّ الاعتماد عليها في الحديث عن فتوحات خراسان وما وراء النهر والدور الذي قام به الولاة في عمليات الفتح مع تحليلات عسكرية واستراتيجية، وقدم صالح عماش في كتابه "قتيبة بن مسلم الباهلي وحركات جيش المشرق الشمالي في ما وراء النهر" وصفاً رائعاً لحركة الفتوح التي قام بها قتيبة بن مسلم الباهلي والصعوبات والاستراتيجيات المتبعة من قبل قتيبة، وكذلك فامبري في كتابه: "تاريخ بخارى" ويظهر فامبري المجري بكتابه هذا كل التعصب والشعوبية ضد العرب والمسلمين، وكذلك كتاب هاملتون جب: "فتوحات العرب في آسيا الوسطى" الذي قدم وصفاً جيداً بالمشاركة مع الروايات الصينية والتركية، وكذلك أطروحة ناهد حسين "خراسان في العصر الأموي" التي أغنت البحث بالحديث عن الأوضاع والفتوحات في ما وراء النهر، وأطروحة "أوضاع خراسان" لمحمود عيزوقي.

وهناك العديد من المصادر والمراجع، سيتم الإشارة إليها في أثناء الحديث عن بعض مجريات الأحداث التاريخية. وفي نهاية البحث قائمة بأسماء المصادر والمراجع التي استخدمت في الدراسة، ولم يوفر هذا العمل الجهد البسيط في الاستفادة من المصادر والمراجع المتاحة من أي معلومة من شأنها أن تفيد غرض البحث وموضوعه.

الفصل الأول

جغرافية بلاد ما وراء النهر

أولاً- تمهيد.
ثانياً- إقليم المشرق الإسلامي .
ثالثاً- مفهوم بلاد ما وراء النهر.
رابعاً- الأقاليم الجغرافية لبلاد ما وراء النهر:
١- إقليم الصغد.
٢- إقليم خوارزم.
٣- إقليم طخارستان.
٤- إقليم فرغانة.
٥- إقليم أشروسنة.
٦- إقليم الشاش.

أولاً- تمهيد:

التاريخ والجغرافية علمان متممان بعضهما بعضاً، فلا يمكن استغناء كل منهما عن الآخر، لأنهما كالجسد والروح، فالجغرافية كجسد أصم، ولكن ما أكثر ما كان التاريخ لسانه ومحركه، فالتاريخ متمم للجغرافية ومحرك لها.

والجغرافية: هي علمٌ يدرس الأرض، والظواهر الطبيعية، والبشرية التي تطرأ على المجال وتتفرع إلى عدة أقسام، منها: جغرافية بشرية، وجغرافية طبيعية، وجغرافية اقتصادية، وقد تطور الأمر ليصبح هناك جغرافية دينية واجتماعية.

أما التاريخ: فهو دراسة علاقة الإنسان بالمجال في الزمن الماضي، ودراسته للماضي البشري هو ما يميزه عن بقية العلوم.

وبذلك يجتمع كل من الجغرافية والتاريخ في دراسة المجال والإنسان؛ أي علاقة الإنسان بالمجال، وتميل الجغرافية إلى المجال عن طريق الوصف، ويميل التاريخ إلى الإنسان عبر تتبع دقائق تفاصيل حياته.

إن ارتباط الجغرافية بالتاريخ ارتباط وثيق مبني على علاقة وطيدة لا تنفصل، ويعد الذي يفصل بين التاريخ والجغرافية كالذي فصل بين الأم ورضيعها، ومن الأقوال المأثورة: إن التاريخ هو علم الزمان، أما الجغرافية، فهي علم المكان الذي له أثره في توجيه أحداث الزمان، فكيف يُدرَس الزمان بعيداً عن المكان، ومما تقدم لا بُدَّ من تقديم دراسة جغرافية لمنطقة بلاد ما وراء النهر، والبداية من التعريف بالإقليم ككل، ثم التنقل بين جبال ما وراء النهر وهضابها ومدنها.

ثانياً- إقليم المشرق الإسلامي:

قسم البلدانون العرب أرض المعمورة إلى أقاليم جغرافية عدة^(١)، وذكروا أن المشرق يمثل ربع المملكة، وهذه المملكة تمثل الربع الأول من الإقليم الرابع^(٢)، وكانت مقسمة في العصر الساساني إلى أربعة أقسام إدارية يحكم كل منها مرزبان^(٣)، ومجموعة هذه المرازبة تحت سلطة أصهبهذه^(٤)، وهي على الشكل الآتي: ربع مرزبان مرو الشاهجان وأعمالها، وربع مرزبان بلخ وطخارستان، وربع مرزبان هراة وبوشنج وباذغيس وسجستان، وربع مرزبان ما وراء النهر^(٥).

ويوافق ابن خرداذبة البلاذري في هذا التقسيم وابن الفقيه وابن رسته حيث يقسمها أيضاً إلى أربعة أرباع، وهي:

١- الربع الأول: إيرانشهر: وهي نيسابور، وقهستان، وهراة، وبوشنج، وباذغيس، وطوس.

٢- الربع الثاني: مرو الشاهجان، وسرخس، ونسا وبأورد، ومروالروذ، والطارقان، وخوارزم.

(١) ابن بابيه: أحمد بن علي القاشاني بن الحائك الهمداني ت ٥١٠هـ/١١١٦م، رأس مال النديم في تواريخ أعيان أهل الاسلام، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص ١٧٣، المنجم: إسحاق بن الحسين ت ٤٤٠هـ/العاشر م، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٨، واعتمد العرب في الجغرافيا الفلكية على كتابي بطليموس المجسطي والجغرافيا، وقد أدخل العرب كثيراً من التعديلات عند ترجمتهم هذين الكتابين، فبلغ عدد الأقاليم عند البلدانين العرب سبعة أقاليم مخالفين بذلك بطليموس الذي جعلها إحدى وعشرين في كتابه "الجغرافيا". وعلى ضوء ذلك فإن جغرافية العرب ليست ترجمة حرفية لكتاب الجغرافيا لبطليموس كما ادعى بعض الكتاب الغربيين، انظر: محمد بن محمد محمود، الفراء: طه عثمان، المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة، دار المريخ، ط ٤، مصر، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص ٤٥.

(٢) اليعقوبي: أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م، البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص ٧١، ابن رسته: أحمد بن عمر، الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٩هـ/١٨٩١م، ص ٢٩١-٢٩٣.

(٣) مرزبان: حارس الحدود، حاكم الحدود ويسمى أيضاً مرزوان. ابن رسته: الأعلاق، ص ٦٤١.

(٤) الأصهبذ: هو الرئيس أو قائد الجيش. إصبه تعني الجيش، وبذ حافظ، وتفسيرها حافظ الجيش، شير: السيد أدي، الألفاظ الفارسية المعربة، دار العرب، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٨م، ص ١٠٧.

(٥) ابن خرداذبة: عبيد الله بن عبد الله ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م، المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م، ص ١٨.

٣- الربع الثالث: غربي النهر وبينه وبين النهر ثمانية فراسخ، وهي الفارياب الجوزجان، وطحارستان، والقوازيان، وخست، وبذخشان، والترمد والصغانيان، وخلم، وسمنجان.

٤- الربع الرابع: ما وراء النهر بخارى، والشاش، والصغد، وكش، ونسف وأشروسنة، وفرغانة، وسمرقند، وأباركت بناكت^(١).

إلا أن هذه الرواية المنسوبة للبلاذري غير موجودة في كتابه فتوح البلدان ولا في كتاب أنساب الأشراف^(٢).

وقسم أبو زيد البلخي (ت ٢٣٣هـ/٩٤٣م)^(٣) المشرق العربي إلى ثلاثة أقسام، بقوله: (وقد جعلته ثلاثة أقاليم: خراسان، وسجستان، وما وراء النهر)، واختلف معه في هذا التقسيم المقدسي (ت ٣١٨هـ/٩٩١م) الذي جعل المشرق الإسلامي إقليماً واحداً ذا جانبين اثنين، يفصل بينهما نهر جيحون، وهما: خراسان وما وراء النهر، وهذا قوله: "وقد جعله أبو زيد ثلاثة أقاليم: خراسان، وسجستان، وما وراء النهر، وأما نحن، فجعلناه واحداً ذا جانبين يفصل بينهما جيحون، ونسبنا كل جانب إلى الذي اختطه وبناءه، ومثلنا كل جانب، ووصفناه على حدة لكبر الإقليم وعمارته"^(٤).

ولم يُرق هذا التقسيم لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) ليس هذا فحسب؛ بل إنه نبه على أن

^(١) الاصطخري: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م، المسالك والممالك، تح: محمد جابر عبد العال الحيني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د.ت، ص ٨، ابن الفقيه: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني ت ٣٦٥هـ/٩٧٥م، البلدان، تح: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص ٦١٥، ابن رسته: الأعلاق، ص ٩٧، المقدسي: أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، مكتبة مدبولي القاهرة، ط ٣، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ٣١٧.

^(٢) ويعلل ذلك أن للبلاذري كتاب فتوح، وقيل إنه لم يكمله، ولم يصل منه شيء.

^(٣) هو أحمد بن سهل من قرى بلخ من رستاق نهر غرينكي قال أبو حيان: إني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر إلا ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم أولهم عمرو بن بحر، والثاني أبو حنيفة بن داود الدينوري، وأما الثالث فهو أبو زيد البلخي (ت ٢٣٣هـ/٩٤٣م)، انظر: ابن العماد: عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط ١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج ١ ص ٢٩.

^(٤) المقدسي: أحسن، ص ٢٦٠.

البلاذري نَجَحَ هذا التقسيم بسبب إدارة والي خراسان لبلاد ما وراء النهر، ثم أوضح رأيه بأن ما وراء النهر مستقلة، وقوله في ذلك: "فالصحيح في تحديد خراسان ما ذهبنا إليه أولاً، وإنما ذكر البلاذري هذا؛ لأن جميع ما ذكره من البلاد كان مضموماً إلى والي خراسان، وكان اسم خراسان يجمعها، فأما ما وراء النهر فهي بلاد الهياطلة^(١) ولاية برأسها، وكذلك سجستان ولاية برأسها ذات نخيل، لا عمل بينها وبين خراسان"^(٢). ويؤيد في هذا الشأن الجغرافي الاصطخري فقد فرق بين ما وراء النهر عن خراسان، وقوله في ذلك: "ولما وراء النهر كور"^(٣) أولها فيما يحاذي جيحون على معبر خراسان كورة بخارى، ويتصل بها سائر الصغد المنسوب إلى سمرقند وأشروسنة والشاش وفرغانة وكش ونسف والصغانيان وأعمالها والختل وما يمتد على نهر جيحون من الترمذ والقوازيان وأخسيسك وخوارزم... وجعلنا خوارزم ممّا وراء النهر؛ لأنّ مدينتها وراء النهر وهي إلى كور ما وراء النهر أقرب"^(٤)، ويسوغ ذلك الاصطخري بأن التقسيم لدلالة جغرافية بحتة، ومن منطلق جغرافي لهذا الإقليم جاعلاً نهر جيحون الأساس في التمييز بين جناحي خراسان الشرقي والغربي، وهذا قوله:

"فقد كان يجوز أن نجمعها كلّها، ولكنّا فرقناها ليكون أيسر في التفصيل وأحفّ، وليس في جمع الأطراف بعضها إلى بعض ولا في تفريقها كبير درك غير الإبانة عمّا في أعراضها من المدن والأخار وموضوعات المدن في صفاتها فلا فرق بين الجمع في ذلك والتفريق إلّا لسهولة العبارة عنها في التفصيل"^(٥). والجدير بالذكر أن البلدانين العرب جعلوا ما وراء النهر ضمن إقليم خراسان وبعضها الآخر فصلها لأسباب إدارية، أو طبيعية أو غيرها، ولكن الطبيعة تتحدث وتفصل بينهما بنهر جيحون ألا وهو الحد

(١) سيتم التعريف به لاحقاً في الفصل الثاني في أثناء الحديث عن أوضاع بلاد ما وراء النهر سياسياً.

(٢) الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج ٢ ص ٣٥١.

(٣) كور: لفظ فارسي وهي المدينة أو الصقع أو القرية، ففي اليونانية معناها البلاد الواسعة وهي مأخوذة من لفظة (قرية) العبرانية، ثم نقلت إلى السريانية بلفظة (كور). الاصطخري: مسالك، ص ٢٥٣، ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج ٥ ص ١٥٦، حسين: عبد النعيم محمد: قاموس الفارسية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٥٥٣.

(٤) الاصطخري: المسالك، ص ٢٩٥.

(٥) الاصطخري: المسالك، ص ٢٩٦.

الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية، وبين التركية لغوياً، وأما جغرافياً فأرض خراسان يغلب عليها الأرض الجبلية، أما بلاد ما وراء النهر فالغالب على أرضها الاستواء، ومع هذا لا يعني انفصلاً إدارياً، فهي تحت نفوذ ولاية خراسان.

ويبدو أن هناك منطلقاً من وجهة نظر سياسية سائدة في الإدارة السامانية^(١) لاعتبارات سياسية وإدارية، فقد جعلوا بخارى (قصة ما وراء النهر) مقراً للأمراء، ونيسابور (قصة خراسان) مقراً للقادة العسكريين.

هكذا يكون البحث أمام منطقتين جغرافيتين، هما: خراسان التي كانت قاعدة لانطلاق الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد ما وراء النهر، وهناك دراسة منذ زمنٍ قريبٍ جداً عن خراسان أعدتها ناهد محمود حسين بإشراف الأستاذة الدكتورة شكران خربوطلي-رحمها الله- لذا سيكون التركيز على بلاد ما وراء النهر.

(١) الدولة السامانية: قامت في بلاد ما وراء النهر البعيد عن مركز الخلافة العباسية للسامانيين، فأتاحت لهم الفرصة وطمحوا من خلالها حكمهم هناك، فأصبحوا شبه مستقلين؛ آخذين على عاتقهم مسؤولية حماية الأراضي الإسلامية؛ فضلاً عن تأمين استمرار التجارة، وتدفق السلع المختلفة إلى مناطقهم، واستطاعوا أن يحققوا لأنفسهم استقراراً سياسياً واقتصادياً جعلهم فيما بعد قادرين على التوجه نحو خراسان ثم السيطرة على خراسان (٢٦١-٢٨٩هـ/٨٧٤-٩٩٩م)، وكان لأمرائها دور بارز في نشر الإسلام. انظر القرمانلي: أحمد بن يوسف ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تح: فهمي سعد وأحمد حطيط، بيروت، عالم الكتب، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج ٢ ص ٤٢٣، سهيل: زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ١٦، ديورانت: ويليام جيمس، قصة الحضارة، تق: محيي الدين صابر، تر: زكي نجيب محمود وآخرون، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج ١٣ ص ١٠٠.

ثالثاً- مفهوم بلاد ما وراء النهر:

كان نهر جيحون القديم الحد الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والتركية؛ أي إيران وتوران^(١)، فما كان في شماله سماها العرب بلاد ما وراء النهر، وكذلك سميت بالهياطلة ويعرفون بالهون الأبيض، فحدود ما وراء النهر كما يذكرها الاصطخري هي من الشرق فامر وراشت. وما يتأخم الختل من أرض الهند خط مستقيم، وغربيه بلاد الغزيرة والخزجية^(٢)، ممتداً حتى ينتهي إلى فاراب وبيكند وصغد سمرقند ونواحي بخارى إلى خوارزم، حتى ينتهي إلى بحيرتها، وشماله الترك الخزجية من أقصى بلد فرغانة إلى الطراز على خط مستقيم، وجنوبيه نهر جيحون من بدخشان إلى بحيرة خوارزم على خط مستقيم؛ وخوارزم والختل في ما وراء النهر؛ لأن الختل بين نهر جرياب ووخشاب، وعمود جيحون جرياب، وما دونه من وراء النهر، وخوارزم مدينتها وراء النهر، وهي إلى مدن ما وراء النهر أقرب منها إلى مدن خراسان^(٣).

ويذكر الحموي في معجمه بلاد ما وراء النهر، فيقول: ويراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقيه يقال له: بلاد الهياطلة، وفي الإسلام سموه ما وراء النهر، وما كان في غربية فهو خراسان وولاية خوارزم، وخوارزم ليست من خراسان؛ إنما هي إقليم برأسه^(٤).

إذاً أطلق الجغرافيون العرب قديماً بلاد ما وراء النهر على المناطق الخصبة السهلة الواقعة بين نهر سيحون (سيرداريا Sirdarya)، وجيحون (أموداريا Amudarya) حالياً اللذين يصبان في بحر خوارزم (آرال حالياً) والشاطئ الأيسر لنهر سيحون يشمل طحارستان والختل.

ويقول المقدسي: "هذا الإقليم هو أجل الأقاليم وأكثرها أجلة وعلماء وهو معدن الخير، ومستقر

(١) توران أو طوران: وهم آريون برايرة، كانوا يعيشون على الساحل أو الجانب الآخر من نهر جيحون، يُطلق عليهم العرب اسم الهياطلة وهم الأفتلاطيون لدى المؤلفين البيزنطيين، ويعرفون أيضاً بالهون الأبيض. لسترنج: كي، بلدان الخلافة الشرقية، تر: بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٤٧٦.

(٢) تم التفصيل عنهما في الحديث عن القبائل التركية في الفصل الثاني.

(٣) الاصطخري: المسالك، ص ١٦١، ابن حوقل: أبو القاسم محمد ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م، صورة الأرض، دار صادر، بيروت، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م، ج ٢ ص ٤٥٩، مؤلف مجهول ت ٣٧٢هـ/٩٨٢م، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تر: السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ١٢٦.

(٤) الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٤٥.

العلم، وركن الإسلام المحكم وحصنه الأعظم، ملكه خير الملوك، وجنده خير الجنود، فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك... ترى به رساتيق جليلة وقرى نفيسة، وأشجاراً ملتفة وأنهاراً جارية، ونعماً ظاهرة ونواحي واسعة وديناً مستقيماً^(١).

ويقول الاصطخري: "ما وراء النهر من أخصب أقاليم الإسلام وأنزهها وأكثرها خيراً، وأهلها يرجعون إلى رغبة في الخير، واستجابة لمن دعاهم إليه، مع قلة غائلة وسلامة ناحية، وسماحة بما ملكت أيديهم، مع شدة شوكة ومنعة وبأس وعدّة وآلة وكراع وسلاح"^(٢).

ويصفها القزويني: "من أنزه النواحي وأخصبها وأكثرها خيراً، وليس بها موضع خال عن العمارة من مدينة، أو قرى، أو مزارع، أو مراعي، وهوؤها أصح الأهوية، ومياهها أعذب المياه وأخفها، والمياه العذبة عمت جميع جبالها وضواحيها، وتربها أطيب الأتربة"^(٣).

هذه المنطقة مع وحدتها الجغرافية إلا أنها قد قامت عليها عدة ممالك مستقلة بعضها عن بعض، وهذه الممالك منها ما يقع على نهر جيحون؛ وهي مملكة طخارستان ومملكة الختل، ومملكة صغانيان، ومنها ما يقع بين نهر سيحون وجيحون؛ وهي مملكة الصغد، ومملكة خوارزم، ومنها ما يقع خلف نهر سيحون؛ وهي مملكة فرغانة، ومملكة أشروسنة، ومملكة الشاش وعلى ذلك التصور الجغرافي الذي قدمه الجغرافيون العرب يمكن تقسيم بلاد ما وراء النهر إلى ستة أقاليم:

- ١- إقليم الصغد: وهو (صغديانا القديمة) عاصمة بخارى وسمرقند.
- ٢- إقليم خوارزم: في غرب الصغد، وهو الإقليم المعروف اليوم بـ(خيوه)، ويشتمل على دلتا نهر جيحون.
- ٣- إقليم طخارستان: في الجنوب الشرقي، ومعه الصغانيان والختل وغيرهما من الكور التي تقع في أعالي جيحون، وإليه أيضاً تعود (بذخشان) إن وقعت في ضفته اليسرى أي الجنوبية فإن المنعطف الكبير للنهر فيما وراء طخارستان يكاد يطوقها.

(١) المقدسي: أحسن، ص ٢٦٠.

(٢) الاصطخري: المسالك، ص ١٦١، الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٤٥.

(٣) القزويني: زكريا بن محمد بن محمود ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ص ٥٥٧.

- ٤- إقليم فرغانة: في أعلى نهر سيحون.
 - ٥- إقليم أشروسنة: في أعلى نهر سيحون.
 - ٦- إقليم الشاش: وهو اليوم (طشقند) مع النواحي التي في الشمال الغربي الممتدة حتى مصب نهر سيحون في بحر آرال (بحيرة خوارزم).
- ومما لا يمكن نكرانه أن جغرافية بلاد ما وراء النهر جغرافية معقدة، وهذا ما سيتبين في أثناء الحديث عن جغرافية المنطقة وتداخلاتها.

رابعاً- الأقاليم الجغرافية لبلاد ما وراء النهر:

١- إقليم الصغد:

(بالضم ثم السكون، وآخره دال مهملة، وقد يقال بالسین مكان الصاد)، وقديماً كانت تسمى صغديانا (Sogdiana)، وهي كورة عجبية قصبته سمرقند، وقيل: هما صغدان: صغد سمرقند، وصغد بخارى، وقيل: جنان الدنيا أربع: غوطة دمشق، وصغد سمرقند، ونهر الأبله، وشعب بوان، وهي قرى متصلة خلال الأشجار والبساتين من سمرقند حتى مكان قريب من بخارى، ولا تظهر القرية حتى تأتيها لكثافة الأشجار بها، وهي من أطيب أرض الله، كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهار متجاوبة الأطيوار^(١).

ويذكر مؤلف كتاب حدود العالم عن إقليم الصغد، ويمضي إلى أنه بلاد في نواحي المشرق لا يوجد مكان أكثر حسناً منها حباها الله أجمل المناظر ذات مياه جارية وأشجار كثيرة وهواء طيب، وأهلها يكرمون الضيف وديارهم عامرة وبها نعمة وفيرة، وبها يكثر الظرفاء ذوو الدين^(٢).

والصغد: اسم للوادي والنهر الذي تشرب هذه النواحي منه، ومبدؤه من جبال البتّم في بلاد الترك، يمتد على ظهر الصغانيان، وله مجمع ماء مثل البحيرة يقال له: (وي) حولها قرى، وتعرف الناحية بـ (برغر) ينصب منها بين جبال، حتى يتصل بأرض بنجيكت، ثم ينتهي إلى مكان بورغسر، وبه رأس السكر، ومنه تتشعب أنهار سمرقند ورساتيق تتصل بها من غربي الوادي من جانب سمرقند^(٣).

إذاً يشمل هذا الإقليم المناطق الخصبة الواقعة بين نهري سيحون وجيحون، وهو عبارة عن قرى متصلة، وتبلغ مساحة الصغد ستة وثلاثين فرسخاً في ستة وأربعين فرسخاً^(٤)، وأجلّ مدن الصغد: بخارى

(١) الاضطخري: المسالك، ص ١٦٥، الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٤٠٩، ابن الشمائل: عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجليل، بيروت ط ١، ١٢٤١هـ/١٩٩١م، ج ٢ ص ٧١٧، الحميري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، دار السراج، ط ٢، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ج ١ ص ٨٣.

(٢) مجهول: حدود، ص ١٢٧.

(٣) ابن شمائل: مراصد، ج ٢ ص ٤٨٢.

(٤) القزويني: آثار، ص ٥٤٤.

وسمرقند، ويمكن القول: إن الأولى كانت العاصمة الدينية، والثانية ذات مركز سياسي^(١). وفي ما يأتي عرض لأهم مدن الصغد:

أ- بُخارى:

(بضم الباء الموحدة وفتح الخاء المعجمة والراء بعد الألف)^(٢)، وقد ذكرت بالألف المقصورة حيناً وبالألف الممدودة حيناً آخر^(٣)، وذكرت بأسماء عديدة مثل نيمجكت وبومسكت، والمدينة الصفرية (شارستان رويين)، ومدينة التجار (شهر بازر گانان)، وأضيف إلى ذلك ورود اسمها بحديث الفاخرة الذي ينسب إلى سلمان الفارسي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل جبريل لما يسمونها بالفاخرة؟ فقال: لأن أهل بخارى تفخر يوم القيامة بكثرة شهدائها^(٤). ويذكرها المقدسي باسم نمودجكت، ووسمها كل من السمعاني وياقوت بمجكت^(٥)، وهكذا تعددت الأسماء وتنوعت، وأشهرها بخارى^(٦)، وتعني كلمة بخارى في الأدب البوذي مركز العلم والثقافة، وفي اللغة السنسكريتية مدرسة ودير، وبخارى كلمة اشتقت من بُخْر؛ وهي صيغة تركية مغولية للكلمة السنسكريتية (فهارة)، ومعناها صومعة أو دير؛ لأن البوذيين كان لهم معبد في بخارى أو على مقربة منه في سمرقند^(٧).

وكان لقب أمراء بخارى قبل الإسلام (بخاراخدا)^(٨)، وبخارى قلب إقليم الصغد، وهي مدينة في مستوى الأرض على مسافة قصيرة من نهر الصغد، ولا جبال بالقرب منها.

(١) لسترنج: بلدان، ص ٥٠٤.

(٢) السمعاني: عبد الكريم بن محمد بن منصور ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م، الأنساب، تح: عبد الرحمن بن يحيى وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ط ١، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، ج ٢ ص ١٠٧.

(٣) الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٣٢٣.

(٤) النرشخي: أبو بكر محمد بن جعفر ت ٣٤٨هـ/٩٥٩م، تاريخ بخارى، تر: أمين بدوي، ونصر الله الطرازي، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، د.ت، ص ٤٢، الحديث موضوع لم أجد له تخريج في كتب الحديث جميعها.

(٥) المقدسي: أحسن، ص ٢٨٠، السمعاني: الأنساب، ج ٢ ص ٣٢٧.

(٦) النرشخي: تاريخ، ص ٤٠.

(٧) Compareti: (Matteo): Traces of Buddhist Art in Sogdiana University of Pennsylvania USA 2008 p9.

(٨) النرشخي: تاريخ، ص ٩، البياتي: بحجة علي محمد، الفتح الإسلامي لبخارى في المصادر العربية، مجلة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، مج ٤/٢٣، ١٤٣٤هـ/٢٠١٢م، ص ١٠٦٧.

وما ورد في تاريخ الطبري من أن عبيد الله بن زياد سار إلى جبال بخارى، فإنه كان يقصد (جبال وركة)، وهي أقرب جبال من بخارى؛ إذ يتصل جزء منها بقرية وركة البخارية، ثم يمتد إلى سمرقند^(١). أما موقعها الجغرافي، فتقع في سفح هضبة غير عالية تحفُّ بها سهول خصبة، يحدها من الشرق والجنوب مدينة سمرقند، ومن الغرب خوارزم، ومن الشمال ما يعرف بصحراء قزل قوم، ويمر بها نهر زرافشان (ناثر الذهب) أحد روافد نهر جيحون^(٢)، يحدد الاصطخري موقع بخارى بشكل دقيق بقوله: "إنها أول الكور في بلاد ما وراء النهر فمن كان بها فخراسان أمامه وما وراء النهر وراءه"^(٣)، وهذا الرافد من الروافد المهمة الذي أمدّها بخصوبتها وجمالها الجغرافي الذي تغنى به الجغرافيون العرب.

١. نشأة بخارى:

يعود التاريخ القديم لبخارى إلى ألف عام قبل الميلاد على أنه لا توجد دلائل كافية في هذا الشأن^(٤)، والروايات كثيرة حول بناء هذه المدينة ونشأتها، ويكتنف بعضها الغموض، وتختلط الحقيقة بالأسطورة، فيذكر أن أول من بنى بخارى (سياوش بن كيكائوس)^(٥) عندما فرّ من أبيه وعبر نهر جيحون، وجاء إلى (أفراسياب)^(٦) فلاطفه وزوّجه ابنته، وقيل: إنه أعطاه جميع ملكه، فأراد سياوش أن يبقى منه أثر في هذه

^(١) الطبري: محمد بن جرير بن يزيد ت ٣١٠هـ/٩٢٢م، تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط ٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ج ٥ ص ٢٩٧، ابن حوقل: صورة، ص ٤٠٢.

^(٢) فاميري: أرمينوس، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور إلى العصر الحالي، تر: أحمد محمود الساداتي، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٣٣.

^(٣) الاصطخري: المسالك، ص ٣٠٥.

^(٤) بروخازنكا (أحمد أبو مهيل): عمارة الحضارة الإسلامية، بخارى، المملكة العربية السعودية، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص ٨.

^(٥) سياوش بن كيكائوس: بسين مهملة والأخرى منقوطة كان في نهاية الجمال سلمه أبوه إلى رستم الشديد نائب مملكة سجستان، فرباه كما ينبغي، وأتى به إلى والده كيكائوس وهو في نهاية الأدب والفروسية ففرح به وولاه مملكته. ابن الوردي: سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨، تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج ١ ص ٣٦.

^(٦) أفراسياب: أكبر الملوك الأسطوريين الطورانيين من نسل تنورين أفريدون، جلس على ملك طوران بعد يشنك، العمري: أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي ٧٤٩هـ/١٣٤٨م، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج ٣ ص ٩٨.

الولاية، فبنى مدينة بخارى هذه، وكان يقيم بها أكثر الأوقات، وقد وشى بينه وبين آفراسياب؛ فقتله آفراسياب ودفن في هذا الحصن^(١).

وفي روايات أخرى يذكر أن المدينة بنيت من قبل الإسكندر المقدوني^(٢)، وفي رواية أخرى يطول يذكرها ومختصرها أنها كانت في القدم خواء تسودها البرك والمستنقعات، وتتجمع المياه من ذوبان الثلوج على جبال السلسلة الشرقية التي تجاور سمرقند فيجتمع الماء هناك، ولم تكن الأرض صالحة للزراعة؛ وإنما تعود بالنفع للصيادين والسماكين، وبعد مدة من الزمن توقف جريان الماء، وكثر الطمي، وتمهدت الأرض، واجتمع الناس من كل صوب، واختار هؤلاء من بينهم أميراً عليهم، وكان يدعى أبرزي وسكن في بيكند^(٣).

وعلى أي حال فمهما كانت أسباب نشأة المدينة من أساطير أو حقائق يمكن القول: إن بخارى وجدت في المقام الأول لأسباب جغرافية بحتة؛ إذ يوجد الماء العذب والتربة الخصبة كونها تكونت من رواسب نهرية، وتدعى هذه بالتربة اللحية، وهي صالحة للزراعة لنعومتها، وأضيف إلى ذلك الجبال التي كانت بمنزلة سور حماية وهذه العناصر الثلاثة كافية لإيجاد العنصر البشري بعد تحقق عنصر الأمان، أضيف إلى ذلك موقعها على ملتقى الطرق التجارية من دون الابتعاد عن الفكرة السالفة من حيث نشأة المدينة لأسباب دينية.

٢. وصف المدينة:

هي مدينة على أرض مستوية، وبنائها من الخشب المشبك، وتحيط بها القصور والبساتين والمحال والطرق التجارية والقرى المتصلة، ويحيط بها سور واحد ضخيم يبلغ طوله اثني عشر فرسخاً في مثلها، ثم سور داخلي بلغ طوله نحو فرسخ في مثله، وهذا السور الحصين داخله القلعة^(٤)، وهي مدينة كبيرة عامرة من

(١) الترشيحي: تاريخ، ص ٧.

(٢) ابن خردادبة: المسالك، ص ٢٦٥، قدامة بن جعفر ت ٣٢٩هـ/٩٥٠م، الخراج وصناعة الكتابة، تح: محمد

الزبيدي، دار الرشيد، العراق، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م، ص ٢٦٥.

(٣) الترشيحي: تاريخ، ص ١٨-١٩، فاميري: بخارى، ص ٣٧ وما بعدها.

(٤) ابن حوقل: صورة، ص ٣٩٨.

بلاد ما وراء النهر، ومقر ملك الشرق ومساحة بخارى اثنا عشر فرسخاً في اثني عشر فرسخاً^(١).
ويصفها ياقوت الحموي بقوله: "لم أر، ولا بلغني في الإسلام بلداً أحسن من بخارى؛ لأنك إذا
علوت قهندزها (القلعة) لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على خضرة متصلة خضرتها بخضرة السماء،
فكان السماء بها مكبة خضراء مكبوبة على بساط أخضر تلوح القصور فيما بينها كالنواوير فيها، وأراضي
ضياعهم منعوتة بالاستواء كالمرآة"^(٢). وجعلها ابن رسته من كور خراسان، بينما خالفه بذلك الاصطخري
والمقدسي؛ فيجعلونها من كور ما وراء النهر، وهذا هو الصواب^(٣)، وهذه المدينة بنيت على دفعات؛ أي
أجزاء بعد أجزاء^(٤)، واتصفت مباني المدينة بأنها متشابكة ومتلاصقة وعمارات متصلة؛ لازدحامها
بالسكان وبأنها مرتفعة، وما يؤكد ذلك أنه ليس في المدينة، ولا في قهندزها ماء جاري لارتفاعها؛ لأن
البخاريين يحبون البناء على الروابي والمرتفعات^(٥)، وتكونت مدينة بخارى من مدينة داخلية وريض^(٦) وقلعة،
ولهذه القلعة بابان، ولمدينة بخارى سبعة أبواب من حديد، وهي:

باب المدينة، وباب النور، وباب الحفرة، وباب الحديد، وباب القهندز (القلعة)، وباب مهر، وباب
بني سعد، وطول كل باب يبلغ أربعة أمتار، وهي مدينة ذات دروب كثيرة ومنها:
درب خراسان، ودرب الميدان، ودرب الريو، ودرب المردكشان، ودرب سمرقند^(٧).
وعلى جانبي المدينة أبراج هائلة، وكانت الأبواب تغلق مساء كل ليلة بأقفال ضخمة، ثم تؤخذ
المفاتيح إلى القلعة لتحفظ حتى الصباح^(٨). وبخارى حالياً جزء من جمهورية أوزبكستان التي استقلت عن

(١) مجهول: حدود، ص ١٢٦.

(٢) الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٣٥٣.

(٣) ابن رسته: الأعلام، ص ١٠٥، الاصطخري: المسالك، ص ٢٩٥، المقدسي: أحسن، ص ٢٦١.

(٤) بروخازنكا: عمارة، ص ١٠.

(٥) ابن حوقل: صورة، ص ٣٩٩.

(٦) ريض: ضواحي المدينة ونواحيها. المطرزي: أبو الفتح ناصر الدين ت ٦١٠هـ/١٢١٣م، المغرب في تاريخ المغرب، تح:

محمود فاخوري، عبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، ط ١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج ١ ص ٣١٥.

حسين، قاموس، ص ٦٤٠.

(٧) ابن حوقل: صورة، ص ٣٩٨.

(٨) نومكين: فيتالي، بخارى، تر: صلاح صلاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط ١، ١٣٧٥هـ/١٩٩٥م، ص ٢١.

الاتحاد السوفيتي المنهار في ٢٧ أكتوبر ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، وعاصمتها طشقند^(١).

٣. مناخ بخارى:

المناخ في بخارى قاري؛ أي: شديد البرودة في الشتاء، شديد الحرارة في الصيف؛ لذلك قال عنها المقدسي: "حارة باردة"، وعلل ذلك بأن المناخ في بلاد ما وراء النهر كلما اشتد برد موضع اشتد حره، وهي أشد من برد خراسان^(٢)، فهي تتميز بهواء جاف متقلب، وشتاء طويل بارد، وربيع ممطر، وصيفها حار جاف، والمناطق الرملية المحيطة بها ذات هواء ساخن، وشتاء قصير، ويبعد الجزء الشمالي منها أخصب بقاعها لاحتوائه على وادٍ خصب يؤدي إلى سمرقند^(٣)، وذكر القلقشندي برد بخارى بتجمد الماء حتى إن نهر جيحون يصير كالأرض فتعبر عليه القوافل بأحمالها^(٤).

٤. بلدات بخارى ومدنها:

هناك اختلافات كثيرة بين الجغرافيين العرب من حيث ذكر المدن والقرى والبلدات التابعة لمدينة بخارى، وهي كثيرة جداً^(٥)، وفيما يأتي عرض لأهم المدن والقرى:

- **الطواويس:** أعظم البلدات الخمس التي داخل السور الكبير لبخارى^(٦)، وهي مدينة جلييلة^(٧). وقد ذكر النرشخي أن اسم المدينة القلسم (أرقود). وكان يسكن بها قوم منعمون مترفون، في بيت كل منهم طاووس دلالة على الغنى، وعندما دخلها العرب سموها تلك القرية بذات الطواويس، ثم زال اسمها

(١) كمال: أحمد عادل، الجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى، دار السلام، مصر، ط ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ٥٥.

(٢) المقدسي: أحسن، ص ٢٨١، ٣٢٢.

(٣) النرشخي: تاريخ، ص ٤٧.

(٤) القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري ت ٨٢١هـ/١٤١٥م، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج ٤ ص ٤٣١.

(٥) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٢٥، ابن الفقيه: البلدان، ص ٣٢٥، الاصطخري: المسالك، ص ٣١٣، المقدسي: أحسن، ص ٢٦٧.

(٦) لسترنج: بلدان، ص ٥٠٦.

(٧) المقدسي: أحسن، ص ٢٨١.

- الأصلي، وحذفوا كلمة ذات، ومن ثم عرفت المدينة بالطواويس^(١) والمدينة كثيرة البساتين خصبة الأرض، لها قلعة داخل المدينة، وبها مسجد جامع^(٢)، وتقع على الطريق الرئيس إلى سمرقند، وتبعد عن بخارى سبعة فراسخ، وسبب غناها عائد إلى سوق كان يقام فيها، ولم تكن الزراعة سبب غناهم^(٣).
- **خُجَندة:** (بضم أوله والجيم المفتوحة)، وهي على يمين الذهاب من بخارى إلى بيكند على ثلاثة فراسخ، بينها وبين الطريق نحو فرسخ، ولها حصن، ويصفها المقدسي بقوله: "كبيرة، عليها حصن فيه الجامع، حسنة ظريفة"^(٤).
 - **مُغكان:** (بضم الميم وبعضهم يقول: بفتح الميم)^(٥)، فإنها من المدينة على خمسة فراسخ عن يمين طريق بيكند، بينها وبين الطريق نحو ثلاثة فراسخ، ولها روض حسن، ولها حصن، وهي مدينة كثيرة القرى^(٦).
 - **بمَجَشَك:** (بضمتين وسكون الشين المعجمة وفتح الكاف والياء مثلثة)، مدينة صغيرة في شمال غربي بخارى على أربعة فراسخ منها، ونصف فرسخ عن الدرب الذي إلى يسار الطريق الذهاب إلى الطواويس^(٧).
 - **زندنه:** (بفتح الزاي وسكون النون)، فإنها من المدينة على أربعة فراسخ شمالي المدينة، لها حصن،

(١) النرشخي: تاريخ، ص ٢٧.

(٢) الاصطخري: المسالك، ص ٣١٣.

(٣) النرشخي: تاريخ، ص ٢٨، الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٦، ابن الشمائل: مرصد الاطلاع، ج ٢ ص ٨٩٥.

(٤) المقدسي: أحسن، ص ٢٨١.

(٥) السمعاني: الأنساب، ج ١٢ ص ٣٦٩، ابن الأثير: عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م، الباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، د. ت، ج ٣ ص ٣٤١، السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين ت ٩١١هـ/١٠٥٠م، لب الباب، دار صادر، بيروت، د. ت، ص ٢٤٩، الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ١٦١.

(٦) الاصطخري: المسالك، ص ٣١٤، المقدسي: أحسن، ص ٢٨١، لسترنج: بلدان، ص ٥٠٥.

(٧) السمعاني: الأنساب، ج ٣ ص ٧٦، السيوطي: لب الباب، ص ٥٤، الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٤٦، ابن الشمائل: مرصد، ج ١ ص ٢٧٤.

وربضها عامر^(١).

- وكل هذه المدن الخمس الزاهرة، كانت داخل السور الكبير؛ وأما مدن خارج السور، فهي:
- **بيكند:** (بالكسر وفتح الكاف وسكون النون)، وذكرها يعقوبي "باكند"، وهي مدينة جليلة، وبها أخلاط من الناس^(٢)، وهي أدنى مدائن بخارى إلى النهر، فهي وحدها ليس لها قرى ومزارع، ويصفها الاصطخري: "غير أن بها من الرباطات"^(٣) ما لا أعلم في بلدان ما وراء النهر أكثر عدداً منها، وأن عددها نحو من ألف رباط؛ ولها سور حصين"^(٤)، وأرضها خصبة، وفيها القباب التي توضع على المقابر مما يجلب من بخارى إليها، وهي أقدم من بخارى، وتقع بيكند على جبل قليل الارتفاع، وأهلها يعتزون بها أكثر من بخارى حتى إذا سئل أحدهم من أين أنت قال: من بيكند، ولا يقول من بخارى^(٥).
- **أريامشين:** وتكتب ريامشين ورامتين، وذكرها البلاذري رامدين^(٦)، وتوصف بأنها ذات حصن كبير، وهي محكمة أقدم من مدينة بخارى، وهي مقام الملوك الذين كانوا يُسْتَوْنَ فيها^(٧).
- **فربر:** (بفتح الفاء والراء وسكون الباء المؤخدة، وآخره راء أخرى، ويُقال: بِكْسِرِ الفاء والأوّل أشهر)^(٨)، تقع في الضفة الشرقية من نهر جيحون، وهي مدينة عامرة حسنة المباني ظريفة الشوارع

^(١) الترشيحي: تاريخ، ص ٣١، الاصطخري: المسالك، ص ٣١٥، الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسيني الطالبي ت ١١٦٤هـ/١٥٦٠م، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ج ١ ص ٤٩٥-٤٩٦، الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٤١٠.

^(٢) يعقوبي: البلدان، ص ١٢٢.

^(٣) الرباطات: هي منازل لسرايا الخيل، مهمتها حماية الثغور من غارات الأعداء. بارتولد: فاسيلي فلاديميروفتش، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٣٠٩.

^(٤) الاصطخري: المسالك، ص ١٧٥، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٨٩.

^(٥) الترشيحي: تاريخ، ص ٣٤.

^(٦) البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م، فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص ٥٠٧.

^(٧) الترشيحي: تاريخ، ص ٣٢.

^(٨) الهمداني: أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمي ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م، الأماكن أو ما اتفق لفظه=

والمسالك، ولها زراعات وبساتين، وهي في نفسها حصينة^(١)، وطولها خمس وثمانون درجة ونصف وربع، وعرضها سبع وثلاثون درجة وثلثان^(٢)، بينها وبين بخارى ثلاث مراحل، ولها قرى عامرة ورساتيق^(٣)، ولقرىها من النهر بنيت من الآجر بحيث لا يكون فيها خشب قط، وقد ذكرها النرشخي "فرب"^(٤) وابن فضلان "آفرير"^(٥)، وذكرها العمري بـ (قريز)، ويصفها بأنها مدينة قريبة من جيحون، ولها قرى عامرة، وهي حصينة^(٦).

- **كرمينية:** بلدة من نواحي بخارى، كثيرة الأشجار والماء، تقع بين بخارى وسمرقند، بينها وبين بخارى ثمانية عشر فرسخاً وبين الطواويس والدبوسية^(٧)، وهي عن الدبوسية على مسافة خمسة فراسخ، وعن الطواويس على مسافة سبعة فراسخ، وهي مدينة أهلة تقارب في القدر الطواويس^(٨)، وهي أكبر من الطواويس، وأعمر، وأكثر عدداً وأخصب.
- ويؤكد النرشخي أن اسم المدينة القديم هو "بادية خردك"^(٩)، وشبهوها العرب في أثناء الفتح بأرمينية في الحسن وكثرة المياه والخضر^(١٠)، وذكرها ابن الفقيه بـ "كرمانية"^(١١).

= وافترق مسماه من الأمكنة، تح: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص ٧٣٨.

(١) الإدريسي: نزهة، ص ٤٩٣.

(٢) الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٥٨.

(٣) الحميري: الروض، ص ٤٤٠.

(٤) النرشخي: تاريخ، ص ٣٦.

(٥) ابن فضلان: أحمد ت ٣١٠هـ/٩٢٢م، رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، دار السويدي،

أبو ظبي، ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ١٣٣.

(٦) العمري: مسالك، ج ٣ ص ١٦٣.

(٧) الدبوسية: بليد من أعمال الصغد من ما وراء النهر. الحموي، معجم البلدان، ج ٢ ص ٤٣٧.

(٨) العريزي: الحسن بن أحمد المهلي ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م، المسالك والممالك، جمعه: تيسير خلف، د.م، د.ت،

ص ١٦٢، الإدريسي: نزهة، ص ٤٩٦، الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٥٦.

(٩) النرشخي: تاريخ، ص ٢٧.

(١٠) السمعاني: الأنساب، ج ١١ ص ٨٨.

(١١) ابن الفقيه: البلدان، ص ٦٢٤.

- **وركة:** (بالفتح ثم السكون)، تقع على ذيل جبل وركة القريب من بخارى والممتد إلى سمرقند^(١). هذه أهم مدن بخارى وهي كثيرة لا يمكن ذكرها جميعاً، وفيما يأتي عرض أسماء أهم القرى التابعة لبخارى:

أشميون، أغذون، أفرخش، أفشوان، أندق، أنيسون، بذاكر، بران، بركد، بسكاس، بيرمس، ترخه، جاجن^(٢).

ب- سمرقند:

المدينة الثانية في إقليم الصغد يقال لها في العربية: سمران^(٣)، وكان طولها اثني عشر فرسخاً^(٤)، تقع على أحد روافد نهر جيحون، وهو نهر زرافشان على جنوبي وادي الصغد وهي مرتفعة عليه، وبالتفصيل هي واقعة في ٣٩ درجة، ٤٠ دقيقة من العرض الشمالي ٦٧ درجة، ١٨ دقيقة من الطول الشرقي، وطولها تسع وثمانون درجة ونصف، وعرضها ست وثلاثون درجة ونصف^(٥)، وعلى بعد أربعة أميال إلى شرقي نهر زرافشان، وعلى بعد سبعة كيلومترات جنوبي نهر زرافشان^(٦)، وتبعد عن بخارى نحو مئة وخمسين ميلاً، وعن أشروسنة ستة وعشرين فرسخاً، وإلى فرغانة اثنين وخمسين فرسخاً، وإلى الشاش اثنين وأربعين فرسخاً^(٧)، وتبعد مسيرة ثلاثة أشهر عن بلاد العرب^(٨)، ففي شرقها تقع فرغانة وكاشغر، وفي الغرب تقع بخارى وخوارزم وفي الشمال تقع الشاش وبناتك، وفي الجنوب تقع بلخ وترمد^(٩)، وتتميز سمرقند بموقعها الجغرافي

(١) الاصطخري: المسالك، ص ٣١٢.

(٢) الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٢٨٤، ٥٣٨، السمعاني: الأنساب، ج ٢ ص ٣٩٠، ابن الأثير: اللباب، ج ١ ص ٢٤٨.

(٣) الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٤٦، ابن الشمائل: مرصد، ج ٢ ص ٧٣٥.

(٤) الحميري: الروض، ص ٣٢٢.

(٥) الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٤٧.

(٦) لسترنج: بلدان، ص ٥٠٦.

(٧) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٣٠، الاصطخري: المسالك، ص ٣١٦.

(٨) التُّطيلي: بنيامين بن الراي يونه ت ٥٦٩هـ/١١٧٣م، رحلة بنيامين، الجمع الثقافي، أبو ظبي، ط ١، ٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ٢٩٦.

(٩) بارتولد: تركستان، ص ١٧٠.

الفريد نظراً لوجودها في ملتقى الطرق التجارية القادمة من الهند مارة ببلخ، ومن فارس مارة بمرو، ومن أراضي الترك، وعلى ثلاث مراحل منها مفرق طريقين أحدهما إلى الشاش والآخر إلى فرغانة^(١).

١. نشأة المدينة:

لقد اختلفت المصادر حول المؤسس الحقيقي لها، فهناك من يذكر أنها من بناء الإسكندر المقدوني، ويذكر ابن الفقيه ذلك بقوله: ويقال: إنه -الإسكندر- ملك الأرض كلها، ودانت له سائر ملوكها، وبني ثلاث عشرة مدينة، وسميت كلها الإسكندرية، ومنها الإسكندرية التي في بلاد الصغد، وهي سمرقند^(٢). ويذكر نومكين: أنه في سنة ٣٢٩ قبل الميلاد غزت قوات الإسكندر العظيم مرقندا، اسم آخر للمدينة، وبعد مقاومة يائسة من قبل سكان المدينة وفق المؤرخين الإغريق آنفذ كانت سمرقند مدينة جيدة البناء والتحصين، وأسوارها تمتد لأكثر من عشرة كيلو مترات، وسكانها شجعان ونبلاء، ولكن الإسكندر محاً المدينة عن وجه الأرض، ومن ثم أعاد بناء القلعة من أجل استعمال حاميتها، بعد ذلك رضخت تحت حكم دولة سيليفيك أولاً، ومن ثم مملكات الإغريق والكوشانيسك^(٣).

وفي رواية أخرى في اخبار ملوك اليمن قالوا: لما مات ناشر ينعم الملك، قام بالملك من بعده شمر بن أفريقيس بن أبرهة، فجمع جنوده وسار، فلما صار إلى بلد الصغد اجتمع أهل تلك البلاد وتحصنوا منه بمدينة سمرقند، فسيطر عليها، وأحاط بمن فيها من كل وجه، وحاربهم حتى استنزلهم بغير أمان؛ فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأمر بالمدينة فهدمت، فسميت من يومئذ شمر كند^(٤)؛ أي شمر هدمها، فعربت بها العرب، وقالوا: سمرقند. وقال في مسيرة هذا:

(١) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٢٠٦.

(٢) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٢٦٥، ابن الفقيه: البلدان، ص ٦١٦، الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ١٨٣.

(٣) نومكين: فيتالي، سمرقند، تر: صلاح صلاح، المجموع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، ط ١، ١٣٧٤هـ/١٩٩٦م، ص ٣.

(٤) كند أو قند: القنْد: عصارة قصب السكر، انظر: الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم ت ١٧٠هـ/٧٨٦م، العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار الهلال، بيروت، ج ٥ ص ١١٨، البكري: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد ت ٤٥٧هـ/١٠٩٤م، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت، ط ٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ج ٣ ص ٥٥.

أنا شمر أبو كرب اليمانا جلبت الخيل من يمن وشام
فأحكم في بلادهم بحكم وثيق لا يجاوز بالآثام
ويملك بعدهم ملك كريم نبي لا يرخص في الحرام
محمد اسمه يا ليت يومي تأخر بعد مخرجه بعام^(١)

فلم تزل سمرقند خراباً إلى أن ملك تبع الأقرن بن أبي مالك بن ناشر ينعم، فلم تكن له همّة إلاّ الطلب بثأر جده شمر الذي مات بأرض الصين، فخرج لذلك حتى أتى سمرقند، وهي خراب فأمر ببناؤها، وأقام عليها حتى فرغ منها، وردّها إلى أفضل مما كانت عليه^(٢)، وقال الشعبي: شهدت فتح سمرقند مع الوالي قتيبة بن مسلم، فنظر على بعض أبوابها لوحاً في الحائط فيه خطوط كأنها عربية وليست عربية، فتأمله طويلاً، ثم قال: والله، إني لأظنها بعض فعالات حمير. إلّٰي رجلاً من الجند له معرفة وبلاد حمير: فبعث إلى عبد الله الخزاعي، فقال له: أتعرف هذا الخط؟ قال: نعم هذا بخط حمير الذي يقال له: المسند، قال: اقرأه، فإذا هو: باسمك اللهم. هذا كتاب ملك العرب والعجم شمر يرعش الملك الآثم، من بلغ هذا المكان فهو مثلي، ومن جازه فهو فوق، ومن قصر عنه فهو دوني، وقال الأصمعي: "مكتوب على باب سمرقند بالحميرية: بين هذه المدينة وبين صنعاء ألف فرسخ، وبين بغداد وإفريقية"^(٣)، وقد ذكر ذلك دعبل الخزاعي في قصيدته التي يفتخر فيها، ويذكر التبابعة بقوله:

وهم كتبوا الكتاب بباب مرو وباب الصّين كانوا الكاتبين

^(١) الطبري: تاريخ، ج ٢ ص ١١٢، الزبيدي: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.م، ج ١٢ ص ٢٤١.
^(٢) ابن الفقيه: البلدان، ص ٦٢٢، الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٤٧، ابن الوردي: سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تح: أنور محمود زناطي، جامعة عين شمس، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م، ص ١٢٤.
^(٣) ابن الفقيه: البلدان، ص ٦٢٧، الاضطحري: المسالك، ص ٣١٨، البكري: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد ت ٤٥٧هـ/١٠٩٤م، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، د.م، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ٣٠١.

وهم سمّوا قديماً سمرقنداً وهم غرسوا هناك التّين^(١)

هذا يعني أن سمرقند وما وراء النهر سبق أن خضعت سياسياً للدولة الحميرية التي كان مركزها صنعاء، أو أنهم قد قاموا بحملات وصلت إلى سمرقند.

وفي رواية أخرى قالوا: أول من أسسها كيكافوس بن كيقباز ملك الفرس^(٢)، وبعد هذه الروايات التاريخية شبه الأسطورية المتضاربة تكشف الحفريات المعاصرة أن أول المستوطنات في أراضي سمرقند هي في أوائل القرن السابع قبل الميلاد في سفوح تلال آفراسياب، وذلك عائد إلى المناخ المثالي، والموقع الجغرافي، وطبيعة السكان المحبة للعمل، وأصبحت هذه المستوطنة الصغيرة على ضفاف نهر سياب بحلول منتصف الألف الأولى قبل الميلاد مدينة بأسوار محصنة قوية ومعابد أثرية وعدد غفير من الصناعات الحرفيين، وصمم مزارعو آفراسياب وهو الاسم الأصلي للمدينة نظام ري واسع، في تلك الأيام كانت المدينة تحت سيطرة الحكام الفرس من سلالة الإخمينيين^(٣)، وللتوضيح بعد هذه الجولة من الروايات حول بناء سمرقند أو نشأتها، وكذلك الأمر ينطبق على سالفاتها مدينة بخارى، وتذكر بعض المصادر الجغرافية والتاريخية^(٤) أن هاتين المدينتين من بناء الإسكندر، وبعضهم يذكر ذا القرنين وبعضهم يرى أن ذا القرنين هو قورش ملك الفرس،

(١) الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٤٧، الحميري: نشوان بن سعيد ت ٥٧٣هـ/١١٧٧، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تح: حسين العمري وآخرون، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج ٢ ص ٧١٥، خلاصة السير الجامعة لعجائب أخبار الملوك التابعة، تح: علي بن إسماعيل المؤيد، إسماعيل بن أحمد الجرائي، دار العودة، بيروت، ط ٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م، ص ٩٠.

(٢) القزويني: آثار، ص ٥٣٥.

(٣) نوميكين: سمرقند، ص ٤.

(٤) الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م، تاريخ بغداد، تح: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج ١ ص ١٣٩، والمتفق والمفترق، تح: محمد صادق آيدن الحامدي، دار القادري، دمشق، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج ١ ص ١٥٤، ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ت ٧٥١هـ/١١٧٥م، تاريخ دمشق، تح: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، دمشق، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج ٨ ص ٨٤-ج ١٧ ص ٣٣٣، ابن المستوفي: المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي ت ٦٣٧هـ/١٢٢٩م، تاريخ إربل، تح: سامي بن سيد خماس الصقار، دار الرشيد، العراق، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ج ٢ ص ٣٤١، الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٤٩٨.

وهنا يكون اللبس والخلط بين شخصيتين متعاكستين تماماً^(١).

ويجزم ببطلان نظرية من اعتقد في قورش أو الإسكندر بأنه ذو القرنين؛ إذ لا يمكن لقورش الفارسي أن يكون المقصود بذی القرنين المذكور في القرآن، ففي أسطوانة (رقم) قورش الشهيرة التي كتبت بأمره بعد غزوه لبابل وتحريره لليهود، كورش وعلى لسانه يمدح ويمجد في أكثر موقع صنم بابل الأكبر مردوك العظيم والأصنام الأخرى كبعل ونبو، ويزعم في أسطوانته أن استيلاءه على بابل لم يتم إلا بمباركة سيده مردوك الأكبر، فلا يمكن لعبد صالح وموحد ورسول من رسل الله كذي القرنين أن يمدح ويمجد الأصنام، ويعتقد في نفعهم وضرهم، والنص الآتي قسم من أسطوانة قورش وتمجيده لصنم بابل الأكبر مردوك، ومما جاء في أسطوانة قورش قوله: (مردوك - أو مردوخ - السيد الأكبر، صاحب القلب الكبير الذي يحب بابلاً، حقق لي النصر، وأنا أعبدته كل يوم بخشوع)^(٢)، وليس بالإسكندر؛ لأن الإسكندر هذا كان وثنياً، وليس كما يبين القرآن أنه مؤمن.

٢. وصف المدينة:

من أجل البلدان وأعظمها، وقال يحيى بن أكثم: ليس في الأرض بقعة أنزه من ثلاث بقاع: قهندز سمرقند، وغوطة دمشق، ونهر الأبلّة بلدة على شاطئ دجلة. وكان الرشيد يقول: الدنيا أربعة منازل، قد نزلت منها ثلاثة: أحدها دمشق، والآخر الرقة، والثالث الري، والرابع سمرقند، وأرجو أن أنزله^(٣). وكان المأمون يقول: عين الشام دمشق، وعين الروم قسطنطينية، وعين العراق بغداد، وعين خراسان نيسابور، وعين ما وراء النهر سمرقند. وقال الشاعر:

لنّاس في أّخراهم جنّة وجنة الدنيا سمرقند

يا من يساوي أرض بلخ بها هل يستوي الحنظل والقند^(٤)

وذكرها اليعقوبي بمدينة الصغد العظمى، وهي من أجل البلدان قدراً، وهي في بداية بلد الترك^(١).

(١) العبد: عبد الرحمن يوسف، ذو القرنين، دار البشير، القاهرة، ص ٨١ وما بعدها.

(٢) الطيبي: عمر، قورش، دار التعاونية، د.م، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ص ١٧، وما بعدها.

(٣) ابن الفقيه: البلدان، ص ٥٤٥.

(٤) ابن الوردي: خريدة، ص ٣٧٣.

ويصفها ابن واضح اليعقوبي في بديع شعره:

علت سمرقند أن يقال لها زين خراسان جنة الكور
أليس أبراجها معلقة بحيث لا تستبين للنظر
ودون أبراجها خنادقها عميقة ما ترام من ثغر
فكانها وهي وسط حائطها محفوفة بالظلال والشجر
فبدر وأنهارها المجرة والـ آطام مثل الكواكب الزهر^(٢)

ولها نهر عظيم يأتي من بلاد الترك كالفرات يقال له: (باسف) يجري في أرض سمرقند، ثم إلى بلاد الصغد، واستدارة حائطها اثنا عشر فرسخاً، وفيها بساتين ومزارع ولها اثنا عشر باباً من الباب إلى الباب فرسخ، وعلى أعلى السور أبراج للحرب والأبواب اثنا عشر من حديد، وبين كل بابين منزل للبواب ومساحة المدينة خمسة عشر ألف جريب^(٣)، وتختلف عن بخارى بأن قلعتها كانت داخل المدينة، وللمدينة الداخلية سور، وقدر مساحة هذا السور بستة آلاف جريب، وللمدينة أربعة أبواب: باب الصّين في جهة المشرق، وباب نوبهار في جهة الغرب، وباب بخارى في جهة الشمال، وباب كشّ في جهة الجنوب. ولها أسواق ومساكن ومساحتها ألفان وخمسمئة جريب. إذاً تتكون هذه المدينة حسب ما يذكره الجغرافيون العرب^(٤) من الأقسام الآتية:

- المدينة (شهرستان أو شارستان).
- الرّض.

وللمدينة سور وأربعة أبواب ذكرت سالفاً غير أن باب النوبهار وباب بخارى يسميان باب الحديد،

^(١) اليعقوبي: البلدان، ص ٢٩٣، المنجم: آكام، ص ٨٤.

^(٢) اليعقوبي: البلدان، ص ٢١٨.

^(٣) الجريب: هو مقدار معلوم من الأرض وهو ما يحصل من ضرب ستين ذراعاً في نفسه؛ أي ما يكون ثلاثة آلاف وستمئة ذراع سطحية؛ أي تعادل عشرة آلاف متر مربع، انظر: شيخ علي: محمد علي، كشاف اصطلاحات الفنون، دار صادر، بيروت، د.ت، ج ١ ص ١٨٩.

^(٤) ابن الفقيه: البلدان، ص ٢٢٢، الاضطخري: المسالك، ص ١٧٧، ١٧٨، ابن حوقل: صورة، ص ٤٩٢، المقدسي: أحسن، ص ٢٧٨.

وباب أشروسنة عند ابن الفقيه الهمداني.

وسور الرض به ثمانية أبواب، هي:

باب غداود، وباب أسبسك، وباب سوخشين، وباب أفشينه، وباب ورسنين، وباب كوهك، وباب رودد، وباب فرحليد.

ويضيف ابن الفقيه الهمداني: إن سور الرض به اثنا عشر باباً، وتبعه في ذلك ياقوت الحموي^(١) يعنى بزيادة أربعة أبواب عما ذكر غيره من الجغرافيين، وهي مدينة مرتفعة، ولها من القصور والبساتين الكثير^(٢). قال مسلم بن قتيبة^(٣): لما أشرفت على سمرقند، شبهوها، فلم يأتوا بشيء، فقال: "كأنها السماء في الخضرة، وكأن قصورها النجوم الزاهرة، وكأن جداولها أنهار المجرة، فاستحسنوا هذا التشبيه"^(٤).

مما تقدم يتبين أن عناصر الحياة للمدينة من ماء وتربة خصبة وغيرها من العوامل المتوافرة جعل من سمرقند محمية طبيعية ومركزاً في غاية الأهمية، وسيتبين ذلك في الفصول القادمة، ولعل لسمرقند وصف بأسلوب أدبي يذكره المقدسي: "سمرقند قصبة الصغد، ومصر الإقليم، بلد سريّ جليل عتيق، ومصر بهي رشيق، رخيّ كثير الرقيق، وماء غزير بنهر عميق، بناء قويّ سنيّ وثيق، ودرس كثير لأهل الفريق، وعيش هنيّ إليها الطريق، وحمل المتاع من كلّ فج عميق، علوم كثيرة وصدر نفيع، وخيل ورجل ومال دفيق، ذو رساتيق جليلة، ومدن نفيسة وأشجار وأنهار، في الصيف جنة، وأهل جماعة وسنة، ومعروف وصدقة، وحزم وهمّة، غير أن في أهلها وهوائها برداً، وفيهم نفخ وعجب"^(٥). إن سمرقند في جمال موقعها وما يحيط بها من مروج تعد أحسن مدن تركستان وأوفرها ثروة.

(١) الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٤٧.

(٢) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٩٢.

(٣) وهو تصحيف والأصح: قال قتيبة بن مسلم.

(٤) العمري: مسالك، ج ٣ ص ١٦٣.

(٥) المقدسي: أحسن، ص ٢٧٨.

٣. مناخ سمرقند:

يميل هواؤها إلى الاعتدال، ويشتمل ماؤها لطف ريح الشمال، وتتميز تربتها بالخصب الشديد^(١)، ويذكر المقدسي مناخ سمرقند فيقول: إنها طيبة في الصيف، وكذلك نيسابور غير أنها أليّن برداً من سمرقند^(٢)، وكذا يتضح أن سمرقند في شتائها برد قارس، وكما ذكر سالفاً أن موقعها مرتفع، وهذا ما يفسر برودتها كون المناطق المرتفعة تكون أكثر برودة.

ويتسم مناخ سمرقند بالاعتدال طوال أيام العام، فجوها صحو وجميل طوال الفصول الأربعة، يوصف بأنه منعش وجميل، ويبعث على الحيوية والنشاط، ولا سيما فصل الربيع الذي تبدو فيه سمرقند جنة من جنات الأرض حتى قالوا: إن سمرقند شبيهة الفردوس. . . صحيح أن شتاء سمرقند بارد، لكنها برودة تعد مصدراً للصحة والحيوية والإقبال على العمل.

٤. مدن سمرقند:

ذكر الجغرافيون العرب مدن سمرقند بين جنوبي وادي الصغد وشماليه، والبداية من جنوبي الوادي وهي على الشكل الآتي:

- **ورغسر:** تعني رأس السد^(٣)، (وهي بفتح أوله وثانيه، وغين ساكنة، وسين مهملة مفتوحة)، من مدن سمرقند عندها مقاسم مياه الصغد^(٤) وغيره، وفيها كروم وضياع قد أزيل عنها الخراج، وجعل عليها إصلاح تلك السكور، ومع ذلك فليس بها منبر^(٥)، تقع على شاطئ نهر بخارى، وهي مدينة صغيرة كثيرة المتنزهات غزيرة الفواكة ولها رستاق يخرج إليه خليج من نهر سمرقند؛ فيسقي جميع مزارعه وغلاته^(٦)، ومن سمرقند إلى ورغسر أربعة فراسخ^(١).

(١) الجويني: عطا ملك، تاريخ فاتح العالم، تح: السباعي محمد السباعي المركز القومي للترجمة،

١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ١٤٠.

(٢) المقدسي: أحسن، ص ٣٢٢.

(٣) بارتولد: تركستان، ص ١٦٩.

(٤) ومن هذه الروافد: نهر برش، ونهر بارمش ونهر بشمين انظر: الاضطخري: المسالك، ص ١٧٩.

(٥) الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٣٧٢، لسترنج: بلدان، ص ٥٠٩.

(٦) مجهول: حدود، ص ١٢٨، الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٥٠٢.

- أبغر^(٢): (بالفتح ثم السكون والغين المعجمة مفتوحة وراء)، وهي من قرى سمرقند، وقيل: هي ناحية بسمرقند ذات قرى متصلة^(٣) أعمر وأكثر عدداً من سائر رساتيق سمرقند، وأمواهم المواشي، وطول أبغر نحو مرحلتين وأكثر، ويقال: إنّ زرع أبغر إذا سلم كفى الصغد بأجمعها^(٤).
- بنجيكت: وهي قرية من قرى سمرقند على ستة فراسخ^(٥)، وعند الاصطخري تسعة فراسخ^(٦)، وهي مدينة عامرة حسنة البقعة، ولها رستاق كبير ينسب إليها وهو في غاية من الخصب^(٧)، ويذكرها المقدسي بنجكت بحذف الياء، وعندما وصف الصغد بأنه على صورة إنسان جعلها رأس الصغد وذكر في كتابه: "أن الصغد كصورة إنسان رأسه بنجكت"^(٨)، ولا تزال قائمة حتى اليوم باسم بنجكتند^(٩).
- الدرغم: (بفتح الدال المهملة والغين المعجمة بينهما الراء الساكنة وفي آخرها الميم)^(١٠)، أزكى هذه الرساتيق في الزروع، والفائض من أعناجها يحمل إلى غيرها من الرساتيق^(١١)، وأكثرهنّ مراعي^(١٢)، وطول الدرغم مرحلة متوسطة^(١٣).
- مايمرغ: (بفتح الياء، وضم الميم، وسكون الراء، والغين معجمة)، وهي من قرى سمرقند بالقرب منها،

(١) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥٢٠.

(٢) وردت عند المقدسي والحموي أوفر انظر: المقدسي: أحسن، ص ٢٦٦، الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٢٣.

(٣) ابن الأثير: اللباب، ص ٢٥، الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٧٤، ابن الشمايل: مراصد، ج ١ ص ١٧.

(٤) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٩٩.

(٥) السمعاني: الأنساب، ج ٢ ص ٣٣٥. ابن الأثير: اللباب، ص ١٨٠.

(٦) الاصطخري: المسالك، ص ١٩١.

(٧) الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٥٠٢.

(٨) المقدسي: أحسن، ص ٢٦٩.

(٩) لسترنج: بلدان، ص ٥٠٩.

(١٠) السمعاني: الأنساب، ج ٥ ص ٣٧٧.

(١١) الاصطخري: المسالك، ص ٣٢١.

(١٢) المقدسي: أحسن، ص ٢٧٩.

(١٣) ابن حوقل: صورة، ص ٤٩٩.

يتصل عملها بعمل الدرغم، قيل: وليس برساتيق سمرقند رستاق أشد اشتباكاً في القرى والأشجار من ما يمرغ^(١)، ويذكرها السمعاني بأنها على طرف جيحون^(٢)، واشتهرت بالقصور الكثيرة، ولا سيما في منطقة ريودد، وهي المكان الرئيس الذي فيه قصور الإخشيديين حكام الصغد قبل وصول الفاتحين العرب المسلمين^(٣).

● **الساوذار:** وهو رستاق جبلي جنوب سمرقند، وليس بسمرقند أصح منه هواءً، وكانت أوديته عظيمة في غاية الخصب، وخيراته وافرة، ويذكر أيضاً بالساوذار وشاودان^(٤).

وأما المدن الشمالية، فهي على الشكل الآتي:

● **باركث أو ياركث:** (بسكون الراء وفتح الكاف وثاء مثلثة)^(٥)، وتقع شمال سمرقند، ومن سمرقند إلى باركث أربعة فراسخ^(٦)، وماؤها من العيون، فلا يصلون إلى وادي الصغد، وكانت تابعة لأشروسنة، ثم ألحقت بسمرقند، وتسمى سالفاً (أهنكران)، ويقول فامبري: إن معناها الملجأ، والملاذ مشتق من كلمتين (بناه كت)^(٧)، ويخالفه المؤرخ الروسي بارتولد: ويرى أن الكلمة الصحيحة (ياركث) بالثاء، وليست بالثاء؛ لأنها تتألف من كلمة (كث) ومعناها قرية أو مدينة أو قلعة^(٨).

● **الكشانية:** (بالتفتح ثم التخفيف وبعد الألف نون وياء خفيفة)^(٩)، وذكرها ابن الفقيه كشان والمقدسي كشاني^(١٠) بلدة بنواحي سمرقند، تبعد عنها اثني عشر فرسخاً شمالاً^(١١)، وهي قلب الصغد وأعرها،

(١) الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٥٠، ابن السمائل: مراصد، ج ٣ ص ١٢٢٥.

(٢) السمعاني: الأنساب، ج ١٢ ص ٦٥.

(٣) بارتولد: تركستان، ص ١٨٥.

(٤) الاضطخري: المسالك، ص ٣٢١، ابن حوقل: صورة، ص ٤١٠، الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٢٢٨، لسترنج، بلدان، ص ٥٠٩.

(٥) ابن السمائل: مراصد، ج ١ ص ١٥١.

(٦) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٢٦.

(٧) فامبري: بخارى، ص ٤٥.

(٨) بارتولد: تركستان، ص ١٨٠.

(٩) الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٢٧٦.

(١٠) ابن الفقيه: البلدان، ص ٣٢٥، المقدسي: أحسن، ص ٢٦٦.

- وأهلها أيسر أهل مدن الصغد^(٢)، ويتبعها عدد من القرى ومنها أسكارن، أسمىثن.
- **كبودنجكث:** بفتح الكاف وضم الباء وفتح الذال المعجمة وسكون النون وفتح الجيم والكاف وفي آخرها الثاء المثناة، وهي من مدن سمرقند، وهي على فرسخين من سمرقند^(٣).
 - **بوزماجن:** وتلفظ بوزماجن، وهي أعرق مدن سمرقند الشمالية، ومدينته الرئيسة هي أباركث^(٤) وتبعد عن سمرقند أربعة فراسخ^(٥).
 - **المرزبان:** تنسب إلى المرزبان تركش^(٦)، ويتصل بـ (وذار)^(٧).
- وفيما يلي عرض لذكر أهم أسماء قرى سمرقند وبلداته: أرخس، وأستا، وأسمند، وبرداد، وبرسان، وتربان، وتوسكاس، وخرعون، وسرخكت، ورزمار، وفاران، وفراب، وكارزن، وتشكيدزه^(٨).
- ج- كَش:** (بكسر أوله، وتشديد ثانيه)^(٩)، وهي مدينة تقارب سمرقند، وقيل: هي الصغد، وقيل: إنها من كور خراسان^(١٠)، والاصطخري والمقريزي جعلها من كور ما وراء النهر المستقلة، بينما أكد المقدسي أنها من النواحي الأربع التابعة لما وراء النهر^(١١)، وهي المدينة الثالثة من مدن إقليم الصغد،

(١) السمعاني: الأنساب، ج ١١ ص ١١١.

(٢) مجهول: حدود، ص ١٢٧، الاصطخري: المسالك، ص ٣٢٣، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥٠٠.

(٣) السمعاني: الأنساب، ج ١١ ص ٤٠، لسترنج، بلدان، ص ٥١٠.

(٤) المقدسي: أحسن، ص ٢٧٩.

(٥) الاصطخري: المسالك، ص ٣٣٤.

(٦) انظر عن (المرزبان تركش): الطبري: تاريخ، ج ٩ ص ١٠٩.

(٧) الاصطخري: المسالك، ص ٣٢٣.

(٨) الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٢، ابن الشمايل: مراصد، ج ١ ص ٢٥٦، البلادي: عاتق بن غيث بن زوير بن زاير، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٦١.

(٩) السمعاني: الأنساب، ج ١١ ص ١٠٨، قدامة بن جعفر، الخراج، ص ٢٤٣، اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٠.

(١٠) ابن رسته: الأعلام، ص ١٠٥، ابن قدامة: الخراج، ص ٢٤٣.

(١١) الاصطخري: المسالك، ص ٢٩٥، المقريزي: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج ٤ ص ١٨٤، المقدسي: أحسن، ص ٢٦٢، ابن الأثير: اللباب، ج ٢ ص ٢١٤.

وقيل: "إن العراقيين وغيرهم يلفظونها بكسّ، بفتح الكاف، وربما صحّفه بعضهم، وقال بالشين المعجمة، وهو خطأ، وأهل بخارى وسمرقند جمعهم يقولون: كِسْ، بكسر الكاف، والسين المهملة"^(١)، أما المسافات فمن كشّ إلى نصف ثلاث مراحل مما يلي الغرب، ومن كشّ إلى الصغانيان ست مراحل^(٢)، ومن كش إلى سمرقند أربع مراحل، وقدرت بثلاثة فراسخ في مثله (نحو ميل ونصف)^(٣).

١. نشأة كش:

بنيت المدينة من الآجر؛ لغزارة أمطارها^(٤)، وبعض أبنيتها من الطين والخشب، ويذكر الاصطخري أن كش مدينتان داخلية وخارجة، ويضيف ابن حوقل أن من أبنية المدينة قلعة وحصن وريض، ويؤكد ما ذهب إليه الاصطخري بقوله: "المدينة الداخلية خراب والخارجة عامرة"^(٥)، وربما يمكن تعليل ذلك باهتمام بخارى وسمرقند وارتفاع شأنهما على حساب المدن الأخرى، ودار الإمارة خارج المدينة والريض مكان يعرف بالمصلى والحبس والمسجد الجامع في المدينة الداخلية، وللمدينة الخارجة بابان أحدهما باب للمدينة الداخلية، والثاني باب (بركنان) الذي أخذ اسمه من اسم المدينة المجاورة له، وللمدينة بشكل عام أربعة أبواب: باب الحديد، وباب عبيد الله، وباب القصابين، وباب المدينة الداخلية^(٦).

٢. وصف المدينة:

وقد وصف الإدريسي المدينة بقوله: "كش مدينة جليلة كثيرة الأهل عامرة بالناس والتجار ذات نعم ومياه جارية، ولها فواكة كثيرة يحمل فائضها إلى سمرقند وبخارى"^(٧)، ولها نهران كبيران أحدهما يعرف بنهر القصارين، ويخرج من جبال سيام، ويجري في جنوبي المدينة، والثاني نهر أسروذ يخرج من رستاق كشك ويجري في شمال المدينة، وتمده أنهار صغار، فتجتمع هذه الأنهار كلها حتى تصل إلى نصف، وهي مسقط

(١) الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٦٠، ابن الشمائل: مرصّد، ج ٣ ص ١١٦٥.

(٢) الاصطخري: المسالك، ص ٣٤٣ ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥٢١.

(٣) الحميري: الروض، ص ٣٦٢.

(٤) مجهول: حدود، ص ١٢٨.

(٥) الاصطخري: المسالك، ص ١٨٢.

(٦) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥٢٠.

(٧) الإدريسي: نزهة، ص ٥٠٠، مجهول: حدود، ص ١٢٣.

رأس تيمورلنك الذي ولد فيها سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٦م^(١)، وهي حالياً إحدى مدن أوزبكستان، ويقال لها اليوم "شهر سبز" ومعناها المدينة الخضراء^(٢).

٣. مناخ كش:

يتصف هواؤها بالطيب، وأمطارها غزيرة، ومناخها ملائم للزراعة، وهي مدينة خصبة تنضج فيها الفواكه أسرع ما تنضج بسائر ما وراء النهر غير أنها ذات طقس وُبيئاً^(٣).

٤. مدن وقرى كش:

● **حشوننجكث:** (بضم الحاء والشين المعجمتين، واجتماع النونين بفتح الأولى وسكون الثانية وفتح

الجيم والكاف وفي آخرها ثاء المثناة)، وهي من قرى كش، وهي متصلة بقرى سمرقند^(٤).

● **زاذك:** (بفتح الزاي والذال المعجمتين وفي آخرها الكاف)، من قرى كش من بلاد ماوراء النهر،

ويقال لها زايك^(٥).

● **سركت:** (بفتح أوله وسكون ثابته وكاف مفتوحة وآخره ثاء مثناة)، وهي من قرى كش.

● **سوشج:** من قرى كش^(٦).

● **شوربان:** (بفتح الشين المعجمة، وسكون الواو، وفتح الراء والباء، وفي آخرها النون)، ويقال لها

أيضاً: شوربان^(٧).

ومن القرى أيضاً: كاجر، ونيازي، ومرغان، وغزبان، وخشمنجكث.

(١) كرد علي: محمد بن عبد الرزاق بن محمد، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط ٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م،

ج ٢ ص ١٥٥.

(٢) بارتولد: تركستان، ص ٢٣٨.

(٣) القزويني: آثار، ص ٥٥٤، بارتولد: تركستان، ص ٢٣٨.

(٤) السمعاني: الأنساب، ج ٥ ص ١٣٨، اليعقوبي: البلدان، ج ٢ ص ٣٨٤، ابن الشمائل: مراصد،

ج ١ ص ٤٦٩.

(٥) السمعاني: الأنساب، ج ٦ ص ٢٢٨، ابن الاثير: اللباب، ج ٢ ص ٥١، السيوطي: لب اللباب، ص ١٢١،

اليعقوبي: البلدان، ج ٣ ص ١٢٦، ابن الشمائل: مراصد، ج ٢ ص ٦٥٤.

(٦) النرشخي: تاريخ، ص ٩٦.

(٧) السمعاني: الأنساب، ج ٨ ص ١٧٢، ابن الاثير: اللباب، ج ٢ ص ١٤، السيوطي: لب اللباب، ص ١٥٧.

د- مدينة نسف (نخشب)^(١): بفتح النون وسكون الخاء وفتح الشين المعجمة، وفي آخرها باء موحدة هذه بالنسبة إلى نخشب، وبفتح النون والسين، وفي آخرها فاء هذه بالنسبة إلى نسف، وهي مدينة من بلاد ما وراء النهر، وعربت فقليل لها: نسف وقد ذكرت في النون والسين^(٢)، وذكر أبو تمام حبيب بن أوس في قصيدة يقولها للمعتصم:

تهابك الروم في معاقلها والترك يخشاك من وراء نسف^(٣)

واسمها الحالي (قَرْشِي)، ويعني هذا اللفظ "قصر" بلغة المغول^(٤)، ودائماً تذكر في أغلب المصادر الجغرافية مقرونةً مع كش، وتبعد عن مدينة كش مئة ميل، وهي من مدن الصغد غير أن بعض الجغرافيين جعلها من كور خراسان^(٥)، وهي ليست على طريق بخارى وإن القاصد من بخارى إلى سمرقند يجعل نخشب عن يساره، وبينها وبين سمرقند ثلاث مراحل، ومن نسف إلى كش ثلاث مراحل، ومن مدينة نسف إلى ما يمرغ مرحلة^(٦).

١. وصف المدينة:

مدينة ذات خير وافر، عامرة كثيرة الزروع والفواكه، ولها نهر واحد يمر وسط المدينة يجف في بعض أشهر السنة، فيسقون بساتينهم بالآبار حتى يعود الماء إلى النهر، ولها روض كبير وسور يحيط بها، وفي المدينة قلعة ليست بالحصينة، وأسواقها في الرض مجتمعة متصلة بين دار الإمارة والمسجد الجامع، والجبال منها على نحو مرحلتين شرقاً مما يلي كش، ومنها في الجانب الغربي مفازة متصلة بنهر جيحون لا جبل

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٤.

(٢) السمعاني: الأنساب، ج ١٣ ص ٦١، ابن الأثير: اللباب، ج ٣ ص ٣٠٣.

(٣) السمعاني: الأنساب، ج ١٣ ص ٩٢، وفي ديوان أبي تمام هناك قصيدة يمتدح فيها المعتصم ولكن لم أجد هذا البيت فيها انظر: الطائي: حبيب بن أوس بن الحارث أبو تمام ت ٢٣١هـ / ٨٤٦م، ديوان أبي تمام، تح: محمد عزام، دار المعارف، مصر، ط ٣، د. ت، مج ٣ ص ٥.

(٤) بارتولد: تركستان، ص ٢٤٠.

(٥) ابن رسته: الأعلاق، ص ١٠٥، قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٢٤٣، القزويني: آثار، ص ٤٦٦.

(٦) الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٢٧٦، ابن الشماثل: مراصد، ج ٣ ص ١٣٦٣، المدني: عباس بن محمد بن أحمد بن السيد رضوان، مختصر فتح رب الأرباب بما أهمل في لب اللباب من واجب الأنساب، مطبعة المعاهد، مصر، ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م، ص ٤٧.

فيها، ولها أربعة أبواب.

باب النجارية: وربما اللفظ الأصح (البخارية)^(١)، وباب سمرقند، وباب كشّ، وباب غوبذين. ولنسف قرى كثيرة ونواحٍ، ولها منبران غير منبر المدينة، والغالب على قراها الخصب والسعة^(٢). ويذكر المقدسي بعض صفاتها فيقول: "وهي كثيرة الأعناب الجيّدة، والمزارع الطيّبة الكبيرة إلّا أن ماءها ضيق، ونهرها ينقطع، وبها عصبّيات، وهم قوم سوء"^(٣)، ويقدم السمعاني وصفاً للمدينة بعد أن أقام بها شهرين، فيثني على المدينة بكثرة علمائها^(٤).

٢. بلدات نسف وقراها:

- كسبة: (بفتح الكاف وسكون السين المهملة وفتح الباء المنقوطة بواحدة)، وهي قرية من قرى نسف^(٥)، ومن نسف إلى كسبة أربعة فراسخ على طريق بخارى^(٦)، وهي موضع ذو زروع وفواكة كثيرة^(٧)، وهي مدينة صغيرة عامرة فيها مساجد ومنابر^(٨).
- بزدة: (بفتح الباء المنقوطة بواحدة وسكون الزاي، وفي آخرها الدال المهملة)، ويقال بزدوه، وهي من أعمال نسف من بلاد ما وراء النهر وهي قلعة حصينة على ستة فراسخ من نسف على طريق بخارى^(٩)، وبين نسف وبزدة ستة فراسخ^(١٠)، وهي مدينة قليلة الناس، كثيرة الزروع والفواكه، ولها

(١) بارتولد: تركستان، ص ٢٤٠.

(٢) الاضطخري: المسالك، ص ٣٢٥، ابن حوقل: صورة، ص ٤١٣، القزويني: آثار، ص ٤٦٦.

(٣) المقدسي: أحسن، ص ٢٨٣.

(٤) السمعاني: الأنساب، ج ٥ ص ٤٨٦.

(٥) السمعاني: الأنساب، ج ٩ ص ٣٦٩، ابن الاثير: اللباب، ج ٢ ص ٣٥٧، المقدسي: أحسن، ص ٣٦٨، الحموي، معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٦٠.

(٦) الاضطخري: المسالك، ص ١٩١، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥٢١.

(٧) مجهول: حدود، ص ١٢١.

(٨) الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٤٩٢.

(٩) السمعاني: الأنساب، ج ٢ ص ٢٠١، ابن الاثير: اللباب، ج ١ ص ١٤٦، السيوطي، لبّ الالباب، ص ٣٦، الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٠٩.

(١٠) الاضطخري: المسالك، ص ١٩١.

نهر جاف يأتي فيه الماء بعض السنة، وأغلب مياه أهلها من الآبار^(١)، وذكرها المقدسي بأنها مدينة صغيرة، بينما يذكر ابن حوقل أنها أكبر من نصف^(٢).
ومن قرى نصف: آفران، وأنددي، وآيسن، وبزغام، وبشتان، وبيران، وتبان، وتوبن، ودجاكن، وسوبخ، وسيروان، وكاسن، ونوقد (نوقد قريش)، وورثين، ويوزي.

٢- إقليم خوارزم:

أ- خوارزم (الموقع والتسمية):

(أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة مختلصة ليست بألف صحيحة)، هكذا يتلفظون به^(٣)، ناحية كبيرة عظيمة قصبته الجرجانية، هو اسم الإقليم، وهو إقليم قائم بذاته منقطع عن خراسان، وتحيط به الصحراء من كل جانب، ونسب الإقليم إلى وراء النهر؛ لأنّ مدينتها وراء النهر، وهي إلى كور ما وراء النهر أقرب^(٤)، ويؤكد ذلك ابن بطوطة بقوله عن خوارزم: "إقليم في بلاد ما وراء النهر، ومدينة خوارزم أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها"^(٥)، و يذكرها صاحب آكام المرجان: "وهي من مدائن خراسان، وهي عظيمة كان يحيط بها وبأعمالها سدّ عظيم، فتهدم أكثره، وهي في وسط صحراء ورمال، وبينها وبين سجستان مرحلة"^(٦).

وهي مدينة عظيمة مساحتها ثمانون فرسخاً في مثلها، وهي قاعدة هذه الأرض، ولها مدينتان شرقية وغربية، فالأولى على ضفة نهرها الشرقية تسمى درغاشا، والثانية على ضفته الغربية، وتسمى الجرجانية^(٧)، ويحدها من الغرب والشمال الغز، ومن الجنوب خراسان، ومن الشرق بلاد الصغد وهي في آخر نهر

(١) مجهول: حدود، ص ١٢٨.

(٢) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥٢١، المقدسي: أحسن، ص ٢٨٣.

(٣) الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٩٥.

(٤) الاصلطخري: المسالك، ص ٢٩٩.

(٥) ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م، رحلة ابن بطوطة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج ٣ ص ٩، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٢٦.

(٦) المنجم: آكام، ص ٧٩.

(٧) ابن الوردي: خريدة، ص ١٢٣، الادريسي: نزهة، ج ٢ ص ٦٩٦.

جيحون^(١)، وتطل بقاعدة واسعة على بحيرة خوارزم (بحر آرال) حالياً، وتقع اليوم في غرب أوزبكستان^(٢). وقد ذكروا أن السبب في تسميتها بهذا الاسم أن اللحم بلغة الخوارزمية خوار والخطب رزم، فصار خوار رزم فخفف، وقيل: خوارزم استثقلاً لتكرير الراء^(٣)، ويقال لمدينة خوارزم قديماً: فيل أو فير، ويرشح بارتولد هذا الاسم للقلعة التي كانت فيها^(٤)، بينما يذكر الحموي وصف مدينة فيل: " بلفظ الفيل من الدواب الهندية كانت مدينة ولاية خوارزم يقال لها: فيل قديماً ثم سميت المنصورة، وهي الآن تدعى كركانج، ثم قيل لها المنصورة^(٥)"، وقد ذكر أبو الفتح الجرجاني معنى خوارزم: هيئ حُرْمًا؛ لأنها في سهولة لا جبل بها^(٦)، ويذكر فامبري أن معنى الكلمة محارب^(٧)، ومن خوارزم إلى بحيرتها ستة فراسخ^(٨) ومن أمل إلى مدينة خوارزم اثنتا عشرة مرحلة^(٩).

ب- نشأة خوارزم:

سبب نشأتها أن أحد الملوك القدماء غضب على أربعمئة من أهل مملكته لا سيما حاشيته، فأمر بنفيهم إلى موضع بعيد عن العمارات بحيث يكون بينهم وبين المدينة المأهولة مئة فرسخ، فلم يجدوا على هذه الضفة إلا موضع مدينة كاث، وهي إحدى مدن خوارزم، فجاؤوا بهم إلى هذا الموضع وتركوهم وذهبوا، فلما كان بعد مدة جرى ذكرهم على الملك، فأمر قومًا بكشف خبرهم، فجاؤوا فوجدوهم قد بنوا أكواخاً، ووجدوهم يصيدون السمك وبه يتقوتون، وإذا حولهم حطب كثير، فقالوا لهم: كيف حالكم؟ فقالوا: عندنا هذا اللحم، وأشاروا إلى السمك، وعندنا هذا الحطب فنحن نشوي هذا بهذا ونتقوت به، فرجعوا إلى

(١) كيريت: محمد بن عبد الله بن محمد ت. ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م، رحلة الشتاء والصيف، تح: محمد الطنطاوي،

المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م، ص ١٩٦.

(٢) كمال: الجمهوريات، ص ٥٦.

(٣) الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٩٥، القزويني: آثار، ص ٥٢٠.

(٤) بارتولد: تركستان، ص ٢٥١.

(٥) ابن الشمايل: مراصد، ص ٣٢٣.

(٦) البكري: معجم ما استعجم، ج ٢ ص ٥١٥.

(٧) فامبري: بخارى، ص ٢٣.

(٨) ابن حوقل: صورة، ج ٦ ص ٤٥٥، الإدريسي: نزهة، ج ٢ ص ٩٢٣.

(٩) الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٤٨١.

الملك وأخبروه بذلك فسمى ذلك الموضع خوارزم، لأن اللحم بلغة الخوارزمية خوار والخطب رزم، فصار (خوارر- زم) فحفف، وقيل خوارزم استثقلاً لتكرير الراء، وقد جاء به بعض العرب على الأصل، فقال الأسدي:

أتاني عن أبي أنس وعيد فصل تغيظ الضحاك جسمي
ولم أعص الأمير، ولم أربه ولم أسبق أبا أنس بوغم
ولكن البعوث جرت علينا فصرنا بين تطويح وغرم
وخافت من رمال السغد نفسي وخافت من رمال خوارزم
فقارعت البعوث وقارعتني فغاز بضجعة في الحي سهمي
وأعطيت الجعالة، مستميتا خفيف الحاذ من فتيان جرم^(١)

وأقر أولئك الذين نفاهم بذلك المكان وأقطعهم إياه، وأرسل إليهم أربعمئة جارية تركية، وأمدهم بطعام من الخنطة والشعير، وأمرهم بالزرع والمقام هناك، فلذلك في وجوههم أثر الترك، وفي طباعهم أخلاق الترك، وفيهم جلد وقوة، وصبر، فعمروا هناك دوراً وقصوراً، وكثروا وتنافسوا فبنوا قرى ومدناً وسمع بهم من أقاربهم من مدن خراسان، فجاءوا وسكنوا معهم، فكثروا وصارت ولاية حسنة عامرة^(٢).

يلاحظ في رواية نشأة خوارزم: من خلال الموقع الجغرافي للمنطقة هي منطقة صحراوية تحيط بيها المفاوز، وهي رمال لا أنهار فيها، فالعيش في هذه المنطقة هو أشبه بالمستحيل، وهذا ما يرجح صحة الرواية من حيث إنها مكان لنفي الخصوم أو مكان لعقابهم، واستطاع هؤلاء الذين تذكرهم الرواية أن يتعايشوا مع الظروف الصعبة للمنطقة ويتأقلموا مع مناخها، ومن هنا يرجح فامبري معنى اسم خوارزم المحارب، فقد حارب هؤلاء الواقع، وتغلبوا عليه، وأسسوا إقليماً مستفيدين من المياه الجوفية وبعض المساعدات التي أرسلها الملك لهم، وفيما بعد أثبتوا بجدارة أنهم يستحقون الحياة.

(١) المرزوقي: أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م، شرح ديوان الحماسة، تح: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٥٥٢.
(٢) الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٩٦، المقدسي: أحسن، ص ٢٨٥.

ج- وصف المدينة:

يصفها ياقوت الحموي على أنها ولاية حسنة عامرة، فإنها على ما هي عليه من رداءة أرضها وكونها سبخة كثيرة النزور متصلة العمارة، متقاربة القرى، كثيرة البيوت المفردة، والقصور في صحاريها، قل ما يقع نظرك في رساتيقها على موضع لا عمارة فيه، هذا مع كثرة الشجر بها، والغالب عليه شجر التوت؛ لاحتياجهم إليه لعمائرهم وطعم دود الإبرسيم، وهي ذات سعة في المكان، وأهلها قد اعتادوا ضيق العيش والقناعة بالشيء اليسير، وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق ودكاكين، وفي النادر أن يكون قرية لا سوق فيها، وتتصف بأمن شامل وطمأنينة تامة. وليس لأبنيتهم أساسات؛ إنما يقيمون أخشاباً ثم يسدونها باللبن، وهذا غالب أبنيتهم^(١).

أسلف أن المدينة تحيط بها المفاوز من كل جانب، والغالب على هذه المفاوز الرمال، وليس بها عيون ولا أنهار إلا آبار ومراعٍ، وليس بعدها على النهر عمارة إلى أن تصل بحيرة خوارزم، وهي على جانبي جيحون، وهي متجر الغزاة، ومنها تخرج القوافل إلى جرجان والخزر وإلى خراسان^(٢)، ومفازة خوارزم يحاذي شرقيها حدود مرو حتى يصل جيحون، وجنوبيها حدود دهستان، ثم تمتد إلى بحر الخزر، ويجتمع فيها التجار، وأهلها غزاة مقاتلون، وهي مدينة ذات تجارة واسعة^(٣). وهي منطقة سهلية لا جبل فيها، ووصفها المقدسي: "بسجلماسة المغرب"، وأضاف البيروني الخوارزمي وهو منها من بلدة تسمى بيرون، فيقول فيها وبأهلها: "أهلها علماء فقهاء أذكاء أغنياء، فهي لعمرى بلاد طيبة فيهم جلد وقوة، غالب عليهم الطول والضخامة، وفي رؤوسهم عرض، ولهم جبهات واسعة مزنوا على القناعة بالشيء اليسير وذوو تعلق شديد بوطنهم^(٤)". ووصفها الإدريسي: "بأنها مدينة متوسطة ذات عمارات"^(٥)، وبالقرب من بحيرة خوارزم بطائح

(١) الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٩٧.

(٢) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٥٢، الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٤٨١.

(٣) مجهول: حدود، ص ١٣٨.

(٤) البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو

مرذولة، عالم الكتب، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ص ٧.

(٥) الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٤٧٦.

تسمّى الخلعجان، وهو الموضع الذي يصاد فيه السمك المجلوب من خوارزم إلى النواحي الأخرى^(١). ويحاذيها من الشمال نهر جيحون وبحر خوارزم وحدود الغوز حتى حد البلغار، وفي هذه المفازة رملة تبدأ من حدود بلخ، فتتمتد حتى جنوب جيحون وبحر خوارزم، وتبلغ سعتها مرحلة واحدة في مكان، وسبع مراحل في مكان آخر^(٢).

د- مناخ المدينة:

تتميز هذه المدينة بالجو البارد القارس حتى إنه لا يوجد بقعة على جيحون أبرد منها وحتى النهر يجمد، ويبقى كذلك إلى الصيف، ويصف الاصطخري مناخها من شدة البرد الذي يقع فيها أن نهر جيحون يتجمد ويصبح معبراً وتحمل عليه الأثقال^(٣)، وبلاد خوارزم يذبحون ما زاد على الاثنين من أولاد الغنم وينتفعون بجلودها^(٤)، ويستنتج مما سلف على شدة برودة خوارزم، حتى أن ابن فضلان يذكر في رحلته التي قام بها إلى مدينة خوارزم ووصف بردها الشديد، فقال: "فرأينا بلداً ما ظننا إلا أن باباً من الزمهرير قد فتح علينا منه"^(٥)، وأما هواؤها لطيف ينعش العليل، ويزيد في صحتهم، ويدفع عنهم الأمراض والأعلال^(٦).

هـ- مدن خوارزم:

١. كاث (كات): بعد الألف ثاء مثلثة، ومعنى الكاث بلغة أهل خوارزم الحائط في الصحراء من غير أن يحيط به شيء^(٧)، وتعرف حالياً باسم عباس شيخ ولي^(٨) قصبة خوارزم وباب تركستان، وهي جزء من بلاد الترك، ويجتمع فيها التجار. وملكها يدعى خوارزم شاه، وأهلها غزاة مقاتلون، وهي مدينة ذات

(١) البكري: المسالك، ج ١ ص ٢٣١، ابن رسته: الأعلاق، ص ٩٢.

(٢) مجهول: حدود، ص ١٧٠.

(٣) الاصطخري: المسالك، ص ١٧٠، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٨١، الإدريسي: نزهة، ج ٢ ص ٨٣٧،

الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٩٦.

(٤) ابن حوقل: صورة، ج ١ ص ١٦١.

(٥) ابن فضلان: الرحلة، ص ٥١.

(٦) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ١٦٢.

(٧) الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٤٢٧.

(٨) بارتولد: تركستان، ص ٢٥٢.

تجارة واسعة، يرتفع منها الوسائد والكرباس^(١)، واللبود^(٢) والمصل^(٣). ويسمونها شهرستان؛ وهي على شطّ نيسابور شرقيّ النهر^(٤)، أجلّ مدينة ببلاد خوارزم^(٥)، ولها قلعة ليست بعامة، وكانت لها مدينة خرّبا النهر، وبنى الناس كاث الجديدة، من وراء المدينة، بعيداً عن جيحون كي تكون بعيدة عن مخاطر الفيضان، وقد قارب النهر القلعة ويخاف على تهدمها، والمسجد الجامع على ظهر القلعة، ودار خوارزم شاه عند المسجد الجامع، والحبس عند القلعة، وفي وسط المدينة نهر جردور يشق المدينة، والسوق على جانبي هذا النهر، وطولها نحو ثلث فرسخ في نحوه، وأما أبوابها فقد تهدم جزء منها، والباقي قد بني خلف ما تهدم على الوادي^(٦).

٢. كركانج (الجرجانية)^(٧):

بضم الكاف والراء بين الكافين والنون بعد الألف وفي آخرها الجيم، ويقال لها الجرجانية^(٨)، وهي أكبر مدينة^(٩)، والعاصمة الثانية للإقليم، مدينة عظيمة على شاطئ جيحون، وأهل خوارزم يسمونها بلسانهم كركانج فعربت إلى الجرجانية، وكانت في شرقي جيحون، وكانت كركانج هذه مدينة صغيرة في

(١) الكرباس: هو الثوب الخشن وهو فارسي معرب، انظر: ابن سيده: أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م، المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج ٧ ص ١٦٢.

(٢) اللبود: مفردا (اللبدة)، وجمعها (لبد) ومنه قوله تعالى: {كادوا يكونون عليه لبدا}، سورة الجن: الآية، ١٩، و (اللبادة) ما يلبس في المطر، الرازي: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ت ٦٦٦هـ/١٢٦٧م، مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط ٥، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص ٢٧٨.

(٣) يَفْتَحُ الْمِيمُ شَيْءٌ يَتَّخِذُ مِنْ مَاءِ اللَّبَنِ، انظر: النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، تحرير ألفاظ التنبيه، تح: عبدالعزيز الدقر، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٢٨٠، مجهول: حدود، ص ١٣٨.

(٤) المقدسي: أحسن، ص ٢٨٧.

(٥) العزيمي: المسالك، ص ١٦٠.

(٦) الاضطخري: المسالك، ص ١٦٨.

(٧) وأطلق عليها المغول والترك فيما بعد اسم أركنج، انظر: بارتولد: تركستان، ص ٢٥٢.

(٨) السمعاني: الأنساب، ج ١٣ ص ٨٢.

(٩) الاضطخري: المسالك، ص ٢٩٩، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٧٧.

مقابلها المنصورة من الجانب الغربي، فانتقل أهل خوارزم، إليها وابتنوا بها المساكن ونزلوها، فخرت المنصورة جملة حتى لم يبق لها أثر وعظمت الجرجانية^(١)، وطولها نحو من تسعة أميال في مثلها^(٢)، وهي مدينة ذات تجارة واسعة، ويجتمع بها التجار، وهي مدينتان: مدينة داخلية ومدينة خارجة، وأهلها معروفون بالقتال والرماية^(٣).

ويصفها الحموي قائلاً: فلا أعلم أني رأيت أعظم منها مدينة ولا أكثر أموالاً وأحسن أحوالاً، عامرة، كثيرة الأهل ذات أسواق وخيرات، وتذكر المصادر الجغرافية أن نهر جيحون قد حطم المدينة القديمة وخرّبها - كما حطم كاث - وقد احتالوا في رد خطر الماء بإقامة السدود من الخشب والحطب^(٤).
٣. هَزَارَ أُسْبَ (هزارسب)^(٥):

معناه بالفارسية (ألف فرس)، تقع على الضفة اليسرى من جيحون، لاسيما غربي جيحون، وهي قلعة حصينة، ومدينة يحيط الماء بها كالجيزة وليس إليها إلا طريق واحد على ممر قد صنع من نواحي خوارزم بينهما ثلاثة أيام، وفيها أسواق كثيرة وأهلها أهل ثروة^(٦)، ومن مدينة هزار أسب إلى مدينة كاث ستة فراسخ^(٧)، ويصفها المقدسي بأنها مثل (خيوه)، ولها أبواب خشب وخذق^(٨).

٤. زمخشر:

(بفتح أوله وثانيه ثم خاء معجمة ساكنة، وشين معجمة، وراء مهملة)، قرية جامعة من نواحي خوارزم، وهي كبيرة، ينسب إليها العالم الفاضل أبو القاسم محمود بن عمر جار الله الزمخشري، كان عالماً

(١) الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ١٢٢، المقدسي: أحسن، ص ٢٨٧.

(٢) الحميري: الروض، ص ١٦٢.

(٣) مجهول حدود، ص ١٣٨، البيروني: تحقيق ما للهند، ص ٧.

(٤) المقدسي: أحسن، ص ٢٨٨، الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ١٢٢، ابن الشمايل: مرصد، ص ٣٢٣.

(٥) ابن الأثير: اللباب، ج ٣ ص ٣٨٧، ووردت (هزارسب) انظر: الحديشي: قحطان عبد الستار، أرباع خراسان،

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة البصرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص ٣٠٨.

(٦) الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٤٠٤.

(٧) العزيمي: المسالك، ص ١٦٠، القزويني: آثار، ص ٥٦٧.

(٨) المقدسي: أحسن، ص ٢٨٩.

في علم العربية وعلم البيان^(١)، ويقول الأمير أبو الحسن علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس الحسني العلوي بمدحه، ويذكر قريته:

جميع قرى الدنيا سوى القرية التي تبوأها دارا فداء زمخشرا
وأحر بأن تزهى زمخشر بامرئ إذا عد في أسد الشرى زمخ الشرا
فلولاه ما طن البلاد بذكره ولا طار فيها منجدا ومغورا^(٢)

ولها حصن وخندق وحبس وأبواب محددة، والجسور ترفع كل ليلة، والجادة تشق البلد، والجامع ظريف بطرف السوق^(٣).

٥. درغان:

(بفتح أوله وسكون ثانيه وغين معجمة وآخره نون)، مدينة على شاطئ جيحون، وهي أول حدود خوارزم من ناحية أعلى جيحون دون آمل وعلى طريق مرو أيضاً، وهي على جرف عالٍ، وبينها وبين جيحون مزارع وبساتين لأهلها، وبينها وبين نهر جيحون نحو ميلين^(٤).

ومن قرى خوارزم: أش، باف، برقان، تمرتاش، المباركة، نوباغ، خرور، خبقان، غزينز، منقشلاغ.

٣- إقليم طخارستان:

أ- طخارستان (الموقع والتسمية):

(بضم الطاء المهملة وفتح الخاء المعجمة وبعدها الألف وضم الراء وسكون السين المهملة وفتح التاء المعجمة باثنتين من فوقها وفي آخرها النون)، وهي ناحية كبيرة مشتملة على بلدان وراء نهر بلخ أعلى

(١) القزويني: آثار، ص ٥٣٣.

(٢) الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ١٤٧.

(٣) المقدسي: أحسن، ص ٢٨٩، الزبيدي: تاج العروس، ج ٩ ص ٤٠٥، الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب ت ٨١٧هـ/١٤١٤م، القاموس المحيط، تح: محمد العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٨، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ٤٠١.

(٤) السمعاني: الأنساب، ج ٥ ص ٣٣٦، الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٤٥١، ابن الشمائل: مرصد، ج ٢ ص ٥٢٣.

جيحون^(١)، أي يكون موقعها شرقي بلخ وغربي جيحون، ويقال: طخيرستان وتخارستان^(٢)، ويذكر بارتولد: أن طخارستان أخذت اسمها من شعب الطخاريين الذين ورد اسمهم بين الشعوب التي قضت على إمبراطورية بكتريا اليونانية^(٣)، وهي ولاية واسعة كبيرة، وهي تقسم إلى طخارستان العليا والسفلى، فالعليا شرقي بلخ، ويسمى بالبلاذري الطالقان^(٤)، والسفلى غربي نهر جيحون، وبينها وبين بلخ ثمانية وعشرون فرسخاً، إلا أنها أبعد من بلخ في الشرق من العليا^(٥)، وطخارستان أرض الهياطلة^(٦)، ويجعلها كل من ابن رسته وقدامه والاصطخري يجعلونها لكور خراسان، والمقدسي عدها من نواحي بلخ^(٧).

ب- وصف المدينة:

وهي من أنزه بلاد الله على ما قيل بكثرة الأهل والتفاف الأشجار^(٨)، بلدة أغلب نعمها من الجبل، وفي صحاريها يقيم الأتراك الخلجية^(٩)، ترتفع منها الخيول والأغنام والغلال^(١٠)، وهي في مستوى الأرض، وهي كثيرة الأنهار والأشجار والجبال^(١١)، وبها مدن كثيرة وقرى عامرة وخصبة^(١٢).

وما يأتي عرض لمدن طخارستان العليا والسفلى:

١. مدن طخارستان العليا: وهي الطالقان، والختل، وخش، والقواديان، وخست، وأندراب؛ وهي

(١) السمعاني: الأنساب، ج ٩ ص ٥٥، ابن الأثير: اللباب، ج ٢ ص ٢٧٦، الحميري: الروض، ص ٣٨٧.

(٢) الحميري: الروض، ص ١٣١.

(٣) بارتولد: تركستان، ص ١٤٨.

(٤) البلاذري: فتوح، ص ٤١٣، ابن الفقيه، البلدان، ص ٣٢١، لكن ليس هي الطالقان؛ هي أحد مدن طخارستان العليا ولخصوبتها طغت تسميتها على طخارستان العليا حتى قيل لها الطالقان.

(٥) الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٢٣، ابن الشمائل: مرصد، ج ٢ ص ٨٨١.

(٦) ابن الوردي: خريدة، ص ١٢٥.

(٧) ابن رسته: الأعلاق، ص ١٠٥، قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٢٤٣، الاصطخري: المسالك، ص ٢٥٤،

المقدسي: أحسن، ص ٢٩٦.

(٨) ابن الأثير: اللباب، ص ١٦٤.

(٩) انظر: في الفصل الثاني من هذا البحث في أثناء الحديث عن القبائل التركية.

(١٠) مجهول: حدود العالم، ص ١٢١.

(١١) الحميري: الروض، ص ١٣١.

(١٢) ابن الوردي: خريدة، ص ١٢٥.

مدخل الناس إلى كابل، والباميان، وبغلان، ووالج، وبذخشان؛ وهي مدخل الناس إلى التبت^(١)،
والترمز؛ وهي في شرق بلخ، والصغانيان، وزم.

٢. مدن طخارستان السفلى: وهي: خلم، وسمنجان^(٢).

ج- مدن طخارستان العليا:

١. الطالقان:

(بفتح الطاء وسكون اللام وفتح القاف وبعد الألف نون)، وتكتب الطايكان والطايقان^(٣)، أكبر مدينة بطخارستان، وهي مدينة في مستوى من الأرض، ولها نهر كبير وبساتين، ولها مياه وعمارات متصلة، وهي أصح هواء من مرو الروذ، ومقدار الطالقان نحو ثلث بلخ^(٤)، مدينة واسعة تقع بين جبلين عظيمين ذات خيرات كثيرة يرتفع منها النبيذ بوفرة وكذلك اللبود^(٥)، وبها منبر وسوق ورافدان من روافد جيحون، وهي في غاية النزهة وكثرة المياه، وتسمى في كتب الفتوح (بن منجن) هكذا ذكرها أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود البلخي في كتاب مفاخر خراسان^(٦)، ومن الطالقان إلى الفارياب أربع مراحل من مدينة سرخس إلى الطالقان أربع مراحل^(٧)، ومن الطالقان إلى مرو الروذ ثلاث مراحل^(٨) بينها وبين الجبل فرسخان من الشرق، وبينها وبين الجبل مما يلي الغرب ثلاثة فراسخ، وبنواؤها من الطين^(٩)، ومن أهم قرى

(١) التبت: إقليم جبلي يقع في قلب قارة آسيا، تفصل حدوده الحالية من الجنوب بولاية "كشمير" وجمهورية الهند ومملكة نيبال، الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص ١٠، عطية الله: أحمد، القاموس الإسلامي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، ج ١، ص ٤٣٤.

(٢) ابن الفقيه: البلدان، ص ٦١٥.

(٣) الاضطخري: المسالك، ص ٢٧٨، المقدسي: أحسن، ص ٢٩٦.

(٤) الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٦، الحميري: الروض، ص ٣٨٠، الاضطخري: المسالك، ص ٢٧٩.

(٥) مجهول: حدود، ص ١٢٠.

(٦) السمعاني: الأنساب، ج ٩ ص ٢٠.

(٧) اليعقوبي: البلدان، ص ١١٥.

(٨) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٥٨.

(٩) الحميري: الروض، ص ٣٨٠، الإدريسي: نزهة، ص ٤٨٤.

الطالقان جندويه، كنجاباذ، كرزيان، ورب^(١).

٢. الخُتَل:

(بضم الخاء والتاء المنقوطة باثنتين مشددة)^(٢)، ويذكرها ابن خردادبة ختلان، وخطلان^(٣)، وهي كورة واسعة كثيرة المدن، منهم من ينسبها إلى بلخ وهذا خطأ؛ لأنها خلف جيحون، وهي أجل من صغانيان، وأوسع خطة، وأكبر مدناً وأكثر خيراً، وهي على تخوم السند، يقال لقصبته: (هلبك)^(٤)، وقال الاصطخري:

أول كورة على جيحون من وراء النهر، بين نهرى جرياب ووخشاب (بنج و وخش)^(٥)، وقال المرادي في الختل وصاحبها:

أيها السائلي عن الحارث النذ. . . ل، وعن أهل وده الأرجاس

عد من ختل، فختل أرض. . . عرفت بالدواب لا بالناس^(٦)

وقد نسب إليها قوم من أهل العلم، ولها من القرى: بنجاراع، وهلاورد، ولاوكند، وكاوند، وتمليات، وإسكندرة، ومنك، و هلبك، و كارينك^(٧).

٣. بَدْخْشَان:

(بفتح الباء المنقوطة بواحدة والذال وسكون الخاء وفتح الشين المعجمات، وفي آخرها النون)، والعامية يسمونها بلخشان باللام، وتشتهر بكثرة المعادن، ومنها معدن البلخش^(٨)، وهي مدينة صغيرة في أعلى طخارستان تقع على الشاطئ الأيسر من المجرى الأعلى لنهر جيحون، وبشكل دقيق هي على أحد روافد

(١) ابن خردادبة: المسالك، ج ١ ص ٣٢، الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٢٥٨.

(٢) السمعاني: الأنساب، ج ٥ ص ٤٤.

(٣) ابن خردادبة: المسالك، ج ١ ص ١٧٨.

(٤) المقدسي: أحسن، ج ١ ص ٢٩٠، الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٤٦.

(٥) العمري: مسالك، ج ٣ ص ١٤٣، القزويني: آثار، ص ٥٢٣.

(٦) مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تح: أبو

القاسم إمامي، سروش، طهران، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج ٢ ص ٢١.

(٧) الاصطخري: المسالك، ص ٢٧٩.

^٨ البلخش: حجر كريم مقارب للياقوت، ودونه في المكانة، الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٣٦٠.

نهر جيحون يسمى (بنج) جرياب قديماً^(١)، وهي متاخمة لبلاد الترك، وهي مدخل لتجار أرض التبت^(٢) يتوضح أنها على طريق تجاري مهم، وهذا ما منحها الشهرة عن غيرها من مدن المجرى الأعلى لنهر جيحون، وأضيف إلى ذلك مناخها الرائع ومراعيها الواسعة^(٣)، وبها رباط، وأن زبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م) بنت حصناً عجيباً قل ما رأى الناس مثله للدفاع عن البلاد من هجمات الترك^(٤)، وهي ذات نعم كثيرة ووفيرة، ولها رساتيق كثيرة وأسواق وكروم وأشجار وعيون جارية، وعليها سور تراب حصين^(٥)، ومن بلخ إلى بذخشان نحو ثلاث عشرة مرحلة من بذخشان إلى الترمذ على نحو ثلاث عشرة مرحلة^(٦)، وكانت في معظم الأحيان تتمتع باستقلالها الداخلي، وذلك عائد إلى موقعها الجغرافي الحصين^(٧)، ويُذكر أن مدينة فيض آباد قد قامت على أنقاض مدينة بذخشان^(٨)، وفيض آباد مدينة تابعة لجمهورية طاجيكستان التي استقلت عن الاتحاد السوفيتي سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م.

٤. ترمذ:

(بكسر التاء بعدها راء ساكنة ثم ميم مكسورة وآخره ذال معجمة)^(٩)، أما بفتح التاء وضم الميم فهو: موضع في ديار بني أسد أقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم لحصين بن نضلة^(١٠). والمتداول على

(١) الاضطخري: المسالك، ص ٢٧٩.

(٢) الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٣٦٠.

(٣) ابن حوقل: صورة، ص ٣٢٧.

(٤) السمعاني: الأنساب، ج ٢ ص ١٢٠.

(٥) الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٤٨٧.

(٦) الاضطخري: المسالك، ص ٢٨٣.

(٧) بارتولد: تركستان، ص ١٤٨.

(٨) لسترنج: بلدان، ص ٤٧٧.

(٩) الهمداني: الأماكن، ص ١٦٠.

(١٠) وهذا نص الرسول الكريم: (هذا كتاب من محمد رسول الله لحصين بن نضلة الأسدي أن له ترمذ وكتيفة لا يحاقه فيها أحد)، انظر: ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م، إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين، تح: محمود الأرناؤوط، الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ١٤٨.

لسان أهل تلك البلدة بفتح التاء وكسر الميم^(١)، مدينة مشهورة من أمهات المدن، تقع على نهر جيحون من جانبه الشرقي، والنهر يضرب سورها، متصلة العمل بالصغانيان، ولها قهندز وريض، يحيط بها سور، وأسواقها مفروشة بالآجر^(٢)، ويذكر أن مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطئ جيحون، فلما خربها جنكيزخان بنيت هذه المدينة الحديثة على ميلين من النهر^(٣) وماء أهلها من جيحون، وبينها وبين بلخ مرحلتان، وبينها وبين مدينة الصغانيان خمس مراحل، وهي أكبر من الترمذ، إلا أن ترمذ أكثر أهلاً ومالاً^(٤). وهي أجل مدينة على جيحون، وتقلع المراكب إليها من كل جانب، وللمدينة ثلاثة أبواب^(٥)، ولها من المدن:

- **صَرْمَنْجَن:** بالفتح ثم السكون، وكسر الميم، ونون ساكنة، وجيم، وبعد الألف نون: من قرى ترمذ، وتعد في بلخ، والعجم يقولون: صرمكان بالكاف، ويقال لها: جرمكان، ومن الترمذ إلى صرمجان ستة فراسخ، ومن صرمجان إلى دارزنكي - قرية عامرة كثيرة الأهل - ستة فراسخ^(٦).
- **هاشم جرد:** وهي مدينة صغيرة تقع على شط جيحون الأيسر بأسفل مدينة ترمذ، ومنها إلى الترمذ مرحلة، وتخرج منها إلى رباط دارنك بمقدار مرحلة أيضاً^(٧).

٥. **الصَّغَانِيَان:** (بفتح الصاد المهملة والغين المعجمة وفي آخرها النون)، والعجم يبدلون الصاد جيماً، فيقولون: چغانيان، وتعرَّب فيقال: الصغانيان، وتقع غرب نهر وخش ومن جنوبها يجدها نهر جيحون، والناحية تتصل بأرض ترمذ، وفيها الجبال والسهول^(٨)، وهي بلاد مجتمعة وراء نهر جيحون، وهي كورة عظيمة

(١) السمعاني: الأنساب، ج ٢ ص ٤١، الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٢٦.

(٢) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٣٣، ابن الفقيه: البلدان، ص ٦٢٠، الاضطخري: المسالك، ص ٢٩٨، مجهول: حدود، ص ١٢٨، الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٢٦.

(٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج ٣ ص ٤٠.

(٤) الاضطخري: المسالك، ص ٢٩٨، الحميري: الروض، ص ١٣٢.

(٥) المقدسي: أحسن، ص ٢٩١.

(٦) السمعاني: الأنساب، ج ٨ ص ٢٩٩، ابن خرداذبة: المسالك، ص ٣٣، الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٤٠٢.

(٧) الاضطخري: المسالك، ص ١٨٨، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٦٢، الإدريسي: نزهة، ص ٤٩١.

(٨) الاضطخري: المسالك، ص ١٦٧، المقدسي: أحسن، ص ٢٨٣، لسترنج: بلدان، ص ٤٨٢.

كثيرة الأهل، واسعة، كثيرة الماء والشجر، وسوقها كبيرة، ومسجدها مسجد حسن مشهور^(١)، ولهذه الناحية هواء جاف^(٢)، ويصفها المقدسي: "بأنها ناحية شديدة العمارة كثيرة الخيرات، ويشبه القصبة بالرملة، إلا أن تلك أطيب والناحية مثل فلسطين"^(٣)، وقاصد الصغانيان من الترمذ الى صرمنجان ستة فراسخ، ثم إلى دارزنجي ستة فراسخ، ثم إلى برنجي سبعة فراسخ، ثم إلى الصغانيان خمسة^(٤)، ومن مدنها:

• **دارزنج:** (بفتح الدال والراء المهملتين بينهما الألف وفتح الزاي وسكون النون، وفي آخرها الجيم)، وذكرت دارزنكا^(٥) ودارزنكي^(٦)، وعامة أهلها صوافون يعملون الأكسية، شربهم من النهر والجامع وسط الأسواق، ولهم نهر آخر طرف البلد^(٧).

• **الواشجرد:** (بفتح الواو وسكون الألف والشين المعجمة وكسر الجيم وسكون الراء، وفي آخرها الدال المهملة)^(٨)، وهي مدينة ثغر عظيم، وبلد واسع فيه سبعة حصن حصينة، وذلك أنهم يغزون الترك، وبينهم وبين أرض الترك أربعة فراسخ^(٩)، ويصدّر منها الزعفران على سائر الآفاق^(١٠). ومن مدنها أيضاً: باسند، وبانياب، وبهام، وحردن، وزينور، وكاسك، وهنبان.

د- مدن طخارستان السفلى:

١. **خلم:** (بضم الخاء المنقوطة وبوحدة وسكون اللام)، وهي مدينة صغيرة فيها قرى ورساتيق وشعاب، وزروعها كثيرة، كثيرة الرياح ليلاً ونهاراً في الصيف^(١١)، تقع بين بلخ وطخارستان في الصحراء على سفح

(١) السمعاني: الأنساب، ج ٨ ص ٣١٠. ابن خرداذبة: المسالك، ص ٢١١.

(٢) مجهول: حدود، ص ١٢٩.

(٣) المقدسي: أحسن، ص ٢٨٣.

(٤) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٣٣.

(٥) اليعقوبي: البلدان، ص ١١٩.

(٦) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٢١١.

(٧) المقدسي: أحسن، ص ٢٨٣.

(٨) السمعاني: الأنساب، ج ١٣ ص ٢٦١.

(٩) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٢.

(١٠) الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٣٥٣.

(١١) السمعاني: الأنساب، ج ٥ ص ١٨٠، المقدسي: أحسن، ص ٣٠٣، ابن الشمائل: مراصد، ص ٤٧٨، الحموي: معجم

جبل، وبها نهر، وخراجها يؤخذ على المياه؛ وهي ذات مزارع وبساتين كثيرة^(١). هي بلاد الأزديين؛ أي: بلاد العرب أيام الفتوح^(٢). ولهذه المدينة أهمية كبيرة من الناحيتين التجارية والعسكرية حيث إنها تقع على ضفة نهر تحمل الاسم نفسه، وعلى مسافة غير بعيدة من مخرجه، وفيها دروب كثيرة تؤدي إلى جبال هندوكوش، وهي حالياً تحمل اسم تاش قرغان^(٣).

٢. سَمَنْجَان: (بكسر السين والميم وسكون النون وفتح الجيم)، وهي بين بلخ وبغلان^(٤)، وبها شعاب كثيرة وثمار وأشجار، وبها من العرب تميم^(٥)، ومن بلخ إلى بغلان ست مراحل، ومنها إلى سمنجان أربع مراحل^(٦)، ويُقدّم صاحب كتاب حدود العالم وصفاً جميلاً فيذكر: "أن مدينة سمنجان تقع بين الجبال التي أحجارها بيض كالرخام، وبها بيوت منحوتة في الصخر، ومواضع، وأبراج، وبيوت للأصنام، توجد في أبراجها صور لاصطبلات الخيول مع جميع معداتها محفورة عليها بأشكال مختلفة، وذلك من عمل الهنود يرتفع منها النبيذ الجيد والفواكه الكثيرة"^(٧)، ويضيف الإدريسي: "أنها مدينة حسنة أهلة عامرة بالتجار والناس، ولها سور من تراب"^(٨). ويرجح بارتولد أنها حالياً تسمى هييك^(٩). وهذه المنطقة المحصورة الواقعة بين خلم وسمنجان وبغلان ستكون مسرحاً للعمليات العسكرية بين العرب والأهالي، وسيذكر ذلك في فصل عمليات الفتوح.

البلدان، ج ٣ ص ٢٥٢.

(١) مجهول: حدود، ص ١٢١.

(٢) الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٨٥.

(٣) بارتولد: تركستان، ص ١٤٩.

(٤) قرية لاتزال إلى اليوم الحالي وتحمل الاسم نفسه وهي غير بعيدة عن مصب نهر بغلان: انظر: بارتولد:

تركستان، ص ١٤٩.

(٥) السمعاني: الأنساب، ج ٧ ص ٢٤١.

(٦) الاضطخري: المسالك، ص ٢٨٦.

(٧) مجهول: حدود، ص ١٢١.

(٨) المقدسي: نزهة، ص ٤٨٤.

(٩) بارتولد: تركستان، ص ١٤٩.

٤- إقليم فرغانة:

أ- فرغانة (الموقع والتسمية):

(بفتح الفاء وسكون الراء وفتح الغين المعجمة في آخرها النون)، هذه النسبة إلى موضعين، أحدهما فرغانة، وهي ولاية وراء الشاش من بلاد المشرق وراء نهر جيحون وسيحون، وأما الثاني فهو فرغان قرية من قرى فارس^(١)، والمقصود في هذه الدراسة الموضع الأول، وهي كورة في زاوية الإقليم من تلقاء جهة المشرق قبل الوصول إلى بلاد الترك وهي باب تركستان، وهي مجاورة أرض التبت^(٢)، ويسمى اليعقوبي مدينتها: كاسان، وهي مدينة جليلة القدر، عظيمة الأمر، ويجعلها إلى عمل سمرقند^(٣). ويذكر الاصطخري والمقدسي أن فرغانة اسم الإقليم وقصبتها أخسيكت أو أخشيكت^(٤)، ويقال: إن بها أربعين منبراً^(٥)، وأما نشأتها فيذكر ابن خرداذبة أن الذي بناها كسرى أنوشروان، ونقل إليها من كل بيت قوماً، وسمّاها ازهر خانه أو (هرخانه)، أي من كل بيت^(٦). وقد سميت في ظل السيطرة الروسية لها خانية خوقند، وبعد استقلالها عاد اسمها فرغانة، وبقيت عليه إلى يومنا الحالي^(٧).

ب- وصف فرغانة:

ناحية عامرة كبيرة ذات نعم وفيرة، وتحيط بها جبال كثيرة وصحار ومدن ومياه جارية^(٨)، وليس بما وراء النهر أكبر من قرى فرغانة، والقرية تبلغ مرحلة لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم ومزارعهم، وفرغانة كور، ولكل كورة منها عدة مدن، ولكل مدينة منها رستاق فيه عدة قرى^(٩)، أهلها من أتم الناس أمانة وديانة،

(١) السمعاني: الأنساب، ج ١٠ ص ١٨٨.

(٢) المقدسي: أحسن، ص ٢٦٢، مجهول: حدود، ص ١٣٠، ابن الوردي: خريدة، ص ١٢٦.

(٣) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٥.

(٤) الاصطخري: المسالك، ص ٣٣٥، المقدسي: أحسن، ص ٢٦٢.

(٥) الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٨٧٨.

(٦) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٣٠، القزويني، آثار، ص ٦٠٣.

(٧) فاميري: بخارى، ص ٦٩.

(٨) مجهول: حدود، ص ١٣٠.

(٩) الاصطخري، المسالك، ص ٣٣٣، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥١٣، الحموي: معجم البلدان،

ج ٤ ص ٢٥٣، العمري: مسالك الأبصار، ج ٣ ص ١٧٣.

وأحسن الناس صورة^(١).

ج- مدن فرغانة:

١. **أَخْسِيْكَتْ**: (بفتح الألف وسكون الخاء المعجمة وكسر السين المهملة وسكون الياء المنقوطة باثنتين من تحتها وفتح الكاف وفي آخرها الشاء المثلثة)^(٢) ويقال: أخشيكت^(٣)، وهي مدينة على شطّ نهر الشاش، على أرض مستوية، بينها وبين الجبال نحو نصف فرسخ، وهي على شمال النهر، ولها قهندز وريّض ودار إمارة والحبس في القهندز، ومقدارها في الكبر نحو ثلث فرسخ، وبنائها من طين، وعلى ريبها سور، وللمدينة الداخلة خمسة أبواب: باب بجير، وباب المرقشة، وباب كاسان، وباب الجامع، وباب رهابة، وفي كلّ باب من أبواب ريبها يفضي إلى بساتين ملتقّة، وأنهار جارية لا ينقطع مقدار فرسخين^(٤)، ومن شعر أبي رشاد أحمد بن محمد بن القاسم، الأديب الشاعر، وهو من أهلها:

من سوى تربة أرضي خلق الله اللثاما
إن أخسيكت أم لم تلد إلا الكراما^(٥)

ويذكر بارتولد قلعتها باسم أسكي أخسي ومساحتها ألف خطوة من الغرب إلى الشرق وستمئة من الشمال إلى الجنوب، وتقع على مئة وخمسين قدماً فوق مستوى نهر سيرديا (سيحون)^(٦).
٢. **قُبَا**: (بضم القاف وفتح الباء المنقوطة من تحتها بنقطة)، وهي بلدة كبيرة من بلاد فرغانة^(٧)، من أنزه تلك المدن لها قلعة وريّض، وجامع، وأسواق^(٨)، وأكثر مدن ناحية فرغانة حسناً^(٩)، وتقارب

(١) القزويني: آثار، ص ٢٣٥.

(٢) ابن الأثير: اللباب، ص ٣٤.

(٣) ابن حوقل: صورة، ج ١ ص ٥١٢، الحميري: الروض، ص ٤٤٠.

(٤) الإدريسي: نزهة، ج ٢ ص ٧٠٦، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤ ص ٤٣٨، الحموي: معجم البلدان،

ج ١ ص ١٢١، الحميري: الروض، ص ١٨.

(٥) الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ١٢٢.

(٦) بارتولد: تركستان، ص ٢٧٣.

(٧) السمعاني: الأنساب، ج ١ ص ٣٢٢.

(٨) الاضطخري: المسالك، ص ٣٣٣.

(٩) مجهول: حدود، ص ١٣١.

أخسيكث في المساحة، ولها بساتين كثيرة ومياهها تزيد على مياه أخسيكث وبساتينها^(١)، وقد قال الحكماء فيها: "فرغانة قبا، وما سواها حشيش وما"^(٢)، وهي مدينة عالية الأسوار حسنة الأقطار، كثيرة البركات، جامعة لأنواع الخيرات، ولها رستاق عامر فيه قرى كثيرة^(٣).

٣. **خُجَنْد:** (بضم الخاء المعجمة وفتح الجيم وسكون النون وفي آخرها الدال)، ويقال خجندة لها بزيادة التاء^(٤)، وهي من مدن فرغانة إلا أنها ذكرت ولمرة واحدة أنها من مدن سمرقند^(٥)، وهي متاخمة لفرغانة تقع على غربي نهر الشاش، ولها مفرقان من الطرق أحدهما إلى فرغانة، والآخر إلى الشاش^(٦)، ويقال لها بالفارسية (دل ببرده)، ويذكر هذا الاسم في شعر ممن هو من أهلها وينقله ابن الفقيه:

ولم أر بلدة بإزاء شرق ولا غرب بأنزه من خجنده
هي الغراء تعجب من رآها وهي بالفارسية دل ببرده^(٧)

هي مدينة طيبة، خيرها كثير، وطولها أكثر من عرضها، وكلها كروم وبساتين، وليس في عملها مدينة غير كند، وبساتينها ودورها متفرقة، ولها قرى يسيرة، ومدينة وقهندز، وجامعها في المدينة ودار الإمارة في الميدان بالربض، والحبس في القهندز، وهي مدينة نزهة بها فواكه حسنة، وتنحدر إليهم السفن من نهر الشاش^(٨). ويصفها المقدسي: "بأنها مدينة نزيهة ليس بهذا الجانب أطيب منها، وفي وسطها نهر جارٍ والجبل متصل بها"^(٩).

٤. **أوزكند:** (بالضم والواو والزاي ساكنان وفتح الكاف، وسكون النون ودال مهملة)^(١٠)، وكتبت يوزكند

(١) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥١٣.

(٢) المقدسي: أحسن، ص ٢٧٢.

(٣) الحميري: الروض، ص ٤٧٣.

(٤) السمعاني: الأنساب، ج ٥ ص ٥٣.

(٥) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٦.

(٦) قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٢٠٧، ابن الفقيه: البلدان، ص ٣٢٢.

(٧) ابن الفقيه: البلدان، ص ٦٢١.

(٨) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥١١.

(٩) المقدسي: أحسن، ص ٢٧٢.

(١٠) السمعاني: الأنساب، ج ١ ص ٣٨٨.

وأوزجند^(١)، وهي آخر مدن فرغانة مما يلي دار الأتراك شرقاً، وهي مدينة كبيرة عامرة بالناس، ولها قرى كثيرة، وعدة أبواب، وليس في عملها مدينة غيرها^(٢)، ويرى ابن حوقل أن أوزكند اسم لمدينة، ولها إقليم واسع، وقرى فسيحة، كما أن أوزكند باب الترك، ويعرف هذا الموضع (بمفت ده)^(٣)، وللمدينة نهر باسمها، يخرج من وراء جبل الخلخل، ويمر بها ليتابع مسيره حتى يصب في بحيرة خوارزم^(٤).

٥. أوش: (بضم الألف والشين المعجمة المكسورة)^(٥)، وهي قرية عظيمة عامرة مسورة بها قلعة، ودار إمارة، ولها سور وأربعة أبواب، وهي ملاصقة للجبل، ويتوسطها نهر أوش الذي يصب في نهر أوزكند^(٦).

ومن مدن فرغانة أيضاً: إسبرة، واستيفان، واول، وجدغل، وخيلام، ورشتان، ومنارة، ميان رودان.

٥- إقليم أشروسنة:

أ- أشروسنة: (الموقع والتسمية):

ويقال أسروسنة: (بالفتح ثم السكون، وضم الراء، وسكون الواو، وفتح الشين المعجمة، ونون، بالسين المهملة بعد الهمزة)^(٧)، والأشهر والأعرف أن بعد الهمزة شيناً معجمة فهي أشروسنة، وبهذا الاسم أشهر، وهو ما يلفظه أهل تلك البلاد^(٨) وكتبت أشروسنة وشروسنة^(٩)، وهي بلدة كبيرة وراء سمرقند في الإقليم الرابع، وبعضهم يجعلها بما وراء النهر من أعمال بخارى^(١٠)، ومملكة أشروسنة واسعة جليلة يقال:

(١) قدامة بن جعفر: الخراج، ٢٠٨، الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٧٠.

(٢) الإدريسي: نزهة، ص ٥٠٨.

(٣) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥١٤.

(٤) مجهول: حدود، ص ٥٧.

(٥) السمعاني: الأنساب، ج ١ ص ٣٨٩، ابن الأثير: اللباب، ج ١ ص ٩٤.

(٦) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٢٠٨، مجهول: حدود، ص ٥٧، الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٨١.

(٧) السمعاني: الأنساب، ج ١ ص ٢٢٠، ابن الأثير: اللباب، ج ١ ص ٥٤، السيوطي: لب اللباب، ص ١٣، اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٥.

(٨) الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ١٧٧، ابن الشماثل: مراصد، ص ٧٢.

(٩) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٢٠٧، المقدسي: أحسن، ص ٣٤٥.

(١٠) القزويني: آثار، ص ٥٤٠.

إن فيها أربعمئة حصن^(١)، ويقع بحدودها الغربية سمرقند وشماليها الشاش، وبعض فرغانة وجنوبيها كش والصغانيان وراشت، وشرقيها بعض فرغانة^(٢)، وأشروسنة اسم لأرض كما أن العراق اسم أرض والشام مثله، وكذلك الصغد هذه كلها أسماء أراضين، ولكل أرض منها عدة بلاد، وليس بإقليم أشروسنة مدينة اسمها أشروسنة، وإنما هي اسم الأرض^(٣)، وهي بلدة من بلاد الهياطلة بين سيحون وسمرقند، وبينها وبين سمرقند ستة وعشرون فرسخاً، طولها إحدى وتسعون درجة وسدس، وعرضها ست وثلاثون درجة وثلثان^(٤)، وليس بجميع أشروسنة نهر تجري فيه سفينة ولا بها بحيرة غير أنّ مزارعها ومراعيها وقراها عامرة خصبة، كثيرة الخير، كثيرة المدن والقرى، والغالب عليها الجبال^(٥).

ب- مدن أشروسنة:

١. **بونجكت**: وتكتب بونجكت وبنجت وبوجكت وبنجكت، هي قسبة أشروسنة، وبنائها طين وخشب، وهي مدينة داخلها مدينة أخرى على كلّ منهما سور، وللمدينة الداخلة بابان: باب المدينة والباب الأعلى، ويجري في المدينة الداخلة نهر كبير، وفيها القلعة والمسجد والأسواق، والمدينة الخارجة يحيط بها سور ضخّم بثلاثة فراسخ، ولها أبواب أربعة: باب زامين، وباب مرسمندة، وباب نوجكت، وباب كلهباز، ولها ستة أنهار كلها من منبع واحد، يبعد من المدينة أقل من نصف فرسخ^(٦)، وهذه الأنهار جعلت من المدينة غاية الخصب، وقد وصل عدد سكانها كما يذكره المقدسي نحو عشرة آلاف نسمة^(٧)، وهي حالياً تسمى (أرايتة)^(٨).

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٥، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤ ص ٤٣٣.

(٢) الاضطخري: المسالك، ص ٣٢٥، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥٠٣، العمري: مسالك الأبصار، ص ٣ ص ١٧٤.

(٣) الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٥٠٤.

(٤) الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ١٩٧.

(٥) الاضطخري: المسالك، ص ٣٢٥.

(٦) الاضطخري: المسالك، ص ٣٢٥، مجهول: حدود، ص ١٣٠، المقدسي: أحسن، ص ٢٧٧.

(٧) المقدسي: أحسن، ص ٢٧٧.

(٨) بارتولد: تركستان، ص ٢٨٠، لسترنج بلدان، ص ٥٨١.

٢. زامين: (بفتح الزاي وكسر الميم وسكون الياء المنقوطة باثنتين من تحتها، وفي آخرها النون)^(١)، ينسبها بعضهم إلى بخارى وبعضهم الآخر إلى سمرقند^(٢)، وفي الحقيقة هي من مدن أسروشنة وهي ثاني مدن الإقليم من حيث المساحة بعد بونجكت^(٣)، بين جبال أشروسنة وبلاد الغزية صحراء ليس بها جبال^(٤)، وهي مدينة عامرة على طريق خجندة وفرغانة كثيرة البشر، حصينة، لها سور وخندق، وأرزاق كثيرة^(٥)، وزامين هو الاسم القديم للمدينة التي تهدمت وبني فيما بعد مدينة أخرى سميت سوسند، وهي على جانبي النهر، فأقام الناس عليها جسوراً صغيرة للعبور^(٦).

٣. ساباط: (بفتح السين المهملة والباء المنقوطة بواحدة بين الألفين وفي آخرها الطاء المهملة)^(٧)، وهي بين زامين وبونجكت بلدة عظيمة معروفة بما وراء النهر تبعد عشرين فرسخاً عن سمرقند^(٨)، لها طريقان أحدهما إلى فرغانة^(٩)، وما زالت قائمة^(١٠).

ومن مدنها أيضاً: ديزك، و خشت، وقطوان، وكركث، ومينك، والبتم، وغيرها.

٦- إقليم الشاش:

أ- الشاش: الموقع والتسمية:

(بالألف الساكن بين الشينين المعجمتين)^(١١)، هذه النسبة إلى مدينة وراء نهر سيحون يقال لها:

(١) السمعاني: الأنساب، ج٦ ص٢٣٤، ابن الأثير: اللباب، ج٢ ص٥٤.

(٢) السمعاني: الأنساب، ج٦ ص٢٣٤، بارتولد: تركستان، ص٢٨٠.

(٣) الحموي: معجم البلدان، ج٣ ص١٢٨، العمري: مسالك الأبصار، ج٣ ص١٧٤.

(٤) مجهول: حدود، ص١٣٠.

(٥) الإدريسي: نزهة، ص٥٠٥.

(٦) المقدسي: أحسن، ص١٢٨.

(٧) السمعاني: الأنساب، ج٧ ص١.

(٨) ابن الأثير: اللباب، ج٢ ص٨٩.

(٩) ابن خرداذبة: المسالك، ص٢٠٧.

(١٠) لسترنج: بلدان، ص٥١٨.

(١١) السمعاني: الأنساب، ج٨ ص١٣.

الشاش، كان الفرس يطلقون عليها (جاج)^(١)، ومن ثم سماها العرب الشاش، وإنّ الشاش مأخوذ من اسم بالتركية وهو (تاش كند) أي قرية الحجارة، أو برج الحجارة^(٢)، وقد حُرّف سكانها الأتراك تسميتها؛ أي حولت لـ (تاشكنت)، من ثم طشقند الحالية؛ لتكون عاصمة جمهورية أوزبكستان^(٣)، وتقع مدينة الشاش غربي فرغانة على ضفة نهر سيحون اليمنى؛ أي الشمالية الشرقية متاخمة لبلاد الترك، طولها مئة وأربع وعشرون درجة، وعرضها خمس وأربعون درجة،^(٤) وهي إقليم واسع، فمقدار عرض الشاش مسيرة يومين إلى ثلاثة أيام، وليس بخراسان وما وراء النهر إقليم على مقداره من المساحة^(٥)، وهي من ثغور الترك، ومن فرغانة إلى الشاش خمس مراحل، ومن سمرقند إلى زامين سبعة عشر فرسخاً، وزامين مفرق الطريقين إلى الشاش والترك وفرغانة، فمن زامين إلى الشاش خمسة وعشرون فرسخاً، ومن الشاش إلى معدن الفضة سبعة فراسخ وإلى باب الحديد ميلان، ومن الشاش إلى بارجاخ أربعون فرسخاً، ومن الشاش إلى إسفيجاب اثنان وعشرون فرسخاً^(٦).

ب- وصف المدينة:

الشاش في أرض سهلة، ليس في هذه العمارة المتصلة جبل ولا أرض مرتفعة، وهي أكبر ثغر في وجه الترك، وأبنيتهم واسعة من طين، وعامة دورهم يجري فيها الماء، وهي كثيرة بالخضرة من أنزه بلاد ما وراء النهر، ويشق البلد أنهار كثيرة تسقي البساتين والأشجار، وبساتينها ومتنزهاتها كثيرة^(٧).

ج- مدن الشاش:

١. بنكت: (بكسر الباء وسكون النون وفتح الكاف)، وفي آخرها عاصمة الإقليم^(٨)، وكانت تنقسم

(١) القزويني: آثار، ص ٥٤٨، العمري: مسالك الأبصار، ج ٣ ص ١٤٤، فامبري: بخارى، ص ٩٤.

(٢) البيروني: تحقيق ما للهند، ص ٢٢٣.

(٣) لسترنج: بلدان، ص ٥٢٥.

(٤) الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٣٠٨.

(٥) ابن حوقل: صورة، ص ٥٠٧، القزويني: آثار، ص ٥٣٨.

(٦) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٦.

(٧) الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٣٠٩، الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٧٠٣، القزويني: آثار، ص ٥٣٨.

(٨) السمعاني: الأنساب، ج ١ ص ٣٤١، ابن الأثير: اللباب، ج ١ ص ١٨١.

كباقي مدن بلاد ما وراء النهر إلى قسمين: مدينة داخلية، وأخرى خارجية، وأما المدينة الداخلية: فتبلغ مساحتها فرسخاً في مثله، ولها ثلاثة أبواب، وهي: باب أبي العباس، وباب كش؛ وقد ورد اسم هذا الباب عند ابن حوقل (كثير) الذي يصل إلى سمرقند، وباب الجنيد، وابن حوقل ذكره (الجنيد)^(١)، وتماز المدينة بقلعتها الضخمة التي تحميها من هجمات الترك^(٢)، وعلى الرض الأول أبواب، فمنها: باب يعرف بباب رباط حمدين، وباب الحديد الداخل، وباب الأمير، وباب الفرخان، باب سوركة، وباب كرمانج، وباب سكة سهل، وباب راشديجاق، وباب سكة خاقان، وباب قصر الدهقان، وعلى الرض الخارج أبواب، فمنها: باب فرغد، وباب خاشكث، وباب سكنديجاق، وباب الحديد، وباب باكرديجاق، وباب سكرك، وباب درفرياد^(٣). ويقدم المقدسي وصفاً أدبياً رائعاً لقصبة الشاش، فيقول: "هي قصبة الشاش واسعة الرقعة فسيحة المنازل أقل بيت إلا وفيه البستان والاسطبل والكرم، وجملتها وصفها أنها بلد قد قابل خير شره وساوى مفاخره عيوبه، هي كثيرة الخير والفتن، لسان مليح، وهرج قبيح أحسن ما تراها عامرة إلا وقد خربت ومستقيمة، وأهل منعة، صالحهم نفيس وطالحهم خسيس في العلم راغبون"^(٤).

٢. أسفيجياب: (بكسر الألف وسكون السين وكسر الفاء وسكون الياء المنقوطة باثنتين من تحتها وفتح الجيم وفي آخرها الباء المنقوطة بواحدة)^(٥)، وكتبت أسبيشاب^(٦)، وكتبت أسبيجاب^(٧)، اسم بلدة كبيرة من أعيان بلاد ما وراء النهر في حدود تركستان، ولها ولاية واسعة، وقرى كثيرة، وكانت من أعمار بلاد الله، وأنزهها وأوسعها خصباً وشجراً، ومياهاً جارية، ورياضاً مزهرة، ولم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلد لا خراج عليه إلا أسفيجياب؛ لأنها كانت ثغراً عظيماً، فكانت

(١) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥٠٨.

(٢) المقدسي: أحسن، ص ٢٧٦.

(٣) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥٠٩.

(٤) المقدسي: أحسن، ص ٢٧٦، الإدريسي: نزهة، ص ٧٠٢، لسترنج: البلدان، ص ٥٢٥.

(٥) السمعاني: الأنساب، ج ١ ص ٢٣٠.

(٦) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٢٠٤، اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٦، ابن الفقيه: البلدان، ص ٦٠٠.

(٧) الاضطخري: المسالك، ص ٣٤٦، مجهول: حدود، ص ١٣٤، المقدسي: أحسن، ص ٢٧٢.

تعفى من الخراج؛ وذلك ليصرف أهلها خراجها في ثمن السلاح والمعونة^(١)، ويصفها المقدسي: قصبة خطيرة، لها روض، ومدينة عامرة بها سوق الكرابيس، والجامع بأربعة أبواب على كل باب رباط، والأبواب هي: باب نوجكت (نوجكت)، وباب فرخان (فرخان)، وباب شاكرانة (سراكراته)، وباب بخارى، أما الرباطات: رباط النخشبين، ورباط البخاريين، ورباط السمرقنديين، ورباط قراتكين، ويقال: فيها ألف وسبعمئة رباط^(٢).

٣. فاراب: (بفتح الفاء والراء المهملة بين الألفين وفي آخرها الباء المنقوطة بواحدة)^(٣)، ويقال لها: باراب^(٤)، مدينة صغيرة في تخوم الترك، وعلى الضفة الشرقية لنهر سيحون مقدارها في الطول والعرض أقل من مرحلة، وهي أرض سبخة^(٥). وباراب عند المقدسي: هو اسم للريستاق وليس بالواسع، واسم أكبر مدائنها أيضاً باراب وهي كبيرة، وأهلها أهل جهاد لقرب مدينتهم من حدود الترك، عليها حصن فيه الجامع وأسواق وقهندز ومعظم الأسواق في الرض وبالحصن حوانيت^(٦).

٤. تونكت: (بضم التاء ثالث الحروف بعدها الواو ثم النون الساكنة وفتح الكاف وفي آخرها التاء المثلثة)^(٧)، وتونكت قصبة إيلاق، فهي أقل من نصف بنكت، ولها قهندز ومدينة وروض، وأسواقها داخل المدينة، ولهم في المدينة والروض ماء جار، وعليها سوران حصينان، وفي سورها عدة أبواب^(٨).

ومن المدن أيضاً: أشتوركث، وأغناق، وخرشكت، وغناج، وسخاخ، والسوج، وصوناخ، . . . الخ. هذا العرض الجغرافي لبلاد ما وراء النهر يجعل البحث أمام مساحات واسعة من الأراضي الشاسعة

(١) الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ١٧٩، ابن الشمائل: مرصد، ص ٧٢، الحميري: الروض، ص ٥٦.

(٢) المقدسي: أحسن، ص ٢٧٣.

(٣) السمعاني: الأنساب، ج ١ ص ١١٦، ابن خرداذبة، المسالك، ص ٣١.

(٤) الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٣١٨.

(٥) القزويني: آثار، ص ٦٠٣، ابن الشمائل: مرصد، ج ٣ ص ١٠١، الحميري: الروض، ص ٤٣٣.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٢٧٣.

(٧) السمعاني: الأنساب، ج ٣ ص ١١٢، ابن الأثير: اللباب، ج ١ ص ٢٣٠.

(٨) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥٠٩، الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٦٢، ابن الشمائل: مرصد، ص ٢٨٢.

والجغرافية المعقدة التي سيكون لها دور كبير على الفاتحين، والفتوحات العربية الإسلامية للمنطقة التي ستكون بمنزلة قلعة حصينة في وجه الفاتحين، ويتطلب منهم الجهد الكبير في تحركاتهم، ولاسيما وهم جاهلون بطبيعة البلاد، ولكن استطاعوا أن يذلوا الصعاب في سبيل تحقيق هدفهم، ومن جهة أخرى يتبين أن بلاد ما وراء النهر ذات خصب كبير، وتنوع في إنتاجها لتنوع المناخ، وتنوع التربة الصالحة للزراعة المختلفة، ولا يمكن إغفال قسوة المناخ والبرودة التي يجمد منها نهر جيحون.

الفصل الثاني

أوضاع بلاد ما وراء النهر قبيل الفتح العربي الإسلامي

أولاً- الأوضاع السياسية في بلاد ما وراء النهر:
١- ممالك بلاد ما وراء النهر.
٢- الترك ودويلاتهم.
٣- نظام الحكم.
٤- ألقاب الملوك.
ثانياً- الأوضاع الاقتصادية في بلاد ما وراء النهر:
١- الموارد المائية.
٢- الزراعة.
٣- الثروة الحيوانية.
٤- الثروات الطبيعية.
٥- التجارة.
٦- البضائع والأسواق.
٧- الصناعة.
ثالثاً- الأوضاع الاجتماعية في بلاد ما وراء النهر:
١- العناصر السكانية.

٢ - الفئات الاجتماعية.
٣- أهم مظاهر الحياة الاجتماعية.
رابعاً- الأوضاع الدينية في بلاد ما وراء النهر:
١- الزرادشتية.
٢- البوذية.
٣- المانوية.
٤- المزدكية.
٥- المسيحية.

أولاً- الأوضاع السياسية في بلاد ما وراء النهر:

تم الإشارة في الفصل الأول الجغرافي من هذا البحث على أن العرب أطلقوا على هذه المنطقة بلاد ما وراء النهر، والمقصود به نهر جيحون الحد الفاصل بين طبيعتين مختلفتين جغرافياً واجتماعياً، فهو يفصل بين الأقاليم الفارسية والتركية؛ أي: إيران وتوران وفي شمال جيحون الهياطلة (الأفثاليون)، ويعرفون بالهون البيض أعداء الساسانيين^(١)، وأن بلاد ما وراء النهر لم تعرف قيام حكومة مركزية، بل ظهرت فيها عدة ممالك مستقلة عن بعضها بعضاً وكانت متحاربة باستمرار^(٢)، وبين دفتي نهر سيحون وجيحون أقاليم مختلفة؛ وهي أراضٍ واسعة تقسم بها المملكة إلى أجزاء^(٣)، ويؤكد هذه الحقيقة جب بقوله: كانت الولايات في هذه المنطقة تعترف بـ (الخان) سيداً لها، وتدفع له الجزية، وكانت إمارة الصغد مقسمة إلى ولايات صغيرة مستقلة تقوم بينها معاهدات مرنة، وقد ارتبطت الولايات برباط سيادة أسرة معينة فيها على جميع الأسر الأخرى لكن لم يكن رباطاً وثيقاً، وكان إلى جانب هؤلاء الأمراء سادة محليون لا تتجاوز سلطة الواحد منهم حدود قراه، وكذلك كان الحال في منطقة سيحون^(٤)، وبمعنى آخر فهذه الأقاليم هي تنظيمات إدارية بحتة هدفها السيطرة على هذه الأراضي والقدرة على تنسيقها وضبطها ليسهل إدارتها، وهي بلا شك تقلص أو تتوسع تبعاً للظروف السياسية التي تعصف بتلك المناطق، ويمكن القول: إنها مؤسسات إدارية يحدث فيها بعض التطورات نتيجة بعض التغيرات السياسية، وقد يكون اختلاف الأجناس في بلاد ما وراء النهر وتعددتها هو السبب الرئيس في حالة الصراع المستمر بين هذه الممالك، وتوسع كل منها على حساب الأخرى، وقد ذكر بارتولد قائلاً: وفي العصر الأموي عندما دخل العرب بلاد ما وراء النهر وجدوا أنفسهم أمام عدد كبير من الممالك والإمارات الصغيرة المستقلة بحكامها الأصليين، ويضاف إلى أن هؤلاء الحكام لم يكونوا أجانبا^(٥)، وهذه الممالك تختلف نشأتها من مملكة إلى أخرى، وفيما يلي نموذجان ذُكرا في المصادر، فالأولى منهما

(١) المقدسي: أحسن، ص ٢٨٤، لسترنج: بلدان، ص ٤٧٦.

(٢) عبد اللطيف: عبد الشافي محمد، العالم الإسلامي في العصر الأموي دراسة سياسية، دار السلام، ط ١، القاهرة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٣٣٨.

(٣) الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٢٥.

(٤) GIBB, H.A.R : The Arb Conquests in Central Asia, New yark, 1970,p 6-7

(٥) بارتولد: تركستان، ص ٣٠١، عبدالله: جهاد عزت، دور العرب الحضاري في سمرقند من الفتح العربي، بغداد، كلية=

هي ما أشار إليه النرشخي: "أن بدايات نزوح السكان إلى بخارى التي كانت خراباً غير عامر تجمع بها الناس وعملوا على بنائها وازدهارها، واختاروا من بينهم شخصاً نصبوه أميراً عليهم، وعندما استبد استنجد الأهالي بملك الترك، وبعد الخلاص منه استدعى ملك الترك الأثرياء الذين هربوا من الظلم والاستبداد، وسمح لهم أن يجعلوا من أنفسهم طبقة من النبلاء عرفت باسم (خدا)، وأصبح الفقراء هم الرعية"^(١). فمن هذا النوع من تأسيس الممالك يبدو أنه بدأت ظهور فكرت الطبقات الغنية كحاكمة وظهور مبدأ التوريث، لأن هناك علاقات طيبة بين أترك ما وراء النهر والقاطنين خارجها، وأن مبدأ التدخل الخارجي مقبول في بعض الصراعات السياسية^(٢).

وأما النوع الثاني من تأسيس الممالك في بلاد ما وراء النهر فهو ما يذكره المقدسي عن مملكة خوارزم التي كان سبب نشأتها: أحد الملوك القدماء الذي غضب على أربعئة من أهل مملكته، لا سيما حاشيته، فأمر بنفيهم إلى موضع بعيد عن المدينة، وأرسل إليهم أربعئة جارية تركية، وأمدهم بطعام، وأمرهم بالزرع والمقام هناك، فلذلك في وجوههم أثر الترك، وفي طباعهم أخلاق الترك، وفيهم جلد وقوة^(٣)، ويرجح أن الممالك التي كانت في حوض نهر جيحون نشأت قبل الممالك السيوونية القريبة من نهر سيحون، وذلك عائد إلى الوعي السياسي الذي اكتسبته الممالك في حوض نهر جيحون من الدولة الأخمينية خلال عمل الملك الأخميني قورش (٥٥٨-٥٢٩ ق.م) عندما حول ثقل عملياته العسكرية إلى الشرق عابراً بلاد ما وراء النهر، وسيطر على مركز المنطقة المتمثل بسمرقند، وجعل من نهر سيحون حدوداً شمالية لإمبراطوريته بإقامة عدة تحصينات عسكرية لحماية حدوده من هجمات قبائل البدو الذين كانوا يتمركزون في أواسط آسيا^(٤)، وعبور قورش لها ليس سياسياً فقط، بل كانت له أطماع تجارية، بل ربما يكون هذا الهدف الرئيس له، ولم تدم السيطرة الأخمينية طويلاً، فقد تنازل قورش عن سيطرته لتلك البلاد أمام قوة الترك في إحدى المعارك

=الآداب، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ص ٥٢.

(١) النرشخي: تاريخ، ص ٢١.

(٢) الداغر: نزار عبد المحسن جعفر، ممالك ما وراء النهر، مجلة أبحاث البصرة، العدد ١، مج ٤٣، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، ص ٥٥٨.

(٣) الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٩٦، المقدسي: أحسن، ص ٢٨٥.

(٤) يحيى: أسامة عدنان، تاريخ الشرق الأدنى القديم، أشور بانيبال للكتاب، بغداد، ط ١، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، ص ٧٧.

التي دفع قورش حياته ثمناً في إحداها سنة ٥٣٠ ق.م^(١)، وأما الإسكندر المقدوني فقد تعدا ما وراء النهر حتى وصل الصين وما بعدها، وحقق انتصارات كبيرة في بلاد ما وراء النهر، وشجع على تشكيل ممالك جديدة غير تلك التي كانت تدين للأخمينية، ولعل أهمها تلك الإقطاعات الزراعية التي تطورت فيما بعد بتشجيع من الإسكندر الذي كان هدفه تشتيت الكلمة فيما بينهم، والانتقيا إلى ملك واحد يجمع كلمتهم ليرجع إليه الأمر^(٢)، وفي ظل الدولة الساسانية (٢٢٤-٦٥١م) التي استطاعت أن تفرض نوعاً من الوصاية العسكرية التي وصلت خوارزم والصغد، وكان لهم تأثير إداري في المنطقة، والدلالة على ذلك ما حملة بعض ملوك المنطقة من ألقاب تحمل في مدلولها التأثير الفارسي (خوارزم شاه)، والشاه أو الشاهية لقب ملوك الفرس أو من تشبه بهم ومنح ذلك لذرية الملك كيخسرو الفارسي أي أنهم ذو تبعية للأكاسرة أو من نسل أكاسرة الفرس^(٣)، ولكن المجري فامبري يرى أن هذه الأسماء الفارسية في منطقة بلاد ما وراء النهر هي قديمة في أصلها كون فامبري يرى أن هذه المنطقة آرية فارسية، وأن الأتراك مهاجرون إليها^(٤).

وأما الممالك في حوض سيحون فمن الطبيعي أن تكون ذات تأثير تركي صيني لقرىها من الحدود الصينية حتى إن الاصطخري يجعلها من الأراضي المأخوذة من الصين فيقول: "وأخذ من مملكة الصين ما وراء النهر"^(٥)، وكانت هذه الممالك تحصل على الأمان من خلال الدعم الصيني أو من ممالك الترك الكبيرة ويشير فامبري إلى وجود ممالك مستقلة تؤمن لنفسها الحماية دون اللجوء للآخرين، ومنها

(١) الاصطخري: المسالك، ص ١٧٧، المقدسي: أحسن، ص ٢٢٢، ديورانت: قصة، ج ٢ ص ٤٠٥، يحيى: تاريخ الشرق، ص ٧٨.

(٢) الكرديزي: أبوسعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمود ت ٤٤٣هـ/١٠٤١م، زين الاخبار، تر: عفاف السيد زيدان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ص ٦٧، المسعودي: علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ج ١ ص ٢٤٢.

(٣) الكرديزي: زين، ص ٥٩، البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحرير: إدوارد سخاو، ليبزج، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م، ص ٣٧، الباشا: حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والأخبار، النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م، ص ٣٥٢، كريستنسن: آرثر، إيران في عهد الساسانيين، تر: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٩هـ/١٩٩٨م، ص ١٦.

(٤) فامبري: بخارى، ص ٤٤.

(٥) الاصطخري: المسالك، ص ٣١٢.

أشروسنة، وفرغانة، والشاش، حيث كان بينهم تقارب وتعاون أو اتحاد^(١)، وسيوضح هذا لاحقاً أثناء عرض الفتوحات في ولاية قتيبة في الفصل الثالث.

١- ممالك بلاد ما وراء النهر:

ومن الحديث العام عن ممالك ما وراء النهر يكون الحديث الآن عن بعض الممالك بحسب توفر المادة العلمية حيث إنها شحيحة جداً، ولا سيما الحقبة الزمنية التي قبل الإسلام ومُلوك بلاد ما وراء النهر كانوا كمُلوك الطوائف، لهم استقلالهم الذاتي في أوقات السلام، ولكنَّ الحرب تجمعهم ليُصبحوا صفًا واحدًا على عدُوهم المشترك في الدفاع عن مصالحهم المشتركة^(٢)، وكانت قد تكوَّنت في بلاد ما وراء النهر ممالك مُستقلَّة غير واضحة التاريخ أو الخُدود، بعضُها يشمل أقاليم واسعة أو مُدناً مُفردة، أهمها:

أ- **مملكة طُخارستان:** وتقع على ضفتي نهر جيحون، وعاصمتها مدينة بلخ^(٣)، وهي مملكةٌ واسعة تنقسمُ إلى طُخارستان العليا والسفلى^(٤)، وبها أبنية كسروية ذات نقوش وصنعة عجيبة، وتدعى النوبهار^(٥)، وكان يسكنها شعبٌ عُرف بالطُخاريَّة كان شديد الصلة باليونان. وهذه البلاد حكمتها أسرة قبل الإسلام، لعلها من أصلٍ تركيٍّ، وهي مقرّ مملكة الهياطلة^(٦)، عُرف مُلوكُها بلقب جبغوية، ويبدو أنَّ سيطرتها على بلخ وطالقان كانت اسميَّة، وأنها انكمشت في جزءٍ صغيرٍ منها^(٧).

(١) فامبري: بخارى، ص ٢٤، علي: جاسم صكبان، تاريخ صدر الإسلام والخلافة الأموية، دار الفكر، عمان، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ١٥١، القطوري: الصفصافي أحمد: إطلالة على ثقافة الترك وحضارتهم القديمة، النسر الذهبي، القاهرة، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ٧٤.

(٢) خطاب: محمود شيث، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص ٧٧.

(٣) البيهقي: البلدان، ص ١٢٠.

(٤) الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٢٣.

(٥) مجهول: حدود، ص ١٢١.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤ ص ٤٤١.

(٧) البلاذري: فتوح، ص ٤٠٨، ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م، عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص ١٨٩.

- ب- **مملكة الختل**: ولقب ملكها ختلان شاه، ويقال: شيرختلان^(١)، وقصبتها هلبك، وهي أول إمارة في ما وراء نهر جيحون على حدود السند^(٢)، وإن كانت المصادر التاريخية لم تقدم الشيء الكثير عن تاريخ هذه البلاد قبل الفتح العربي الإسلامي إلا أنهم في القرن الثاني عشر الميلادي كانوا لا يزالون ينسبون إلى الملك الساساني بهرام (٤٢٠-٤٣٨م)^(٣).
- ج- **مملكة صغانيان**: وقصبتها صغانيان، أو جغانيان، وهي إقليم عظيم من ما وراء النهر تجري إليه عدة أفرع من جيحون، وهي مملكة محصنة من موقعها الطبيعي في سفح جبل^(٤)، وأهم مدنها شومان التي قد تكون مُستقلة عنها، وكان لقب ملك صغانيان هو صغان خذاه^(٥).
- د- **مملكة الصغد**: ويلقب ملكها بطرخون^(٦)، وهي بلاد عريضة تمتد من جيحون إلى سيحون، وتُحيطُ بنهر الصغد المسمى أيضًا زرفشان داخل بلاد ما وراء النهر، وكانت عبارة عن قري ومدن متصلة، فقد كانت لها حضارة متميزة بالغة، وكان الصغديون يولون أهمية كبيرة للفرسان حتى قيل: ولأهل الصغد مائدة يوضع عليها لحم وخبز وإبريق شراب، وذلك في كل عام يوماً، يجعل ذلك لفارس الصغد فلا يقربه أحد غيره، هو طعامه في ذلك اليوم، فإن أكل منه أحد غيره بارزه فأيهما قتل صاحبه فالمائدة له^(٧)، والصغد تتكوّن من وحدات سياسية مُستقلة قبل الإسلام، أهمها سمرقند وبُخارى، بحيث قيل: الصغد صغدان: صغد سمرقند، وصغد بُخارى^(٨).

(١) ابن خرداذبة، المسالك، ص ٤٠.

(٢) الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٤٦، ابن الشمائل: مراصد، ج ١ ص ٤٥٢.

(٣) كريستنسن: إيران، ص ٢٦٦.

(٤) مجهول: حدود، ص ١٢٩.

(٥) الطبري: تاريخ، ج ٧ ص ١١٥، ابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م، الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج ٤ ص ٢٣٣، عبدالمعتم: ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، الانجلو المصرية، القاهرة، ط ١، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، ص ٢١٠.

(٦) البلاذري: فتوح، ص ٤٠٣.

(٧) الطبري: تاريخ، ج ٣ ص ٣٩٩.

(٨) الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٤٠٩، ابن الشمائل: مراصد، ج ٢ ص ٨٤٢.

١- مملكة سمرقند: ويحمل ملكها لقب فيروز، وقد كان لها تحصينات كبيرة، وطال فتحها زمن قتيبة، وبعد حصار طويل ثلم سورها، واستسلم أهلها، وكان حاكمها يومئذ يطلق عليه لقب غوزك^(١).

٢- مملكة بخارى: وكان ملكها يتلقب وردان خذاه أو بخاراخذاه^(٢)، ويسك العملة باسمه، وكان أميرها يسمى أبروى الذي اتخذ من مدينة بيكند مقراً لحكمه، ولكن سرعان ما أمعن هذا الحاكم في الاستبداد وظلم الرعية حتى اضطر بعض الأغنياء إلى الهجرة إلى مدينة جمكنت، ومعناها المدينة الطيبة الجميلة، واستنجدوا بالأمير التركي (قراجورين ترك)، ويلقب (بياغو) لعظمته، صاحب البلاد المجاورة لهم الذي أرسل ابنه شيركشور مع جيش عظيم ونجح في القضاء على أبروى^(٣).

٣- حكم شيركشور:

أعجب شيركشور بهذه الولاية، فأرسل إلى أبيه كتاباً يطلب منه البقاء ببخارى، فوافق أبوه ثم استدعى شيركشور الأثرياء، وسمح لهم أن يكونوا طبقة النبلاء التي عرفت باسم خدات، وقد امتد حكم شيركشور ثلاثين عاماً، وعندما توفي خلفه في الحكم أمير آخر لم تذكر المصادر اسمه، وقد بنى عدة مدن^(٤).

٤- حكم السيدة خاتون^(٥):

تولى حكم البلاد الأمير بيدون الذي اتخذ لقب بخارا خذاه^(٦)، وظل في الحكم فترة قصيرة. وعندما مات ترك طفلاً رضيعاً اسمه طغشادة، فخلعته أمه خاتون، وجلست على عرش البلاد، ويذكر الترشيحي أن

(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٧٨.

(٢) ابن خياط: أبو عمرو خليفة ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م تاريخ خليفة بن خياط، تح: أكرم ضياء العمري، دار القلم، دمشق، ط ٢، ١٣٩٧هـ/١٩٧٦م، ص ٣٠٢، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٤٢، ابن خرداذبة، المسالك، ص ٤٠.

(٣) الترشيحي: تاريخ، ص ٢١، فامبري: بخارى، ص ٣٨، خلف: محمود محمد، الفتح الإسلامي لبلاد ما وراء النهر، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، ص ٥٨.

(٤) الترشيحي: تاريخ، ص ٢١، الساداتي: أحمد محمود، تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ١٦٥.

(٥) كلمة صغدية شاعت بين الترك والمغول بمعنى ملكة، بارتولد: فاسيلي فلاديميروفتش، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، تر: أحمد السعيد السليمان، الهيئة العامة المصرية للكتاب، الاسكندرية، د.ت، ص ٥٠.

(٦) ابن خرداذبه: المسالك، ص ٤٠.

حكمها استمر خمس عشرة سنة، فكانت تحكم بصائب الرأي، ومن ثم انقاد الناس لحكمها، ووكل بها من يجرسها ليلاً نهاراً، وهذه السيدة هي التي قاومت الفتوحات العربية الإسلامية^(١).

هـ- مملكة خوارزم: وقصبتها الجرجانية، وكان ملوكها يتلقبون بالشاه، وإن الأسر المالكة لخوارزم؛ أي الشاهات ترجع إلى أزمنة تاريخية أسطورية، وهي ناحية عامرة استقلت عن فارس منذ أن غزاها الإسكندر الأكبر، وسكانها كانوا من الفرس والتürk، وقد حكمتها أسرة قديمة من نسل الأكاسرة استمرت وقتاً طويلاً إلى زمن الفتح العربي الإسلامي، وكانت هذه المملكة في حربٍ مستمرة مع التürk المجاورين لها، كما أنها قد خضعت قديماً للفرس، ودلالة ذلك وجود المازنية والدهاقنة إلى جانب خوارزم شاه^(٢).

و- مملكة فرغانة: وهي إقليمٌ جبلي واسع، تقع في أعالي سيحون وعلى ضفتيه، وأهم مدنها أخسيكث أو أخسبكت عاصمتها القديمة، ثم قاسان التي كان يُقيم بها ملوكها، كما أن حجندة عدت من مجملتها ومُتاخمة لها، وكان الفرس يُسيطرون عليها، على أن التürk الخرجانية سيطروا على دهاقينها، وكان ملوكها يتلقبون بالإخشيد، وإن فرغانة قبل الفتح العربي الإسلامي أصبحت جزءاً من الإمبراطورية الصينية، وإن بقي التürk يحكمون في قاسان^(٣).

ز- مملكة أشروسنة: غزاها التürk الهياطلة، واستقروا بها، وتلقب ملوكها بالأفشين.

ح- مملكة الشاش: ويلقب ملكها ب (تدن) وقعت وراء سيحون شمالي أشروسنة، وهي إقليمٌ سهلي مُتاخمٌ لبلاد التürk، قصبتها بنكث، وقال البلاذري: إن قصبتها في الواقع هي الطارند، وكان يحكم الشاش التürk أو الصينيون قبل الفتح العربي الإسلامي^(٤).

(١) الترشيحي: تاريخ، ص ٢٣.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٦٩، البيروني: الآثار، ص ١٠٢، ابن خرداذبة: المسالك، ص ٤٠، بارتولد: تركستان، ص ٣٦٣، تاريخ الترك، ص ١٥٨.

(٣) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٤٠، الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٢٥٣، المغلوث: سامي بن عبدالله بن أحمد، أطلس الأديان، العبيكان، الرياض، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ١٦٣.

(٤) البلاذري: فتوح، ص ٤٠٦، ابن خرداذبة: المسالك، ص ٣٩-٤٠، الخوارزمي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م، مفاتيح العلوم، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، د.ت، ص ١١٩-١٢٠، كريستنسن:

وأفضل ما يعبر عن كثرة هذه الممالك ما قاله اليعقوبي: "ولكل جنس من الترك مملكة منفردة"^(١)، وهذا ما يجعلها تكون في حالة من التفكك السياسي والاجتماعي، ولا يستبعد أن تكون متناحرة دينياً، وذلك أنه لم يكن في ما وراء النهر دين واحد يجمع أهلها.

٢- الترك ودويلاتهم في بلاد ما وراء النهر:

وخلال التاريخ استطاع الأتراك أن يؤسسوا دول حاكمة في آسيا الوسطى:
أ- (دولة أوغوز خان)^(٢): على يد أوغوز خان بن قره خان، وقد عدّه الأتراك في مصاف الرسل، وهو أول من وضع قوانين الترك، ونظام عاداتهم وتقاليدهم، ويفتخر عثمان الأول الذي أسس الامبراطورية العثمانية بالانتساب إليه فيقول:

عثمان أرطغرل أوغليسك أوغز قره خان نسليسك

ويعني بذلك: أنت من أبناء أرطغرل يا عثمان، وأوغوز قره خان من أجدادك وبعد وفاته حدثت ثورة كبيرة بين بطون الأتراك، وبهذا اضمحلت دولتهم، وضعفت شوكتهم، وزالت سطوتهم حتى انقضوا، ليأتي من بعدهم الهونيون؛ وهم نوعان: (هون) و (هون بيض) وهم الهياطلة:
ب- (الهون - Hu - هيونغ نو)^(٣): ٢٢٠ ق.م - ٢١٦ ق.م أو ٢٢١ ق.م - ٢٠٩ ق.م، أسسها طومان (Tou- man)، وقتل وجاء بعده ابنه ماوتون (Mao- tun) الذي حكم من (٢٠٩ - ١٧٤ ق.م)، وأصبح يمثل تهديداً جاداً للإمبراطورية الصينية، وأدوا دوراً مهماً في تاريخ الصين القديم، وتأثر بهم الصينيون كثيراً، وكانوا يدفعون الجزية، ويقدمون أميرات صينيات ليكنّ زوجات لزعماء الهون رغبة من ملوك الصين بتألفهم واستمالة ملوكهم، واقتبسوا عنهم سلاح الفرسان، وترويض الخيول للقتال، وعنهم أخذ الصينيون استخدام السراويل مستبدلين به لباسهم التقليدي

= إيران، ص ٤٨٢.

^(١) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٢.

^(٢) الغزي: كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى، نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ط ٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج ٣ ص ١٠٩.

^(٣) كتابي: زكريا، الترك في مؤلفات الجاحظ ومكانتهم في التاريخ الإسلامي، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص ٣٨-٤٠.

الذي كان يعيق حركة الفارس^(١).

ويذكرهم المروزي بأنهم فرقة أقبلوا من أرض قتاي وهم مستوحشون يقال لهم: قون^(٢)، فقد هزموا الصينيين مراراً حتى إن الصينيين اضطروا لبناء سد عالٍ أنشأه الإمبراطور الصيني (تشين شيه هوانغ تي - in Ch'Shieh huang ti) كي يصدوا هجومهم المستمر، وذلك سنة (٢١٣ ق.م)، ولم يستفيدوا من ذلك السد فعملوا على الدس بينهم والقتال والفتن والاستمالات بالهدايا القيمة والمنافع الشخصية، وهكذا انقرضت دولة الهون بسبب الفتن الصينية التي بثوها فيما بين الهونيين بعدما أسسوا واحدة من أكبر الإمبراطوريات التي عرفها التاريخ، وامتدت من سيبيريا شرقاً حتى اجتازت نهر الراين في ألمانيا غرباً، ووصلت قمة مجدها في ظل ملكها أتيلا (Attila) (٤٠٦م - ٤٥٣م) الذي ورث ملك عمه روا (Roa) أو رغا (Rogha)، وأخضع أتيلا اثنتين من أعظم الإمبراطوريات في التاريخ وهما: الإمبراطورية البيزنطية الشرقية والرومانية الغربية ومعظم القبائل الجرمانية^(٣)، فقد كان الهون يزرعون الرعب في أوروبا ما بين جبال الأورال في سيبيريا حتى فرنسا^(٤).

ج- الهون البيض (الهياطلة)، (Hebththalites):

الهياطلة جزء من الهون الذين اجتاحتهم أوروبا، وصفهم كثير من المؤرخين بأنهم أتراك، وصنفوهم ضمن الشعوب التركية، والهياطلة عند الخوارزمي جيل من الناس كانت لهم شوكة وكانت لهم بلاد طخارستان وأتراك^(٥)، وأقام هؤلاء الهياطلة دولة قوية على حدود الصين في القرن الثاني ق.م، ثم هاجروا إلى أوروبا، وظهروا بشكل واضح في القرن الخامس الميلادي، ويقول الصينيون عن الأتراك في القرن السادس: إنهم من

(١) الموسوعة البريطانية من خلال: تركماني: أسامة أحمد، تاريخ الأتراك والتركمان، دار الإرشاد، دمشق، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٢١.

(٢) المروزي: شرف الزمان طاهر ت بعد ٥١٨هـ/١٢٤٤م، طبائع الحيوان (أبواب في الصين والترك والهند)، تر: فلاديمير مينورفسكي، ١٣٦١هـ/١٩٤٢م، ص ١٨.

(٣) ديورانت: قصة، ج ١٢، ص ٧٩-٨٣، تركماني: تاريخ الأتراك، ص ٢٢.

(٤) فروخ: عمر، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، دار التجاري، بيروت، ط ١، ١٣٨٧هـ/١٩٥٩م، ج ١ ص ٢٢.

(٥) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ١٤١.

سلالة الهياطلة^(١).

أطاح الهياطلة بالكوشان وهم: من قبائل أواسط آسيا، وهي قبيلة تصلها وشائج القرى بالأترك، استولت هذه القبيلة على "كابل"، واتخذتها عاصمة نشرت منها نفوذها في أرجاء الجزء الشمالي الغربي من الهند ومعظم آسيا الوسطى؛ فتقدمت الفنون والعلوم في عهد أعظم ملوكها "كانشكا"^(٢)، وأسسوا؛ أي الهياطلة في القرن الخامس الميلادي إمبراطورية امتدت إلى ما وراء النهر إذ احتلوا بخارى سنة ٤٥٠م، ثم توجهوا إلى داخل الهند الشمالية، وشنوا من هناك حملات داخل الهند وبلاد فارس، وأخضعوا الساسانيين وأجبروهم على دفع الجزية، وأحكموا السيطرة على الطرق التجارية داخل آسيا، وبذلك شكلوا قوة بوجه الإمبراطورية الساسانية، وكانت الأراضي التي تقع تحت سيطرتهم تمتد جنوب شرق بحر قزوين عبر الطالقان على طول نهر المرغاب في حدود مطلع القرن الخامس الميلادي^(٣)، وسموا أيضاً أفتاليت (Eftalit). الهون البيض أو الهون الشرق أوسطيين، ويبدو أن اسم أفتاليت جاء من اسم أفتالونوس (EphtaLanos) حاكم الهون الذي انتصر على إمبراطور الساسانيين بيروز (Peroz) أو فيروز (Firuz) (٤٨٤-٤٥٩م)، ويذكره المسعودي باسم (أخشنوار)^(٤)، وأصل هذا الاسم هو هفتال هيون الأول اسم السلالة والثاني اسم القبيلة، ومن جهة أخرى فإن الهون ذكروا باسم الهون البيض في الوثائق الهندية القديمة، وأوضح الرحالة الصيني سونك يون الذي زار حاكم الهون البيض أنه هناك قرابة بين هؤلاء القوم والهون^(٥)، وبعد فيروز استلم الحكم بلاش الذي تمكن منه الهياطلة، وخلعوه عن الحكم، وأعطوا الحكم لقباز بن أبريز الأول، وفي ذلك دلالة على صلة القرى بين الهياطلة وقباز الذي كانت أمه تركية، وهي ابنة أحد ملوك الهياطلة^(٦).

(١) بارتولد: تاريخ الترك، ص ١٩-٢٠.

(٢) ديورانت: قصة، ج ٣ ص ١٠٨.

(٣) فروخ: العرب والإسلام، ج ١ ص ٢٢.

(٤) المسعودي: أبو الحسن على بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م، التنبيه والإشراف، تح: عبدالله الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، د. ت، ج ١ ص ٨٨.

(٥) الطبري: تاريخ، ج ٢ ص ٨٥، كريستنسن: إيران، ص ٢٧٩.

(٦) الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م، الأخبار الطوال، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب، القاهرة، ط ١، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، ص ٥٨.

وعندما تملك أنوشروان غزا الهياطلة، وثأر لجده فيروز، فقتل ملكهم، واستأصل أهل بيته، وتجاوز بلخ وما وراءها، وأنزل عساكره في فرغانة، وهذا الانتصار الساساني لم يكن يتحقق لولا التحالف مع إمبراطورية الغز توكيو (كوك ترك)، وهي القوة الجديدة التي نشأت في وسط آسيا ضد الهياطلة.

احتل الهياطلة المناطق الواقعة إلى الشمال والجنوب من جبال الهندوكوش. ويبدو أن قبائل الهياطلة قد انقسمت قسمين رئيسيين هما: القبائل الشمالية التي احتفظت باسم الهياطلة، والجنوبية واتخذت اسم الزابول أي:

١ - **قبائل الشمال**، وهي التي تسمى في الغالب باسم الهياطلة، ويلقب ملكهم بـ "الزونيل"، وهذا اللقب يقرأ أحياناً "الرتيل" خطأً.

٢ - **قبائل الجنوب**، وهي التي تسمى بالزابولين، وقد استقروا في إقليم زابلستان وأعطوه اسمهم^(١).
ويلاحظ أن الجيش العربي الإسلامي أثناء فتوحاته لمناطق الهياطلة أقام هناك، وكان هذا اتصالاً حضارياً وعرقياً متبادلاً للعرب الفاتحين وبقايا سلالة الهياطلة. وحدث اتصال بين العريقين واطلاع متبادل فيما بينهم، ولاسيما الاتصال الوثيق بين قتيبة ونيزك خان الهيطلي ٩١هـ/٧٠٩م، وكان له دور في الفتوحات العربية إلا أنه غدر بقتيبة وترك العرب، واتحد مع أمراء هيطل في ثورتهم لكنهم فشلوا بذلك، وأعدم نيزك^(٢).

انهارت دولة الهياطلة تحت ضغط الهجمات المشتركة من جانب (الكوك ترك) الغربيين والساسانيين، وقد تحقق ذلك في بداية النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، وأشاع الهياطلة أسماء خاصة للمدن التي كانوا يفتحونها علاوة على ألقاب خاصة بهم من الناحية السياسية. وظهرت أقوام نسبت أصولهم للهياطلة بعد انهيار دولتهم كمجموعة "القلوق" التي كانت موجودة على مساحة الأرض التي سيطر عليها الهياطلة، وهذه المفردة "قلوق" تعني المكان الثلجي حيث أقام الهياطلة كيانه. أما عن عاداتهم

(١) ابن خردادبة: المسالك، ص ٧٠، شعبان: محمد عبد الحي، الثورة العباسية، تر: عبد المجيد حسيب القيسي، دار الدراسات الخليجية، أبو ظبي، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م، ص ١٩٠، أبو عبيدة: طه عبد المقصود عبد الحميد، موجز عن الفتوحات الإسلامية، دار النشر للجامعات، القاهرة، د. ت، ص ٨، مؤنس: حسين، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط ١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ١٣٠.

(٢) انظر في هذا البحث فتح طخارستان وغدر نيزك في الفصل الرابع.

وملاحظهم فهم عرق فاتح البشرة، في حين كان الهوني داكن البشرة، وكان الهون مخيفين في أشكالهم، وقد امتلك الهياطلة أجساماً بيضاً، وهذا يوضح حقيقة تسميتهم في الغالب بـ (الهون البيض)، وأطلقت كلمة الهون البيض على الهياطلة في وسط آسيا نظراً لبياض بشرتهم^(١).

د- إمبراطورية الغز توكيو ٥٢٢ م:

ظهرت إمبراطورية تركية تسمى (كوك توركلر) أو (كول تورك) أو (توكيو) (Gok-turk=kok-turk) التي ظهرت في القرن السادس الميلادي بالتعاون مع سلالة (Topa=wie) التي كانت تحكم الصين الشمالية، ومؤسسها الخاقان بومن (Bumin) وعند الصينيين يدعى تومان، وقد تأسست هذه الدولة سنة ٥٢٢ م؛ أي في عصر بزوغ فجر الإسلام، واستمرت حتى ٧٤٥ م، وامتدت من بلاد المغول وشمال الصين إلى البحر الأسود، وكان أصحابها من القبائل الرحالة التركية، وقد انقسمت هذه الإمبراطورية إلى قسمين:

١- القسم الشرقي: حكمه موهان (Muhan) حكم من ٥٥٣-٥٧٢ م.

٢- القسم الغربي: حكمه أخو الخاقان (استامي) أو (شتامي) عند الصينيين، ولقب بـ ييغ

(Yabgu)، ويذكر في المصادر العربية بلفظ (جغوية)^(٢) أو (سججو)^(٣)، واستطاع هذان الأخوان

وخلفاؤهما أن يهتموا بالسياسة الخارجية، وعملوا على تحسين علاقاتهم مع البيزنطيين، وتبادلوا

معهم السفراء والهدايا كي يضمنوا بقاءهم على الحياد عند قيامهم بمهاجمة الفرس، وبالفعل تم

ذلك من قبل اشتامي سنة ٥٦٩ م إلا أن الحروب كانت بينهم وبين الصينيين سجلاً^(٤).

والجدير بالذكر أنه في حقبة حكم إمبراطورية (كوك ترك) وفي ظل حكم كابغان كانت الفتوحات

العربية الإسلامية في القسم الشرقي من إمبراطورية الغز بينما في القسم الغربي كانت خانيات التاركش

(١) غريال: محمد شفيق وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، دار النهضة، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ص ١٩٢١.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٧ ص ١٢٠، مسكوية: تجارب، ج ٢ ص ٤٠٣، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٢٥.

(٣) ابن خرداذبه: المسالك، ص ٤٠، الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٦٨.

(٤) الكاشغري: محمود بن الحسين بن محمد ت ٤٦٦هـ/١٠٧٣م، ديوان لغات الترك، مطبعة عامرة، دار الخلافة العلية،

١٣٣٥هـ/١٩١٦م، ج ١ ص ٥٦، المروزي: طبائع، ص ١٨، خطاب: قادة الفتح، ص ٦٩، كتابجي: الترك، ص ٣٩-

٤٠، تركماني: تاريخ الأتراك، ص ٣٦.

المتطاحنة فيما بينها قد أنهكتها الصراعات، وهذا ما يفسر كثرة الممالك في هذا القسم. مما سلف كانت أقاليم بلاد ما وراء النهر وقبيل الفتح العربي الإسلامي لها مسرحاً للتدخل الدولي، فكانت الصراعات قائمة بيت الترك والصينيين الذين تمكنوا من إقامة حكم صيني في فرغانة، ومركز كاشان، وامتدوا إلى سمرقند وبخارى حتى طخارستان، وهذا الحكم لم يدم طويلاً فقد خرجوا عليهم واستردوا استقلالهم، وأقاموا دولتهم سنة ٦٨٣م، ومن جهة أخرى كانت الحرب سجلاً بين الأتراك والفرس^(١).

٣- نظام الحكم:

مصادر الحديث عن نظام الحكم في هذه الممالك شحيحة، وليس فيها إلا الإشارات القليلة جداً، ولا سيما ما قبل الحكم العربي الإسلامي للمنطقة، وقد صرح المقدسي عن الإهمال أو العزوف عن ذكر الممالك غير المسلمة بقوله: "ولم نذكر إلا مملكة الإسلام حسب ولم نتكلف ممالك الكفار لأننا لم ندخلها ولم نر فائدة في ذكرها"^(٢)، ولكن أهم ما يميز هذه الممالك من خلال نظام حكمها ما يلي:

أ- النظام الوراثي:

في الحكم الذي ينحصر ضمن العائلة أو الأسرة الحاكمة كورثة خاتون عن زوجها بالوصاية عن ابنها طغشادة، وينبغي أن تكون من الأسر الغنية والنبيلة كاختيار ملك بخارى الذي ينتسب إلى عائلة من الدهاقنة^(٣).

ب- مقر الحكم:

حرص جميع ملوك ما وراء النهر على أن يكون لهم مقر للحكم، وعملوا على اختيار ذلك المقر بأن يكون في العواصم الكبرى للمدن المهمة ولا سيما من الناحية الاقتصادية والناحية الزراعية؛ لتكون لهم منتزهات، فملوك الصغد وفرغانة جعلوا سمرقند مركزاً لحكمهم تارة و بخارى تارة أخرى، وهي غاية في الحسن ومليئة بالبساتين والمنتزهات، وكذلك ملوك فرغانة، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى حرصوا على أن

(١) مؤنس: أطلس، ص ٥٠، كتابجي: الترك، ص ٤١.

(٢) المقدسي: أحسن، ص ٩.

(٣) الترشيحي: تاريخ، ص ٢١.

يكون مقر حكمهم ذا صفة حرية للحفاظ على المملكة من أي عداء خارجي، وابتنوا القلاع والأبراج والحصون والأسوار، كحصن فرغانة ويسمى (كذه)، وقيل: لمملكة أشروسنة أربعمئة حصن، وكان لخاتون ملكة بخارى حصن تتفقد فيه رعاياها منذ الصباح الباكر^(١).

ج- الدهاقنة:

وهو لقب أطلق على ملاك الأراضي أو الأمراء المحليين، ولربما لأنهم رؤساء قرى متعددة كل حسب سطوته ونفوذه حتى إن بعض الملوك أطلق عليهم هذا اللقب، ويذكر النرشخي أن ملك بخارى (بخارى خداة) كان دهقاناً، وأنه ابن دهقان يملك الكثير من القرى والضباع، والناس عبيد عنده، ويملك كثيراً من الثروات الطائلة وكانوا ينافسون الملوك ولا سيما أن الطابع الأساسي للسياسة فيما وراء النهر هو التفكك السياسي، فكانت علاقة الدهاقنة بالملوك علاقة غير متينة يشوبها عدم الثقة^(٢)، والمثال على ذلك عندما استشار ملك خوارزم دهاقنته في شأن حربهم مع قتيبة ٩٣هـ/٧٠٤م، وقالوا له بالمواجهة، لكنه رفض مشورتهم، واعتمد الاتفاق السابق مع قتيبة، وفي مثال آخر نقيض له هو دهاقنة الملكة خاتون الذين كانوا يتمتعون بالمكانة الرفيعة عندها حيث تجتمع بهم في كل مساء لإلقاء التحية، ثم ينصرفون إلى قراهم، وقد كان لهم دور لا بأس به أثناء عمليات الفتح العربي الإسلامي للمنطقة^(٣).

ولربما أن سلطة الدهاقنة كانت في ميزان قوة الملوك التي تحكم المنطقة، فكلما كانت الإدارة المركزية ذات شأن كانت سلطة الدهاقنة أقل سطوة، والعكس صحيح.

٤- ألقاب ملوك بلاد ما وراء النهر:

يقال إن الألقاب مصونة لا تُعطى إلا لمستحقيها، ويقول الجاحظ: إن سعادة الناس في تبجيل الملوك وطاعتها^(٤)، واتخذ أصحاب الملك والسلطات ألقاباً لهم تعطيهم الهيبة في نفوس من يحكمون عاكسة الأبهة

^(١) البلاذري: فتوح، ص ٥٩٢، اليعقوبي: البلدان، ص ١٩٦، الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٢٦٤، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ١٩٢، النرشخي: تاريخ، ص ٢٣.

^(٢) النرشخي: تاريخ، ص ٢١، محمود: حسن أحمد، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي، دار الفكر العربي، د.ت، ص ١٣٧، بارتولد: تركستان، ص ٢٩٨، كريستنسن: إيران، ص ١٠٠.

^(٣) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٤٦٦، النرشخي: تاريخ، ص ٢٣.

^(٤) الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى ت ٢٥٥هـ/٨٦١م، التاج في أخلاق الملوك، تح: أحمد زكي باشا، المطبعة=

والتقدير، وفي ما يأتي جدول يذكر أهم الألقاب، واسم المملكة^(١):

اسم المملكة	لقب الملك
مملكة ما وراء النهر	كوشان شاه
مملكة بخارى	بخارى خداة، خاتون، قاتون
مملكة سمرقند	اخشيد، طرخان، طرخون
مملكة الصغد	فيروز، غوزك، طرخون
مملكة فرغانة	اخشيد
مملكة الفارياب	تُرسل
مملكة الصغانيان	صغان خداة
مملكة أشروسنة	أفشين
مملكة ترمذ	ترمذ شاه
مملكة البتم	ذي النعنة
مملكة الختل	ختلان شاه، شيرختلان
مملكة خوارزم	خوارزم شاه، خوارزم خسرو

=الأميرية، القاهرة، ط ١، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م، ص ٧، أبو شامة: أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م، عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج ١ ص ٩٤.

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٥، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٤٦-ج ٧ ص ١١٦، مسكويه: تجارب، ج ٣ ص ٩١-ج ٢ ص ٤١٣، ابن الفقيه: البلدان، ص ٦٤٨، مجهول: حدود، ص ١٣٨، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٢٠٣-ج ٣ ص ٥٢٣، الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٦٨، ابن خرداذبة: المسالك، ص ٤٠، ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج ٣ ص ٨٠.

مملكة الشاش	تدن
ملوك الترك الكبار	هيلوب خان، جبعوية خان، سنجبو خان، مانوش خان
ملوك الترك الصغار	فورك، سهراب، تمرون، خورتكين، طرخان، نيزك
مملكة جرجان	صول
مملكة كش	نيدون
مملكة الجوزجان	كوزكان خذاة
مملكة نسف	الإشكند
مملكة وردانه	وردان شاه

ويشير كريستنسن إلى أن هناك بعض الدلالات من خلال هذه الألقاب، فيرى أن حكام الولايات هم من يحملون لقب شاه بينما الألقاب المنتهية بـ(آن) تدل على أسر إقطاعية أو فروع من هذه العائلات^(١)، هذه الألقاب الكثيرة تشير إلى كثرة الممالك، بل كثرة التفكك السياسي، ولربما كان للاقتصاد دور في هذه الانقسامات.

وبختام الحديث عن الألقاب يظهر المسعودي لقباً جديداً وهو خان الخواقين يجمع ملكه سائر ملوك الترك، وتنقاد إليه ملوكها ولا سيما ممالك سيحون التي ظلت ذات طابع قبلي أكثر تمسكاً بتقاليدها ولغتها وعزلتها قياساً بممالك جيحون القريبة من الحضارة الفارسية التي تميل بتبعيةها إلى حاكم من خارج بلاد ما وراء النهر^(٢).

^(١) كريستنسن: إيران، ص ٩٠.

^(٢) المسعودي: مروج، ج ١ ص ١٣٧، الحميري: الروض، ص ٣٦٢.

ثانياً- الأوضاع الاقتصادية في بلاد ما وراء النهر:

الاقتصاد هو النشاط البشري المتمثل بالزراعة، والتجارة، والصناعة، وهذه تشكل مثلث الحياة الذي يعطي الحياة الاستمرارية من الناحية المادية كتبادل السلع مثلاً، ومن النواحي الأخرى كالاحتكاك الاجتماعي وما يورثه من تفاعلات حضارية، وما له من دور في نقل الحضارات والتزاوج فيما بينها، إلا أن الحديث عن الحياة الاقتصادية في ما وراء النهر يكاد يكون غاية في الصعوبة لأن كتابات الجغرافيين العرب عنها ضئيلة.

تركز اهتمام الجغرافيين العرب على أعمال الفتوحات العسكرية وما رافقها من سير الجيوش في المنطقة وأهمها الجانب الاقتصادي لأسباب عدة من أهمها:

١- أن منطقة البحث بعيدة عن مركز الدولة العربية الإسلامية.

٢- التعقيدات الجغرافية وصعوبة مسالك هذه المنطقة.

١- الموارد المائية:

عرفت بلاد ما وراء النهر بكثرة مواردها المائية ولعل أهمها: جيحون وسيحون وهما: مختلفان عن جيحان وسيحان اللذين أخبر عنهما الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فيما يروى في كتب الحديث عن أبي هريرة، أن رسول الله -صلي الله عليه وسلم - قال: "سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة"^(١).

^(١) سيحان وجيحان المذكوران في هذا الحديث هما من أنهار الجنة في بلاد الأرمن، فجيحان نهر المصيصة وسيحان نهر أذنة وهما نهران عظيمان جدا أكبرهما جيحان فهذا هو الصواب، واتفقوا كلهم على أن جيحون بالواو نهر وراء خراسان عند بلخ، واتفقوا على أنه غير جيحان، وكذلك سيحون غير سيحان، وذكر القاضي عياض أن سيحان هو سيحون وجيحان هو جيحون، وأنها ببلاد خراسان وأنكره النووي وقال: إن الناس اتفقوا على المغايرة، انظر: النيسابوري: أبو الحسن مسلم بن الحجاج ت ٢٦١هـ/٨٧٤م، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج ٤ ص ٢١٨٣، الأصبهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م، صفة الجنة، تح: علي رضا عبد الله، دار المأمون للتراث، دمشق، د.ت، ج ٢ ص ١٥٤، المقدسي: ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، الأحاديث المختارة، تح: عبد الملك بن عبد الله بن دهب، دار خضر، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج ١٢ ص ١١٢، النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، دقائق المنهاج، تح: إيباد أحمد الغوج، دار ابن حزم، بيروت،

أ- نهر جيحون^(١):

أطلق العرب مصطلح ما وراء النهر وقصدوا بذلك نهر جيحون والأراضي التي تقع شماله هي ما وراء النهر التي تسمى بلاد الهيتل، ويطلق عليه قديماً نهر أوكسس (Oxus)، والذي سيعرف في ما بعد الغارات المغولية بـ (أموية أو أمودريا)، وربما هذه التسمية عائد له لآمو مدينة آمل^(٢)، وأطلق عليه أيضاً نهر بلخ، وذلك أن العرب قد سمو الأنهار بأسماء المدن الكبيرة التي تقع عليها أو قرية منها^(٣)، وتسميته نهر بلخ مجازاً، لأنه يمر بأعمالها، فأما مدينة بلخ فإن أقرب موضع منه إليها مسيرة اثني عشر فرسخاً^(٤)، ويرى لسترنج أن تسمية العرب له بجيحون تعود لما ورد في سفر التكوين (٢-١١ و ١٣) من اسم نهر مذكور في السفر وهو نهر كيجون (Gihon)^(٥).

وينبع نهر جيحون من بلاد التبت وبالتحديد من بامير (Pamir)، ثم يتوجه نحو الشرق فيمرّ ببلاد وختان، ويسمى هناك وختاب، ثم يصير إلى أعلى حدود بلخ ممّا يلي المشرق، ثمّ ينعطف إلى ناحية الشمال مع الجنوب إلى أن يصير إلى الترمذ ويعرف هنا باسم (ماله)، ثمّ يقبل منها إلى زمّ ثمّ إلى خوارزم، فيمرّ بمدينتها، ثمّ يصب في بحيرتها^(٦)، فإنّ عموده نهر يعرف بجرياب، يخرج من بلاد وختان في حدود بدخشان، فتجتمع إليه أنهار في حدود الختل والوخش، فيصير منه هذا النهر العظيم، فمن هذه الأنهار نهر يلي

= د. ت، ج ١٧ ص ١٧٦، ويذكران بـ (سارس، وبيرامس) عند لسترنج: بلدان، ص ١٦٣.

^(١) طوله حوالي ٢٢٤٠ كم ٩٦٠ منها في أفغانستان، ويشكل حد طبيعي بين طاجيكستان وأوزبكستان وبعد ٦٠ ميلاً من مدينة فيض آباد يصبح صالحاً للملاحة ويروي ٩٣٠٠٠ ميل مربع من أراضي أفغانستان في ولايتي بدخشان وبلخ، البار: محمد علي، أفغانستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو الروسي، د. م، ط ١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٦٢، ربحان: إصلاح عبد الحميد، الفتح الإسلامي لمدينة كابول، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص ٣٣، سلطان: طارق فتحي، انتشار الإسلام في آسيا، دار الفكر، ط ١، ١٤٣٠هـ/٢٠١٠م، ص ٩٤.

^(٢) ابن خرداذبة: المسالك، ص ١٥٨، الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٤٨١.

^(٣) اليعقوبي: البلدان، ص ١٠٠، الحميري: الروض، ص ١٨٥.

^(٤) الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ١٩٧.

^(٥) البكري: معجم ما استعجم، ج ٣ ص ١٠٣٦، التظلي: رحلة، ص ٣٤٦، الحموي: معجم البلدان، ج ٤ ص ٢٨٥، ابن الشمال: مرصد، ج ٣ ص ١٠٥١، لسترنج: بلدان، ص ٤٧٧.

^(٦) البكري: المسالك، ص ٢٣١.

جرباب يسمى (أخشوا)، وهو نهر هلبك، يليه نهر (بريان) أو (بلبان)، والثالث (فارغر)، والرابع نهر (أنديجاراغ)، والخامس نهر (وخشاب) وهو أعظم هذه الأنهار، فتجتمع هذه المياه قبل آرهن، وهذه الروافد الأربعة هي روافد جيحون الأعلى، ثم يجتمع مع وخشاب قبل القوازيان، ثم تقع إليه بعد ذلك أنهار تخرج من البتم، فمنها أنهار بالصغانيان وأنهار بالقوازيان فتجتمع كلها، وتقع في جيحون بقرب القوازيان؛ وأما وخشاب فيخرج من بلاد الترك حتى يظهر في أرض الوحش، ويضيق في جبل هناك حتى يعبر على قنطرة، ولا يضيق نهر جيحون مثل ضيقه في هذا الموضع، وهذه القنطرة الحد بين الوحش واشجرد، ثم يجري في هذا الوادي في حدود بلخ إلى الترمذ، ثم إلى زم ثم إلى آمل حتى ينتهي إلى خوارزم^(١)، وهذا النهر مع عظمتها وسعة عرضه يجمد في زمن الشتاء، وتعبر القوافل عليه بدوابها وأثقالها، ويبقى كذلك ثلاثة أشهر^(٢).

ب- نهر سيحون^(٣):

سيحون هو ما أطلقه العرب على نهر جكرترس أو جكسارتس (Jaxartes)^(٤)، وكذلك أطلق عليه نهر الشاش، وذلك لقربه من مدينة الشاش^(٥)، ويرى لسترنج أن تسمية العرب له بسيحون لما ورد في سفر التكوين (٢-١١ و١٣) من اسم نهر مذكور في السفر وهو نهر فيشون أو بيسون (Pison)^(٦)، وأطلق عليه المغول (كل زريان)، ثم أطلق عليه الترك سيردريا أو سيرصو^(٧) وهو نهر عظيم، وجاءت عظمتها من أنهار تجتمع إليه؛ أي بروافده الكثيرة، وعمود النهر يخرج من مدينة أوزكندة؛ أي من حدود بلاد الترك، ثم يجتمع

(١) الاضطخري: المسالك، ص ١٦١-١٦٦، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٥٩، مجهول: حدود، ص ٥٥، الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٤٨٢، القزويني: آثار، ص ٥٢٥، ابن بطوطة: رحلة، ج ٣ ص ١٠.

(٢) الاضطخري: المسالك، ص ١٦٨، المسعودي: مروج، ج ١ ص ١٠١، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٧٧، الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ١٩٧، القزويني: آثار، ص ٥٢٦، الحميري: الروض، ص ٣٢٥، كبريت: رحلة الشتاء والصيف، ص ١٩٥، خلف: الفتح الإسلامي، ص ٤٧.

(٣) جيحون وسيحون: ويستمد هذان النهران مياههما من ذوبان ثلوج البامير وتيان شان، فايد: يوسف عبد المجيد، جغرافية المناخ والنبات، دار النهضة العربية، مصر، د.ت، ص ٣٥٠.

(٤) لسترنج: بلدان، ص ٥١٩.

(٥) مجهول: حدود، ص ٥٧.

(٦) البكري: معجم ما استعجم، ج ٣ ص ٧٧١، لسترنج: بلدان، ص ٤٧٧.

(٧) لسترنج: بلدان، ص ٥٢٠.

إليه خرشاب، ونهر أورست، وقبا، ونهر جدغل، وغيرها، ويغزر ماؤه، ويمتدّ على أخشيكت ثم خجندة مغادراً فرغانة، وبعدها يستقبل نهرين هما نهر إيلاق ونهر ترك ثم يمر غرب الشاش لينتهي إلى اسبيجاب إلى صحراء الغز الأترك ثم يصب في بحيرة خوارزم (آرال)، وهو صالح لسير السفن، وكذلك جيحون، وهو مثله يجمد في فصل الشتاء إلا أن سيحون وقت تجمده أطول يصل إلى خمسة شهور، وهو يقدر بثلاثي جيحون^(١).

ج- بحيرة خوارزم:

ويطلق عليها بحيرة جيحون، بحيرة (آرال) وهي مدوّرة، والغالب على محيط بحيرة خوارزم المفاوز والرمال، وليس بها عيون ولا أنهار^(٢)، وعلى شطّ بحيرة خوارزم جبل يعرف بجغراغر يجمد عنده الماء، ويبقى طوال الصيف، ومحيط البحيرة في الدائر يبلغ ثلاث مئة فرسخ، وماؤها مالح، وليس لها مغيض ظاهر؛ أي مجرى ينبت فيه الشجر، ويصب فيها نهر جيحون ونهر الشاش وغير ذلك من مياه تلك النواحي فلا يعذب ماؤها ولا يزيد فيه على صغرها، ويظن أن بينها وبين بحر الخزر خرقاً فيتصل ماؤها بماء بحيرة الخزر (طبرستان)، وبين البحيرتين نحو عشرين مرحلة، ويغطي البحيرة في أقسامها القصب الذي يعيق حركة الملاحة في بعض أجزائها، وفيها موضع عند انتهاء جيحون يأتونه الصيادون لصيد السمك، وليس بهذا الموضع قرية ولا بناء، وذلك عائد إلى تغير مجرى جيحون، وما ينتج عن تغير المجرى من خراب، وغمر للبيوت والأراضي، ويسمى هذا الموضوع خليجان^(٣).

٢- الزراعة:

عرفت بلاد ما وراء النهر بالخصب، والعامل الأساسي وراء خصوبة أراضيها كثرة أنهارها ومناخها المناسب للزراعة، وكان لجيحون وسيحون وروافدهما الدور الكبير في خصوبة بلاد ما وراء النهر، وهي من

^(١) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٨١، الإدريسي: نزهة، ج ٢ ص ٧٠٦، الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ١٩٧، العمري: مسالك، ج ٣ ص ١٧٢، ابن الوردي: خريدة، ص ١٢٤، لسترنج: بلدان، ص ٥١٩، خلف: الفتح الإسلامي، ص ٤٨، خطاب: قادة الفتح، ص ٦٤.

^(٢) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٥١.

^(٣) الاصلطخري: المسالك، ص ١٦٩-١٧٠، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٥١-٤٨٠، الإدريسي: نزهة، ج ٢ ص ٨٣٧، لسترنج: بلدان، ص ٤٨٧.

أنزه النواحي، وأخصبها وأكثرها خيراً، وليس فيها موضع خالٍ من المزارع أو المراعي، وهوؤها نقي، ومياهها أعذب المياه وأخفها، والمياه العذبة عمت جميع جبالها وضواحيها، وتربها من التربة الخصبة^(١). وأكثر المناطق خصوبة هي الواقعة بين نهري سيحون وجيحون كثيرة البساتين والأمطار وكثيفة الأشجار، وربما تصعب الرؤية للقرى لما فيها من كثير أشجار ومزروعات^(٢)، ويصفها البلدان ياقوت الحموي متعجباً بكثرة خضرتها فيقول: "لم يقع بصرك من جميع النواحي إلا على خضرة متصلة خضرتها بخضرة السماء، فكأن السماء بها مكبة خضراء مكبوبة على بساط أخضر تلوح القصور فيما بينها كالنواير فيها، وأراضي ضياعهم منعوتة بالاستواء كالمرآة"^(٣).

وأهم المحاصيل الزراعية: القطن والفواكه بجميع أنواعها، والعنب، والتين، والإجاص، والتوت، والمشمش، والتفاح، والتين، والبطيخ الأصفر، والأحمر، والبقول، واللفت، والكرنب، والباذنجان، والقرع، ومن الرياحين الورد، والبنفسج والزعفران، والبندق، والسّمسم، الذي كان له عيد خاص به وهو عيد السّمسم (هرو داد)^(٤) والأرز، الجوز، واللوز^(٥)، ومن كثرتها ما يزيد على سائر الآفاق حتى ترعاها لكثرتها دوائهم^(٦)، وكان لديهم الاكتفاء الذاتي من منتوجاتهم، وإن قحطوا أو أصيبت مزروعاتهم الجراد أو البرد أو آفة فلديهم مخزون يكفيهم، ويذكر ذلك الاصطخري: "حتى يستغنوا عن نقل شيء إليهم من غير بلادهم"^(٧)؛ أي أنهم لم يلجؤوا للاستيراد، ولكن ما هو معلوم هو أن المنطقة ذات مناخ بارد، وكما سلف فإن من شدة البرودة كان جيحون يتجمد، فهل يمكن زراعة كل ما كان يحتاجه أهل بلا ما وراء النهر مع العلم أن بعض المحاصيل تحتاج إلى حرارة معينة، وربما أراد الاصطخري الاكتفاء من حيث ما ينتجون

(١) الاصطخري: المسالك، ص ١٦١، مجهول: حدود، ص ١٢٧، الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٤٥، القزويني: آثار، ص ٥٥٧.

(٢) الاصطخري: المسالك والممالك، ص ١٦٥، الحموي: معجم البلدان، ج ٣ ص ٤٠٩.

(٣) الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٣٥٣، خلف: الفتح الإسلامي، ص ٧٣-٧٤.

(٤) الترشيحي: تاريخ، ص ٣٦.

(٥) الاصطخري: المسالك، ص ٣٠٢، مجهول: حدود، ص ١٣٠، المقدسي: أحسن، ص ٣٢٤.

(٦) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٦٥-٤٨١.

(٧) الاصطخري: المسالك، ص ٢٨٨، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤ ص ٤٣٢، الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٤٦، المقدسي: أحسن، ص ٣٢٥، لسترنج، بلدان، ص ٥٠٢، ٥١٤.

فيكون فائضاً عليهم، ولا يستوردون من هذه الأصناف التي يزرعونها، وكان لديهم اهتمام فائق بالبساتين التي كانت في مقدمة بيوتهم وقصورهم، وهذا ما يذكره النرشخي عن (آل كشكثة) وبساتينهم الرائعة^(١)، وكانت الغلات الزراعية في جنوب جيحون أكثر من شماله؛ لأن جنوبه أقل برودة من شماله، ولأهمية الزراعة ومكانتها فيما وراء النهر خصصوا يوماً يحتفلون فيه بالفلاح؛ وهو عيد (نوروز الفلاحين)، وهو غير نيروز المجوس^(٢)، وأهم المراكز الزراعية في ما وراء النهر بخارى، وبيكند، وسمرقند، وخوارزم، والطالقان، وبذخشان، والفاريات، والجوزجان، وكذلك في فرغانة ونواحي سيحون، وهي أقل خصوبة من مناطق الصغد.

٣- الثروة الحيوانية:

كثرت المراعي في بلاد ما وراء النهر، ولعل ما سلف من الحديث عن خصوبتها ومساحتها وقّرت لها هذه الظروف المراعي، ومنها المراعي التي تقع قرب بحيرة خوارزم (آرال) المناسبة للحيوانات، وأوجدت الكثير من الناس ممن امتهنوا مهنة الرعي وتربية الماشية، ففيها كثير من المواشي كالبغال والإبل والحمير والأغنام والأبقار، وكذلك الماعز في المناطق الجبلية والمسك والسمور والسنجاب والثعالب، والأرانب وابن عرس والقندس، والنوق ونوق سمرقند أصلب وأشدّ وأبدن من نوق بلخ ولا نظير لها في جميع الأرض^(٣)، وكان الاهتمام بتربية الحيوانات فمناها ما يكون للتنقل والزراعة ومنها ما يكون للتجارة، وبعضها تدخل في الصناعات وكان هناك اهتمام بتربية دودة القز التي تنتج الحرير، والطريف فيما يذكره النرشخي عن مدينة أرقود التي أطلق عليها العرب فيما بعد ذات الطواويس؛ لكثرة ما كان أهلها يهتمون بتربية الطواويس، وتتميز مدينة فرغانة من غيرها بتربية الغنم الكثيرة والبغال والإبل^(٤)، وأهم مراكز تربية الحيوانات كانت في خوارزم والصغد والجوزجان وقوهستان^(٥).

(١) النرشخي: تاريخ، ص ٥٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢ ص ٣٨٠، النرشخي: تاريخ، ص ٣٦.

(٣) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٥٠.

(٤) النرشخي: تاريخ، ص ٨١.

(٥) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٦٥-٤٨١، النرشخي: تاريخ، ص ٢٧، المقدسي: أحسن، ص ٣٢٤، لسترنج: بلدان، ص ٤٧١.

٤- الشروات الطبيعية:

أكثر البلدان الحديث عن معادن بلاذ ما وراء النهر التي كانت عبارة عن مناجم باطنية من الشروات المعدنية، وهذا ما يعبر عنه ياقوت الحموي بقوله: "لا يقاربه في الغزارة والكثرة معدن في سائر البلدان"^(١). ومن هذه المعادن الذهب وهو في نحر وخاب في أعلاه موضع يخرج منه الذهب قطعاً صغيراً مثل رؤوس الإبر^(٢). والفضة والزئبق والنحاس والحديد، وببلادهم من معادن الحديد ما يفضل عن حاجتهم في الأسلحة والأدوات^(٣)، وسائر ما يكون في المعادن فأغزرها ما يرتفع من ما وراء النهر، ومعادن الذهب والفضة بجبل إيلاق، وتتصل بهذا الجبل حدود فرغانة، وبها دار ضرب (العملة)، وليس فيما وراء النهر دار ضرب إلا بسمرقند وبخارى وإيلاق^(٤)، ومن جبل الباميان؛ وهو أول ممالك طخارستان الدنيا الغربية يستخرج منه معادن النحاس والرصاص والزئبق^(٥)، وفي بذخشان معدن البلخش هو حجر صلب شفاف مقاوم للياقوت، وهو عروق في جبالها، وفيها أيضاً معدن اللازورد وهو حجر ثمين نيلي اللون والبجادي وهو حجر كالياقوت^(٦)، وتكاد فرغانة وجبالها تكون منجماً من معادن الذهب والفضة وبكثرة، وكذلك النحاس والرصاص والنشادر^(٧) والزئبق والشمع الأسود وحجر البادزهر^(٨) وحجر المغناطيس والعقاقير الكثيرة^(٩)، وبقواذيان يوجد النفط والفيروز وبه القير والزفت^(١٠).

(١) الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٤٦.

(٢) البكري: المسالك، ص ٢٣٨.

(٣) الاضطخري: المسالك، ص ١٦١، مجهول: حدود، ص ١٢٢، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٦٤.

(٤) الاضطخري: المسالك، ص ١٨٥، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٥٠٩، المقدسي: أحسن، ص ٣٢٦، الحميري: الروض، ص ٧١.

(٥) اليعقوبي: البلدان، ص ١١٩.

(٦) ابن الشمائل: مراصد، ص ١٧٢، ابن بطوطة: رحلة، ج ٥ ص ١٤٧، ابن الوردى: خريدة، ص ٢٩٨.

(٧) لمعرفة كيفية استخراجها انظر: الاضطخري: المسالك، ج ٢ ص ٥٠٦، لسترنج: بلدان، ص ٥١٠.

(٨) حجر أصفر، رخو، لا طعم له، ينفع في علاج السموم؛ وله مقاومة عجيبة لدفع الضرر وهو بمثابة الأدوية وإذا وضع قبالة الشمس عرق وسال منه الماء، العمري: مسالك، ج ٢ ص ١٨٠.

(٩) مجهول: حدود، ص ١٣٠.

(١٠) المقدسي: أحسن، ص ٣٢٦، لسترنج: بلدان، ص ٥١٠.

كانت عناصر الصناعة من المواد الخام التي وجدت بكثرة في بلاد ما وراء النهر من معادن وأحجار كريمة متوفرة لتكون بلاد ما وراء النهر متصدرة في تلك الحقبة الزمنية بالصناعات والحرف اليدوية، وأضيف إلى ذلك وفرة الأيدي العاملة، ولكن ما يحيط الغموض به هو كيفية استخراج هذه المواد وكانت المصادر المتوفرة بين الأيادي شحيحة بذلك.

٥- التجارة:

تعد المدن الواقعة بين نهر سيحون وجيحون عقدة مواصلات وطرقاً تجارية إلى الهند والصين وفارس، فهي تتمتع بموقع متوسط ومهم في تجارة المشرق، ويذكر أن التجارة التي كانت قائمة بين إمبراطورية الصين ورومية زمن القيصر أغسطس كانت بين أيدي أبناء آسيا الوسطى، والنرخسي ليس ببعيد عن هذا الكلام حيث يذكر: بيكند؛ وهي من أعمال بخارى أنها كانت تؤدي دور الوسيط بين الصين والبحر الغربي (قزوين)^(١)، وعند وصول العرب إلى المنطقة ولاسيما قتيبة بن مسلم حاول تأمين الطرق التجارية، وذلك عن طريق تأمين طرق قومس التابعة لجرجان، ويروي الحميري عن ذلك: "ومنع بعضهم طريق خراسان فلم يسلكه أحد من ناحية قومس إلا على خوف، إنما كان الطريق على فارس إلى كرمان إلى خراسان، فأول من صير الطريق من قومس إلى خراسان قتيبة بن مسلم"، وكان يكتب إلى الحجاج يستأذنه في غزو جرجان فيأبى عليه، ويكتب إليه: "الأنوق والعيوق"^(٢)، إياي والورطات، لنا السهل ولهم الجبل"، فلما ولي يزيد بن المهلب خراسان أيام الخليفة سليمان كانت جرجان من همهم، فلما انتهى إلى قومس وجد رجلاً منتنة، فقال: ما هذه الرياح؟ قيل له: أغار (صول) التركي على هذه الناحية فقتل هؤلاء فهذه ريح القتلى، فقال: قبح الله قتيبة، ترك هؤلاء في قبضة المسلمين وهو يغزو المسلمين، فقال له رجل من بني تميم: قد أرادها قتيبة، ولكن الحجاج منعه منها فامض إلى خراسان حتى يتمكن أمرك ثم ناهضها^(٣).

(١) النرخسي: تاريخ، ص ٣٦، فاميري: بخارى، ص ٤٥، خلف: الفتح الإسلامي، ص ٧٥.

(٢) الأنوق: طير يضع بيضه في أعالي الجبال، والعيوق نجم في الثريا، وهما يشتركان في صعوبة المنال، فكأن الحجاج أراد صرف قتيبة عنها لصعوبتها، انظر: الفارابي: أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين ت ٣٥٠هـ/٩٦١م، معجم ديوان الأدب، تح: دكتور أحمد مختار عمر، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج ٤ ص ١٨٣، الحميري: شمس العلوم، ج ١ ص ٣٣٨.

(٣) الحميري: الروض، ص ١٦٠.

فالاهتمام من الجميع، ومن كل الجهات لحماية التجارة والطرق التجارية لما كانت تدره على ممتنيتها. وأهم ما يميز هذه العقدة من المواصلات تجارة الحرير التي كانت مزدهرة في الصين، وكانت تنتجه للنسوة فقط، ومع تقدم وازدياد الرفاهية صار أيضاً رجال العصر الإمبراطوري يحبون أن يكتسوا به^(١). وكانت الصغد نقطة الوصل بين بيزنطة والصين البلد المنتج للحرير وقصبتا الصغد هما (بخارى وسمرقند)^(٢)، وهذه الصناعة كانت في الصين مكتومة وبسرية تامة وحرص شديد حتى لا يستطيع غير الصيني مزاوله هذه المهنة حتى حدثت الخيانة، وذلك عن طريق زواج ملك خوتان، وهي مملكة صغيرة في آسيا الوسطى من أميرة صينية، واستطاعت أن تنقل إلى وطنها الجديد دود القز وبيوضه وبذور التوت متفلة من رقابة رجال الجمارك^(٣).

أما طرق القوافل التجارية فهي نوعان: برية وبحرية، وكان لها مرافقة لحمايتها من اللصوص وقطاع الطرق، ومن هذه الطرق البرية التي تبدأ من الري إلى قومن ثم نيسابور ومن بعدها تنقسم إلى طريقين: أ- من نيسابور إلى طوس شمالاً ثم مرو ليتفرع فرعين: أحدهما إلى بلخ والثاني إلى آمل ويقطع جيحون ثم إلى بيكند ثم بخارى، وعندها ينقسم إلى فرعين أحدهما إلى خوارزم، والثاني إلى سمرقند ثم إلى زامين، ومن زامين ينقسم قسمين: الأول يسير إلى الشاش ثم إيلاق وبلاد الترك، والثاني إلى ساباط وخجندة وفرغانة إلى الصين.

ب- من نيسابور إلى هراة وينقسم قسمين: الأول ينطلق من زرنج إلى الرنج ومنها إلى الهند، والثاني من هراة إلى مرو الروذ إلى بلخ، وفيها ينقسم قسمين الأول إلى خلم ومن ثم إلى الباميان ثم كابل إلى غزنة ومنها إلى الهند، وأما الفرع الثاني فمن بلخ إلى ترمذ قاطعاً جيحون، ثم إلى باب الحديد ومنها إلى كش ثم سمرقند^(٤).

(١) ف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصر الوسيط، تر: أحمد رضا، تق: عزالدين فودة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م، ج ١ ص ١٣.

(٢) جيون: إدوارد: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، مر: أحمد نجيب هاشم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ط ٢، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م، ج ٢ ص ٢٨٥.

(٣) هايد: تاريخ التجارة، ج ١ ص ١٥.

(٤) الاصطخري: المسالك، ص ٢٨٢، ابن حوقل: صورة، ص ٣٧٧، لسترنج: بلدان، ص ٤٧٥-٥٣١، هايد: تاريخ=

أما الطريق البحري: فمن بلاد السند إلى الهند ومن ثم الصين عبر الخليج العربي إلى غرب آسيا، وهو من أقدم الطرق التجارية البحرية بين الشرق والغرب، وكانت بسفن بحرية كبيرة^(١).

وبالعودة إلى ما بين سيحون وجيحون ولا سيما الصغد الذين كانوا بمثابة الوريث الشرعي للصينيين الذين كانت سفنهم لا تتجاوز سيلان إلا بحالات قليلة جداً، فكان أهالي الصغد وسهوب بخارى يتولون أمر هذه المهمة، وقد أطلق عليهم لقب سيرس (Seres)، وهذا اللقب أطلق على كل منتجي الحرير ومن يتولى توزيعه، فكانوا يتولون توزيعه من بعد أن يصل إليهم من القوافل التجارية الصينية ثم ينقلوه إلى شمال إيران وجنوب بحر قزوين^(٢). ويؤكد فامبري أن بخارى لم تكن ذات أهمية من الناحية الطبيعية فقط، بكل كانت سوق الصين وآسيا الغربية للمنتجات الحريرية وغيرها أيضاً^(٣)، فقد كانت بلاد الصغد بخارى وسمرقند صلة الوصل بين إمبراطورية الصين والإمبراطورية البيزنطية.

إذا تناوبت تجارة الحرير من قبل منتجيها، فبعد أن كانت بيد الفرس انتزعها منهم الهون (الأفتاليت) ليحتلها الأتراك بعد هزيمة الفرس بزعامة أبرويز أمام خان الأفتاليت سنة ٤٧٥م عند مدينة جورجو التي أطلق عليها العرب مدينة جرجان وهذا يؤكد قول قيام الإمبراطورية التركية بأنه كان بمثابة ركن غائر بين الصين وفارس وذلك بحكم موقع الأتراك الجغرافي المهم والذي ساعدها على أن تتحكم في طرق التجارة الدولية التي تربط بين الشرق والغرب^(٤) ولكن السؤال المطروح الآن كيف لقبائل وصفت بأنها قبائل متقاتلة وبدعوة متنقلة تؤدي دور الوسيط في تجارة تكون هي الأولى عالمياً آنذاك.

كان لهذه التجارة دور كبير فقد ربطت بلاد ما وراء النهر مع العالم الخارجي يقول جب: " وكان

=التجارة، ج ١ ص ٢٨، حسين: حيدر علوان، أثر العرب في نشر الإسلام والحضارة العربية الإسلامية عبر طريق الحرير، معهد التاريخ، كلية التربية، العدد ٧٤، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص ٢٧٨-٢٧٩، عيزوقي: محمود، أوضاع خراسان أيام الحجاج بن يوسف الثقفي، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير، إشراف: نهي حميد، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص ١٧٤.

(١) عثمان: شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٥١، الكويت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص ٤٦، هايد: تاريخ التجارة، ج ١ ص ٢٨.

(٢) هايد: تاريخ التجارة، ج ١ ص ١٦.

(٣) فامبري: بخارى، ص ٢٥.

(٤) هايد: تاريخ التجارة، ج ١ ص ١٧-٢٨، جيون: اضمحلال، ج ٢ ص ٢٨٥.

أقوى ما يصل بين الولايات من رباط إنما هو تجارة الحرير مع الصينيين وأهم مراكزها سمرقند وبيكند وكش، وكانت سمرقند أوفرها حظاً من النجاح في عالم التجارة، ومنها كانت ترسل البعثات التجارية الكثيرة إلى بلاط ملك الصين^(١).

هذا ولم تقتصر تجارة بلاد ما وراء النهر مع جيرانها على الحرير بل شملت بعض السلع الأحجار الكريمة والفضة والماس والجواهر والمنسوجات الصوفية والعقاقير والتوابل والعطور والأدوات المنزلية وغيرها^(٢). وكانت الخيل والبغال والحمير والجمال وسائل النقل المستخدمة في نقل السلع على الطرق التجارية البرية^(٣).

٦- البضائع والأسواق:

تعددت منتجات ما وراء النهر، في جميع المجالات الاقتصادية حالها من حال أقرانها من الأقاليم المجاورة لها، فكانت مساحات ما وراء النهر غنية بالتنوع الزراعي والحيواني والصناعي، وإن أهم حاصلات إقليم ما وراء النهر هي البسط، والمصليات، والثياب الرخوة، وثياب الفرش التي كانت في حجرات الضيوف، وكانت تنسج في محابسها حزم الخيل، وتدبغ فيها جلود الضأن، ويصدر منها الشحم، ودهن الرأس إلى الآفاق والكاغد، ويعمل فيها ثياب حمر، وديباج، وقز، ويصنعون القدور العظيمة من النحاس، ويعملون السيور، وأحزمة السروج، وكذلك أصناف القماقم^(٤)، وتحمل من كرمينية المناديل، ومن الدبوسية تصدر الثياب والديباج، وتصدر اللبود الحمر وخير من صنعها أهل الشاش، والطاسات، والجلود، وحبال القنب، والكبريت، وأزر النساء وتصدر الأقيية والجياد^(٥)، كذلك الحبوب والفواكة، ويرتفع منها القطن

(١) Gibb: The Arab conquests, p5-6.

(٢) فرانك: إيرين وبراونستون: ديفيد، طريق الحرير، تر: أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، العدد ٧، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص ٨٥-١٠٤، الخلف: الفتح، ص ٧٦-٧٨.

(٣) الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ٢٥٥هـ/٨٦١م، الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج ١ ص ١٩-١٤٢ ج ٤ ص ٢٧٥، فرانك، طريق، ص ٦٢-٧٣.

(٤) حيوان من الفصيلة السمورية، دُوزي: رينهارت بيتر آن، تكملة المعاجم العربية، تر: محمد النعيمي، جمال خياط، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط ١، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م، ج ٨ ص ١٥٨.

(٥) مجهول: حدود، ص ١٢٠-١٢٧-١٣٤، المقدسي: أحسن، ص ٣٢٤-٣٢٥، البيهقي: البلدان، ص ١٢٦، الإدريسي: نزهة، ص ٤٧٨، الحميري: الروض، ص ٣٨٠، لسترنج، بلدان، ص ٥١٥.

الكثير، وصوف الأغنام، ومشتقاتها من الجبن واللبن، وأشهر أنواع الفراء وأغلاها كفراء السمور والثعالب كذلك فراء السنجاب والفنك^(١) وابن عرس (وهو حيوان من اللواحم)، وتعمل منها الحلل الطويلة والقصيرة، وجلود الأرناب والماعز المدبوغة، وكذلك جلود الحمر الوحشية، والشمع، والعنبر، والعسل، والسيوف، والدروع، والرقيق، ونحت السفن من جذوع الأشجار، ويعمل فيها ثياب اللحف، والديباج المنسوج من القطن والحرير، وتحمل منها المقانع من القطن والحرير وغيرها من الثياب الملونة^(٢).

وأما الأسواق فقد كانت كثيرة ومتنوعة في بلاد ما وراء النهر، ومنها سوق الطواويس؛ وهو سوق سنوي لمدة عشرة أيام في مدينة أرقود التي سماها العرب ذات الطواويس، ويقام في فصل الخريف، وتباع فيه بقايا السلع المعيبة من رقيق ودواب وغيرها، ومن شروط هذا السوق: لا يمكن رد السلعة ثانية، وكان الناس يزدحمون في هذا السوق حيث يحضره أكثر من عشرة آلاف من التجار وأصحاب الحوائج من فرغانة والشاش، ويعودون بأرباح طائلة، وهذا ما يفسر غناهم أي بالتجارة وليس العمل بالزراعة^(٣). وكان هناك أسواق خاصة بالورود ولا سيما سوق البنفسج فقد كان للبنفسج أسواق خاصة به، ولعل له دلالة روحية حيث أن أهل ما وراء النهر كانوا في موسم البنفسج يشترونه لكي يتزينون به^(٤).

ومنها سوق شرغ وهو سوق قديم كان التجار يأتون كل سنة من الولايات البعيدة، وكان يعقد لمدة عشرة أيام في فصل الشتاء؛ أي هو أيضاً من الأسواق السنوية، وكانت معظم السلع في هذا السوق من الحلوى المصنوعة المحشوة بالدوشاب، وهو مربي من التمر والعنبر، ويباع فيه السمك المملح الطازج، والفراء والقنطاري؛ وهي نبتة ذات طعم مر مقوية للمعدة، وكانت التجارة به رائجة^(٥)، ومنها سوق ورخشة، وكان يعقد كل خمسة عشر يوماً وحين يأتي هذا السوق آخر العام يجعلونه عشرين يوماً^(٦). ومنها سوق ماخ روز

(١) نوع من الثعالب صغير الجثة رقيق القوام له ذنب طويل وأذنان كبيرتان، وتُعدُّ فُرُوتُه من أجود أنواع الفراء، عمر: أحمد مختار عبد الحميد، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج ٣ ص ١٧٤٦.

(٢) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٦٣، المقدسي: أحسن، ص ٣٢٤، خطاب: قادة الفتح، ص ٣٩-٦٢.

(٣) النرشخي: تاريخ، ص ٢٨.

(٤) المقدسي: أحسن، ص ١٢٩.

(٥) النرشخي: تاريخ، ص ٣٠.

(٦) البيروني: الآثار الباقية، ص ٢٠٤-٢٠٥.

وهو أيضاً سوق سنوي يقام مرتين في السنة ومدة كل مرة يوم واحد فقط، وينسب إلى ملك من ملوك بخارى اسمه ماخ الذي أمر بإقامته، وكان يأمر النجارين والنقاشين بنحت الأصنام من العام إلى العام حيث كانت تباع في هذا السوق، وقد وصلت جملة ما يباع منها ما قيمته خمسين ألف درهم في اليوم الواحد^(١). وهناك أسواق تسمى بسوق الجمعة أو سوق الخميس أو سوق ليوم واحد في الأسبوع كسوق زندنة الذي يباع فيه الديباج للعظماء والملوك، وسوق وردانة الذي كانت فيه التجارة رائجة، وسوق أفشنة^(٢)، أما بالنسبة إلى التعامل بالنقود فيذكر النرشخي أن أول من قام بضرب النقود ملك يدعى (كانا بخارى خداة)، وكان تاجراً كبيراً ولا يستبعد أن يكون ملك من الدهاقنة فقالوا له: أن الولايات الأخرى ضربوا نقوداً من الفضة فأمرهم بذلك ووضع صورته عليها، وهو واضع التاج على رأسه، ويتزامن هذا الملك مع خلافة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بكر الصديق رضي الله عنه^(٣)، أما هذه النقود وبحسب بارتولد يقول أنها خرجت من التداول ليحل محلها السكة الخوارزمية، ومن ثم تعود دراهم بخارى ولغلاء الفضة جعلوها من ست معادن وسميت بالدراهم الغطريفية، ولكن يؤكد بارتولد أن علماء النُمّيات أي المسكوكات يميزون بين نوعين من النقود كانا متداولين ببلاد ما وراء النهر قبل مجيء الإسلام هما: الخوارزمية والصغدية، فالأولى كانت تحمل على وجهها صورة لرأس ملك وصدره بلا لحية، ونقش على ظهرها مذهب تتقد فيه النار المقدسة، وإحدى هذه القطع نقش عليها صورة لجمال متجه صوب اليمن، وعليها كتابات يرى بعضهم بأنها (مزدا خدات)، (الحاكم المطلق) أو (ملكا صدق)؛ أي (الملك العادل)، وأما الصغدية فكانت تحمل جميعها صورة الملك الساساني بهرام جور الذي يبدو أن سكتته أصبحت نموذجاً لأهل الصغد^(٤). ربما غفل بارتولد أن الصغد هم الوسطاء بتجارهم لطريق الحرير، ولا يستبعد أن تكون نقود الصغديين تضرب بموافقة الفرس الذين كانوا طرفاً لا يستهان به في تجارة الحرير أو أنها أحد الشروط لاستمرار هؤلاء المحاربين والقبائل المتنقلة البعيدين كل البعد عن أي عمل أو أي نشاط تجاري.

(١) النرشخي: تاريخ، ص ٤٠، السمعاني: الأنساب، ج ١٢ ص ١١.

(٢) النرشخي: تاريخ، ص ٣٠-٣٣.

(٣) النرشخي: تاريخ، ص ٦٠، بارتولد: تركستان، ص ٣٢٦.

(٤) بارتولد: تركستان، ص ٣٢٩، خلف: الفتح الإسلامي، ص ٨٠.

٧- الصناعة:

الحديث عن الصناعة في بلاد ما وراء النهر وفي عصور ما قبل الإسلام أمر محال إذ يصعب تناوله لقلة المعلومات في كتب البلدان والتاريخ، ومما سلف يتبين أن بلاد ما وراء النهر بلاد غنية بالمنتجات الزراعية والمعادن وغيرها، فمن الأمر الطبيعي أن تنشأ صناعات قطنية ونسيجية وحرف ومهن في مدن متعددة كالشاش وترمذ وخوارزم والصغد (بخارى وسمرقند).

وبالبدية بالمنسوجات القطنية: من أهم المحاصيل الزراعية في بلاد ما وراء النهر القطن وذلك عائد إلى توافر شروط نجاح زراعته، فكانت صناعة المنتوجات القطنية واسعة الانتشار، ومن أهم مراكزها مدينة بخارى، ويذكر الاصطخري: "ويرتفع من بخارى ونواحيها من ثياب القطن ما ينقل إلى الآفاق"^(١)، ومن أهم المراكز في بخارى للمنسوجات القطنية الطواويس، وأسكجكت وشرغو وغيرها^(٢)، وأيضاً كان هناك منسوجات قطنية أطلق عليها اسم المكان الذي صنعت فيه كالمنسوجات السمرقندية^(٣)، وأما أهل خوارزم فيقول عنهم القزويني: "وأهلها أهل الصناعات الدقيقة" فإنهم يبالغون في التدقيق في صناعاتهم، ونسأؤهم يعملن بالإبرة صناعات جيدة كالخياطة والتطريز والأعمال الدقيقة"^(٤). ومن أنواع المنتوجات القطنية الكرباس ذو اللون الأبيض الذي يسمى بالثياب البخارية، وكذلك أنتجت زندنة ثياباً قطنية عرفت هذه الثياب بالزنديجي؛ وهي ذات ألوان متعددة منها الأحمر والأخضر والأبيض، وفي خوارزم وتحديدًا في كاث اشتهرت ثياب قطنية عرفت باسم (أرنج)^(٥)، وأما فرغانة فقد اشتهرت بنوع من الثياب البيض، وكان له سوق خاص به عرف باسم سوق الكرايس؛ أي سوق القطانين، وكانت غلة هذا السوق في كل شهر سبعة آلاف درهم^(٦)، وصناعة الأقبية والقلائس فيما وراء النهر كانت أيضاً من المنتوجات القطنية، وذكر ابن حوقل أن لهم طريقة في تصنيعها ولباسها: "وزيَّهم القراطق والقلائس المعوّجة ولهم في تعويجها زيّ

(١) الاصطخري: المسالك، ص ١٧٦.

(٢) فامبري: بخارى، ص ٢٦.

(٣) الإدريسي: نزهة، ص ١٠٥.

(٤) القزويني: آثار، ص ٥٢٠.

(٥) الثعالبي: عبد الملك بن محمد، لطائف المعارف، تح: إبراهيم الإيباري، دار إحياء الكتب العربية، الأردن، ص ٢٢٦.

(٦) بارتولد: تركستان، ص ٢٧٦، لسترنج: بلدان، ص ٥٢٧.

ورسم^(١)، واشتهر في ما وراء النهر الصناعات الكتانية وتركزت في فرغانة والشاش وخوارزم، وقد وصفت هذه الملابس الكتانية أنها كلما كانت "ألين وأوطأ وأرطب فهو أفضل"، وكان لهذا الكتان أنواع كتان أبيض، وكتان تركي، وكتان الديبقي والأشموي^(٢)، وانتشرت هذه الصناعة أيضاً في الختل والصغانيان الذين كان سكانهما يمتلكون ثروة من صناعة قماش الكتان^(٣)، وأضاف إلى ذلك كثرة المواشي والاهتمام بتربيتها، يقول ابن حوقل: "ولهم من نتاج الغنم الكثير والسائمة المفرطة"^(٤)، لهذا اشتهرت المنسوجات الصوفية من الأصواف والأوبار، وأهم هذه المصنوعات المفروشات الصوفية، وكذلك البسط، وثياب من الصوف للفرش، ومصليّات محارب وكونها متوفرة فهي رخيصة لذلك كانت لباس أكثر سكان الأقاليم من الفلاحين وغيرهم من الطبقات المتوسطة^(٥)، وكانت مراكز الصناعات الصوفية في مدن بخارى والصغانيان وفرغانة التي اشتهرت بصناعة اللباد؛ وهو نوع من الثياب الصوفية^(٦)، أما المنسوجات الحريرية التي أقبل عليها الملوك وأصحاب رجالات البلاطات ولا سيما أنها كانت تجارة مهمة جداً حتى سميت الطرق باسمها طريق الحرير التجاري، وأن شروط هذه الصناعة قد توفرت ولا سيما دودة القز وشجر التوت في خوارزم والجرجانية، ويذكر القزويني ذلك قائلاً: "والغالب عليها التوت والخلاف لأجل دود القز، فإن لهم يداً باسطة في تربيتها"^(٧)، ويصنع من الحرير الديباج وبعض الأثواب الحريرية التي تمتاز بها سمرقند، وهذا الحرير قد حصل عليه الوالي قتيبة بن مسلم الباهلي أثناء الصلح مع غوزك ابن أخشيد فكل شقة من الحرير بثمانية وعشرين درهماً^(٨).

(١) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٨١، الحميري: الروض، ص ٨٣.

(٢) بارتولد: تركستان، ص ٣٦٧.

(٣) الدمشقي: جعفر بن علي (من علماء القرن السادس الهجري)، الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، تق: محمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص ٣٧، مجهول: حدود، ص ٩٩، نومكين: بخارى، ص ١٣-١٤.

(٤) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٦٤، العمري: مسالك، ج ٣ ص ١٥٠.

(٥) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٩٠، نومكين: بخارى، ص ١٣.

(٦) الدمشقي: الإشارة، ص ٤١.

(٧) القزويني: آثار، ص ٥٢٠.

(٨) ابن الأعمش: أحمد، الفتوح، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج ٣ ص ١٢٨.

وأما المنتجات الجلدية فقد توزعت هذه الصناعة في جميع أقاليم ما وراء النهر لتوفر الماشية وقد اعتاد أصحاب الماشية في بلاد ما وراء النهر على ذبح ما زاد على الاثنين من أجل الانتفاع بجلودها والتدفئة كونها منطقة باردة جداً، فكانت الجلود ضرورة ملحة لتأمين الدفء، ومن أهم الصناعات الجلدية جلد الثعلب لما يعطي من حرارة عن سائر الجلود، وكذلك جلد السمور؛ وهو غالي الثمن بسبب ليونته ودفعه^(١)، وكذلك صناعة جلود السنجاب والفنك، وفي بخارى كانت صناعة جلود الخراف، وفي نظيرتها سمرقند كانت صناعة الأحزمة للسروج من الضأن، وكذلك سرج الخيل في الشاش التي عرفت بسروج الكيمخت، وهي مصنوعة من جلود الحمر الوحشية، وكان فيها سوق لصناعة الأحذية، وأطلق بارتولد عليه اسم سوق الاسكافية^(٢).

(١) الديميري: أبو البقاء محمد بن موسى بن عيسى بن علي ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج١ ص١٦٠، الثعالبي: لطائف المعارف، ص٢٢٦.

(٢) الجاحظ: الحيوان، ج٦ ص٢٧، المقدسي: أحسن، ص٣٢٥، بارتولد: تركستان، ص٢٧٦، لسترنج: بلدان، ص٥٣١.

ثالثاً- الأوضاع الاجتماعية في بلاد ما وراء النهر:

١- العناصر السكانية:

تكوّن مجتمع بلاد ما وراء النهر من عناصر سكانية متعددة، فقد كان أشبه بخليط اجتماعي من جميع الأعراق والأجناس ساهمت كل طائفة منها في البنية الاجتماعية، وذلك عائد إلى موقع ما وراء النهر الاستراتيجي جغرافياً وكذلك اقتصادياً، فقد تغنى بها البلدانون من حيث ماؤها ومرعاها وضواحيها ومدنها، فكانت محط قبول وجذب الناس إليها من مناطق كثيرة، وكذلك الحروب والنزاعات التي كانت دافعاً لنزوح بعض قبائل وسط آسيا وسهوب منغوليا إليها، فكانت غنية بالعناصر السكانية المتنوعة^(١).

أ- الترك (الطورانيون):

قيل: هم من ولد يافث بن نوح عليه السلام، وهم أجناس كثيرة^(٢)، وقيل: هم بنو قنطوراء^(٣) أمّة كانت لإبراهيم عليه السلام، وقال وهب بن منبه: هم بنو عم يأجوج ومأجوج لما بنى ذو القرنين السد كان بعض يأجوج ومأجوج غائبين فتركوا ولم يدخلوا مع قومهم فسموا الترك، وقيل: إنهم من نسل تبع، وقيل: من ولد أفريدون بن سام بن نوح^(٤)، بينما يرى بعضهم أنهم أولاد كומר بن يافث افترقوا في بلاد ما

^(١) الاصلطخري: المسالك، ص ١٦١، المقدسي: أحسن، ص ٢١٤، بارتولد: تركستان، ص ٥٦٤.

^(٢) ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م، المعارف، تح: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ٢٦، المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م، أخبار = الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص ٩٨، الطبري: تاريخ، ج ١ ص ٢٠١.

^(٣) ويقال إنها ابنة ملك الترك، انظر: ابن العبري: غريغوريوس بن أهرون بن توما الملقب ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، تاريخ مختصر الدول، تح: أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت، ط ٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ١٤، الفراهيدي: العين، ج ٥ ص ٢٥٧.

^(٤) ابن حجر: أحمد بن علي ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، ج ٦ ص ١٠٤، الترمذي: أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م، نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، تح: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، د.ت، ج ٤ ص ١٧٠، الكرمي: مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد ت ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م، مسبوكة الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب، تح: نجم عبد الرحمن خلف، مكتبة الرشيد، الرياض، ط ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص ٣١، الكاشغري: ديوان، ج ١ ص ٢٧.

وراء النهر فصارت ممالك مفترقة^(١)، وأصل هذه الأقوال في هذا الباب مستمدة مما ورد في التوراة إلا أن هناك حديثاً نُسب للنبي الكريم محمد عليه الصلاة والسلام إلا أنه ذو سند ضعيف^(٢)، وفي خضم هذه الآراء هناك من يرجعهم إلى أصول عربية من قبيلة مذحج العربية، ويكفي هذا الرأي قول الشاعر:

متى كانت الأتراك أبناء مذحج ألا في الدنيا عجيباً لمن عجب^(٣)

وفي العصر الحديث أصبح التقسيم يعتمد ملامح الوجه وشكل الجمجمة وشكل الشعر ولون البشرة، ويستعان باللغة في تصنيف البشرية وعلى أساس اللغة يكون الأتراك من مجموعة اللغات الألتائية نسبة إلى جبل ألتاي (Altai) في قلب تركستان، وهم من أصول واحدة وهي التركية، والمنغولية، والتونغوزية، واليابانية، والكورية^(٤)، ويضيف بروكلمان بحديثه عن نشأة الأتراك وأصولهم بأنهم من بين سكان التبت والصين في الشرق والجنس الآسيوي السيبيري في الشمال، ومن الشعوب الفنلندية الأغروية في الغرب نشأ الشعب التركي فوق سهول سيبيريا الشمالية والبوداي التي بين الخزر وجبال التاي من جماعة عرقية ولغوية، وحين دخل الترك في طور التاريخ من جبال (تيان شان) إلى بوادي آسيا الوسطى كانت قد تمت لهم خصائص عرقية متميزة يدعوها علماء الأجناس البشرية بالخصائص الطورانية^(٥)، مهما كانت أو تكون قيمة

(١) القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري ت ٨٢١هـ/١٤١٥م، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: إبراهيم الإيباري، دار الكتاب المصري، مصر، ط ٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٢٨، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح: إبراهيم الإيباري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص ٢٥، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٥ ص ٥٨٣.

(٢) الكتاب المقدس: التكوين، الأصحاح الخامس، بيروت، ١٩٠٣م، رقم ٣٢، ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد ت ٢٤١هـ/٨٥٥م، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ج ٣٨، ص ٤٤-٣٠٣.

(٣) الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب الكنائي ت ٢٥٥هـ/٨٦١م، رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ج ١ ص ٧٥، البار: محمد علي، كيف أسلم المغول، دار الفتح للدراسات والنشر، الأردن، ط ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ١٢، الساعدي: عمار محمد يونس، قبائل الترك، مجلة جامعة كربلاء العلمية كربلاء، العدد ١، مج ١٤٣٦، ١٣هـ/٢٠١٥م، ص ٣٤.

(٤) للتوسع انظر: الصالح: صبحي، فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، ص ١٠، تركماني: تاريخ الأتراك، ص ١٣.

(٥) بروكلمان: كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ص ٢٥٩.

هذه الروايات فالحقيقة هنا أن الأتراك نشأوا بين الأمم الآسيوية، وتكونت ميزاتهم الطبيعية وأوصافهم القومية التي اشتهروا بها في آسيا الوسطى إلى أن دخلوا في طور التاريخ^(١).

وأما موطنهم الأصلي فهو آسيا الوسطى وهو أمر يكاد يجمع عليه كل الباحثين، وهي تقسم إلى تركستان غربية وشرقية، وكلاهما معاً موطن الأتراك كلهم، ومن بين المؤرخين الذين قالوا بذلك رشيد الدين حيث يقول: إن هؤلاء الأقوام الموسومون باسم الترك فمقامهم وسكنهم في البلاد البعيدة التي طولها وعرضها من ابتداء جيحون وسيحون إلى انتهاء حدود بلاد الشرق وانتهاء صحراء القفجاق إلى غاية نواحي جورجيا، وفي تلك النواحي هم يسكنون في الجبل والوهاد والآجام، ولم يعتادوا السكنى في القرى والمدن، ويؤيده الكاشغري، وكذلك بروكلمان كما أشير سالفاً^(٢).

وفي إشارة من صاحب مفاتيح العلوم الذي يفسر كلمة مرزبان تفسيراً يعطي مثلاً عن ذلك يستنتج منه حدود وموطن الأتراك خلف جيحون، فيقول: "المرازية جمع المرزبان وهم: ما وراء الملوك أي: ملوك الأطراف، ومرز هو الحد بالفارسية ومرزبان هو صاحب الحد، وكانت الفرس تسمى صاحب النهر أعني جيحون مرزتوران؛ أي حد الترك"^(٣)، فحدود موطنهم من الجنوب جبال هيمالايا، والجنوب الغربي هضبة البامير، ومن الغرب جبال تيان شان، ومن الشمال الألتاي وبابلوني وستانوفوي، ومن الشرق جبال كنجان وكوكنور، وبالتحديد العام من حيث الحدود الطبيعية يكون موطنهم بين الجنوب الغربي من نهر جيحون والشمال الشرقي لنهر سيحون، فأقام الأتراك دولتهم على هذه الأراضي بعدما كثرت أجناسهم وبطونهم^(٤)، ويضاف إلى ما سلف من خلال الحفريات والآثار القديمة والمكتشفة قيام دول تركية عريقة من

(١) كتابي: الترك، ص ٣٠.

(٢) الهمداني: رشيد الدين فضل الله، جامع التواريخ، تر: محمد صادق وآخرون، دار إحياء الكتب العربي، د. ت، مج ٢، ج ١ ص ٢١٢، الكاشغري: ديوان، ج ٢ ص ٣١، المسعودي: مروج، ج ١ ص ١٥٠، اليعقوبي: البلدان، ص ٧٥، بروكلمان: تاريخ، ص ٢٥٩-٢٦٠.

(٣) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ١٣٧.

(٤) اليعقوبي: أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م، تاريخ اليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج ١ ص ١٧٨، المقدسي: المطهر بن طاهر ت ٣٥٥هـ/٩٦٥م، البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، د. ت، ج ٢ ص ١٨، كتابي: الترك، ص ٢٣.

سنة ٥٠٠٠م-٢٠٠٠ق.م، وهؤلاء الذين أقاموا هذه الدولة يذكروهم هيردوت باسم (اسكت) و (توران) بالمصادر الفارسية، وباسم (ساكا) في المصادر الهندية، وفي الصيغة الإملائية في اللغة السنسكريتية لمعنى تركي هي: (تورشكا)، والمصادر الصينية تذكرهم باسم (هسيونغ - نو)^(١).

أهم بطونهم أي قبائلهم المشهورة، وسيدكر البحث بعضها على الشكل الآتي:

١- الغزية: وهم اثنتا عشرة قبيلة يسمى بعضهم التغزغز، تفرع منهم السلاجقة والعثمانيون فهم بدو، ويسمون كبراءهم أرباباً، وملكهم يسمى تغزخاقان، ويدعى ملك الترك، وملك السباع، وملك الخيل له خيمة من ذهب على أعلى قصره تسع مئة رجل، تُرى من خمسة فراسخ.

٢- الخزلخية: وهم عبيد عند التغزغز، فيما بعد كان لهم عصيان على أسيادهم، وخرجوا عنهم، وهم تسع فرق.

٣- كيماك: أقوام ليس لهم قرى إنما أصحاب مياه وكلاء، ولهم في تربية المواشي من غنم وبقر، ويفصلهم عن الغزية نهر إثل، ويتملكهم ملك محارب، وتحالفوا مع القبجك، وشكلوا قوماً عرف آنذاك بالقبيلة الذهبية، وفيما بعد اختلطوا بمغول جنكيز خان إبان الغزو المغولي لبلادهم.

٤- البجنائية: يتوسطون بلاد القفجاق وبلد الخزر وبلاد الغزية والصقالبة وهم غزاة لمن هم حولهم، ولهم ثروة ودواب وذهب وفضة وأسلحة.

٥- الخزر: هم جيل عظيم من الترك، بلادهم خلف باب الأبواب الذي يقال له الدريند، وهم صنفان: صنف بيض وهم أصحاب الجمال الفائق، وصنف سمر يقال لهم قرا خزر. وأبنيتهم من الطين. وهم في آخر منازل الأتراك، وقيل: إن ملكهم إذا جاوز الأربعين عزله أو قتله خاصته، وقالوا: هذا قد نقص عقله لا يصلح لتدبير الملك!^(٢).

(١) خطاب: قادة الفتح، ص ٦٨.

(٢) المروزي: طبائع، ص ١٨، ابن فضلان: رسالة، ص ٩١، المسعودي: مروج، ج ١ ص ١٤٩، ابن خردادبة: المسالك، ص ٣١، الكرديزي: زين، ص ٣٧٤، الإدريسي: نزهة، ص ٥٢٠، اليعقوبي: البلدان، ص ٦٣، الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٤٨، القزويني: آثار، ص ٥٨٥، بارتولد: تاريخ الترك، ص ٤٥-٤٧،

E. Van Donzel, B.Lewis and Ch. Pellat, Encyclopaedia of Islam, E.J. Broll, Leiden, 1997, Third Impression, Iran-Kha, v.4, p658.

بينما يذكر الكاشغري أن الترك في الأصل هم عشرون قبيلة ويجعلهم قسمين:

شماليون: وهم البجنك، والقفجاق، وأغز، وقاي، وتتار، وقرقز.

وجنوبيون: وهم جكل، وأغراق، وأيغر، وتنكي، وجرق، وتحنسي^(١).

وفي الحديث عن أبجدية الترك تقدم نقوش أورخون؛ وهي نقوش قديمة يرجع تاريخها إلى القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي اكتشفها الأوروبيون في أواخر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي على شواهد قبور خاقاناتهم قرب نهر أورخون، وهذه الأبجدية التركية أصيلة ابتكرها الأتراك، وهي أقدر أبجدية على التعبير عن الألفاظ والأصوات التركية من أي أبجدية أخرى تبناها الأتراك فيما بعد، ويضيف بارتولد أن أقدم أبجدية استخدمها الترك أكثر تطوراً من بعض الأبجديات التي استعملوها في الأزمنة الأخيرة على سبيل المثال كالأبجدية الأيغورية، ويضيف أن استبدال الخط الأورخوني بالخط الإيغوري لم يكن بداية رقي، بل كان خطوة إلى الوراء؛ لأن الأبجدية الإيغورية لا تدل على الأصوات التركية دلالة الأبجدية الأورخونية^(٢)، وبعد هذا العرض ما يمكن جزمه هو أن العنصر التركي من أهم العناصر وأقدمها وأكثرها عدداً في بلاد ما وراء النهر، فهم السكان الأصليون في مجتمعهم نظراً لأسبقيتهم عن باقي العناصر في العيش على تلك الأراضي وبمساحات واسعة؛ لأن ذلك فيما يبدو وفر لهم سبل الرعي والانتشار فوق أراض ذات مناطق زراعية كبيرة، وكذلك أعطاهم شيئاً من بسط النفوذ والقوة، فكان وجودهم واضحاً في كل من خوارزم، واسبيج، وفرغانة، واشروسنة، والختل، والشاش، وسمرقند، بل تعدوا ذلك حتى وصلوا التبت وحدود الصين^(٣).

وأما دورهم السياسي في منطقة ما وراء النهر تم الحديث عنه في خضم الحديث عن الأوضاع السياسية للأتراك، ولا سيما الهون والهن البيض (الهياطلة) في المنطقة.

(١) الكاشغري: ديوان، ج ١ ص ٢٧-٥٦-٥٧.

(٢) بارتولد: تاريخ الترك، ص ٢٥-٦٦.

(٣) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٢٩، شيخ الربوة: محمد أبي طالب ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الاكاديمية الإمبراطورية، بطبروغ، ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م، ص ٣٤٦، الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٥١٨، الاصلطخري: المسالك، ص ١٦٣، المقدسي: أحسن، ص ٢١٨، والتبت: مملكة قديمة متاخمة للصين انظر: قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٢٨، الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ١٠، الكرديزي: زين، ص ٣٧٨.

ب- الفرس:

تختلف الروايات في تحديد الأصل الذي تعود إليه تسمية فارس، ويرى بعضهم أن أصل التسمية يرد إلى فارس بن عالم بن نوح، وبعضهم يرى أنه يعود إلى فارس بن طمهورث الذي نسب إليه تسمية الفرس؛ إذ إنهم من نسله، وقيل: إنهم من نسل يافث بن نوح^(١)، ومنهم من يقول: إنهم من نسل أميم بن لاوذ بن سام بن نوح، في حين ذكر آخرون بأنهم من نسل فارس بن سام بن نوح^(٢). وزعم قوم أن الفرس من نسل أفريدون^(٣)، وبعضهم ينسبهم إلى إبراهيم الخليل^(٤)، في حين يذكر ياقوت الحموي أن فارس بلد، وليس اسم رجل^(٥)، ويحد إقليم فارس من جهة الشرق إقليم كرمان، ومن جهة الغرب إقليم الأحواز، ومن الشمال المفازة التي بين فارس وإقليم خراسان، فيما يحده من الجنوب الخليج العربي^(٦). ويعود وجودهم في المشرق إلى مطلع الألف الأول قبل الميلاد^(٧). إذ كانوا يسكنون الجهات الشرقية والجنوبية لبحر قزوين^(٨). ثم اتجهوا إلى المناطق الأخرى جنوب غرب إيران، واستقروا في إقليم فارس^(٩). إذ هاجر الفرس إلى إقليم فارس على شكل جماعات ضمت مجموعة من القبائل، وأطلق عليهم أيضاً تسمية (الآريين)^(١٠)، ويرجح بعضهم

(١) المسعودي: أخبار الزمان، ص ١٠٠، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١ ص ٣٦٩.

(٢) البكري، المسالك، ج ١ ص ٢٠٧.

(٣) أفريدون: هو أحد ملوك الفرس بسط العدل وحارب الظلم وطاف في مشارق الأرض ومغاربها، انظر: الفردوسي:

الشاهنامه ملحمة الفرس الكبرى، تر: سمير مالطي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م، ص ١٩.

(٤) ابن الفقيه: البلدان، ص ١٩٥.

(٥) الحموي: معجم، ج ٤ ص ٢٢٦.

(٦) ابن حوقل: صورة، ص ٢٦٠؛ ينظر: عمر: فاروق، الإدارة العربية لبلاد فارس في القرن الأول الهجري، مجلة الرسالة

الإسلامية، الدار العربية، بغداد، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٥٩.

(٧) رو: جورج، العراق القديم، تر: حسين علوان، دار العربية، بغداد، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ص ٥١٣، واكيم: سليم، إيران

والعرب والعلاقات العربية الإيرانية عبر التاريخ، مكتبة واكيم، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ص ٣١.

(٨) أحمد: جمال رشيد، ظهور الكرد في التاريخ، مطبعة وزارة التربية، أربيل، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج ٢ ص ٨٠.

(٩) الجاف: حسن كريم، الوجيز في تاريخ إيران، مطبعة بيت الحكمة، بغداد، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج ١ ص ٣، أحمد، ظهور

الكرد، ج ٢ ص ٢٩٣.

(١٠) ديورانت: قصة، ج ٢ ص ٥٨٥.

أن الأوربيين استخدموا مصطلح (الهند أوريين) بدلاً من الآريين^(١)، وكانت قسوة الجو، وقلة الأرزاق، وكثرة عددهم هي التي دفعهم إلى النزوح عن موطنهم منتشرين في الأرض الأكثر خصباً واتساعاً وملاءمة لهم^(٢)، وفي رواية أخرى عن أسباب وجود الفرس في بلاد ما وراء النهر يرى بعضهم أن ذلك عائداً إلى اجتياح كسرى أنوشروان ما وراء النهر، وذلك لتأمين طرق التجارة مع الصين عبر ما وراء النهر لوضع حد لخطر الأتراك، فعمل على زج الفرس وإسكانهم فيها ليكونوا عيناً لمراقبة تحركات ونشاطات الترك ضد دولته، فعمل على كسر أواصر الترك عن طرق الاندماج والانصهار مع الفرس، ومثال ذلك قيامه بنقل عائلات من الفرس وإسكانهم في فرغانه وسمماها (أزهر خانة)؛ أي من كل بيت، وهذا الأمر قد فتح طريق الهجرات المتعددة إلى بلاد ما وراء النهر، وهذا ما دفع الإصطخري إلى القول: "إن أصل أهل بخارى في قديم الأيام ناقلة إصطخر"، ويقصد بذلك العوائل التي تم نقلها إلى بخارى، فكانت ذات شعب خليط من الفرس والترك حتى قيل إن في شلجي وحدها عشرة آلاف أصفهاني، ومن أهم المناطق التي يتمركز فيها الفرس في ما وراء النهر، ويكثر وجودهم فيها هي بيكند وسمرقند وسجستان^(٣)، ووجدوا أيضاً في مقاطعات وخان، وصغانيان، وبذخشان أثناء الفتح العربي الإسلامي، يقول بارتولد عن هذه المناطق: احتفظ سكانها بدمهم الآري الخالص حتى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي^(٤)، وأضاف إلى وجودهم كعناصر سكانية كان لهم تأثير ثقافي ولغوي حتى إنه ترجمت كلمة صوغد أو صوغداق الواردة في النقوش الأثرية على أن معناها أقوام أمة فارس^(٥)، ويضيف الجغرافي خانيكوف حول وجود الفرس في بلاد ما وراء النهر أن مجال الشعب الإيراني الأول في الوديان الخصبة حول نهر زرافشان، وأقدم المستعمرات التي كانت هناك تلك الرقعة من الأرض التي تمتد من أخسيكث حتى بخارى، وهذه الرقعة التي تضم أغلب أراضي بلاد ما وراء النهر

(١) البنجوردي: كاظم الموسوي، دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، مركز دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، طهران، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ج ٢ ص ٢١٠.

(٢) بدوي: أمين عبد المجيد، القصة في الادب الفارسي، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ص ١٦.

(٣) المسعودي: مروج، ج ١ ص ٢٧٣، البلاذري: فتوح، ص ٤١١، الإصطخري: المسالك، ص ١٧٦، الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٢١١، يعقوبي: البلدان، ص ٧٣.

(٤) بارتولد: تركستان، ص ١٤٧.

(٥) بارتولد: تاريخ الترك، ص ١٥٨.

الخصبة، أغلبها أسماء فارسية قديمة في أصلها^(١).

ج- الصينيون:

ذكر الكرديزي ناقلاً عن كتاب الأخبار لابن خرداذبة "أن الترك من جملة الصينيين"^(٢)، وأن كلمة ترك صينية الأصل، وأنها كانت حديثة العهد عندما دخل الإسلام فارس^(٣)، و يُذكر أيضاً أن أحد أبواب مدينة سمرقند كان يطلق عليه باب الصين، وهو في جهة الشرق^(٤)، وينقل الكرديزي عن أبي زيد الحكيم قوله: "إن الترك الذين يسكنون الجبال والصحاري هم صينيون"^(٥)، وليس الهدف هنا هو توضيح العرق أو الجنس البشري، ولكن موقع بلاد ما وراء النهر المتوسط بين الصين وبلاد فارس الذي جعل منها مركزاً تجارياً مهماً أدى ذلك إلى وجود عناصر صينية في المنطقة وليس ذلك فحسب، بل تذكر المصادر أن بخارى وقعت تحت سيطرة الحكم الصيني في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، واتخذوا منها مركزاً ثابتاً لهم وظلت بها بعض العناصر - وإن كانت بأعداد قليلة - حتى مجيء الفتح العربي الإسلامي، وليس بخارى بل كثير من الممالك التركية في بلاد ما وراء النهر في فترة صدر الإسلام كانت واقعة في دائرة النفوذ الصيني على المستوى السياسي والثقافي^(٦).

وما لا يمكن إغفاله هو العنصر الكردي، وقد تباينت الآراء في تحديد أصل الأكراد فبعضهم يرى أنهم من مضر بن نزار، وأنهم نسل كرد بن مسرد بن صعصعة بن هوازن^(٧). ومنهم من رأى أنهم من نسل عمرو بن عامر بن مزيقيا وصلوا إلى أرض العجم فتناسلوا وكثر أولادهم فسموا بالکرد^(٨)، والکرد عند

(١) فاميري: بخارى، ص ٤٤.

(٢) الكرديزي: زين، ص ٣٧٠.

(٣) زغلول: عبد الحميد سعد، الإسلام والترك في العصر الإسلامي الوسيط، عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت،

١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، مج ١ ص ١٨٢.

(٤) الاضطخري: المسالك، ص ١٧٧.

(٥) الكرديزي: زين، ص ٣٨٥.

(٦) زغلول: الإسلام والترك، مج ١ ص ١٧٤، خلف: الفتح الإسلامي، ص ٥٢.

(٧) المسعودي: مروج، ج ٢ ص ١٢٢، البكري: المسالك، ج ١ ص ٢٦١.

(٨) ابن عبد البر: أبو عمر يوسف ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م، القصد والأهم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، ص ٣٢.

الفرس من نسل كرد بن أسفنديار بن منوشهر^(١)، ويرى أغلب الباحثين أنَّ الأكراد ينتمون إلى مجموعة الأقوام الهندوأوربية^(٢)، وأثبت العلم الحديث أنَّ اللغة الكردية لها علاقة باللغة الفارسية وبلغة (الأفستا) أم اللغة الفارسية^(٣)، ولا سيما أنَّ الدين الزرادشتي لم ينتشر إلا بين الأقوام الهند أوربية وقليل من الأقوام الأخرى^(٤)، واختلف الباحثون حول أصل هجرة الأكراد، فمنهم من يرى بأنهم هاجروا من شرق إيران إلى غربها واستوطنوا في المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم كردستان^(٥)، وبعضهم ربطهم بالشعب الكوتي^(٦).

وقد عاش الأكراد في بلاد ما وراء النهر، ولم يُسهب في الحديث عن هذا الشعب في المصادر سوى أن السمعاني ذكرهم في إحدى القرى وهي البرانية التابعة لبخارى وسكانها كانوا كرداً^(٧).

بعد العرض لعناصر السكان في بلاد ما وراء النهر يكون البحث أمام رأيين متناقضين إذ يذكر بعض المؤرخين أن سكان بلاد ما وراء النهر من العنصر التركي الذي انحدر إليها من الشرق، وكونوا لهم عدة ممالك مستقلة^(٨)، ويضاف أن سكان ما وراء النهر من أصول تركية، وأن الدولة الساسانية لم تستطع أن تفرض سيطرتها ونفوذها السياسي على ما وراء النهر، بل كان لها تأثير ثقافي وديني بحكم تفوقها الحضاري وسيطرتها على الطرق التجارية، ولربما كان عجز الساسانيين عن فرض سيطرتهم السياسية على الترك راجعاً إلى انشغالهم بصراعهم الدائم مع البيزنطيين^(٩)، ويرى بعضهم أن سكان بلاد ما وراء النهر ليسوا تركاً في

(١) المسعودي: التنبيه، ص ٩٤.

(٢) خصبك: شاكر، الأكراد دراسة جغرافية اتنوغرافية، مطبعة شفيق، بغداد، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ص ٥٠٥.

(٣) نيكيتين: باسيل، الأكراد، دار الروائع، بيروت، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ص ١٨.

(٤) شيركوه: بله، ماضي الأكراد وحاضرهم، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م، ص ٤.

(٥) كردستان: ظهر للمرة الأولى كاصطلاح جغرافي يدل على منطقة استيطان الأكراد في القرن الثاني عشر الميلادي في عهد السلاجقة. خصبك: الأكراد، ص ٥١٥.

(٦) الشعب الكوتي: وهم أقوام استوطنت جبال زاغروس في منطقة ميديا وما حولها خلال الألف الثالث قبل الميلاد، انظر: خصبك: الأكراد، ص ٥٠٥.

(٧) السمعاني: الأنساب، ج ٢ ص ١٢٩.

(٨) بارتولد: تاريخ الترك، ص ١٧، ص ٢٣٦، محمود: الإسلام، ص ١١٣.

(٩) عبد اللطيف: العالم الإسلامي، ص ٣٣٧.

الأصل، بل هم إيرانيون في طابعهم، ويتكلمون لغة إيرانية، ويمارسون أنظمة إيرانية^(١)، ويذكر فامبري أن أغلب سكان ما وراء النهر من الإيرانيين، وكانت الفارسية هي اللغة السائدة في بخارى، وفرغانة، وسمرقند، وخوارزم^(٢)، ولكن الواقع يتحدث ويرسم الصورة الواضحة لمنطقة ما وراء جيحون بأنها منطقة ذات خليط سكاني تجمع بين العنصر التركي والفارسي والكردى والصيني، ولو تعلل هذا الأمر بسبب واحد لكفى ألا وهو العامل التجاري، وكذلك أن المنطقة زراعية فقد ساهم كل من هذين العاملين في جذب عدد كبير من العناصر السكانية، فهي منطقة خليط لكل من العناصر السالفة إلا أنها تركية بامتياز، ولو أخضعت كلمة تركستان حالياً للبحث اللغوي لكانت كلمة مؤلفة من قسمين: الأول ترك، والثاني ستان، وهذه الأخيرة في اللغات الهندو أوروبية هي لاحقة توضع للدلالة على الكثرة؛ أي وجود الشيء بشكل كبير وكثيف، فكلمة غول تعني وردة، وإذا أضيفت إليها اللاحقة ستان أصبحت غولستان، أي بستان من الورود، وعلى هذا فإن تركستان أي مناطق وجود الأتراك بكثرة، وهذا دليل لغوي يضاف إلى ما سلف.

٢- الفئات السكانية:

أ- النبلاء: ويمكن تقسيمهم إلى فئات عدة:

١- الملوك الكبار: وهم أعلى طبقة اجتماعية يحاطون بهالة من التقديس والاحترام ويسيطرون على مساحات واسعة في بلاد ما وراء النهر فيها الكم الكبير من أملاكهم وأموالهم وقصورهم الفخمة، ولا يحق للعامة أو الطبقات الدنيا مشاركتهم أو المساس بامتيازاتهم، كما أن هؤلاء الملوك قد اتخذوا لأنفسهم ألقاباً تميزهم عن بقية طبقات المجتمع التي تدل على التفخيم والتعظيم والاحترام، وعلى سبيل المثال لا الحصر لقب الأخشيد، ويعني ملك الملوك، ويعد من أقوى الألقاب وأكثرها هيبة، وقد أطلق على ملوك فرغانة، ومن الألقاب أيضاً كوشان شاه، وخداه وختلان شاه، وخوارزم شاه^(٣).

(١) Gibb: the Arab Conquests, p3.

(٢) فامبري: بخارى، ص ٥٦.

(٣) ابن فضلان: رسالة، ص ٩١، ابن خرداذبة: المسالك، ص ٣٠، الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ٩٨، الصابي: هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م، رسوم دار الخلافة، تح: ميخائيل عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص ١٣١، القلقشندي: صبح الأعشى، ص ٤٨٤، السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ/١٥٠٥م، تاريخ الخلفاء، تح: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط ١،

٢- الملوك الصغار: هم من طبقة النبلاء، ولهم امتيازاتهم الخاصة، ويعيشون في مدن مستقلة منفردة عن مدينة ملوكهم الكبار، ويمكن أن يطلق عليهم لقب نواب الملوك الكبار، ومن أعمالهم تجهيز الجيش للقتال، وإرسال أموال الضرائب للملوك الذين يدينون لهم بالولاء، ولهم أيضاً ألقاب خاصة بهم مثل طرخون، وغوزك، وسهراب، وفورك^(١).

٣- الأمراء: وهم أشبه ما يكونون بحرس الشرف؛ أي الحرس الخاص بالملوك، وهم من الشبان من أبناء طبقة النبلاء، ويظهر ذلك الأمر فيما ذكره النرشخي في وصفه لقصر ملكة بخارى خاتون أن لديها حرساً خاصاً، وكان لهم زي خاص بهم؛ إذ يتمنطقون بالذهب، ويحملون سيوفاً ذهبية، ويتناوبون في العمل مع غيرهم، ولهم بعض الامتيازات والمناصب المهمة في ممالكهم من أراضٍ وقرى، وقد أطلق عليهم العرب اسم الشاكريّة^(٢).

١. الدهاقنة: هم أشبه بالأمراء المحليين تعتمد عليهم حكوماتهم وقد تمتعوا بمكانة خاصة وامتلكوا القرى والقصور الواسعة، وهم أرباب الضياع والخراج حتى إنهم في بعض الأوقات كانوا بجانب أصحاب السلطة يشاطرونهم الحكم^(٣)، وهم من أكثر المتنفذين في بلاد ما وراء النهر؛ إذ ليس هناك قوة سياسية واجتماعية تكبح جماح سيطرتهم، ويمكن وصفهم بأنهم طبقة أرستوقراطية، وينقسمون في نظامهم الداخلي إلى خمس مراتب كل مرتبة لها نوع خاص من الزي الذي يميزهم من بعضهم بعضاً^(٤)، وقد كان لهم دور مهم ولاسيما على الصعيد السياسي أثناء حركة

١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ٣٩٨، الاصطخري: المسالك، ص ١٨٠، ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج ١١ ص ٢١٥.

(١) ابن خرداذبة: المسالك، ص ٣٩، الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ١١٩.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٠٩، النرشخي: تاريخ، ص ٢٣-٢٩، الباشا: الألقاب الإسلامية، ص ٥٩، فاميري: بخارى، ص ٣٩، كريستنسن: إيران، ص ٢٨٦، فيصل: شكري، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، دار العلم، بيروت، ط ٣، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص ١٦٠-١٦١.

(٣) البيروني: الآثار الباقية، ص ٢٢٠، كاهن: كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، تر: بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، لبنان، ط ٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ص ١٢٧.

(٤) المسعودي: مروج، ج ١ ص ٢٨٤.

الفتوحات العربية الإسلامية فقد استعان العرب بهم، وعقدوا الصلح معهم للحد من ثورات الأهالي، وهكذا يبدو أنهم كانوا يشكلون طبقة اجتماعية مترفة على حساب الطبقات العامة من الأهالي^(١).

ب- أصحاب المهن.

١- التجار: هم من الطبقة الثرية وشكلوا فئة أرستوقراطية مستقلة، وذلك عائد إلى ثرواتهم الطائلة التي جمعوها من تجارتهم الرائدة مع بلدان ومدن العالم الآخر ولاسيما الصين، وأضيف إلى ذلك أن مكانتهم لا تقل عن مكانة الدهاقين، وأماكن وجود هؤلاء التجار في المدن الكبرى التي تمتاز بالنشاط التجاري، وعلى سبيل المثال مدينة سمرقند وخوارزم التي اشتهرت بتجارها القوية مع بلاد الترك الغزية في شرق ما وراء النهر، كما أنهم استطاعوا أن يشكلوا لأنفسهم دوراً قوياً في مجتمعهم إلى درجة أنهم كانوا يستطيعون إثارة المشاكل ضد العرب كما حصل في بخارى حين عارض تجارها إجراءات قتيبة الرامية إلى نشر تعاليم الإسلام هناك^(٢).

٢- الصناع: يشكلون شريحة مهمة داخل مجتمع بلاد ما وراء النهر فقد مارسوا صناعاتهم وطوروها بما يلائم مجتمعهم، فكان دورهم لا يقل أهمية عن دور التجار في انعاش الحياة الاقتصادية في بلاد ما وراء النهر، وتعدد هؤلاء الصناع منهم البنائون الماهرون، وكذلك الحرفيون والنساجون الذين كان تركيزهم في المدن الكبرى كسمرقند وفرغانة، و كان تحسن هذه الطبقة مرتبطاً بشكل كبير بالحالة السياسية للبلاد، ففي بداية العصور العربية الإسلامية وما آلت إليه البلاد من استقرار وصلت إلى أوج ذروتها^(٣).

٣- الفلاحون: لا يقلون أهمية عن باقي فئات مجتمع بلاد ما وراء النهر، وذلك عائد إلى أن مجتمع بلاد ما وراء النهر هو مجتمع زراعي بامتياز بسبب توفر الظروف المناخية الملائمة للزراعة وكذلك الماء والتربة الخصبة، فانتشرت المزارع والقرى الزراعية وأدى هذا إلى وجود طبقة كبيرة من الفلاحين أي؛ اليد العاملة

(١) الطبري: تاريخ، ج ٨ ص ٥٢٢-٦٣٦، بارتولد: تركستان، ص ٢٩٧-٤٦٨.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٧، النرشخي: تاريخ، ص ٤-٥٠-٧٤، المقدسي: أحسن، ص ٢٢٢، الاصطخري: المسالك، ص ١٦٨، بارتولد: تركستان، ص ٢٩٨.

(٣) النرشخي: تاريخ، ص ١٠، ابن حوقل: صورة، ص ٤١٦، الاصطخري: المسالك، ص ١٧٨، المقدسي: أحسن، ص ٢١٨، بارتولد: تركستان، ص ٢٨٢.

التي أدت إلى وفرت الإنتاج الزراعي الذي بات يزيد عن حاجة أهله، وهذه الفئة دون أدنى شك كانت قياساً بالطبقات الاجتماعية الغنية طبقة بسيطة وفقيرة^(١).

٤- المحاربون (الفرسان المتطوعة): هم من صفوف الجيش النظامي أو من تشكيلاته، كانوا يشكلون طبقة اجتماعية مهمة معظمهم من أبناء الفلاحين حتى ذكرهم النرشخي باسم عسكر القرى، وكان دورهم الأهم في القتال إنهاك قوى العدو قبل الدخول في المعركة، وكانت هذه الفئة تعتمد في مواردها وكسب عيشها على عملها في هذا المجال؛ إذ لم تكن لهم مهنة سوى القتال أو من الضياع التي تقطعها لهم السلطة وأهم أسلحتهم كانت السيف و الدرع وآلات الحرب بشكل عام^(٢).

وهكذا يتبين أنه مع تعدد الطبقات الاجتماعية في بلاد ما وراء النهر إلا أن هذا التفاوت الاجتماعي ليس كبيراً، والدليل على ذلك المستوى الاقتصادي والمعاشي التي كانت تتميز فيهما البلاد إذا ما قورنت مع البلدان الأخرى، وذلك لتوفر الإنتاج الزراعي والحيواني والصناعي بشكل كبير، الأمر الذي وصفت به بلاد ما وراء النهر حتى قيل: "إنهم استغنوا عن نقل شيء من غير بلادهم"، ذلك إشارة إلى الاكتفاء الاقتصادي وارتفاع مستوى الحياة المعيشي لدى جميع أفراد المجتمع، فيذكر ابن فضلان أنه شاهد في مدينة خوارزم ثلاثة آلاف رطل من الخطب في وقت الشتاء بسعر درهمين، ويذكر المقدسي أن ثلاث آلاف جوزة في فرغانة بدرهم^(٣).

٣- أهم مظاهر الحياة الاجتماعية:

توشحت بلاد ما وراء النهر ثوب العادات والتقاليد التي تحكم المجتمعات وتوارثتها جيلاً عن جيل عبر التاريخ الإنساني، بعضها ما ارتبط بأمور قبلية أو معتقدات دينية قديمة والبداية من المرأة ودورها في بلاد ما وراء النهر:

(١) الاضطخري: المسالك ، ص ١٦١ ، ابن حوقل: صورة، ص ٤٢٢ ، الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٤٧.

(٢) النرشخي: تاريخ، ص ١١٥ ، المقدسي: أحسن، ص ٢١٤ ، بارتولد: تركستان، ص ٢٨٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤ ص ٤٥٤ ، القزويني: آثار البلاد، ص ٥٥٧ ، ابن فضلان: الرسالة، ص ٨٣ ، والرطل: وحدة قياس تعادل ستين ذراعاً طولاً في مثلها عرضاً، انظر، الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ٦٦.

أ- المرأة:

تمتعت المرأة بالحرية والاحترام والتقدير على ساحة الأحداث السياسية والاجتماعية وذلك بشكل بارز، و قد أشار القزويني بأن إحدى النساء شاركت في حكم سمرقند في عصور ما قبل الإسلام، وكذلك في مدينة بخارى بعد وفاة حاكمها بيدون وصلت زوجته خاتون إلى الحكم بوصايتها على ابنها الذي جلس على عرش المملكة فذاع صيت هذه السيدة حتى وصلت شهرتها إلى البصرة، وأصبحت مضرب المثل في الكرم والسخاء، وكانت تقيم العدل بين الناس، ويقوم على حراستها كل يوم مئتا شاب يستبدلون كل يوم، وبهذه السيدة ينتهي الحكم الفعلي لأول أسرة حاكمة في بخارى، وقد استمر حكمها زهاء خمسين عاماً، وقد ظهر العرب المسلمون خلال حكمها في هذه الديار^(١)، وامتلكت هذه الملكة كثيراً من الدهاء والمكر السياسي حتى استخدمت ذكاءها وجمالها ومركزها لتدافع عن مملكتها، حيث إنها عرضت نفسها أن تكون زوجة لملك الصغد (طرخون) فيما لو خلصها من العرب^(٢). وكذلك كانت نساء الترك من الطبقات العليا يصحبن أزواجهن خلال المعارك، وأثبتن شجاعتهم في القتال^(٣).

أما من الناحية الاجتماعية ولاسيما ما يتعلق بأمور الزواج كان لهم الحق في اختيار أزواجهن وخير مثال على ذلك زوجة نيزك عندما فتح قتيبة بخارى، وقتل نيزك أثناء معارك فتح العرب المسلمين لبخارى، فعرض قتيبة الزواج من أرملة نيزك لكنها رفضت، فتركها، وكذلك يشير الكرديزي إلى ما هو معروف عن نساء بلاد ما وراء النهر من طهارة الذيل والعفة^(٤)، وقد وضع أهل ما وراء النهر شروطاً أعطت المرأة المكانة المناسبة، فكانت صيغ الإيجاب وقبول ولي أمرها شرطاً للزواج، والمهور التي اشترط أن تكون من الدراهم المتداولة التي فيها نسب عالية من الفضة والذهب فضلاً عن الثياب والجمال^(٥)، وكانت تتسم

(١) الترشيحي: تاريخ، ص ٢٣، القزويني: آثار، ص ٣٥٣، ابن خردادبة: المسالك، ص ١٤٠، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ١٥٦، الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب الكنايني ت ٢٥٥هـ/٨٦١م، البخلاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ٧١، فامبري: بخارى، ص ٢١-٣٩.

(٢) الترشيحي: تاريخ، ص ٦٩، فامبري: بخارى، ص ٦٠.

(٣) الطبري: تاريخ، ج ٨ ص ١٦١.

(٤) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢ ص ٢٨٦، ابن الاثير: الكامل، ج ٨ ص ١١، الكرديزي: زين، ص ٣٧١.

(٥) الترشيحي: تاريخ، ص ٦١، الحميري: الروض، ص ٣٨٧، ابن فضال: الرسالة، ص ٧٩.

بالعقل والحلم وتقابل زوجها بالصفح والوعظ الحسن، ولعل من أهم أدوار المرأة هناك وفي كل مكان إرساء الصلح بين الخصوم عن طريق المصاهرة السياسية الذي يعد سبباً في إحلال السلم، وقد جرى مثل هذا الزواج كثيراً^(١). ولا يمكن إعطاء الصورة الإيجابية دون السلبية عن المرأة في ما وراء النهر فقد كانت نساء الطبقة العامة تعاني من أعباء وقساوة العيش والسبي في أوقات الحرب والقتال كما فعل أخو ملك خوارزم عام ٩٣هـ/ ٧١١م الذي أخذ بعض نسوة خوارزم عنوة من عوائلهن، ولاسيما الجميلات^(٢)، أضف إلى ذلك أنهن عاملات فقد عملن كحرفيات إلى جانب أزواجهن ولاسيما في الصناعات اليدوية كالخياطة والتطريز والأعمال الدقيقة^(٣)، وإذا سُلِطَ الضوء على المرأة تبعاً للحالة الدينية للمنطقة فقد كانت ذات مكانة وتمتعت ببعض الحقوق في ظل الديانة المانوية، فكان لها الحق في التملك والتصرف فيما تملك، وكذلك ترقبها في المراتب الدينية كما كان للرجال تماماً بينما تصبح المرأة في ظل الديانة المزدكية كأي متاع يملكه الرجل، وذلك عائد إلى الفكر المزدكي الذي أباح النساء^(٤).

ب- الأعياد:

احتفل مجتمع بلاد ما وراء النهر كغيره من المجتمعات بأعياد على مدار السنة، وكانت هذه الأعياد مرتبطة بحدث له أهمية لدى نفوس أهالي ما وراء النهر، وفي مقدمة هذه الأعياد هو عيد النوروز، وكانوا يطلقون عليه نوروز الفلاحين، ويحتفلون به قبل نوروز الجوس بخمسة أيام^(٥)، وهناك أيضاً عيد يسمى رامش آغام وهو في الثامن والعشرين من أول شهورهم (أنوسرد)، وكان مركزه بخارى إذ يجتمع أهلها في بيت نار القرية (رامش) يقومون بتأدية طقوس معينة، ومن بعد ذلك يأكلون ويشربون عند أحد رؤساء القرية الذين يتناوبون على استضافة الناس بشكل دوري، ثم عيد كشمين الذي يقام فيه سوق للناس في

(١) الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد ت ٥٠٥هـ/١١١١م، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص ١٢٨، ابن الفقيه: البلدان، ص ٢٩٤.

(٢) ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١٤٦، الطبري: تاريخ، ج ٨ ص ٣٦.

(٣) القزويني: آثار، ص ٥٢٠.

(٤) الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م، الملل والنحل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ج ١ ص ٢٤٩، كريستنسن: إيران، ص ١٩٣.

(٥) الترشيحي: تاريخ، ص ٤٣.

قرية (كمجكت) وسوق آخر في قرية (الطواويس) مدته سبعة أيام، ثم عيد خواره إذ يجتمع المحتفلون في بيوت النار ويأكلون الدقيق والسمن والسكر^(١)، ويذكر النرشخي أن بعض أهل بخارى كان يذبحون ديكاً نذراً لسياوش بن كيكافوس والذي قتل من قبل أفرسياب وينوحون عليه ببعض الأناشيد، ويذكر أيضاً أن هناك ليلة تسمى ليلة سورى يوقدون فيها ناراً وهي تصادف يوم الأربعاء في نهاية كل عام^(٢)، وهناك عيد يسمى أجغار هذا العيد يوافق أول وقت يحتاج الناس فيه إلى التدفئة أي بداية الشتاء، وهناك عيد آخر يسمى نكح آغام يقام في مدينة بيكنت، وهناك عيد يسمى ازداكند خوار يأكلون فيه الخبز المشحم، ويدخلون إلى بيوتهم، ويجتمعون حول المواقد خشية البرد، وعيد يسمى بيمخب يستخدم الناس فيه البخور والأدخنة و روائح الطعام لدفع أذى الجن والأرواح الشريرة^(٣).

ج- أصول الضيافة:

من المعروف أن مجتمع بلاد ما وراء النهر مجتمع قبلي متمسك بالتقاليد القبلية التي أبرزها إكرام الضيف، وما لهذه السجية من أثر لاستمالة قلوب الناس ساعدهم على ذلك الأوضاع الاقتصادية والظروف المعيشية الحسنة، حتى قيل عنهم: أنهم أهل يسار وعفة ومعروف وضيافة وتعظيم، وإن الفقير عندهم غانم والغني سالم^(٤)، حتى إن السائل لا يقف على باب، بل يدخل على أي دار، ويطلب ما يسد به جوعه ورمقه، وهم يتنافسون في ما بينهم إذا ما طرق شخص ما بابهم راسمين على وجوههم البشاشة بحيث يعلم كل من شاهدهم سرورهم بذلك وسماحتهم^(٥)، ويقدم الاصطخري وصفاً مذهلاً لكرم وسماحة أهل ما وراء النهر فيقول: "فإنَّ الناس في أكثر ما وراء النهر كأهم في دار واحدة ما ينزل أحد بأحد إلاَّ كأنه رجل دخل دار نفسه لا يجد المضيف من طارق في نفسه كراهة. . . . وبحسبك أنَّك لا تجد فيهم

(١) البيروني: الآثار الباقية، ص ٢٣٣-٢٣٥.

(٢) النرشخي: تاريخ، ص ٤٠.

(٣) البيروني: الآثار الباقية، ص ٢٣٨.

(٤) ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تح: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧، ص ٢٣، الاصطخري: المسالك، ص ١٦١، ابن حوقل: صورة، ص ٣٨، الجاحظ: رسائل، ص ٥٥، المقدسي: أحسن، ص ٢١٤.

(٥) الاصطخري: المسالك، ص ١٦٢، البكري: المسالك، ج ١ ص ٤٤٢.

صاحب ضيعة إلا كانت همته ابتناء قصر فسيح ومنزل للأضياف. . ."، ليس ذلك مقصور على الضيف فحسب، بل حتى قطعان ودواب الضيف يوفرون لها ما يلزمها من علف ومشرب^(١)، وللكرم وحسن الضيافة فيها أسماء تلمع، وعلى سبيل المثال لا الحصر أبو إسحق الكشي المشهور بالجود والكرم، ومن العجائب ما حكى عنه أن بعض أصدقائه شكاه إليه سوء حاله وكثرة ديونه، فسأله أبو إسحق عن مقدار دينه ثم وزن له حاجته في الحال، وقال: اصرف هذا في دينك! ثم وزن مثلها وقال: اصرف هذا في مصالحة شأنك! وجعل يعتذر إليه اعتذار المذنب، فلما ذهب الرجل بكى بكاء شديداً، فسئل عن بكائه فقال: بكائي على غفلي عن حال صديقي حتى افتقر إلى رفع الحال إلي والوقوف موقف السؤال^(٢). أمام هذا الشاهد أمران الأول هو الكرم والثاني هو حسن الكرم والضيافة والاعتذار عند التقصير.

د- الملابس:

انقسمت الملابس في بلاد ما وراء النهر إذا ما صح التعبير إلى نوعين من اللباس، لباس الطبقة العامة؛ إذ كانوا يرتدون القلانص، وهو لباس مستدير ومبطن بالصوف أو القطن ويكون بشكل نصف كرة يوضع على الرأس، وأما القباء فهو لباس خارجي طويل، ويرتدون أيضاً القراطق، وهي شبيهة بالقباء تصل إلى الركبتين فقط، ويلبسون تحتها سروالاً^(٣)، أما النوع الآخر من اللباس فقد كان خاصاً بأصحاب الطبقات الغنية، حيث أشار المقدسي إلى ذلك بقوله: "لا يتطيلس بما وراء النهر إلا كبير، وهذه إشارة إلى أن لباس هذه الطبقة الطيلسان؛ وهو خمار بسيط يطرح على الرأس والكتفين، وكانت مرتفعة الثمن فقد بلغ سعرها عشرين ديناراً"^(٤).

(١) الاضطخري: المسالك، ص ١٦٣، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٦٣-٤٦٥، الحموي: معجم البلدان، ج ٥ ص ٤٦، القزويني: آثار، ج ١ ص ٥٥٥.

(٢) القزويني: آثار، ج ١ ص ٥٥٤.

(٣) الحميري: الروض، ص ٢٢٥، الجواليقي: موهوب بن أحمد ت ٥٤٠هـ/١١٤٦م، المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم، تح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب، ط ٢، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ٣١٢، كريستنسن: إيران، ص ٤٥٥، دوزي: رينهارت بيتر آن، معجم الملابس، تر: أكرم فاضل، دار الحرية، بغداد، ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ص ٢٩٥.

(٤) المقدسي: أحسن، ص ٢٥٨، الإدريسي: نزهة، ج ١ ص ٥٠١، النرشخي: تاريخ، ص ٢٧.

هـ- الأسرة والزواج:

تشكلت الأسرة في بلاد ما وراء النهر كباقي بقاع الأرض بدافع اجتماعي لاستمرار النسل، أو بدافع ديني، ويلاحظ أن الزرادشتية التي شجعت على الزواج بل جعلت المتزوج أعلى درجة من غيره، وشجعت على الإنجاب لتكون في مصاف قوى الخير وفي صراعها ضد قوى الشر، ويوجد في نقيضها المانوية التي حظرت الزواج على أتباعها، ورأت أنه من أسباب امتزاج الشر بالخير، وتظهر البوذية بتعاليمها التي نادى بالرهبة وترك ملذات الحياة^(١)، مهما يكن فإن الزواج كان دافعاً لإبقاء النسل، ومن أركان الزواج القبول والمهر، وكان المهر يعاد للزوج إذا كانت الزوجة عاقراً، وكما أنهم عملوا على السماح بالزواج من الأقارب للمحافظة على دم الأسرة الواحدة نقياً، وإذا توفي زوج المرأة لا يسمح لها بالزواج فإن ذلك يعد أمراً معيباً بحقها^(٢)، وكان الأب هو صاحب الولاية على الأسرة وينفق عليها، والأم تكون مسؤولة عن تربية الأولاد الذين هم بدورهم سيقدمون فروض الطاعة لوالديهم والاحترام لهما، وإلا سيحرمون من الميراث^(٣).

(١) سميث: هوستن، أديان العالم، تر: سعد رستم، دار الجسور الثقافية، حلب، ط٣، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص ١٧٥.

كريستنسن: إيران، ص ١٨٤.

(٢) المقدسي: أحسن، ص ٣٢٨، ندا: طه، دراسات في الشاهنامة، دار الطالب، الإسكندرية، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م،

ص ٢٧٤، كريستنسن، إيران، ص ١١٤-٣٠٩.

(٣) هيروودوت: تاريخ هيروودوت، تر: عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص ٩٦، عيزوقي:

أوضاع خراسان، ص ١٥٠،

Van Donzel, Lewis and Pellat, Encyclopaedia of Islam, v4, p658.

رابعاً- الأوضاع الدينية في بلاد ما وراء النهر:

الأديان: جمع دين، والدين في اللغة بمعنى: الطاعة والانقياد، والدين في الاصطلاح العام: ما يعتنقه الإنسان ويعتقده ويدين به من أمور الغيب والشهادة، والدين: مشتق من الفعل الثلاثي: (دان)، وهو تارة يتعدى بنفسه، وتارة باللام، وتارة بالباء، ويختلف المعنى باختلاف ما يتعدى به، فإذا تعدى بنفسه يكون (دانه) بمعنى ملكه، وساسه، وقهره وحاسبه، وجازاه، وإذا تعدى باللام يكون (دان له) بمعنى خضع له، وأطاعه، وإذا تعدى بالباء يكون (دان به) بمعنى اتخذه ديناً ومذهباً واعتاده، وتخلق به، واعتقده^(١).

وأرجح التعريفات أن يقال: الدين هو اعتقاد قداسة ذات، ومجموعة السلوك الذي يدل على الخضوع لتلك الذات ذلاًّ وحباً، رغبة ورهبة، فهذا التعريف فيه شمول للمعبود، سواء كان معبوداً حقاً، أم معبوداً باطلاً، وهو ما سوى الله عز وجل، وتقول العرب: ما زال ذلك ديني وديني؛ أي: عادي^(٢).

وتجسد الظواهر الطبيعية كالسما والأرض والهواء والرياح والأمطار في الفكر الديني في الشرق الأدنى القديم، وأهم ما يميزها أيضاً هو تعدد الآلهة حتى سما الشمس عين الله، والضوء ابن الله^(٣).

وقبيل الفتح العربي الإسلامي لبلاد ما وراء النهر لم تكن هناك ديانة واحدة تلتف حولها شعوب المنطقة، فقد سادها التفكك الديني، وربما كان ذلك عائداً إلى التفكك السياسي حيث إنها كانت ذات كيانات سياسية، وكان لكل مملكة ما يلائمها من معتقدات وتحالفات سياسية، فمنطقة بلاد ما وراء النهر منطقة ذات تداخل جغرافي، فمن الطبيعي أن يكون لها النصيب الأكبر من المؤثرات الحضارية المجاورة ولا سيما بلخ الأقرب لنهر جيحون حتى إن كثيراً أطلق على هذا النهر اسم نهر بلخ، فانتقلت من بلخ الذي كان معبراً للمؤثرات الحضارية والدينية إلى ما وراء النهر، فكانت البوذية من الصين والزرادشتية والمناوية من إيران، ونشط المسيحيون النساطرة في هذه البلاد، وهذه المؤثرات والديانات كانت بأوقات مختلفة ومتأثرة بجيرانها الفرس والصين والهنود.

(١) الرازي: مختار الصحاح، ص ١١٠.

(٢) الهروي: محمد بن أحمد بن الأزهر ت ٣٧٠هـ/٩٨٠م، تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج ١٤ ص ١٢٨.

(٣) أمين: أحمد، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١٠، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ٩٩.

وفيما يلي بعض الأضواء على هذه الديانات:

١- الزرادشتية:

نسبة إلى زرادشت فمن هو زرادشت (Zaradusht)؟

هو الذي ادعى أنه نبي الجوس من مدينة أرمية، وهي آخر حد من آذربيجان من جهة الغرب، وله عدة أسماء فمنها: زردشت وزرتشت وزرادهشت وزرادشترا، ويقال: زرتيشت بُن سقيمان^(١)، ويقال بن أسبيمان^(٢)، وله ما يقرب اثني عشر اسماً غير هذه الأسماء^(٣).

وهناك أسطورة تتحدث عن ولادته وتذكر أن زرادشت ولد من أب يدعى بوروزهازيو أو (بوراشاسب) من قبيلة سبيتام، ومن أم حسناء تدعى دوغدوما، وقد صادف زوجها في الحقل شبهان نوريان أعطيا نبات الهوما المقدس لزوجته التي ستنجب الطفل الروحاني وبعد شهور أنجبت المولود وسموه زارافوشترا الذي يسمى الآن زرادشت، وعند ولادته لم يملك كباقي الأطفال، بل إنه قهقه بصوت عالٍ اهتزت له أركان البيت، وعمه النور الإلهي، وهربت الأرواح الشريرة منه^(٤)، وتذهب الروايات إلى أن مولد زرادشت قد اقترن بالمعجزات، وأنه نشأ محباً للحكمة والحياة والعزلة والاعتكاف^(٥).

وقد اختلف الباحثون حول شخصيته وذهبوا لثلاثة مذاهب:

(١) ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، تح: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج ١ ص ٤١٢.

(٢) المسعودي: مروج، ج ٢ ص ١٩٦، ابن العربي: تاريخ مختصر الدول، ص ٤٩.

(٣) زكار: سهيل، المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والفرق والطوائف والنحل. . . ، دار الكتاب العربي، دمشق، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج ٢ ص ٤٥٧، عبد القادر: حامد، زرادشت الحكيم؛ نبي قدامى الإيرانيين، مركز الإنماء الحضاري، قطر، ط ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ٢٤، وافي: علي عبد الواحد، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، مكتبة النهضة، مصر، ط ١، ١٩٨٤هـ/١٩٦٤م، ص ١٢٥.

(٤) مظهر: سليمان، قصة الديانات، مكتبة مدبولي، مصر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٢٨٥.

(٥) ويكثر الحديث عن ولادته ويختصر ذلك أبو الفداء في مختصره فيقول: "ولهم في خلق زرادشت وولادته كلام طويل لا فائدة فيه" أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، مصر، ط ١، د.ت، ج ١ ص ٨٣، وافي: الأسفار، ص ١٢٧، عصفور: محمد أبو المحاسن، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٢٨٠.

أ- مذهب ينكر وجوده، ويدعي أنه شخصية أسطورية والكشوف الحديثة دلت على بطلان ذلك
 ب- ومذهب يرى أنه شخصية حقيقية، وهو نبي الله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وأن الأبتناق هي صحف إبراهيم، وليس لهذا الرأي أي سند يعتد به، فزردشت ظهر في القرن السابع قبل الميلاد، وظهور النبي إبراهيم الخليل حوالي القرن السابع عشر قبل الميلاد، وربما نشأ في بلاد أور الكلدان، وهو سامي (أبو العرب) على حين زرادشت آري، ونشأ في إحدى مقاطعات ميديا في بلاد إيران والقائمة تطول بذلك.

ج- والمذهب الثالث ذو رأي صحيح هو أنه شخصية حقيقية وليس بإبراهيم الخليل، وقد ولد في الري (ميديا) سنة ٥٨٨ أو سنة ٦٦٠ ق.م، ومن ثم هاجر إلى بكتريا وعاصمتها بلخ التي كان يقيم بها بشتاسب الذي ناصر زرادشت، وانتقلت أفكاره منها إلى سائر البلاد، وأنه ليس والد دارا الأول الذي كان مقره بيرسيبوليس في إقليم فارس، وتوفي مقتولاً في بلخ سنة ٥٨٣ ق.م أمام المذبح وهو يصلي عن عمر ناهز الـ ٧٧ سنة عندما أغار عليهم الطورانيون^(١).

وقد زعم بعض أهل الكتاب (اليهود) أنه كان خادماً لبعض تلامذة أرمياء النبي عليه الصلاة والسلام، وأنه كان خاصاً به، فخانه وكذب عليه، فدعا الله عليه فبرص، فلحق بآذريجيان، وشرح بها دين المجوسية، ثم خرج منها متوجهاً نحو بشتاسب بن لهراسف^(٢)، وهو ببلخ فلما قدم عليه شرح له دينه، فأعجبه واتبعه وقهر الناس على اتباعه، وقتل منهم خلقاً كثيراً حتى قبلوه ودانوا به^(٣).

فما هو مذهب زرادشت أو ماهي عقيدته؟

تظهر الثنوية في الزرادشتية بقوة فهي تظهر على شكل صراع بين قوتين متناقضتين بين (Asha)،

^(١) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٣٥، عبد القادر: زرادشت، ص ٣١، زكار: المعجم، ص ٤٥٨، وافي: الأسفار، ص ١٢٨.

^(٢) هناك اختلاف باسم الملك انظر: المقدسي: البدء، ج ٣ ص ١٤٩، ابن قتيبة: المعارف، ص ٦٥٢، وهناك رواية يطول ذكرها فيها من الأساطير (المعجزات) التي تدور في بلاط الملك بين زرادشت والحكماء انظر: القزويني: آثار، ج ١ ص ٤٠٠، زكار: المعجم، ص ٤٥٨.

^(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ١ ص ٢٢٦، أبو الفداء: المختصر، ج ١ ص ٨٣، ابن كثير: البداية، ج ٢ ص ٣٨٢.

(Druj)؛ أي بين الصدق والكذب، وبين الاستقامة والإثم^(١)، وبين آهورامزدا النور (الخير) و أهريمن الظلمة (الشر)^(٢)، ويظهر أنه قبل مجيء زرادشت أن هناك كثيراً من الآله سواء كانت للخير أم للشر، والذي فعله زرادشت هو توحيد هذه الآلهة بالإلهيين المذكورين آنفاً، وهما في نزاع دائم، ومن تعاليمها لأتباعها حرية الإرادة فهي دين الحرية بلا منازع ولمعتنقها الحرية في الاختيار بأن تكون حياته السرمدية إما مع المؤمنين في الجنة وإما مع الأشرار في الجحيم بعد الحساب الفردي عند الموت، وأشرف عمل للإنسان الزراعة وتربية الماشية وحرم على أتباعه الصوم ليكي لا يضعفوا أمام أعمالهم؛ لأنه يريد لهم أقوياء، وأن الماء والهواء والتراب والنار عناصر طاهرة يجب ألا تنجس وألا تدفن الموتى في الأرض كي لا تنجس التراب، واعتمد الفكر الزرادشتي على أساس أن بداية الكون هي من الظلمة والنور، فقد كان في الأزل مبدأ النور الذي يطلق عليه أهورا مزدا الذي بدأ بخلق العالم النوراني الخالي من الشرور و الأمراض والآلام والأخلاق السيئة، بل إن وجود الإنسان كان نورانياً ليس بحاجة إلى الطعام والشراب، ولكن أهريمن اطلع على عالم النور الذي أوجده أهورا مزدا فلم يشأ أن يتركه كما هو؛ لذلك حاول جاهداً الولولج إلى هذا العالم، وبالفعل تم له ذلك حيث إنه نفذ إلى عالم النور من خلال ثقب موجود في أسفل عالم النور بما أن التصور الزرادشتي للكون هو أن عالم النور في الأعلى وعالم الظلمات في الأسفل، ويفصل بينهما حيز من الفراغ^(٣)، كما حددت واجبات الإنسان في أمور ثلاثة وهي أن يعمل على جعل: العدو صديقاً، والشرير صالحاً، والجاهل عالماً.

كما بينت أن أعظم الفضائل هي: الصلاح، والشرف، والأمانة في الأقوال والأفعال؛ كذلك نصت

(١) ر. س. زيهنير: الزرادشتية الفجر - الغروب، تر: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص ٣٣.

(٢) الشهرستاني: الملل، ج ٢ ص ٢٦٤، الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، اعتقادات فرق المسلمين والمشركون، تح: علي سامي النشار، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص ٨٦، ديورانت: قصة، ج ٢ ص ٢٢٤، بيرنيا: حسن، تاريخ إيران القديم من البداية حتى العهد الساساني، تر: محمد عبد المنعم والسباعي السباعي، تق: يحيى الخشاب، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط ٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ٤٦.

(٣) أبو الفداء: المختصر: ج ١ ص ٨٣، ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج ١ ص ٧١، ديورانت: قصة، ج ٢ ص ٤٢٤-٤٣٠، العمري: أكرم ضياء، عصر الخلافة الراشدة، العبيكان الرياض، د.ت، ص ٣٣٣، معن: رنا كاظم، الزرادشتية، جامعة واسط، مجلة كلية التربية، العدد ١١، ص ١١٧.

على التقرب إلى الإله بالتطهر والتضحية والصلاة، ومع أنها نمت عن إقامة الهياكل والأصنام؛ إلا أن معتنقيها أقاموا المعابد على سفوح التلال وفي ساحات القصور وأواسط المدن، وأشعلوا فيها النيران المقدسة قرباناً للإله أهورامزدا، ثم بالغوا في تقديس هذه النيران حتى وصلت إلى درجة العبادة، كما قدسوا الشمس بعدها نار السماء الخالدة^(١)، وحض زرادشت على العمل بالزراعة والماشية وعلى الزواج حتى إنه أعلى مرتبة المتزوج على العازب غير أنه أحلّ زواج الأقارب كالرجل الذي يتزوج أخته أو ابنته، ومن الآداب الزرادشتية الزممة؛ وهي ما يقال عند الأكل والاستحمام، وكأنها تشابه في الشريعة الإسلامية البسملة، ودفع الزكاة وإخراج ثلث مالهم للفقراء، وتقديس النار وهي أهم ما يوجد عندهم^(٢).

وكتاب الزرادشتية المقدس هو الأفيستا (الأوستا)، ومعناه المتن أو السند، والمجوس تسميه (دين دبیره)؛ أي كتابة الدين، ومن خلاله حافظ الزرادشتيون على إرثهم الفكري المتمثل بالنصوص المقدسة، وهو على ستين حرفاً من المعجم، وهي لغة يعجز عن إيرادها، ولا يدرك مقصد مرادها، وكتب هذا الكتاب في اثني عشر ألف مجلد بالذهب فيه وعد ووعد، وأمر ونهي، وغير ذلك من العبادات، واسم هذا الكتاب بستاه، وعرب فقيل: الأبيستاق^(٣)، وأول سورة منه سورة حيرت فيها ذكر مبتدأ الخليفة وأصول الطبائع وأمزاجها، وهو كتاب يعجز عن حفظه، وأكثر ما يحفظونه أسبوعاً إذا انتهى الحافظ للسبع ابتداء الحافظ للسبع الثاني^(٤). وكان لزرداشت ابنة صغيرة جميلة عاقلة تسمى بوروكيستا نالت إعجاب الأسرة المالكة، أعجب بها رئيس الوزراء وتزوجها، وبذلك دعم الرجل مركزه الديني بمصاهرة سياسية، ثم تشجع وحضّ الملك على أن ينشر تعاليم أهورامزدا في كل مكان؛ لذلك أرسل الرسل إلى الممالك والأقاليم المجاورة للدعوة إلى الأفستا، ووصلت هذه التعاليم إلى جميع أنحاء إيران واليونان والهند، ويقول الزرادشتيون: إن كشتاسب أمر بذبح اثني عشرة ألف بقرة، دُبغت جلودها، ورُبِطت بخيوط الذهب الخالص، وكتب عليها بحروف من

(١) عصفور: معالم، ص ٢٨٢.

(٢) الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب الكناي ت ٢٥٥هـ/٨٦١م، البيان والتبيين، دار الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج ١ ص ٥١، كفاي: محمد عبد السلام، في أدب الفرس وحضارتهم، دار النهضة، بيروت، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص ٢١٨.

(٣) المسعودي: التنبيه، ص ٨٠.

(٤) البكري: المسالك والممالك، ج ١ ص ١٣٧.

الذهب جميع تعاليم زرادشت التي عرفت باسم "الآفيستا"، ويزعمون أن الإسكندر الأكبر أحرقها عندما استولى على فارس عام ٣٣٠ ق.م، وأن بقايا الآفيستا جمعت بعد ذلك، وتمت ترجمتها إلى اللغة الفارسية، كما أن أقدم مخطوط لهذا الكتاب يعود إلى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م^(١). ويمكن تقسيم الأفستا إلى خمسة أسفار وهي:

١. **الغاثا:** (التراتيل أو الترانيم)^(٢)، وتعد الأقدم والأهم من أقسام الأفستا، وذلك لنسبتها إلى زرادشت وهي جوهر الطقوس الدينية، وهي عبارة عن سبعة عشر قصماً كل قسم يسمى هات أو ها.
٢. **أليسنا:** وهي الأناشيد أو الجمل العبادية أو التسبيح، وتقسم إلى ٢٧ فصلاً تعرف بـ (الهاتا) أو (الحاها) التي تعد (غاثا) من ضمنها، ولكنها انفردت لأهميتها، وهي أقدم أجزاء الأفستا^(٣).
٣. **الياشت:** تقسم إلى ٢١ يشتاً، وهي مخصصة لعبادة الآلهة من غير أهورا مزدا، وقد كانت نظماً ثم شرحت نثراً، وهي من المزامير والترنيمات.
٤. **ونديداد:** وهي القانون المضاد للشياطين، ويتحدث عن خلق العالم والسماوات والأرض، وما يتعلق بالموت والزواج والغسل والطهارة والحلال والحرام والمجتمع أيضاً، وهي عبارة عن ٢٢ فصلاً.
٥. **ويسبرد:** وهو عبارة عن ٢٤ فصلاً من الأشعار التي تمجد الخير والخلق.
٦. **خوردة أفيستا:** أي الأبتاق الصغير والأدعية والأذكار والصلوات اليومية، وهو عبارة عن ثمانية أقسام^(٤).

وعمل له زرادشت تفسيراً سَمَّاه الزند، وهو مصدر القانون الساساني، وبعض المتزمتين من أصحاب الزرادشتية لا يعترفون بالزند ويعدون من يعول على هذا الشرح خارجاً على أصول الشريعة ويسمونه زندياً، ولعل هذه الكلمة عربت لتصبح فيما بعد زنديقاً عند العرب مأخوذة من الأصل الفارسي^(٥)، ثم عَمَلَ

^(١) المسعودي: التنبيه، ص ٨٠، الكايد: أحمد، المجوسية، البحرين، المطبعة الشرقية، ط ١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص ٥٤.

^(٢) زيهنير: الزرادشتية، ص ٢٤.

^(٣) ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ١٩٠، كريستنسن: إيران، ص ١٣٨.

^(٤) زكار: المعجم، ج ١ ص ١٨٤، فيزهوفر، يزف: فارس القديمة ٥٥٠ ق.م - ٦٥٠م: تر: محمد جديد، دار قدمس،

سوريا، ط ١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص ١٢٦، زيهنير: الزرادشتية، ص ٢٤، وافي: الأسفار، ص ١٥٨.

^(٥) كريستنسن: إيران، ص ٤٣، وافي: الأسفار، ص ١٣٠.

تفسيراً للزند سماه بازند، وبعد وفاته عمل علماء فارس تفسيراً لتفسير وهو الأيارد^(١). هذا وقد انتقلت تعاليم زرادشت إلى ما وراء النهر واعتنقها الأتراك^(٢)، وأقيمت فيها بيوت لعبادة النار^(٣) في مناطق كثيرة كبيت قبادان في بخارى، وفي خوارزم التي وصلت لها الديانة الزرادشتية عن طريق التجار^(٤)، ورامشين^(٥)، ويقول الجوس: إن هذه النار أقدم من بيت نار بخارى، حتى بلغت شواطئ بحر (آرال) ومنازل بدو الترك في تيان شان^(٦)، ويتحدث النرشخي عن جماعة من الدهاقين تسمى آل كشكثة رحلوا عن بخارى بعد الفتح العربي الإسلامي، وبنوا خارج المدينة سبعة قصر، وأقاموا فيها بيوتاً لعبادة النار^(٧)، وتعد الزرادشتية ديناً رسمياً في خوارزم، وأضاف ما قاله المسعودي أن معظم أمراء أقاليم ما وراء النهر كانوا زرادشتيين^(٨)، بل إن الزرادشتية وصلت إلى مناطق الصقالبة شمال خوارزم^(٩)، ويذكر البيروني أعياد الجوس في بلاد ما وراء النهر ومنها: عيد يقام في بخارى كل عام يسمى رامش أغام كان الجوس يجتمعون فيه كل عام، وكان أعز الأعياد عندهم، وعيد آخر كان يقام في مدينة بيكند يسمى بكج أغام، كانوا يأكلون فيه بعد تركهم الطعام فترة طويلة، وأما آخر هذه الأعياد فكانت تقام في مدينة كشمين^(١٠). والخلاصة في هذه الديانة ما يشبه الأديان السماوية؛ إذ تعترف بإله واحد إلى جانبه ملائكة، وتشير

(١) المسعودي: مروج، ج ١ ص ١٧٤،

Emmerik, R,E, Buddahism Among Iranian people, The Cambridge History of Iran, the Seleucid, Parthian and Sasanian Periods, Cambridge university press,1983,v3, p964-949.

(٢) المسعودي: أخبار الزمان، ص ١٠١، القزويني: آثار، ص ٥١٥.

(٣) يذكر: أن قابيل لما قتل أخاه هرب إلى اليمن، فأثاه إبليس، فقال: إنما قبل قربان أخيك لأنه كان يخدم النار ويعبدها فانصب أنت نارا تكون لك ولعقبك، فبنى بيت نار فهو أول من نصب النار وعبدها، انظر: الطبري: تاريخ،

ج ١ ص ١٦٥، ابن الجوزي: المنتظم، ج ١ ص ٢٢٩.

(٤) المسعودي: مروج، ص ١٨٥، ابن عبد البر: القصد والأمم، ص ٣٥.

(٥) النرشخي: تاريخ، ص ٣٥.

(٦) أطلق عليها الصينيون اسم السماويين؛ أي التي تحكم من قبل السماء، انظر: ديورانت: قصة، ج ٤ ص ٢٨٠.

(٧) النرشخي: تاريخ، ص ٥٢.

(٨) المسعودي: مروج، ص ١٨٥.

(٩) ابن عبد البر: القصد والأمم، ص ٣٥.

(١٠) البيروني: الآثار الباقية، ص ٢١٥-٢٢٥.

إلى شياطين أو أرواح شريرة رئيسها يشبه إبليس في الأديان السماوية، وقد صورت العقيدة العالم في صورة مسرح يتصارع فيه الخير والشر، وأن النفس البشرية ميدان لمثل هذا النزاع؛ إلا أن لكل إنسان قوة خارقة تحصنه على الأخلاق الفاضلة؛ أي أن الإنسان حر الإرادة يختار بين النور والظلمة وهو مسؤول عن أعماله؛ كذلك كانت تحض على فعل الخير، وتبين أن طبيعة الإنسان الخيرة تدعوه إلى ذلك، ومع افتراض بعضهم أن زرادشت هو نبي وأن الزرادشتية ديانة سماوية اعتماداً على الآية القرآنية الواردة: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)^(١)، ومع أن الآية لم تقتصر على ذكر الأديان السماوية، بل ذكرت الذين أشركوا، كما أنها ليست في إطار إيضاح الأديان السماوية وغير السماوية، وإنما تتحدث عن مصير الجميع في الدار الآخرة، ويمكن القول أن هذه الديانة كان لها وقعها وأتباعها، ولعلها كانت ديانة سماوية توحيدية لها كتاب، ولكن شوهت وأدخلت عليها الأباطيل مع العلم أن المجوس قد عدوا من أهل الكتاب ودفعوا الجزية، وهذا ما يذكره عبد الرحمن بن عوف لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وأما المجوس فقد شهد عبد الرحمن بن عوف أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذها الجزية من مجوس هجر -أكبر مدن البحرين، ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس، فعامل عمر رضي الله عنه مجوس إيران والسواد وفق هذه السنة^(٢)، وذكر ابن الجوزي: "أنه كان للمجوس نبي وكتاب إلا أنه لا يتحقق متى كان ذلك"^(٣).

وإن لم يكن ذلك فيمكن القول إنها تعاليم فلسفية من حكيمة وضع بعض التعاليم التي كان فيها

(١) سورة الحج: آية ١٧.

(٢) أبو داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م، سنن أبي داود، تح: شعيب الأرناؤوط و محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، بيروت، ط ١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ج ٤ ص ٦٥٠، البلاذري: فتوح، ص ٨٧، الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المكتبة التوفيقية، د. م، د. ت، ج ٣ ص ٢١٧، ابن معظم شاه: محمد أنور شاه ت ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م، فيض الباري على صحيح البخاري، تح: محمد بدر عالم الميرقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ج ٤ ص ٢٨٠، القرطبي: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م، الاستذكار، تح: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج ٣ ص ٣٤٢، العمري: عصر الخلافة، ص ١٨٤.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم، ج ١ ص ٤١٣.

بعض الحكم التي تنير وتصلح الشعوب آنذاك، وهذا يقود إلى قول هوج (Haug): "إن زرادشت كان من الناحية اللاهوتية موحداً ومن الناحية الفلسفية ثنويًا"^(١) وعلى أي حال ظلت هذه الديانة ديناً لثلاث إمبراطوريات متعاقبة^(٢)، وهي الأخمينية (٥٤٩-٣٣١ ق.م)، والفرثية (القرن الثاني الميلادي-٢٢٤م)، والساسانية (٢٢٤-٦٤٢م)، وكانت أقوى ديانة عالمية في زمانها حتى جاء الفاتحون العرب بالدين الإسلامي.

٢-البوذية:

بوذا: العارف المستنير (المتيقظ)^(٣)، لقب أطلق على رجل له في كتب التاريخ عشرات الأسماء فمنها: سدهارثا أي: (الشخص الذي حقق غرضه)، وساكياسيها أي: (أسد قبيلة ساكيا)، و سودجاثا أي (الشخص السعيد)، وجينا أي: (المنتصر)، ولوكاناتا أي: (سيد العالم)، ودهارماراجا أي: (ملك الحق)، وغيرها من الأسماء الكثيرة^(٤)، ولد سنة ٥٦٣ ق.م^(٥)، وقيل ٥٦٨، وقيل ٥٦٠ ق.م^(٦) لأب يدعى شددوذانا من أبناء عشيرة جواماتا التي تنتسب إلى قبيلة شاكيا أو ساكيا، وكان أميراً على كابيلافاستو عند سفح هيمالايا على الحدود الفاصلة بين الهند والنيبال، وكانت حياة الهنود تقوم على نظام الطوائف، وهي أربعة طوائف، وعلى رأسها البراهمة التي تتكون من رجال الدين وتليها طائفة الكشاتريا التي تتكون من رجال الجيش الذين يحاربون الأعداء ويحفظون الأمن في داخل البلاد، فأتاحت لهم القوة الحربية فرص الاستيلاء على الحكم، وهذه الطائفة ينتمي والد بوذا^(٧)، ولأم تدعى مايا التي توفيت وهو ابن سبعة أيام،

(١) أمين: فجر الاسلام، ص ١٢٧.

(٢) زكار: المعجم، ج ٢ ص ٤٨٩.

(٣) سميث: أديان، ص ١٣٦.

(٤) الزكي: عبد العزيز محمد، قصة بوذا، مؤسسة المطبوعات الحديثة، د. م، د. ت، ص ١٣.

(٥) لولادته أسطورة يطول ذكرها، انظر: إنجيل بوذا: تر: عيسى سابا، صادر، بيروت، ١٩٨٥م، ص ١٧، ديورانت: قصة، ج ٣ ص ٦٤.

(٦) أبو زهرة: محمد، مقارنات الديانات، معهد الدراسات الإسلامية، د. م، د. ت، ص ٥٣، عبد القادر: حامد، بوذا الأكبر حياته وفلسفته، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٥٧م، ص ٤٠.

(٧) ديورانت: قصة، ج ٣ ص ٦٤، السحمراني: أسعد، ترجمان الأديان، دار النفائس، بيروت، ط ١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص ٨٩.

ولولادته قصص وأساطير تختلط فيها العجائب والغرائب^(١)، نشأ بوذا حياة مترفة ومكث في هذا النعيم ثلاثة عقود^(٢) إلى أن طرأ عليه ما غير حياته وهو ما رآه في الحياة من صور البؤس والشقاء فحاول أن يجد تفسيراً مقبولاً لتلك الآلام فكان ذلك التفسير هو النعيم الذي يتنعم به فظنه هو الحجاب الذي يغطي عقله عن رؤية الحقيقة واكتشافها، فتبدلت تلك الحياة بحياة التقشف وتعذيب الذات وعصيان الهوى وتقليل الطعام حتى إنه كان يتقوت بحبة أرز في اليوم والليلة، ويقال إنه قابل قروباً وتبادل وإياه الملابس، وعمد إلى النوم بين الشوك وفي التراب، ونزع شعر رأسه وبقي على هذا الحال سبع سنين فلم يفده ذلك شيئاً، فتوسط في الحالين، واستمر في السير في سبيل تحقيق هدفه ألا هو تحصيل المعرفة من أجل فك لغز الحياة^(٣)، وقد أوصلته تأملاته التي كان يجريها تحت شجرة إجابالا (شجرة التين)، وبعد وصوله إلى الحقيقة، ونزول الإلهام أو الحقيقة العلوية في شخص بوذا أطلق عليه لقب (تتفاتا) أي الإنسان الكامل^(٤)، وحتى إن بعضهم ربط بينها شجرة التين وبين قوله تعالى: "والتين والزيتون" مستشهداً بذلك على نبوة بوذا الذي تلقى الوحي تحت هذه الشجرة^(٥)، وسميت شجرة العلم أو الشجرة المقدسة التي احتلت فيما بعد مكانة سامية عند البوذيين التي كانت مكان كشف الأسرار لبوذا، وعندها عمل بوذا على الصدع بأفكاره مع رفاقه الذين لزموه في مدة جهاده لنفسه، فقبلوا دعوته التي أطلق عليها اسم النظام^(٦)، وقام بوضع مجموعة من الأفكار والمعتقدات من أجل الحصول والوصول إلى السعادة التي كانت تدور في فكرة والتي كانت بمثابة المخلص من الشيخوخة والآلام والتعب، وتعتمد البوذية على أفكار أخلاقية اهتمت بها اهتماماً كبيراً،

(١) ديورانت: قصة، ج ٣ ص ٦٤، المغلوث: أطلس، ص ٦٢٧، الزكي: قصة بوذا، ص ٧.

(٢) شليبي: أحمد، أديان الهند الكبرى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ١٤٢، المغلوث: أطلس، ص ٦٢٨.

(٣) توماس: هنري، أعلام الفلسفة كيف نفهمهم، دار النهضة العربية، القاهرة، تر: متري أمين، ص ٣٨، شليبي: أديان الهند، ص ١٤٥، المغلوث: أطلس، ص ٦٢٧.

(٤) السحمراني: ترجمان، ص ٩٣.

(٥) القاسمي: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الخلاق، محاسن التأويل، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج ٩ ص ٥٠٢.

(٦) شليبي: أديان الهند، ص ١٣٥، الجهني: مانع بن حماد، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العلمية، الرياض، ط ٤، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج ٢ ص ٧٦٠.

ويمكن القول: إن الجزء الإيجابي في البوذية هو الأخلاق، فقسم بوذا تعاليمه إلى ثلاث درجات، وضعت في أسس معينة وهي:

- أ- **الدرجة الابتدائية:** وذكر فيها على الإنسان ألا يقتل إنساناً أو حيواناً ولا يأخذ ما لا يعطى إليه، ولا يشرب الخمر ولا يكذب ويتحلى بالشفقة والرحمة، وهذه الدرجة لعامة البوذيين.
- ب- **الدرجة المتوسطة:** أما في هذه الدرجة فيتوجب عليه الامتناع عن الطعام ليلاً، وتناوله مرة في اليوم، والامتناع عن التزيين والتعطر هذه لمن يسلكون طريق الرهبنة.
- ج- **الدرجة العليا:** وهذه الدرجة هي للقديسين الذين حطموا كل القيود والوصايا العليا تحطيماً كاملاً^(١).

وقد وضع بوذا قيوداً من أجل الانتصار على شهوات النفس وهي:

- ١- خلو الأعمال من الشهوات.
 - ٢- التفكير الصحيح والاعتقاد السليم.
 - ٣- مطابقة اللسان للقلب ومطابقة السلوك للقلب واللسان.
 - ٤- الحياة الصحيحة التي تقوم على هجر الملذات.
 - ٥- الإقبال على الجهد الصحيح في نيل العلم والحق^(٢).
- وهذه الأمور التي لو تمت على وجه مستقيم صحيح سار الشخص على الجادة وسلك الممر الوسط الذي يوصل إلى حياة سعيدة خالية من الآلام ودواعيها، وهي الشهوات والملذات.
- ويمكن تحديد أو فهم الإطار العام لما دعا إليه بوذا، أو ما الذي أراده بوذا ممن يعتنقون البوذية التي جاء بها:

١. دعا إلى تعاليم خالية من طقوس دينية، فقد سخر من العبادات البرهمية ومن الصلوات المتكررة.
٢. دعا إلى دين خال من السلطة ومن التأمّلات والتخمينات العقلية المحضة.
٣. دعا إلى دين خال من خوارق الطبيعة وأدان جميع أشكال الكهانة والعرافة والنبوءة والرحم بالغيث.

(١) نومسوك: عبد الله مصطفى، البوذية تاريخها وعقائدها، مكتبة أضواء، الرياض، ط ١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص ١٣٥.

(٢) الجهني: الموسوعة الميسرة، ج ٢ ص ٧٦٠، المغلوث: أطلس، ص ٦٢٩، أبو زهرة: الديانات، ص ٥٤.

٤. دعا إلى المحبة والتسامح وترك الغنى والميل إلى التقشف.

٥. دعا إلى الحقائق الأربعة وهي:

- الأم: الولادة مؤلمة، والمرض مؤلم، والشيخوخة مؤلمة، والحزن مؤلم.
- سبب الألم: سببه الشهوة شهوة العاطفة، شهوة الولادة، وشهوة الحياة.
- وقف الألم: ويكون ذلك باجتثاث الشهوة من أصولها فلا يبقى لها بقية.
- السبل المؤدية لوقف الألم: وهي ثمانية: سلامة الرأي، وسلامة النية، وسلامة القول، وسلامة الفعل، وسلامة العيش، وسلامة الجهد، وسلامة ما تعنى به، وسلامة التركيز^(١).

٦. ودعا إلى الابتعاد عن الرذائل العشر وهي:

- لا تقتل أحداً.
- لا تأخذ مالا لا يقدم إليك فلا تسرق ولا تغتصب.
- لا تكذب.
- لا تشرب خمرًا.
- لا تزني.
- لا تأكل طعاماً نضج في غير أوانه.
- لا تتخذ طيباً ولا تكلل رأسك بالزهر.
- لا تقتن فراشاً وثيراً ولا أرائك فخمة.
- لا تأخذ ذهباً ولا فضة^(٢).

وعلى هذه التعاليم والمتطلبات كانت البوذية أمام نوعين من معتنقيها: البوذيين المتدينين، والبوذيين المدنيين.

وبالنسبة إلى الكتاب فهي على تعارض تام مع الزرادشتية فليس لبوذا كتاب مقدس، ولم يدع أن هناك كتاباً منزلاً أو ما شابه ذلك من كتب مقدسة، بل دونت أراؤه بعد وفاته بأربعمئة عام، وكانت قبل ذلك

^(١) ديورانت: قصة، ج ٣ ص ٧٤.

^(٢) أبو زهرة: الديانات، ص ٧٦.

روايات شفوية^(١).

وللبوذية ثلاثة فرق وهي^(٢):

أ- الماهايانا: وتعني العربية الكبرى، ويطلق عليها باللغة السنسكريتية الفيهاشيكا؛ أي المنشقين، وفروعهم كثيرة، أعلنوا ألوهية بوذا، ويعتقدون بتناسخ الأرواح.

ب- الهينايانا: وتعني العربية الصغيرة أو (الثيرفادا)، ومعناها ديانة السلف والعظماء، وهم المحافظون على القواعد الأصلية.

ج- الفيجيريانا: عجلة الألماس، ويخالط هذه الفرقة من أمور السحر والكهانة والطوطم^(٣).

يمكن القول: إن هذه ديانة تخلت عن وجود إله أو أي من المظاهر الطبيعية ليتسنى تعيينها آلهة تعبد، ويمكن القول: إنها تمثل ردة فعل للبراهمة، وهي اصطلاحاً يمكن تسميتها بالتعاليم العلمانية البعيدة عن الآلهة، ولكن ما يؤخذ عليها هو قيام أتباعها بجعل بوذا نفسه إلهاً، وذلك فيما بعد حياته بزمان، وتركز البوذية حول مفاهيم تقول بخلود الحياة المستمرة في دورة لانهائية من تناسخ الأرواح، وهي حياة تفيض بالألم الذي يمكن الهروب منه بفضل التثقيف الذاتي، والوصول إلى الاستنارة التي تسمو بالإنسان لتصل به إلى مرحلة النيرفانا، أي التوحد مع الذات الإلهية، أو باندماج الذات الإنسانية اندماجاً بهيجاً مع الكون،

^(١) السعدي: طارق خليل، مقارنة الأديان، دار العلوم العربية، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص٢٣٧.

^(٢) للمزيد عن هذه الفرق انظر: ديورانت: قصة، ج٣ ص١٩٦، توفيق: حسين: دروس في تاريخ الأديان، تر: أنور الرصافي، المركز العالمي للدراسات، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، ص٥٨، السحمراني: ترجمان، ص٦٣-٦٥، الأعظمي: دراسات في اليهود والمسيحية وأديان الهند، الرشيد، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص٦٥٥-٦٥٦.

^(٣) الطوطم: يعني اعتقاد جماعة بوجود صلة لهم بحيوان أو حيوانات تكون في نظرها مقدسة؛ ولذلك لا يجوز صيدها أو ذبحها أو قتلها أو أكلها أو إلحاق أذى بها وتشمل الطوطمية النباتات كذلك، فلا يجوز لأفراد الجماعة التي تقدها قطعها أو إلحاق الأذى بها. وقد يتوسع بها فتشمل بعض مظاهر الطبيعة مثل: المطر والنجوم والكواكب، وهم يؤمنون بأن "الطوطم" لا يؤدي أتباعه، فلا يخافون منه، حتى وإن كان من الحيوانات المؤذية التي تلحق الأذى بالإنسان، كالحية أو العقرب أو الذئب، وهم يعتقدون أيضاً أنه يدفع عنهم، وأنه ينذر أتباعه إن أحس بقرب وقوع خطر على أتباعه، وذلك بعلامات وإشارات على نحو ما يقال له الزجر والطيرة والفأل، انظر: علي: جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقى، د.ت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٥م، ج٢ ص١٧٠، ديورانت: قصة، ج١ ص١٠٦-١٠٧.

ولعل من الإنصاف القول: إن البوذية كانت بداية تعاليم وعقائد أخلاقية، ثم تطورت إلى عقائد دينية وتأليه بوذا.

وانتشرت هذه الديانة، وانتقلت إلى بلاد ما وراء النهر مبكراً من بلخ، حسب ما يذكره الترشيحي من أن الملك شيركشور بعد أن بنى بخارى زوج ولده من ابنة ملك الصين، ولما حضرت العروس إلى بخارى جاؤوا في جهازها ببعض الأصنام وأقيم لها معبد في مدينة رامثين، فالبوذية كان لها الرواج الواسع في بلاد ما وراء النهر ولاسيما في مناطق الصغد، وهكذا اعتنق الأتراك الطورانيون عبادة الأصنام، وظل الصراع قائماً بين الديانتين حتى قيل: إن الزرادشتيين كانوا يطردون رجال الدين البوذيين ويقذفونهم بالحطب المشتعل^(١)، أو إن صح التعبير في الصراع هو بين العرقين الطوراني والإيراني^(٢).

والدلالة الكبرى على وجود البوذية في بلاد ما وراء النهر هو المعبد البوذي الكبير الذي يسمى معبد نوبهار^(٣) بناه منوشهر (منوجهر) الهندي، وكان بنيانه من أعلى المباني تشييداً ينصب في أعلاه شقائق الحرّ الأخضر طول الشقة مئة ذراعٍ لتدفع عنه قوّة الرياح، فخطفت الرياح يوماً بعض تلك الشقائق فرمت بها على مسافة خمسين فرسخاً، وهذا يدلّ على ذهابه في الجوّ، وعلى باب النوبهار كتابة بالفارسية فيها: أبواب الملوك تحتاج إلى خصال ثلاث: "عقل، وصبر، ومال" وتحت هذه الكتابة مكتوب بالعربية: "كذب الواجب على الحرّ إذا كانت معه واحدة من هذه الخصال ألا يلزم باب السلطان"^(٤). وكان السادن الأكبر لهذا المعبد يحمل اسم برمك^(٥)، وهذا المعبد كان له وقف في مدينة طخارستان يقال له: زوان، وصلت مساحته إلى ثمانية فراسخ في أربعة فراسخ، وأهله كلهم عبيد للبيت^(٦). ومدينة فرغانة كان معبدها يسمى

(١) بارتولد: تاريخ الترك، ص ٥٧.

(٢) الترشيحي: تاريخ، ص ٥٢، فامبري: بخارى، ص ٥١.

(٣) لما سمع ملوك ذلك الزمان بشرف الكعبة واحترام العرب إياها، بنوا النوبهار مضاهاة لبيت الله الحرام، انظر: الحموي:

معجم البلدان، ج ٥ ص ٣٠٧، القزويني: آثار، ص ٣٣١.

(٤) البكري: المسالك، ص ١٧١، الحميري: الروض، ص ٥٨٤.

(٥) ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م، وفيات الأعيان وأنباء

أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج ٦ ص ٢١٩.

(٦) ابن الفقيه: البلدان، ص ٣٢٣.

بيت كاوسان قال عنه الشهرستاني: إنه بيت عجيب على اسم الشمس، وقد خربه المعتصم العباسي^(١)، وكانت منتشرة في مدينة تكابكت وسمنجان وخمدان، وأن هذه الأصنام كانت منحوتة في الصخر وأنها من عمل الهنود، كذلك ظهرت هذه العبادة ببخارى الاسم المشتق من كلمة بخره؛ وهي بمعنى دير أو صومعة حيث كان للبوذيين معبد أو على مقربة منها في سمرقند، وهذا ما ذكره النرشخي من أنه كان يقام سوق لبيع الأصنام في بخارى يسمى بازا (ماخ - روز) كان يقام مرتين في العام الواحد لمدة يوم واحد، وكان يباع فيه من الأصنام (تماثيل بوذا) ما تربو قيمته على الخمسين ألف درهم؛ لأن كل شخص يشتري لنفسه صنماً يحمل به إلى بيته^(٢)، وعند السمعاني رواية أخرى لـ (ماخ) فهي تنسب إلى رجل من الجوس اسمه ماخ، أسلم وعمل داره مسجداً ببخارى يقال له: مسجد ماخ^(٣).

وكذلك في مدينة بيكنند وجد فيها معبد للأصنام عثر فيه على صنم من الفضة يزن أربعة آلاف درهم، بالإضافة إلى بعض الأواني الأخرى التي صنعت من الفضة الخالصة والتي كانت تزن مئة وخمسين ألف مثقال، فقام بإحراقها مما كان له أثر كبير في نشر الإسلام بين أهل هذه البلاد^(٤)، أضف إلى ذلك أن بوذية ما وراء النهر كان لهم الدور الكبير والتبشيري في بوذية الصين، وذلك قبل ٢٦٥م أي أن أغلب المبشرين البوذيين في الصين من وسط آسيا^(٥).

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ج ٣ ص ٧٨، البكري: المسالك، ص ١٧١، النويري: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠١م، ج ١ ص ٥٨، يذكر الخليفة المعتضد بالله هو الذي خربه.

(٢) النرشخي تاريخ ص ٤٠، بارتولد، تركستان، ص ٢٠٣.

(٣) السمعاني: الأنساب، ج ١ ص ١١.

(٤) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٣٢، مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٣٩٦.

(٥) زكار: المعجم، ج ١ ص ٢٠٨.

٣- المانوية:

هي إحدى الديانات الفارسية التي ظهرت مع بداية زمن الساسانيين^(١)، ومؤسسها هو ماني بن فاتك، وقيل: ماني بن فتق بابك ولد حوالي ٢٠٠ بعد الميلاد (٢١٥ أو ٢١٦)، في بابل في قرية تدعى مردينوس من نهر كوثي الأعلى من بلاد بابل الشمالية، وأكد ماني ذلك في قصيدته الشهيرة التي وصف بها نفسه فقال:

إنني أنا الرسول الشكور المبعوث من أرض بابل^(٢)

والده أمير فرثي من أصل أشكاني^(٣) من مدينة همدان في إقليم ميديا، وأمه مريم تنتمي إلى أسرة كمسركان، وقيل تسمى: ميس، وقيل: أوتاخيم، ويقال: مرمريم، وكان راهباً قائلاً بنبوة المسيح عليه السلام معظماً في أساقفة النصارى محمود السيرة فيهم، فزنى فسقطت مرتبته في النصرانية، وكان مطارئة زمانه يحسدونه، فلما ظهر منه ما ظهر وجدوا السبيل إلى ما أرادوا فيه فأسقطوا مرتبته^(٤)، وكان ماني مجوسياً عارفاً بمذاهب القوم، فأحدث ديناً ودعا إليه، وكان ظهوره زمن سابور بن أردشير، وتبعه خلق عظيم، وادعوا له النبوة، وبقي على هذا الحال حتى زمن بهرام بن سابور الذي قتله^(٥)، و يذكر الخوارزمي هذه الطائفة ويطلق عليهم الزنادقة^(٦).

- (١) هم ملوك فارس أولهم أردشير بن بابك بن ساسان وأخروهم يزدجر الذي قتل في خراسان في خلافة عثمان بن عفان وجميع من ملك من آل ساسان ثلاثون ملكاً من الرجال والنساء، انظر: المسعودي: مروج، ج ١ ص ٢٩٢.
- (٢) السمعاني: الأنساب، ج ٢ ص ١٨٧، ديورانت: قصة، ج ١١ ص ٢٩٥، نغرين: جيوايد، ماني والمانوية، تر: سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ط ١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ص ٤١.
- (٣) الاشكانية: وهم الطبقة الثالثة سموا بذلك لأنهم أولاد: أشك بن دارا وهو أولهم ولقبه: جوشنده، ثم أشك بن أشك ابنه ولقبه: أشكان، الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ١٢٣.
- (٤) ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق ت ٤٣٨هـ/١٠٤٦م، الفهرست، تح: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص ٣٩٨، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٢ ص ٨٧.
- (٥) الشهرستاني: الملل والنحل، ج ١ ص ٢٩٠، ابن نباته: جمال الدين ت ٧٦٨هـ/١٣٦٧م، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، د. ت، ص ٢٨٦، ابن المستوفي: تاريخ إربل، ج ٢ ص ٦٥، ابن النديم: الفهرست، ص ٤٠٧، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٧٧، نغرين: ماني، ص ٤٠.
- (٦) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ٣٧.

الفصل الثاني: أوضاع بلاد ما وراء النهر قبيل الفتح العربي الإسلامي

أسس ماني الديانة المانوية التي صرح بها كما يدعي أنه لم يأت بشيء جديد لأن مذهبه هو ما ذهب إليه كبار مؤسسي الديانة من قبله، فقد كانوا جميعاً على صواب، وأن زرادشت وبوذا أنبياء صادقون، وأنه أوكّل إليه أن يكمل تعاليمهم الناقصة^(١)، وكان هذا الظهور بعد اضمحلال المسيحية؛ أي: بعد ظهور دين سماوي صحيح تعرض للتحريف وداخلته الأهواء البشرية، وتنازعت الأغراض الدنيوية، فكان ماني يقول بنبوة المسيح عليه السلام، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام، وقد زعم أنه (الفار قليط) الذي بشر به عيسى عليه السلام^(٢)، ولكنه أدخل مع هذا القول تلك النزعة، فعاد إلى محوسية الفرس القديمة، واقتبس منها القول: إن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور، والآخر ظلمة، وأنهما أزليان لم يُزَالا ولن يُزَالا، وأنكر وجود شيء إلا من أصل قديم، ويمكن أن تتوضح المانوية بشكل أكثر سلاسة بأنها مزيج توفيق بين المسيحية والعقيدة الإيرانية مع مرتكزات من عقيدة بلاد الرافدين القديمة وفق الشكل الذي اكتسبته من العقيدة المعمدانية الغنطوسية^(٣)، وقد كان لماني عدة كتب ورسائل دون فيها بعض آرائه باللغة الفارسية والسريانية فمنها:

- أ- كتاب سفر الأبرار.
- ب- كتاب سفر الجبابة.
- ج- كتاب فرائض السماعين.
- د- كتاب سفر الأحياء.
- هـ- كتاب سفر فرائض المجتبيين^(٤).
- و- كتاب الشابرقان: (الشابرمان) وقيل: بالساريان^(٥) هو أهمها، ترجم فيه لحياته وشرح فيه أصول

(١) ديورانت: قصة، ج ١٢ ص ٢٨٠، خطاب: قادة الفتح، ص ١٤، ولز. ه. ج: معالم تاريخ الإنسانية، تر: عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٤، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، مج ٣، ص ٥٩٨.

(٢) الشهرستاني: الملل، ج ١ ص ٢٩٠، ابن النديم: الفهرست، ص ٣٩٩.

(٣) ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ٢٠٣، نغرين: ماني، ص ٥٠، طقوش: محمد سهيل، تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، دار النفائس، ط ١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٩٨.

(٤) ابن النديم: الفهرست، ص ٣٩٩.

(٥) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٢ ص ٨٨.

مذهبه، وباعتناق الملك الفارسي سابور لمذهب المانوية^(١).

أما عن رسائله فقد كانت كثيرة تجاوزت السبعين رسالة منها: رسالة الأصلين، رسالة الكبراء، رسالة هند العظيمة، رسالة هيء البر، رسالة قضاء العدل، رسالة كسكر، رسالة فتق العظيمة، رسالة أرمينيا، رسالة أمونيا الكافر.

وأما شريعته فقد ألزم أتباعه بالعشر في الأموال كلها، والصلوات الأربع في اليوم واللييلة، وأداء الحق، وترك الكذب والقتل والسرقة والزنى والبخل والسحر، وصيام سبعة أيام في كل شهر وغيرها، وكان يقدر النار ويجعلها قبلته^(٢).

وأما عن رجال الدين في الديانة المانوية فقد كانوا خمس طبقات وهي:

١- فريشتكان: وهم اثنا عشر من المعلمين أصحاب الحلم.

٢- أبسيسكان: وهم اثنان وسبعون من المشمسين أبناء العلم.

٣- مهيشكان: وهم ستون وثلاثمائة من القسيسين أبناء العقل.

٤- وينيدكان: الصديقون أبناء الغيب.

٥- نيوشكان: السماعون أبناء الفطنة.

وعدد الأشخاص في الطبقتين الأخيرتين لم يكن محددًا، والسماعون وهم سواد الناس هم المؤمنون الذين لا قوة لهم على تحمل النظام الدقيق الذي يتبعه الصديقون^(٣).

وعن انتشار المانوية في بلاد ما وراء النهر التي كانت ملاذًا للمانويين الذين هاجروا إليها من بطش الملك بهرام بن هرمز فاستمروا في الفرار منه إلى أن عبروا نهر بلخ، ودخلوا في مملكة خان، فكانوا عنده، وخان بلسانهم أي: بلغتهم لقب يلقبون به ملوك الترك. وحين نزلت المانوية بما وراء النهر إلى أن اندثر أمر الفرس وقوي أمر العرب، فعادوا إلى هذه البلاد ولاسيما في فتنة الفرس، وهكذا ظهرت المانوية في بلاد ما

^(١) البغدادي: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م، الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م، ص ١٦٢.

^(٢) الشهرستاني: الملل، ج ١ ص ٢٩٣، ابن النديم: الفهرست، ص ٣٩٦، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣ ص ٢٩٦.

^(٣) كريستنسن: إيران، ص ١٨٢.

وراء النهر، وأصبحت الرئاسة فيهم، ويطلق عليهم ابن النديم لقب المانوية، وصاحب كتاب حدود العالم يسميهم نغوشاك، ويقال أيضاً لهم: أجاري، وكانوا برستاق سمرقند والصغد ولاسيما بنونكث، وتكونت في بلاد الصغد جالية مانوية كبيرة، بل أكثر من ذلك ما يؤكد ابن النديم أن مركز الإمامة انتقل من بابل إلى سمرقند^(١)، وتؤكد الحفريات الحديثة وصول التعاليم المانوية إلى آسيا الوسطى من خلال الحصول على مادة يعود تاريخها لقبيلة الأيغور التركية في آسيا الوسطى، ويعود سبب بقائها إلى عاملين هما منزلة الديانة المانوية كدين رسمي للأيغور ومناخ المنطقة الجاف، وأضف إلى ذلك بعد وصول الديانة المانوية وعبرها لجيخون منحها هذا قاعدة للدعوة المانوية في إقليم الصغد الذي زودها بإمكانات الاتصال والارتباط بشكل جيد في الشرق والغرب^(٢).

وقد ظلت هذه الطائفة منتشرة في بلاد ما وراء النهر حتى عصر الدولة الأموية ٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م، وفي ولاية خالد بن عبد الله القسري كان عددهم بسمرقند نحو خمسمئة رجل، وعندما اشتهر أمرهم وهم خالد بقتلهم أرسل إليه ملك الصين يحذره من ذلك ويهدد بقتل المسلمين في بلاده، فكف خالد عنهم وأخذ منهم الجزية، وحماية ملك الصين للمانويين أمر طبيعي؛ لأنه كان على مذهبهم، يقول الإمام الرازي: وهرب أصحاب ماني بعد قتله إلى الصين، ودعوا إلى دين ماني فقبله أهل الصين منهم، وانقسمت طائفة المانوية إلى فرقتين هما: المهريّة والمقلاصية^(٣).

ومهما يكن فقد كانت دعوته وتعاليمه وإن وصفت بالتقشف إلا أن صفة الزندقة كانت ملازمة لتعاليمه التي كانت مزيجاً من كل نهر قطرة وهو أيضاً خالف الزرادشتية ببعض التعاليم إلا أنه يبقى بحدود الالتزام بالنسبة إلى الديانة التي ستأتي لاحقاً ألا وهي المزدكية التي وصفت بالإباحية.

(١) ابن النديم: الفهرست، ص ٤١٠، مجهول: حدود، ص ١٢٧، أمين: فجر الإسلام، ص ١٠٩، كريستنسن: إيران، ص ١٩٠.

(٢) نغرين: ماني، ص ١٦٨.

Widengren, G; Manichaeism And its Iranian Background, The Cambridge History of Iran, the Seleucid, Parthian and Sasanian Periods, Cambridge university press, 1983, v3, (965-990), p.965-972.

(٣) ابن النديم: الفهرست، ص ٤١٠، الرازي: اعتقادات فرق المسلمين، ص ٨٨.

٤- المزدكية:

نسبة إلى مؤسسها مزدك بن ماردا أو فامارد، وقيل مزدق بن بامداد، وعند البيروني مزدك بن همدادان، وقيل: مزدك الحزمي^(١)، ظهر في أواخر القرن الخامس الميلادي في أيام الملك قباد بن فيروز، وهو فارسي الأصل قيل: من نيسابور، وقيل: من اصطخر، وقيل: من أهل كرمان، وقيل: كان أصله من نسا^(٢). وكانت دعوة مزدك كدعوة ماني في مسألة النور والظلمة إلا أن مزدك ذهب إلى أن النور يفعل بالقدر والاختبار بخلاف الظلمة فإنها على الخبط والاتفاق، وعلى ذلك يكون مزدك مثنوباً يقول بالأصلين القديمين إلا أنه يفضل النور على الظلمة فيجعل النور عالماً حساساً وأما الظلمة فيجعلها جهلاً وعمى، ويقوم مذهبه في الأصول والأركان على ثلاثة أركان هي: الماء، والأرض، والنار، ولما اختلطت حدث عنها مدبر الخير والشر، فما كان من صفوها فهو مدبر الخير، وما كان من كدرها فهو مدبر الشر^(٣)، وحرّم ذباح الحيوان، وقال: يكفي في طعام الإنسان ما تنبتة الأرض وما يتولد من الحيوان كالبيض واللبن والسمن والجن. ودعا إلى اشتراك الناس في الأموال والنساء، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكأ وكاشتراكهم في الطرقات، فعظمت البلية به على الناس فصار الرجل لا يعرف ولده والولد لا يعرف أباه^(٤)، وإذا كان هناك لمزدك كتاب كتب فيه تعاليمه فلم تصل إشارة في الكتب المتوفرة لوجود كتاب له إلا

(١) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٦٠، الطبري: تاريخ، ج ٢ ص ٩٩، البيروني: الآثار الباقية، ص ٢٠٩، ابن نما الحلبي: أبو البقاء هبة الله محمد ت ق ٦٦هـ/١٢م، المناقب المزيديّة في أخبار الملوك الأسديّة، تح: محمد عبد القادر خريسات، صالح موسى درادكة، مكتبة الدراسة الحديثة، عمان، ط ١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ج ١ ص ١٢١، مسكوية: تجارب، ج ١ ص ١٨٠.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٦٥، السمعاني: الأنساب، ج ١٢ ص ٢١٩، الشهرستاني: الملل، ج ١ ص ٢٩٤، المسعودي: مروج، ج ١ ص ٢٧٣.

(٣) الشهرستاني: الملل، ج ١ ص ٢٩٥، الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج ١ ص ٤١.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ١ ص ٣٧٧، ابن القيم: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م، إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان تح: محمد حامد الفقهي، مكتبة المعارف، الرياض، د.ت، ج ٢ ص ٢٤٧، ابن =خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ٢٠٨، البغدادي: الفرق، ص ١٦١، الندوي: علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت، ص ٤٢.

أنه يشار إلى أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي الشاعر المكثّر، البصري أنه قد نظم كتاب مزدك، ولكنه لم يصل^(١).

ويمكن أن يطلق مصطلح معاصر على تعاليم مزدك ألا وهو الإباحية المطلقة بلا قيود، ويشرح مزدك سبب الدعوة إلى الإباحية بأن الدنيا هذه ملك لآدم يأكل من طعامها ويتلذذ بملذاتها وينكح نساءها، فلما مات جعلها ميراثاً بين أولاده بالسوية فليس لأحد فضل في مال ولا أهل، فكله مباح سائغ^(٢)، لهذا أكبر ما امتاز به مزدك تعاليمه الاشتراكية بين الناس في النساء والأموال اللذين هما سبب المباغضة والقتال فجعلهما مباحين للجميع.

وقيل تبعه السفلة من الناس، والغريب أن ملك الفرس قباد بن فيروز قد تبعه ودافع عن هذه الدعوة وساعد على نشر تعاليمها بين الناس حتى فشّت تلك التعاليم في صفوف الرعية مما أدى إلى عموم الفوضى وانتشار الفساد بين الناس^(٣). حتى إن قباد طالب بذلك المنذر بن ماء السماء اللحي ملك الحيرة، فأبى وقال: للعرب غيرة لا يسوغ معها الاشتراك في النساء! فعزله وطلبه، فهرب، وأسلم ملكه^(٤).

وقد بالغ مزدك في دعوته للشيوعية حتى قال يوماً لقباذ: اليوم نوبتي من امرأتك أم أنوشروان، فأجابه إلى ذلك، فقام أنوشروان إليه ونزع خفيه بيده وقبل رجله وشفّع إليه حتى لا يتعرض لأمه، فتركها وبقي ذلك في نفس أنوشروان. ولما تملك أنوشروان، وجلس للملك، كان منكراً لهذا المذهب كارهاً له، ثم إن

(١) أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي: شاعر مكثّر، من أهل البصرة نسب إلى جده، وكان أبو جده (عفير) من الموالي انتقل أبان إلى بغداد، واتصل بالبرامكة، فأكثر من مدحهم، وخص بالفضل بن يحيى عاصر الرشيد، انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ٧ ص ٥١٠، الزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس ت ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، الاعلام، دار العلم للملايين، ط ١٥٥، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢، ج ١ ص ٢٧، كحالة: عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني ت ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، ج ١ ص ١.

(٢) المقدسي: البدء، ج ٣ ص ١٦٧، الملطي: أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ت ٣٧٧هـ/٩٨٧م، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تح: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، د.ت، ص ٩٢.

(٣) الطبري: تاريخ، ج ٢ ص ٩٣، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٢ ص ١٠٧، علي: المفصل، ج ٦ ص ٢٣.

(٤) ابن سعيد الأندلسي ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م: نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى، عمان، د.ت، ص ٢٤٥، ابن الوردي: تاريخ، ص ٦٠، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ٣٢٤.

أنوشروان أذن للناس إذنا عاماً، ودخل عليه مزدك، ثم دخل عليه المنذر، فقال أنوشروان: إني كنت تمنيت أمنيّتين، أرجو أن يكون الله قد جمعها إلي، فقال مزدك: وما هما أيها الملك؟ قال: تمنيت أن أملك واستعمل هذا الرجل الشريف - يعني المنذر - وأن أقتل هذه الزنادقة، فقال مزدك: أوتستطيع أن تقتل الناس كلهم؟ فقال: وإنك هاهنا يا ابن الزانية! والله ما ذهب نتن ريح جوربك من أنفي منذ قبلت رجلك إلى يومي هذا، وأمر به فقتل وصلب، وقتل منهم في يوم واحد مئة ألف زنديق وصلبهم^(١)، وأعيدت الأمور إلى نصابها كما كانت قبل دعوة مزدك من أموال ونساء وولادات وغيرها من الأمور^(٢). ويذكر الشهرستاني والسمعاني أن أتباع مزدك كانوا منتشرين في صغد سمرقند والشاش وإيلاق وكذلك بعض قرى كرمان، ومن أشهر فرقهم: الماهانية، والأسبيد خامكية^(٣)، وبنهاية مزدك ومن معه لم تنته تلك الأفكار، بل بقي لها أتباع في الدولة الساسانية وخارجها يدينون بها، ويدعون إليها سراً حتى بعد ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية والعباسية، وهذا ما ذكره الإصطخري وابن حوقل^(٤).

على أي حال يقدم مزدك حلاً لمجتمع قد ولد فيه وترعرع، ووجد الصراعات بين الناس حول عنصرين مهمين ألا وهما المال والنساء، فاجتهد كما اجتهد السامري في قوم موسى، فصنع لهم العجل ليعبدوه من بعد التوحيد، فجعل لهم الاشتراكية المباحة المطلقة بلا قيود فزاد الطين بلة، ولكن يمكن أن يطلق على مزدك أول من أسس الاشتراكية إلا أنه أضاف لها مسحة دينية.

(١) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٢ ص ١٠٧، ابن الأثير: الكامل، ج ١ ص ٣٩٥، ابن الوردي: تاريخ، ص ٤٣، علي: المفصل، ج ٦ ص ٣٤.

Widengren, G; Manichaeism And its Iranian Background, v3, p.965-972.

(٢) للتوسع في معرفة الحلول وما آلت إليه الأمور بعد القضاء على مزدك انظر: الطبري: تاريخ، ج ٢ ص ١٠٢، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٢ ص ١٠٩.

(٣) السمعي: الأنساب، ج ٥ ص ١٨٩، الشهرستاني: الملل، ج ٢ ص ٢٧٥.

(٤) الإصطخري: المسالك، ص ٩٨، ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٣١٠، أمين: فجر الإسلام، ص ١١٠.

٥- المسيحية:

هي إحدى الديانات السماوية التي أنزلت على النبي عيسى عليه الصلاة والسلام بن مريم بنت عمران، واسم عمران بالآرامية يؤاقيم، وكان له اسمان^(١)، وقد اختلف أتباعه حول طبيعته، واتفقوا على أن الله تعالى هو جوهر واحد له أقانيم ثلاثة، يعنون بها الصفات، وهي الوجود، والعلم، والحياة، المعبر عنها بالأب والابن وروح القدس، ومثله بالسراج، وأن أقنوم العلم اتحد بجسد عيسى عليه الصلاة والسلام، وتدرعت بناسوته، ثم افترقوا على ثلاثة فرق: الملكانية، والنسطورية واليعقوبية، فقالت النسطورية: تدرعت بطريق الإشراق كما تشرق الشمس من الكوة على شيء، وقالت الملكانية: تدرعت بطريق الامتزاج، وقالت اليعقوبية: بطريق الانقلاب حتى صار الإله هو المسيح بن مريم، وقد زعموا أنه تركب اللاهوت والناسوت كالنفس من البدن، واتفقوا على أن كل أقنوم أزلي قائم بنفسه، وقد ينتقل وينزل، وقد استدلوا على ذلك بما في الإصحاح الخامس من إنجيل متى والأول من إنجيل مرقس والتاسع من إنجيل لوقا والثامن من إنجيل يوحنا أن يوحنا بن دخرما قال: "إن روح القدس بصورة الحمامة نزل من السماء وحلّ في اليسوع"^(٢)، ولا يخوض البحث في هذه الانقسامات، وإنما سيدرس منها طائفة واحدة وهي النسطورية حيث إن معظم مسيحي ما وراء النهر هم نساطرة^(٣).

والنسطورية تعود لنسطور (نسطورس، نسطوريوس)^(٤)، وهو أول من ظهر من المؤمنين داعياً إلى القول جهاراً بالأنثينية الأقمومية في المسيح عليه الصلاة والسلام، ولد نسطور في البلدة التي تسمى اليوم مراش (مرعش) في تركيا الحالية، وقد ورد عند الشهرستاني أنه نسطور الحكيم الذي ظهر أيام المأمون وهو أمر عجيب، ولربما كان هناك لبس أو وهم باسمه^(٥). درس نسطور في أنطاكية ثم التحق بأحد الأديرة الواقعة في جوارها، ولم يلبث أن اشتهر بمواعظه، فاختره الإمبراطور أسقفاً على القسطنطينية في سنة ٤٢٨م، وأخذ

(١) ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ١٦٨.

(٢) الشهرستاني: الملل، ج ٢ ص ٢٥٢، الألوسي: محمود شكري، السيوف المشرقة ومختصر الصوابع المحرقة نصير الدين خواجه نصر الله، تح: مجيد الخليفة، مكتبة الإمام البخاري، القاهرة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٣٥١.

(٣) البيروني: الآثار الباقية، ص ٢٨٨.

(٤) الخوارزمي: مفاتيح العلوم، ص ٥٢، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ١٧٩.

(٥) الشهرستاني: الملل، ج ٢ ص ٢٥١.

هناك بمقاومة الآريانيين وغيرهم من المراطقة فتفأل الناس بصدق جهاده في سبيل العقيدة القويمة إلا أنه منذ أواخر السنة نفسها ظهر بتعليمه الجديد أن العذراء ليست "أم الله" حقاً؛ لأن المسيح لا يقوم بأقنوم واحد بل أقنومين^(١)، ثم بلغ الخبر القديس كيرلس في الإسكندرية، وعقد مجمع أفسس المسكوني الثالث في ٤٣١م، الذي كفر فيه نسطور فعزل من منصبه، ومنع نشر آرائه، ونفي إلى البطراء سنة ٤٣٥م ثم إلى صحراء مصر^(٢)، وهناك مات سنة ٤٥١م بعد أن وضع مؤلفه الأخير بعنوان "كتاب هرقليدس الدمشقي" من خلاله استطاع المؤرخون أن يطلعوا على مذهب الرجل وتفصيله^(٣).

وبشكل مختصر وتوضيحي لمذهب نسطور فهو يرى أن للسيد المسيح: جوهرين، جوهر لاهوتي وجوهر ناسوتي، وأقنومين، أقنوم لاهوتي وأقنوم ناسوتي وقالت النسطورية أيضاً: إن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته، لا من جهة لاهوته، ويصفهم أبي الفداء: "وهم عند النصارى كالمعتزلة عندنا"^(٤)، وكان نسطور يصرح قائلاً: إنّ مريم لم تلد إلهاً، وإنما ولدت إنساناً، وإنما اتحد به في المشيئة لا في الذات، وليس هو إلهاً حقيقية، بل بالموهبة والكرامة^(٥).

وبعد اندثار تعاليمه أحيها برصوما مطران نصيبين قديماً في عهد قباذ بن فيروز ملك الفرس، ولذلك

^(١) للتوسع انظر: الأنبا إيسيدورس: الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة، طبع في المحرق، بدير العذراء مريم من قبل القمص عطا الله أرسانيوس، ج ١ ص ٤٨٣.

^(٢) عند المسعودي في صعيد مصر ببلاد أخميم انظر: المسعودي: التنبيه، ص ١٢٧، ابن الأثير: الكامل، ج ١ ص ٣٠١، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ٢٥٧.

^(٣) ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ١٧٩، غريه: لويس، وقتواقي: جورج، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية تر: صبحي الصالح وفريد جبر، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ج ٢ ص ٣٠٢، ديورانت: قصة، ج ١٢ ص ١٠١، خياطة: نهاد: الفرق والمذاهب المسيحية منذ البدايات حتى ظهور الإسلام، دار الأوائل، ص ٩٠، السقار: منقذ محمود، الله جلّ جلاله واحد أم ثلاثة؟ سلسلة الهدى والنور دار الإسلام، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ١٠٨.

^(٤) أبو الفداء: المختصر، ج ١ ص ٦١، الشهرستاني: الملل، ج ٢ ص ٢٥٢.

^(٥) ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ١٧٨، وللتوسع حول اختلافات النساطرة مع غيرها ويطول ذكرها انظر: المقرئ: المواعظ، ج ٤ ص ٤٠٧، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٣ ص ٢٨٠، السعدي: مقارنة الأديان، ص ١٧٠.

سميت كنيسة فارس بالنسطورية؛ أي ظهرت تعاليمه بين نصارى المشرق والعراق وغيرها^(١)، ولكن ما هو السبب الذي جعل هذه التعاليم تلقى رواجاً في فارس وما وراء النهر، فذلك عائد إلى مطاردة الدولة البيزنطية للنساطرة المنشقين عن الكنيسة بسبب الخلافات حول طبيعة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام، فكانت بلاد ما وراء النهر ملاذاً لهم، وذلك أمر طبيعي من حكام الساسانيين أن يعطفوا عليهم بسبب خلافهم وكرههم للبيزنطيين أعدائهم^(٢). وأضف إلى ذلك فالنضال الميرير بين الزرادشتية والمناوية أعطى للنسطورية شيئاً من التوفيق؛ لأن كل من الزرادشتية والمناوية فقدت السيطرة والسلطان على عقول الناس فهياً لهم التفكير والتأمل بمؤلاء النساطرة أصحاب الدين الجديد^(٣)، ومن مناطق انتشار المسيحية في بلاد ما وراء النهر ميركى، والشاواذر بسمرقند، وبوزكرده، وفي إقليم الشاش قرية وينكرد^(٤)، وكان هناك تجمع كبير لهم في كاث عاصمة خوارزم^(٥)، وكان يعقد فيها عيداً في كل عام يسمى عيد الورد، فقد كانت الكنائس تزين بالورود^(٦)، وهكذا وصلت المسيحية إلى ضفاف نهر سيحون وجيجون بل تعدته، وبين عامي ٤١١-٤١٥م أنشأ بسمرقند أسقفية بابوية، واستمرت المسيحية حتى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، وإن كانت بأعداد ضئيلة^(٧).

فقد عاشت بلاد ما وراء النهر بتأثيرات حضارية كبيرة وغنية ولاسيما من الحضارة الفارسية التي كانت محاذية لها، والتي كانت تلقح بلاد ما وراء النهر ما لديها من نتاجات حضارية، فتأثرت بلاد ما وراء النهر بالديانات التي كانت سائدة آنذاك كالزرادشتية والبوذية والمناوية والمزدكية والنسطورية فعاشت بشيء من الاضطرابات الدينية وعدم الاستقرار، وكان ذلك ممهد كي تذوب كل هذه التعاليم بدين سماوي جديد،

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١ ص ٣٠١، ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ١٨٠، الشهرستاني: الملل، ج ٢ ص ٢٥٢، الجهنّي: الموسوعة الميسرة، مج ٢ ص ١١٦١، المغلوث: أطلس، ص ٢٧١.

(٢) فامبري: بخارى، ص ٥٣، جيون: اضمحلال، ج ١ ص ٤٣٠.

(٣) فامبري: بخارى، ص ٥٣، خلف: الفتح الاسلامي، ص ٦٨.

(٤) المقدسي: أحسن، ص ٢٧٥، ابن حوقل، صورة، ص ٤١٠، القزويني: آثار، ص ٥١٥.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤ ص ٤٥٤.

(٦) البيروني: الآثار الباقية، ص ٣٦٣.

(٧) فامبري: بخارى، ص ٥٣، موسى: هـ. سانت: ميلاد العصور الوسطى، تر: عبد العزيز جاويد و السيد الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص ٢٦٨.

فكانت المنطقة مهياةً لتعاليم سمحة تمثلها الفتوحات العربية الإسلامية بالدين الاسلامي الحنيف، وهذا ما يؤكده المستشرق البريطاني آرنولد حيث قال: "جاء الإسلام يكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى"، وقال: "جاء ليخلصهم في أسرع وقت ممكن من عبوديتهم وحالتهم السيئة"^(١)، كيف لا ولم يعرف العالم أرحم من هؤلاء الفاتحين.

كثير منهم أسلموا - نعم- ولكنهم لم يتجردوا من كل عقائدهم التي توارثوها أجيالاً، وبمرور الزمن صبغوا آراءهم القديمة بصبغة إسلامية، أضف إلى أن تعاليم زرادشت وماني ومزدك كانت تظهر بين الحين والآخر حتى أواخر الدولة الأموية والعباسية، واضطر المسلمون ليدافعوا ويؤيدوا دينهم بالمنطق والبرهان.

^(١) أرنولد: سير توماس. هـ، الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، تر: حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، إسماعيل البحراوي، مكتبة النهضة المصري، القاهرة، ١٩٧٠م، ص ٢٣٦.

الفصل الثالث

الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد ما وراء النهر

أولاً- دراسة في ماهية الفتوحات العربية الإسلامية:
١- ميزات حركة الفتوحات العربية الإسلامية.
٢- دوافع حركة الفتوحات العربية الإسلامية.
ثانياً- المحاولات الاستطلاعية المبكرة للفتوحات العربية الإسلامية في المشرق:
١- تأسيس البصرة لتكون مسؤولة عن فتوحات المشرق.
٢- خراسان ودورها في عمليات الفتح العربي الإسلامي لبلاد ما وراء النهر:
أ- تسمية خراسان.
ب- موقع خراسان.
ج- الفتح العربي الإسلامي لخراسان.
ثالثاً- الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد ما وراء النهر زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان.
رابعاً- الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد ما وراء النهر زمن الخليفة عبد الملك بن مروان.

أولاً- دراسة ماهية الفتوحات العربية الإسلامية:

كانت حركة الفتوحات العربية الإسلامية جزءاً أساسياً من رسالة الإسلام، وسمة بارزة للأمة العربية الإسلامية، ومن غاياتها الدفاع عن ديار الإسلام، وإزالة العوائق التي تقف في سبيل وصول الدعوة العربية الإسلامية إلى شعوب الأرض، وليس الهدف حمل الناس على اعتناق الإسلام كرهًا، وقد وضع ذلك في كتاب الله فقال: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ} ^(١)، وإنما لإزالة الحواجز والعقبات المانعة من سماع دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ولدفع الظلم عن المستضعفين في الأرض من الرجال والنساء والولدان. وكانت الدعوة إلى الإسلام وطرحه بأسلوب الحوار والمفاوضة الهادئة تسير جنباً إلى جنب مع الانتصارات العسكرية الباهرة التي حققتها الجيوش العربية الإسلامية الفاتحة، وطريقة الحوار هذه كانت وسيلة من وسائل المسلمين المبتكرة في إقناع الشعوب والتي هي أحسن، على النحو الذي يوجد في أبواب الحوار والدعوة السلمية، وليس هناك أوضح من سلمية دعوة العرب المسلمين من الكتب التي أرسلها النبي صلى الله عليه وسلم إلى جميع الملوك والسلطين، والأمثلة على ذلك كثيرة، ويكون أسلوب القتال هذا مؤقتاً لإزالة العقبات التي تقف حائلاً أمام تعريف الشعوب بعقيدة الإسلام السمحة والانتقال من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد. وبهذه الأهداف السامية والغايات العالية انطلقت الفتوحات العربية الإسلامية منذ زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وتابعت مسيرتها في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين، وظلت عجلتها تدور وتلف البلاد حول ديار الإسلام، لا تترك بلداً لفقره أو آخر لغناه وخصبه، وإنما كانت تبدأ بها أولاً بأول، تحاول في دأب وصبر واجتهاد أن تنقل هذه البلاد إلى حياة لا عبودية فيها إلا لخالقها، وإن المتتبع لتاريخ حركة الفتوحات العربية الإسلامية يدرك أن هذه الفتوحات جاءت استطراداً، وتحت ضغط الظروف ونشر الدعوة هي الغاية، لم تتطلب الغاية بالضرورة أعمالاً حربية، فالدين إيمان يقر في القلوب، والقلوب لا يستطيع أحد أن يفرض عليها شيئاً بالقوة، وكل ما يطلبه العرب المسلمون أن يفسح لهم المجال لنشر دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة دون عوائق أو موانع تزرعها القوى العظمى لقهر الشعوب دينياً وحضارياً لقرون من الزمن، فحرروا القلوب قبل الجغرافيا، واستطاعوا أن يصلوا إلى الأندلس غرباً وإلى الصين شرقاً ومن حوض الفولجا شمالاً إلى خط الاستواء جنوباً.

^(١) سورة البقرة: آية، ٢٥٦.

إن التاريخ العربي الإسلامي هو أحد أركان بناء مجد العرب المسلمين، وقد عرف أعداء هذه الأمة كيف يشنون حملات التشويه والتزوير المتعمدة، ويكيدون المكائد، ويدسون الدسائس، ولاسيما المؤسسات الاستشرافية التي شوهت التاريخ العربي الإسلامي تحت عناوين جذابة وبراقة، وعمد رجالها إلى تفسير أحداث التاريخ العربي الإسلامي بما يتطابق مع خلفياتهم وأفكارهم المشحونة بالبغض والكره منصبين من أنفسهم قضاة يحاكمون أحداث التاريخ ورجالاته^(١).

ويقول رودي باريت عن المنهج المتبع في تحليل الأحداث التاريخية الإسلامية: "هو تطبيق المعيار النقدي المطبق لديهم في كتبهم"^(٢).

ومن خلال هذا المنهج سيصلون إلى نتائج غير صحيحة؛ لأنهم انطلقوا من مسلمات وبديهيات بعيدة كل البعد عن الحقيقة التاريخية الصحيحة؛ لأنها تتصف بالعمومية والنظرة الأحادية ذات البعد الواحد، وهي نظرة متأثرة بالآراء التعسفية المتحيزة مع ما اتسمت بها أبحاثهم من مظاهر علمية من حيث الحواشي المرصوفة بالمصادر والمراجع.

وللتوضيح أكثر فإن تشهير المستشرقين قد تناول القرآن وشخص النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وأظهروا تخبطهم جلياً، واضطربوا فما ظنك بالحدث التاريخي؟ وكلما كان الخبر أكثر ثباتاً بدت رغبتهم في تجريخه أو تأويله أو بتره، وإدخاله في غير مناسبه ليخدم أغراضهم ومصالحهم الشعبية، وكأنهم من سلالة مشركي قريش.

وبعد العرض الوجيز والمختصر حول الاستشراق ودوره السلبي في الأحداث التاريخية للعرب المسلمين، وعدم تسمية الأمور بمسمياتها، وللدفاع عن الحقيقة لا بد من الرد تحت شعار: وشهد شاهد من أهلها؛ لتفنيد أقوالهم عن الفتوحات العربية الإسلامية من خلال ميزات ودوافعها على الوجه الصحيح، لا كما أرادها أصحاب الشك واللبس.

^(١) للتوسع حول الاستشراق وكشف نواياه انظر: سعيد: إدوارد، الاستشراق المعرفة، السلطة، الانشاء، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م، ص ١٩٧-٢١٢.

^(٢) عمارة: إسماعيل أحمد، المستشرقون والمناهج اللغوية، دار حنين، الأردن، ط ٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ١٣.

١- ميزات حركة الفتوحات العربية الإسلامية

أ- السرعة والرسوخ:

خرقت الفتوحات العربية الإسلامية العادة التاريخية، فقد جرت عادة التاريخ في الفتوحات العظيمة أن تكون على طريقة من اثنتين: فتوحات قوية تُسفر عن حكم راسخ، لكنها تتم في زمن طويل، ويُضرب المثل بالفتوحات القوية الطويلة بالدولة الرومانية، أو فتوحات سريعة صاعقة تهيمن على مساحة كبيرة في وقت قصير، لكنها ما تلبث أن تزول دون أن تترك أثراً كبيراً في صفحة التاريخ، يضرب المثل بالفتوحات السريعة الزائلة بالحروب المغولية، وحروب الإسكندر المقدوني^(١).

أما الفتوحات العربية الإسلامية فقد حققت الطريقتين معاً: فتوحات قوية وسريعة هيمنت على أجزاء واسعة في وقت قصير، ثم إنها ظلت راسخة متينة، فمثلت بهذا لحظة تاريخية فارقة، ويصفها بعض المؤرخين: "النقطة التي تميز النهاية الحقيقية للحقبة القديمة في التاريخ"، فيما رآها مؤرخون آخرون كفلهاوزن وبيكر أنها: العامل الرئيسي في تاريخ العالم^(٢)، وهكذا كان انتصار العرب المسلمين في مرحلته الأصيلية تلك أكبر دلالة على إقامة دولة الخلافة العربية الإسلامية، وهذا التوسع يعود إلى شعب كان حبيس إرثه الصحراوي، إذ لم يكن يملك سوى الإيمان والأخلاق لنشرها.

وبالفعل كانت فتوحات سريعة بكل رسوخ، وبكل ما تحمله الكلمة من معنى، ومن لا شيء من أدوات وعدة وعتاد من صحراء لو جمعت ثروتها لا تكاد تكفي إنشاء كنيسة آيا صوفيا، ولم يكن أحد في ذلك الوقت يحلم أنه لن يمضي قرن من الزمان حتى يكون أولئك البدو قد جعلوا من المتوسط بحيرة عربية ووصلوا إلى مساحات واسعة بسرعة مخيفة وراسخة، وفتحوا أملاك البيزنطيين وفارس والمغرب^(٣).

ويضيف إدوارد بروي واصفاً فتوحات العرب المسلمين بالشهاب الساطع الذي تدرجت أمامه الملوك والتيجان، فيقول: "ظهر الإسلام كالشهاب الساطع، فحير العقول بفتوحاته السريعة القاصمة، وبتوسع

^(١) فروخ: عمر، تحديد التاريخ في تعليقه وتدوينه، دار الباحث، بيروت، ط ١، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ص ٥٥-٦٧.

^(٢) جابريلي: فرانثيسكو، الإسلام في عالم البحر المتوسط، ضمن "تراث الإسلام"، تر: محمد زهير السمهوري وآخرون،

سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج ١ ص ٨٨، ٨٩.

^(٣) ديورانت: قصة، ج ١٣ ص ٧.

رقعة الإمبراطورية التي أنشأها. نحن أمام شعب كان للأمس الغابر مجهول الاسم، مغمور الذكر، فإذا به يتحد ويتضام في بوتقة الإسلام، هذا الدين الجديد الذي انطلق من الجزيرة العربية، اكتسحت جيوشه ببضع سنوات الدولة الساسانية، وهدت منها الأركان، ورفرت بنوده فوق الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية في آسيا وإفريقيا، باستثناء شطر صغير منها يقع غربي آسيا الصغرى، ولم تلبث جيوشه أن استولت بعد قليل على معظم إسبانيا وصقلية، وأن تقتطع لأمد من الزمن - يقصر أو يطول - بعض المقاطعات الواقعة في غربي أوروبا وجنوبيها، ودقت جيوشه بعنف شديد أبواب الهند والصين والحبشة والسودان الغربي، وهددت القسطنطينية بشر مستطير.

وقد تهاوت الدول أمام الدفع العربي الإسلامي، وتدرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها النظيم، وهذه الأديان التي سيطرت على الشعوب والأقوام الضاربة بين سيرداريا والسنغال ذابت كما يذوب الشمع أمام النار^(١).

وإن هذا الظهور الواسع والراسخ على أراض آسيوية وإفريقية حدد بصورة حاسمة مصائر المسيحية التي قابلت الدين الجديد دون مقاومة، بل بالترحاب في كثير من المناطق^(٢)، واستطاع العرب المسلمون أن يقتطعوا رقعة دولتهم في مدى قرن واحد بالضبط بدأ في التوسع في سرعة لا يكاد يصدقها عقل^(٣)، حتى تعجب بعضهم من قصص الفتوح التي مرت على مسرح تاريخ الجنس البشري، وعمد بعضهم إلى جعلها أعظم الأعمال إثارة للدهشة في التاريخ الحربي كله^(٤)، وترفع القبة احتراماً، لما قاله والد انديرا غاندي أحد زعماء الاستقلال في الهند الذي يقول: "المدحش حقاً أن نلاحظ هذا الشعب العربي - الذي ظل منسياً

(١) بروي: إدوارد، تاريخ الحضارات العام القرون الوسطى، تر: يوسف داغر، وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ج ٣ ص ١٠٩.

(٢) جورافسكي: أليسكي، الإسلام والمسيحية، تر: خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢١٥، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص ١٤٩.

(٣) جرونيباوم: جوستاف، حضارة الإسلام، تر: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص ١٥.

(٤) ولز: هيرت، موجز تاريخ العالم، تر: عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص ٢٠٤. ديورانت، قصة الحضارة، ج ١٣ ص ٧٣.

أجيالاً عديدة، بعيداً عما يجري حوله- قد استيقظ فجأة، ووثب بنشاط فائق أدهش العالم، وقلبه رأساً على عقب، وإن قصة انتشار العرب في آسيا وأوروبا وإفريقيا، والحضارة الراقية، والمدنية الزاهرة التي قدموها للعالم، هي أعجوبة من أعجوبات التاريخ، إن الإسلام هو الباعث والفكرة لهذه اليقظة العربية؛ بما بثه في أتباعه من ثقة ونشاط"^(١). أضف إلى ما سلف من حيث رسوخ الفتوحات وما قاله مايكل هارت في كتابه حول أعظم مئة شخصية في التاريخ الإنساني، مع أنه لا يؤمن بالإسلام ولا بدعوته إلا أنه جعل النبي صلى الله عليه وسلم على رأس هذه المائة، وقال: "لقد اخترت محمداً -صلى الله عليه وسلم- ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار، ومعهم حق في ذلك، ولكن محمداً -صلى الله عليه وسلم- هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والدينيوي. وهو قد دعا إلى الإسلام، ونشره كواحد من أعظم الديانات، وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً، وبعد ثلاثة عشر قرناً من وفاته فإن أثر محمد صلى الله عليه وسلم ما يزال قوياً متجدداً"^(٢).

إن لكل قاعدة استثناء، ولعل هذه الفتوحات العربية الإسلامية قد أحيطت بالاستثناءات، فالمؤرخ أرنولد توينبي الذي وضع عدة نظريات ودراسات عميقة ومنها القاعدة التاريخية القائلة: إن الغزاة يستطيعون تأسيس إمبراطوريات كبرى، ويظفرون برضا ومحبة الشعوب المحكومة إن هم كانوا من ذات ثقافتهم أو اعتنقوها دون شوائب دخيلة، فأما إن اعتنقوا ثقافة أخرى أو كانوا ممثلين لحضارة أخرى فإنهم يصيرون مكروهين منبذين من الشعوب المحكومة مهما طال زمن سيطرتهم، ولا بد أن يأتي يوم يتدمر سلطانهم على يد هذه الشعوب، ولكن سرعان ما يقدم الاستثناءات، فقال: "وثمة استثناء من قاعدتنا يمثلها العرب المسلمون الأوائل"^(٣). هكذا يبدو أن الدور التاريخي للعرب المسلمين الأوائل يعد دوراً استثنائياً، فقد استطاع العرب المسلمون أن يفتحوا في ثمانين عاماً أكثر ما احتله الرومان في ثمانية قرون.

^(١) لال نهر: جواهر، لمحات من تاريخ العالم، تر: عبد العزيز توفيق، دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ص ٢٣-٢٤.

^(٢) مايكل: هارت، الخالدون مائة أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم، تر: أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ط ٦، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ص ١٣.

^(٣) توينبي: أرنولد، مختصر دراسة التاريخ، تر: فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ج ٢ ص ٢٤٨.

ب- مبشرات الفتح:

كانت القوات العربية الإسلامية على ثقة تامة بأمرين لا ثالث لهما، وهما النصر أو الشهادة، وهذا لم يأت من فراغ، بل بشرهم بهم الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم وهو القائل: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} ^(١)، وهو ما أكدده الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بشرهم بالفتوحات، وذلك في العام ٦٢٧هـ/م في غزوة الأحزاب يوم الخندق، وهو ما يذكره ابن هشام في سيرته: قال ابن إسحاق: وحدثت عن سلمان الفارسي، أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت علي صخرة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني، فلما رأي أني أضرب، ورأى شدة المكان علي، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، قال: ثم ضرب به ضربة أخرى، فلمعت تحته برقة أخرى، قال: ثم ضرب به الثالثة، فلمعت تحته برقة أخرى. قال: قلت:

بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟

قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: قلت: نعم، قال: أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق ^(٢)، والمشرق هذا هو موضوع هذه الدراسة وفي بشارة أخرى على فتح إقليم المشرق - العراق وفارس وما وراء النهر وما بعدها - أن النبي صلى الله عليه وسلم وعد سراقه بن مالك بن جعشم بسواري كسرى عندما لا حقه أثناء هجرته، وكذلك عندما أخبر وفد عدي بن حاتم الطائي، وقال له مبشراً بفتح المشرق "وليفتحن كنوز كسرى بن

^(١) سورة الفتح: آية، ٢٧.

^(٢) ابن هشام: عبد الملك ت ٢١٣هـ/٨٢٨م، السيرة النبوية لابن هشام، تح: مصطفى السقا وآخرون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط ٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، ج ٢ ص ٢١٩، البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م، دلائل النبوة، تح: عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج ٣ ص ٤١٧، ابن حجر: فتح الباري، ج ٧ ص ٣٩٧، ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م، السيرة النبوية، تح: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٦م، ج ٣ ص ١٩١.

هرمز^(١)، وكذلك بشرهم بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش^(٢).

ج- حضارة الفتوحات:

استطاع العرب المسلمون أن يقدموا صوراً حضارية وأخلاقية تكتب بماء من ذهب أثناء سير الفتوحات العربية الإسلامية، والأمثلة تكاد تحتاج إلى مجلدات منذ أن دخل النبي عليه الصلاة والسلام مكة فاتحاً عندما قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقد أنزل الناس منازلهم، وهم من هم في عدائهم للإسلام^(٣)، ووصايا أبي بكر رضي الله عنه (لا تخونوا، ولا تغلوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تبحوا شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرن بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له. . . اندفعوا باسم الله)^(٤)، وغيرها من الشواهد، وهذا ما يشهد به المفكر القانوني الفرنسي دومنيك حيث يقول: "إن هذه الفتوحات قد ارتبطت بما هو حضاري ومهيب ومدهش، هذه الفتوحات التي يبدو ذكرها مهيباً ومدهشاً، لا بد من معرفتها؛ لأنها هي التي سمحت للإسلام بالانطلاق كدين عالمي انتشرت معه بذات الوقت وتنامت الحضارة المرتبطة به، وعلينا أن نفسر كيف استطاع فرسان رُحّل ذوو أسلحة خفيفة وبسرعة عجيبة في الاستيلاء على قسم من آسيا، وعلى إفريقيا الشمالية، وإسبانيا، وفي احتلال القسم الأكبر من الممتلكات البيزنطية بما فيها الأناضول، وحتى أسوار القسطنطينية لعدة غزوات، ثم القضاء تماماً على الإمبراطورية الساسانية التي قُتل ملكها الأخير بعد انهزام جيوشه بصورة نهائية"^(٥). ويمضي جاك ريسلر

(١) ابن هشام: السيرة، ج ٤ ص ٥٨١، ابن كثير: البداية، ج ٧ ص ٧٥، ابن الاثير: الكامل، ج ٢ ص ٧٤، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تح: عبد القادر الأرناؤوط، وبشير عيون، دار الفكر، ط ١، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ج ١٢ ص ٤٣٥.

(٢) ابن حنبل: المسند، ج ١١ ص ٢٢٤، ابن البيع: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم ت ٤٠٥هـ/١٠١٤م، المستدرك على الصحيحين، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ج ٤ ص ٤٦٨.

(٣) البلاذري: فتوح، ج ١ ص ٤٨، المقدسي: البدء، ج ٤ ص ٢٣٤، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ٤٥٩.

(٤) الطبري: تاريخ، ج ٣ ص ٢٢٦، ابن الاثير: الكامل، ج ٢ ص ١٩٦، النويري: نهاية، ج ١٩ ص ٤٨.

(٥) سورويل: دومنيك، الإسلام... العقيدة، السياسة، الحضارة، تر: سليم قندلفت، دار حوران، دمشق، ط ٢، =

إلى أن هذه الفتوحات قد بنيت على أخلاق هؤلاء الأبطال أصحاب تقنية حربية لا يمكن وصفها: "تقوم انتصارات العرب الباهرة على أمور متنوعة، يكمن أهمها في الروح الأخلاقية الرفيعة التي كانوا يستمدونها من الدين الجديد؛ فقد كان الإسلام قد علمهم الشجاعة، وازدراء الموت الذي جعلهم أشداء لا يُقهرون إلى هذه الفضائل الأخلاقية ينبغي أن تُضاف تقنية حربية كانت تحترم تشكيل وحدة القبيلة"^(١).

وأما إدوارد الذي يصف حركات الفتح العربي الإسلامي بنفخة تعيد الحياة فيمن قد مات من التراث الإنساني القديم ليشع النور فيها من جديد: "وانجلى غبار الفتح وصلصلة السلاح عن إمبراطورية جديدة ولا أوسع، وعن حضارة ولا أسطع، وعن مدنية ولا أروع، عوّل عليها الغرب في تطوره الصاعد ورقيه البناء، بعد أن نفخ الإسلام في قسم موات من التراث الإنساني القديم روحاً جديدة عادت معه إليه الحياة، فنبض وشع وسرى"^(٢).

ويصف بارو في كتابه التاريخ الكامل أن العرب المسلمين الفاتحين لم يكونوا برابرة، ولم يكونوا رومان، بل كانوا شيئاً فريداً جديداً فرساناً لا يقهرون، وليس معهم الفوضى ولا الهمجية، بل كان معهم نظام جديد، هذا بأن غزوات العرب لم تكن مثل غزوات البرابرة الذين أرادوا دائماً أن يكونوا صورة من المتفوقين عليهم حضارياً، يقول: "لم يكن برابرة الشمال يمارسون إلا ديانات ضعيفة، وإن كانوا قد ساهموا في انتحار الإمبراطورية، فإن فكرتهم الوحيدة كانت تتمثل في أن يصيروا روما (أو صينيين في الشرق)، أما العرب فكان لهم دين قوي. . . ولم يكونوا يريدون أن يصيروا روما، إنما أرادوا صنع عالم جديد إذن فقد كان عملهم أدوم"، وأضيف لما سلف فقد "كان الفرسان المسلمون يريدون أنهم لا يُقهرون، كما أنهم لم يكونوا يجلبون معهم الفوضى وإنما نظاماً جديداً"^(٣).

وهذه الحضارة التي نشرت لم تنشر بين العرب فقط بل كانت في كل مكان حلت كأنها الماء البارد

= ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٣٥-٣٧.

^(١) ريسلر: جاك، الحضارة العربية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص ٤٦.

^(٢) بروي: تاريخ الحضارات، ج ٣ ص ١٠٩.

^(٣) بارو: جان كلود، ويغو: غيوم، التاريخ الكامل للعالم، تر: حسن عيساني، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، دار الفارابي، بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م، ص ٩١-٩٤.

للظمان على اختلاف الألوان والثقافات والألسن، ويفسر ذلك الإيطالي جابرييلي: "وُلد الإسلام في منطقة من أكثر مناطق العالم القديم بدائية وتخلّفاً، ولكنه سرعان ما تجاوز حدوده وتطور من ظاهرة محلية وعامل داخلي في حياة الأمة العربية إلى عقيدة كونية وقوة عالمية، وذلك في عملية لا يزال المؤرخون يختلفون حولها حتى اليوم، إنها بالنسبة لأولئك الذين يدرسون الديناميكية الغامضة لهذه العملية، لا تعد شرقية ولا غربية، كما لا يمكن إعطاؤها أي تحديد جغرافي أو ثقافي، إنها فقط القوة العجيبة التي تشع من العقيدة الجديدة، ومن الدولة التي أقامتها هذه العقيدة، والتي نمت في كل اتجاه، وأنتجت حضارة موحدة إلى حد يدعو إلى الدهشة، وذلك رغم الاختلاف الشديد بين البيئات والمستويات الثقافية التي ازدهرت عليها"^(١).

وقد قيل بحق الفاتحين: "وحد الفاتحون العرب ولأول مرة في التاريخ الأقاليم الشاسعة الممتدة من حدود الهند والصين إلى تخوم اليونان وفرنسا وإيطاليا. . . ووجد بين ثقافتين كانتا تتصارعان في الماضي هما التراث المتنوع في حوض المتوسط البالغ من العمر ألف عام وحضارة الشرق الأقصى. . . ، وقد حملت حضارة المجتمع العربي في كل مظاهرها البصمة المميزة للعروبة والإسلام"^(٢).

د- عجائب الفتوحات:

إن هذه الفتوحات ليست وصفاً عجائبياً، بل هي العجب العجاب، هي من مظاهر الإعجاز التاريخي لهذه الأمة، هي ظاهرة خرقت كل ما هو مألوف واعتيادي، وليس في هذا المقام وصف أجمل وأكمل من هذا القول: "أصدق وصف يُطلق على الإسلام في هذا المقام هو أنه دين طيار، ينتقل من إنسان إلى إنسان ومن أمة لأمة في سهولة ويسر كأن له أجنحة قدسية تحمله وتجري به مجرى الريح تحمله، وإنك لتنظر إلى خارطة الأرض وتتأمل مدى انتشار الإسلام فتتعجب من سعته، ويزداد عجبك عندما تبين أن ثلث هذه المساحة فحسب هي التي فتحتها الدول ودخلت الجيوش فيها بالإسلام، أما الباقي فقد دخلها الإسلام وملاً قلوب أهلها دون جهد منظم أو سياسة مرسومة لذلك"^(٣).

وفي المقابل هناك ما يثير الانتباه وكثيراً من الاستفهام والتعجب عندما تتوفر المواد الأولية لصناعة أمر

(١) جابرييلي: الإسلام، ج ١ ص ٨٥.

(٢) جودة: محمد، عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية، مكتبة الاسرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص ١٨.

(٣) مؤنس: حسين، الإسلام الفاتح، الزهراء، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ١٨.

ما فهذا أمر طبيعي، ولكن من لا شيء تصنع شيئاً فهذا هو العجب، والناقل لهذا الأمر هو ممن ينصبون العداء للعرب المسلمين ألا وهو المستشرق الأمريكي برنارد لويس اليهودي الأصل الذي يقول: "خلافاً لبناء الإمبراطوريات الآخرين، لم يكن لدى العرب أي وسيلة خاصة تكتيكية أو فنية من شأنها أن تجعلهم يتفوقون على خصومهم، فلم يكن عندهم ما يشبه الكتيبة المقدونية، أو الفيلق الروماني، أو جياد غزاة أمريكا الـ (conquistadores)، أو القوة النارية للمستعمرين (الغريبيين). بل إنهم - باعتبارهم دخلاء- جاؤوا ليهاجموا الإمبراطوريتين العظيمتين في ذلك الوقت، كانوا -على العكس- يعانون من نقص في المهارات والتسلح، وكذلك في العدد، ولم تكن لديهم خبرة قتالية في تشكيلات كبيرة، وفي الأيام الأولى لم تكن لديهم معدات الحصار ولا أسلحة الحصار، ومن ثم كان كل ما يمكنهم هو أن يطوقوا المدن المحصنة لا أن يحاصروها، ولم يكن لديهم أي أسطول، وحتى في البر لم يكن يوجد لديهم ما يقابل سلاح الفرسان المدرع، والكتائب (cotophracts) الموجودة لدى بيزنطة وبلاد الفرس"^(١).

والأمر الآخر؛ وهو مقولة كثيراً ما تتناقلها العامة: إذا دعتك قوتك على ظلم الآخرين فتذكر أن هناك من هو أقوى منك، وهذه المقولة تضع الفتوحات العربية الإسلامية على المحك لأنهم عندما يتمون الفتح يكونون هم الغالبون وكانت سيرتهم على خلاف من سبقهم من الفتوحات الأخرى، فقد كانت هذه الفتوحات تحت عنوان: رحمة الغالبين قمة التسامح، ويؤكد هذا المستشرق الإنجليزي أرنولد فيقول: "تشهد بأن الفتح الإسلامي كان خارقاً للعادة التاريخية في سائر التوسعات الإمبراطورية الأخرى التي تزخر بأنباء المذابح أثناء الفتح ثم بأنباء الإذلال والاستعباد بعد تمكن السلطان"، ويقول جوستاف لوبون: "كان يمكن أن تعمي فتوح العرب الأولى أبصارهم، وأن يقتربوا من المظالم ما يقتربه الفاتحون عادة، ويسبوا معاملتهم المغلوبين، ويكرهوهم على اعتناق دينهم الذي كانوا يرغبون في نشره في العالم. . . فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً مثل دينهم"^(٢)، ومن عجائب الفتوحات مساعدة أهالي البلاد

^(١) لويس: برنارد، السياسة والحرب، ضمن "سلسلة تراث الإسلام"، تر: محمد السهموري، حسين مؤنس، عالم المعرفة، الكويت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م، ج ١ ص ٢١٢.

^(٢) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٧٠، لوبون: جوستاف، حضارة العرب، تر: عادل زيتون، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص ٦٠٥.

المفتوحة للفتاحين العرب، وذلك عن مودة واختيار ولا دليل أقوى مما فعله أهل بخارى وسمرقند وهم من الترك، وما بذلوه من مساعدة وعون حربي للقائد قتيبة بن مسلم الباهلي فقد اشترك ما يقارب عشرين ألف جندي من خوارزم وبخارى ونسف وكش وسمرقند في فتح الشاش وفرغانة^(١)، وأضف إلى ذلك أن قادة الفتح العربي الإسلامي قد أشركوا أبناء البلاد المفتوحة في إدارة بلادهم في المناصب الإدارية والعسكرية العليا التي كانوا محرومين منها في ظل الحكومات قبل مجيء العرب المسلمين، وهذا أشعرهم بالأمان والاطمئنان تجاه دولة العرب والإسلام^(٢)، ومثال ذلك ما فعله قتيبة بن مسلم الباهلي عندما أبقى الحكام الصغديين لتولي الإدارة فيها^(٣).

٢- دوافع حركة الفتوحات العربية الإسلامية:

وجهت التهم الكثيرة وغير الحيادية البعيدة عن المنطق دون أدنى دليل قاطع وصارم حول الفتوحات التي قام بها العرب المسلمون، وكان الهدف الأساسي من وراء هذه المزاعم النيل من هذه الفتوحات، ومما جاءت به هذه الفتوحات على الأقوام وبلدانهم المفتوحة من إيجابيات وحضارات، فقد ساهمت في جميع الميادين التي كانت سفيرتها لغة الفاتحين وأخلاقهم التي كانت أداة لتلك الحضارة التي تناقلها العرب المسلمون، ومن الإجحاف ألا يقال: إن العرب المسلمين قد أخذوا من حضارات الأقوام الأخرى، ولكن أتت لهذه الفتوح الكثير الكثير من الدسائس والدعوات التي يأتيها الباطل من كل حدب، وفي كل حين، وغير خافٍ على أحد أن هذه الدعوى ذات طابع قومي ووطني وإن دعوة العرب المسلمين خاصة بهم وليست دعوى عالمية، ومن أهم ما ركز عليه من اتهامات وجهت للفتوحات العربية الإسلامية هو الدافع الاقتصادي.

(١) الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ١٥، عماش: صالح مهدي: قتيبة بن مسلم الباهلي وحركات جيش المشرق الشمالي فيما وراء النهر، منشورات وزارة الثقافة، العراق، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م، ص ١١٩.

(٢) عبد اللطيف: العالم الإسلامي، ص ٣٨٣.

(٣) فامبري: بخارى، ص ٦٧، عماش: قتيبة، ص ١١٥.

أ- الدافع اقتصادي:

ركز المستشرقون والمتربصون على أن الفتوحات العربية الإسلامية كانت لأجل الغنائم، واستبدال صحراء العرب بخيرات البلاد الأخرى ذات الترف والنعيم؛ لأن تلك الصحارى لم تنتج لهم سوى البؤس والقحط^(١)، متناسين أن العرب وقبل إسلامهم ودعوتهم الإسلامية كانت لهم راية الثقة بالنفس واضحة ومن دون أي دليل عندما هزموا أبرهة الحبشي الذي كان طامعاً بخيرات الجزيرة العربية وما جاء إلا لهدم اقتصادهم وتحويله إلى القليئس التي بناها، ومتجاهلين كيف تحدى العرب فارس وانتصروا عليهم في ذي قار، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "اليوم انتصف العرب من العجم"^(٢)، معتمدين على بعض النصوص التي اجتزأت من نصوص أخرى، وكأن لسان حالهم يقول: (ويل للمصلين) دون إكمال الآية وتوضيح ما هو المطلوب من المصلين منطلقين من مقاييسهم المادية البحتة، وعدوا انسياح العرب المسلمين امتداداً للهجرات العربية القديمة التي أدت إلى استقرار الأكاديين في العراق في الألف الثالث قبل الميلاد، والآشوريين في بابل في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، والفينيقيين في سواحل بلاد الشام حوالي سنة ألف وستمئة قبل الميلاد وغيرها من الهجرات التي كانت بمثابة هجرات اقتصادية إلى المناطق الغنية الواقعة إلى الشمال الشرقي والغربي من الحجاز نتيجة تدهور الأحوال الاقتصادية في الجزيرة العربية، وهناك هجرات نتيجة الاضطرابات الداخلية والحروب الطاحنة كالتى حدثت بين الأحباش والفرس^(٣)، وبين العرب كما

^(١) لاندو: روم، الإسلام والعرب، تر: منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، ص ٥٩، كاهن: تاريخ العرب، ج ١ ص ٢٤، نتج: أنتوني، العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، تر: راشد البراوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ص ٤٧، حتي: فيليب، صانعو التاريخ العربي، تر: أنيس فريجة، دار الثقافة، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ص ٤٤، بل: ألفرد، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، تر: عبدالرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٩٤، Gibb: the Arab Conquests P7.

^(٢) الطبري: تاريخ، ج ١ ص ٤٤٣، النويري: نهاية، ج ١ ص ٢٣١، ابن قتيبة: المعارف، ص ٦٠٣، المقدسي: البدء، ج ١ ص ١٧٣.

^(٣) وذلك زمن ذي النواس عندما دعاهم لليهودية وهم على النصرانية، فرفضوا وخذ لهم الأخدود وقد ذكروا في القرآن الكريم في سورة البروج الآية ٤، انظر: الجاحظ: التاج، ص ٢٨، الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، العبر في خبر من غبر، تح: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ج ٣ ص ٣٠٨.

حدث في هجرة الأزد وتنوخ وكندة^(١)، بينما فتوحات العرب المسلمين هذه لم تكن ناتجة عن حروب داخلية أو أزمات اقتصادية، وتوجه العرب المسلمون إلى مناطق بعينها كالشام أو العراق أو اليمن ليس لرغبة اقتصادية، بل لأنهم قد سلكوا هذه الطرق، وهي ليست بغريبة عليهم كونها طرقاً كانت تسلكها قوافل قريش، ومن جهة أخرى اتصال العراق بالجزيرة العربية جغرافياً هو اتصال وثيق، وأما ما بعد العراق فكان نتيجة الاعتداءات الفارسية وغيرها، فكان لا بد من تأمين الحدود، وعيش العرب المسلمين بعيدين عن القلاقل والفتن التي كانت تحيكتها أعداء الأمة لها، ويمكن القول باختصار: إذا كانت صحاري العرب وجذب أراضيهم سبباً لهجرتهم من الحجاز ونجد فما هي أسباب هجرة عرب اليمن السعيد؟

والأمثلة كثيرة على دحض هذا الادعاء، وفي مراحل متقدمة من فتوحات الرسول الكريم والصحابة الخلفاء، ولعل ما فعله قتبية بن مسلم الباهلي عندما وجد بين الأسرى قائداً أعوراً، وكان هو الذي استجاش الترك على العرب فقال لقتبية: أفدي نفسي بخمسة آلاف حرية صينية قيمتها ألف ألف؛ أي مليون درهم، فقال قتبية: ما ترون؟ قالوا: نرى أن فداه زيادة في غنائم المسلمين، وما عسى أن يبلغ من كيد هذا! قال: لا والله لا تروع بك مسلمة أبداً، وأمر به فقتل^(٢). ولو كان الهدف الغنائم لقبول منه هذا المبلغ، وزادت الأموال ولكن فضل الأمان على ألا يروع أمن الناس على حساب دراهم رخيصة أمام حياة الناس. كذلك حرم الغنائم لأول مرة عندما كثر السلاح بين جيوش العرب المسلمين ورفض عدها من الغنائم^(٣).

ب- الدافع ديني:

اقتصرت الفتوحات العربية الإسلامية بأنها حروب دينية ذات صباغ ديني متعصب أجبرت الناس على الدخول في الدين الإسلامي، ويقصدون بذلك إنشاء دولة دينية حتى قالوا: إن العرب المسلمين توسلوا بالتعصب الأعمى، وأخضعوا الناس للدين بالقهر، وقالوا: كان المسلمون يحملون القرآن بإحدى يديهم

(١) اليعقوبي: تاريخ، ج ١ ص ٢١٦-٢١٨.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٣١، مسكوية: تجارب، ج ٢ ص ٣٩٦، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ١١.

(٣) عماش: قتبية، ص ١٦٢.

والسيف باليد الأخرى^(١)، وبالفعل خير الأمور ما شهدت به الأعداء بمقولته السالفة: أن القرآن بإحدى أيديهم والسيف باليد الأخرى ما هو إلا دلالة على أن القرآن هو الأساس والأصل في التعامل مع غير المسلمين، وكلام الله واضح وصريح كالشمس وضح النهار أليس هو القائل: "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي"^(٢)، وقال: "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"^(٣)، وكان دستوراً بنشر السلم لا الحرب فقال: "ادخلوا في السلام كافة"^(٤) وقال: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها"^(٥).

إن حركة الفتوحات أي الأعمال العسكرية كان هدفها إزالة الحواجز والعراقيل التي وقفت في وجه الدعوة لنقل العباد إلى عبادة رب العباد محاربة تلك الأنظمة الحاكمة التي تمنع وصول تعاليم الإسلام إلى الرعية مع كامل حرية المعتقد لمن أبقى، ولذلك وضع العرب المسلمون الشروط الثلاثة: إما الإسلام، وإما الجزية، وإما الحرب، ولهذا بقي كثير من أهل الذمة على معتقداتهم دون إجبارهم على الدخول في الدين، وتمتعوا بحرية كبيرة، بل إن بعضهم شارك في إدارة البلاد الإسلامية وفي بعض الفتوحات وأن عهود الصلح التي أجريت مع غير المسلمين ماهي إلا تعبير صادق عن غلبة روح التسامح التي جرى عليها المسلمون الفاتحون، ففي الرعيّل الأول خير مثال على ذلك المعاهدة العمرية مع أهل إيلياء عندما أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم والّخ، وكذلك المصالحات التي أقامها قتيبة بن مسلم مع أهل سمرقند ومع خاتون أميرة بخارى، والصلح مع زنبيل في سجستان وهي كثيرة^(٦)، ولكن ما تشابه عليهم أنهم لم يميزوا بين أمرين مهمين وهما: الأعمال العسكرية لإزالة العوائق وبين اعتناق الناس للإسلام فلم يجبر العرب المسلمون أحداً على الدخول في الدين والشواهد على ذلك كثيرة.

(١) سيديو: لويس، تاريخ العرب العام، تر: عادل زعيتّر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ١٣٣.

(٢) سورة البقرة: آية، ٢٥٦.

(٣) سورة الكهف: آية، ٢٩.

(٤) سورة البقرة: آية، ٢٠٨.

(٥) سورة الأنفال: آية، ٦١.

(٦) الواقدي: محمد بن عمر بن واقد السهمي ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م: فتوح الشام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج ٢ ص ١٨٤، البلاذري: فتوح، ج ١ ص ١٤١، عماش: قتيبة، ص ٩٨-١٠٢.

وفي ختام الحديث عما سلف يتبين أن العرب المسلمين كانوا لا يتبعون إلا الخلق الكريم في حروبهم فلم يكرهوا أحداً على الإسلام^(١)، وقد شهد بذلك غوستاف لوبون^(٢) ويضيف روزنتال على ذلك قوله: "نمت المدنية الإسلامية بالتوسع لا بالتعمق داعية إلى العقيدة مناقشة لتلك الحركات الفكرية الموجودة، فتهاوت تلك الحواجز القديمة، وتوفرت فرصة نادرة لجميع الشعوب لتبدأ حياة فكرية جديدة على أساس المساواة المطلقة وبروح المنافسة الحرة"^(٣).

ثانياً- المحاولات الاستطلاعية المبكرة لفتوحات المشرق:

بعد الحديث عن ميزات الفتح العربي الإسلامي، وبعض دوافعه وهي كثيرة، ومنها أيضاً دعوى أن الفتوحات ذات طابع قومي ووطني، ودعوى أنها للعرب فقط وليست عالمية. . . . إلخ، وتوضيح بعض النقاط عن عملية الفتوحات قبل الخوض فيها ولاسيما أنها ظلت مادة دسمة للمستشرقين وأعداء العروبة والإسلام يسير البحث خطواته عارضاً بداية الفتح العربي الإسلامي لبلاد ما وراء النهر، وقبيل الحديث عن فتوحات قتيبة وما وراء النهر من الجدير بالذكر أن تُبحث فتوحات خراسان التي كانت قاعدة انطلاق لفتوحات بلاد ما وراء النهر، ومن قبلهما الحديث عن البصرة لتكون مسؤولة عن فتوحات المشرق.

١- تأسيس البصرة لتكون مسؤولة عن فتوحات المشرق:

البصرة: بفتح الموحدة، وسكون الصاد المهملة، وراء ثم هاء: ذكرت في النص الذي ورد في ميسان، وهي من أعظم المدن التي قامت في صدر الإسلام، اختطها المسلمون عند فتح العراق، فقليل: إنه لم تبق قبيلة من العرب لم يكن منها في البصرة حاضر، واشتهرت بمريدها الذي احتل مكانة عكاظ في الشعر، وقيل: ما رأى العرب مدينة أقرب إلى البدو والحضر معاً كالبصرة، فغريها يمتد في صحراء العرب القاحلة متصلاً بالفلاة، وشرقيها يسفح عليه شط العرب ويظلل النخيل، فكان العربي يستطيع أن يرعى ماشيته في

(١) الجندي: أنور، الإسلام وحركة التاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ١، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م، ص ٨٣.

(٢) لوبون: حضارة، ص ١٧٠.

(٣) روزنتال: فرانز، علم التأريخ عند المسلمين، تر: صالح العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٤٦.

غربها، ويزرع في شرقها وشمالها^(١).

وهما بصرتان: العظمى بالعراق، وأخرى بالمغرب، وبصرة العراق في الإقليم الرابع، وقيل: في الثالث، وبعدها عن خط المغرب أربع وستون درجة، والبصرة مدينة الدنيا، وقاعدة العراق، وموسم التجار مستطيلة طول فرسخين في عرض فرسخ، وقيل: فرسخان في مثلهما، والكوفة مثل ثلثي البصرة، وقد مصرت البصرة قبل الكوفة بسنة ونصف، وقيل: بثلاث سنوات^(٢). قال ابن الأنباري: البصرة في كلام العرب الأرض الغليظة التي فيها حجارة تقلع وتقطع حوافر الدواب، وذكر أحمد بن محمد الهمداني حكاية عن محمد بن شرحبيل بن حسنة أنه قال: إنما سميت البصرة؛ لأن فيها حجارة سوداء صلبة، وهي البصرة، وأنشد لخفاف بن ندبة:

إن تك جلمود بصر لا أؤبسه أوقد عليه فأحميه فينصدع^(٣)

وقد وصفت بأن حرّها شديد، وماءها مالح، وحرّها صالح، مأوى كلّ تاجر، وطريق كل عابر، و للبصرة أربعة أسماء: الخريبة، والبصيرة، وتدمر، والمؤتفكة^(٤).

بنيت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة أربع عشرة للهجرة، وقيل سنة سبع عشرة للهجرة^(٥)، نزل عتبة بن غزوان^(٦) بالقرب من شاطئ دجلة، وكان ذلك أن عتبة كتب إلى عمر يستأذنه في

(١) البلادي: معجم المعالم، ص ٤٤.

(٢) المنجم: آكام، ص ٣٩، المقدسي: أحسن، ص ١١٣، البكري: المسالك، ص ٤٣٢، الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٤٣٠، القزويني: آثار، ص ٣٠٩، الحميري: الروض، ص ١٠٥-١٠٧.

(٣) الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٤٣٠.

(٤) ابن الفقيه: البلدان، ص ١٤٤-٢٣٧.

(٥) اليعقوبي: البلدان، ص ١٧، البكري: المسالك، ص ٤٢٦، الهروي: علي بن أبي بكر بن علي ت ٦١١هـ/١٢١٤م، الإشارات إلى معرفة الزيارات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ٧٢.

(٦) عتبة بن غزوان المازني أبو عبد الله وقيل أبو غزوان من السابقين الأولين سابع سبعة في الإسلام هاجر إلى الحبشة وشهد بدرًا وغيرها وهو من الرماة المذكورين توفي سنة أربع عشرة للهجرة وروى له مسلم والترمذي وابن ماجه، انظر: الصفدي: الوافي، ج ١٩ ص ٢٩٢، اللقاني: أبو الإمداد إبراهيم بن حسن ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م، بهجة الخافل وأجل الوسائل بالتعريف برواة الشّمائيل، تح: شادي بن سالم آل نعمان، مركز النعمان، اليمن، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠١١م، ج ١ ص ٦٤.

تصير البصرة، وقال: إنه لا بد للمسلمين من منزل إذا حل الشتاء شتوا فيه، وإذا رجعوا من غزوهم لجأوا إليه، فكتب إليه عمر: أن ارتد لهم منزلاً قريباً من المراعي والماء، وكتب إلي بصفته، فكتب إلى عمر: إني قد وجدت أرضاً فيها ماء وفيها قصباء، فكتب إليه أن هذه البصرة أنزلوها بسم الله، فنزلها وبني مسجدها من قصب، ويذكر أن المسجد الحرام أكبر من مسجد البصرة ببضع عشرة ذراعاً، وبني دار إمارتها دون المسجد في الرحبة التي يقال لها: رحبة بني هاشم، وكانت تسمى الدهناء، وفيها السجن والديوان وحمام الأمراء لقربها من الماء، فإذا غزوا نزعوا ذلك القصب ثم حزموه ووضعوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءه كما كان. وقال الأصمعي: لما نزل عتبة بن غزوان فيها ولد بها عبد الرحمن بن أبي بكر، وهو أول مولود ولد بالبصرة، فحضر أبوه جزوراً أشبع منها أهل البصرة، وكان أبو بكر أول من غرس النخل بالبصرة، وقال: هذه أرض نخل، ثم غرس الناس بعده^(١).

يتضح من مراسلة عمر بن الخطاب لعتبة اهتمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه باختيار موقع البصرة، فكان الموقع إلى الجنوب من العراق متاخماً لبلاد فارس على طرق الصحراء، وعلى ألا يفصل هذه القاعدة عن المدينة المنورة نهر أو بحر، ويكون صالحاً لسكن الجند قريباً من الماء والمرعى^(٢)، فكانت ذات موقع عسكري طبيعي، وقد وصف موقعها المقدسي قائلاً: "مدينة بين فارس وديار العرب وحد العراق على بحر الصين"^(٣)، ومن جهة أخرى كان اختيار موقعها لتحقيق الغاية التي أقيمت لأجلها؛ لأنها بنيت بالقرب من المناطق التي استقرت فيها القبائل العربية، فقد كانت هذه القبائل منتشرة في منطقة البصرة، وكثيراً ما تصدت للفرس قبل الإسلام، وبهذا أصبحت هذه القبائل فيما بعد من المصادر المهمة التي زودت الجيوش

(١) ابن خياط: تاريخ، ج ١ ص ١٢٨، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٤ ص ١٨٢، اليافعي: أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ت ١٣٦٨هـ/١٣٦٦م، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص ١٨٣، ابن حوقل: صورة، ج ١ ص ١٣٧، المقدسي: أحسن، ص ١١٧، الهروي: الإشارات، ص ٧٣، الحموي: معجم البلدان، ج ١ ص ٤٣٢، الحميري: الروض، ص ١٠٥-١٠٧.

(٢) البلاذري: فتوح، ص ٣٣٦-٣١٤، الطبري: تاريخ، ج ٣ ص ٥٩١، ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م، الطبقات الكبرى، تح: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٢م، ج ٧ ص ٣.

(٣) المقدسي: أحسن، ص ١١٧.

العربية الإسلامية بالمقاتلين الذين أسهموا في عمليات التحرير، ومن أبرزها قبيلة تميم؛ وهي من بطن مضر من العدنانيين، وقبيلة بكر بن وائل؛ وهم بطن من ربيعة ومن العدنانيين، وأهل العالية والأزد وعبد القيس وكانوا كثيري العدد والمنازل، وكذلك وجود بني شيبان الذين أبلوا بلاءاً حسناً في المقاومة والدفاع^(١).

وفي زمن ولاية زياد بن أبيه في خلافة معاوية عمل الأول على تنظيم سجلات للجند في البصرة، وقسم القبائل فيها إلى خمسة أقسام سميت بالأخماس، ويضم كل خمس عدداً من القبائل المتقاربة في النسب^(٢)، فكانت لهم وقفات في العمليات العسكرية حيث يمكن القول: إنها كانت الخزان البشري والعسكري لعمليات الفتح العربي الإسلامي، ولا سيما في الجبهة الشرقية، فكانت مساهمتهم في معركة نهاوند فعالة، فقد كان مقاتلو البصرة يشكلون ثلث جيش العرب المسلمين في نهاوند^(٣)، وأدت دوراً في منع وصول الإمدادات والمؤن الفارسية إلى الكوفة، وفسح المجال للجند الكوفي لتدمير الجيش الفارسي^(٤)، وبهذا أثبتت البصرة نفسها لتكون قاعدة عسكرية ونقطة ارتكاز وقاعدة حربية يقيم فيها المقاتلون بعد انصرافهم من الحرب، ثم ينطلقون مواصلة عملياتهم العسكرية، وتكون مركز التمويل والإمداد الأول، وتليها الكوفة والبحرين، فكانت البصرة ذات وقفات كثيرة، ومنها الإمدادات التي وصلت لسعد يوم القادسية وفك الحصار عن جيش العلاء بن الحضري والي البحرين^(٥)، وكذلك كان للجند البصريين دور

(١) ابن الكلبي: هشام أبو المنذر بن محمد بن السائب ت ٢٠٤هـ/٨١٩م: جمهرة النسب، تح: محمود فردوس العظم، تق: سهيل زكار، دار البيقطة العربية، ط ٢، دمشق، ١٩٨٣م، ج ٣ ص ١٨٩-١٩١، ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م، جمهرة أنساب العرب، تح: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج ٢ ص ٤٧٥، البلاذري: فتوح، ص ٣٣٦، ١٢٦، العلي، صالح أحمد: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، دار الطليعة، ط ٢، بيروت، ١٩٦٩م، ص ٢٨٧.

(٢) البلاذري: أنساب، ج ٥ ص ٣٩٥، الجنابي: خالد جاسم، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الإعلام، بغداد، د.ت، ص ٢٨-٢٩.

(٣) المقدسي: البدء، ج ٥ ص ١٨١.

(٤) الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ١٢٤-١٢٥.

(٥) ابن خياط: تاريخ، ج ١ ص ١١٨، البلاذري: فتوح، ج ١ ص ٣٣٢، ملحم: محمد فيصل، صفحات من تاريخ الدولة الأموية والأندلس، دار الفيحاء، دمشق، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ٨٤.

مهم في تحرير الأحواز، ووصولهم إلى إقليم الطبسين^(١) في ولاية أبي موسى الأشعري، وقد أرسل عثمان بن عفان إلى والي البصرة آنذاك عبدالله بن عامر يأمره بالتوجه لتحرير خراسان وقد أبدت البصرة كل مزايا الشجاعة والفداء في تحقيق رسالتهم^(٢)، وعندما ولى عمر بن الخطاب أبا موسى الأشعريّ البصرة أمره أن يتبنى البصرة من جديد، وأقام البناء باللبن بأرض البصرة وخطط لمن عنده من العرب، وجعل كل قبيلة في محلة، وابتنوا لأنفسهم المنازل، وأسكن فيها ذرية من كان بها من العرب^(٣).

أما عدد البصريين الذين ساهموا واشتركوا في عمليات الفتح المشرقية ففي فتح الأحواز بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل، وفي فتح أصبهان سبعة عشر ألف مقاتل، وفي عهد علي بن أبي طالب ستين ألف مقاتل^(٤)، وليس على الصعيد العسكري فحسب وليست البصرة وحدها، بل كل المدن التي ظهرت في بلدان أخرى تحولت لركيزة لنشوء حضارة عالمية جديدة شهدت مع مرور الزمن تطورات هائلة تفاعلت معها حضارات عريقة أخرى كالبيزنطية والرومانية والفارسية، وتمثل ذلك في الفنون والعلوم والأدب.

إذاً في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه غدت مدينة البصرة ملاذاً للجيوش العربية الإسلامية المتوجهة لفتح جنوب العراق من الاحتلال الفارسي، ومن ثم توسعت القاعدة، وغدت تدير جبهة واسعة تمتد إلى خراسان لتكون الأخيرة قاعدة تسهم في فتح بلاد ما وراء النهر، وذلك عائد إلى عدة أسباب منها: موقعها العسكري حيث تقدم المواقع والعوامل الطبيعية بينها وبين مركز الخلافة العربية الإسلامية في المدينة المنورة، وبذلك يضمن الاتصال السريع، وإيصال الإمدادات والمؤن العسكرية بكل سهولة، ومع ذلك لم تبق البصرة هي المتصدرة ولاسيما في زمن الحجاج بن يوسف الثقفي الذي عمل على إفراغ كل من البصرة والكوفة من جندها في فتوحات المشرق واستعاض عنهما بواسط التي تصدرت الموقع الداعم للفتوحات العربية الإسلامية ولا سيما كان أغلب عناصر واسط من العنصر الشامي بدلاً من العنصر العراقي الذي تعود على التمردات والثورات.

(١) طبسين: قصبة ناحية نيسابور وأصبهان والطبسان أحدهما طبس العناب والآخر طبس التمر، وهي كلمة فارسية ومعناها الأسود، الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٢٥٠، القزويني: آثار، ص ٤٠٦، لسترنج: بلدان، ص ٤٠١.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ٧٩، البلاذري: فتوح، ص ٣٨٤، ابن خياط: تاريخ، ج ١ ص ١٦٤.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر، ص ١٠٢، طقوش: تاريخ الخلفاء، ص ٢١٥.

(٤) الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ٨١، البلاذري، فتوح، ج ٢ ص ٧٤.

٢- خراسان ودورها في عمليات الفتح لبلاد ما وراء النهر:

يمكن تقسيم هذه الحقبة الزمنية إلى ثلاثة أقسام، أولها فتوحات خراسان زمن الخلافة الراشدة التي هي بمثابة قاعدة انطلقت منها الجيوش العربية الإسلامية لفتح بلاد ما وراء النهر، وثانيها زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان والانسياح لبخارى والمحاولات المبكرة لفتحها، ودور الخليفة عبد الملك بن مروان في استئناف حركة الفتوحات، وثالثها ما قام به قتيبة بن مسلم الباهلي، وتثبيت حكم العرب المسلمين في بلاد ما وراء النهر، وقبل الحديث عن الفتح العربي الإسلامي لبلاد ما وراء النهر لا بد من الحديث عن خراسان التي هي بمثابة قاعدة انطلاق للفتوحات في ما وراء النهر و التعريف بنظرة جغرافية سريعة لطبيعة هذا الإقليم.

أ- تسمية خراسان:

هناك اختلافات كثيرة وتعدد الروايات في تحديد أصل تسمية خراسان فبعضهم يرى: معناها خر: كُمل، وآسان: معناه سهل، أي كل بلا تعب، الأمر الذي ينطبق على خيرات خراسان الكثيرة^(١)، وبعضهم الآخر قال: معنى خراسان بالفارسية: مطلع الشمس حيث إن خر أو خور باللغة الفارسية القديمة تعني الشمس وآسان هي موضع الشيء ومكانه وأصله^(٢). والعرب إذا ذكرت المشرق كلّه قالوا: فارس، فخراسان من فارس؛ وعلى هذا تأويل حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "لو كان الإيمان بالثرثرا لئله رجال من فارس"^(٣)، أنه عنى أهل خراسان؛ لأنك إن طلبت مصداق هذا الحديث في فارس لم تجده لا أولاً ولا آخراً، وتجد هذه الصفة نفسها في أهل خراسان، حيث دخلوا في الإسلام رغبة، ومنهم العلماء والنبلاء والمحدثون والنسك والمتعبدون، وجلّ رجالات الدولة من خراسان: البرامكة، والقحاطبة، وطاهر وبنوه،

(١) البكري: معجم ما استعجم، ج٢ ص٤٨٩، الجواليقي: المغرب، ص٢٨٤، الحدادي: زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي ت١٠٣١هـ/١٦٢١، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ٧٥٧هـ/١٣٥٦م، ج٤ ص٢٥.

(٢) البكري: معجم ما استعجم، ج٢ ص٤٩٠، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤ ص٣٨٩.

(٣) عن أبي هريرة، قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزلت سورة الجمعة فتلاها، فلما بلغ {وآخرين منهم لما يلحقوا بهم} قال له رجل: يا رسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فلم يكلمه. قال: وسلمان الفارسي فينا. قال: فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان، فقال: والذي نفسي بيده لو كان الإيمان بالثرثرا لتناولوه رجال من هؤلاء، هذا حديثاً حسن، انظر: الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى ت٢٧٩هـ/٨٩٢م، سنن الترمذي تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م، ج٦ ص٢١٥.

وعليّ بن هاشم، وغيرهم. وأمّا أهل فارس فإنما كانوا كنار خمدت، لم تبقَ لهم بقية تذكر، ولا شريف يعرف إلاّ ابن المقفّع وابنا سهل: الفضل والحسن^(١). وما جاء في التسمية أيضاً ما قاله دغفل النسابة: "خرج خراسان وهيطل ابنا عالم بن سام بن نوح، عليهما السلام، لما تبلبلت الألسن ببابل فنزل كل واحد منهما في البلد المنسوب إليه، يريد أن هيطل نزل في البلد المعروف بالهياطلة، وهو ما وراء نهر جيحون، ونزل خراسان في هذه البلاد التي ذكرناها دون النهر فسمّيت كل بقعة بالذي نزلها"^(٢)، وفي كتاب العين: الخراسي منسوب إلى خراسان، ومثله الخراسي والخراساني، ويجمع على الخراسين بتخفيف ياء النسبة، كقولك الأشعرين، ويقال: هم خراسان كما يقال: سودان وبيضان^(٣).

ب- موقع خراسان:

أما موقعها فأول حدودها مما يلي العراق أذاوار قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان، وغزنة، وسجستان، وكرمان، وليس ذلك منها إنما هو أطراف حدودها، وتشتمل على أمّهات من البلاد منها نيسابور، وهراة، ومرو قصبتها، وبلخ، وطالقان، ونسا، وأبيورد، وسرخس، وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون، ومن الناس من يدخل أعمال خوارزم فيها، ويعدّ ما وراء النهر منها، وليس الأمر كذلك^(٤). وأمّا عرض خراسان فمن بدخشان على شطّ وادي جيحون إلى بحيرة خوارزم مسافته ثلاثة عشر مرحلة ومن بدخشان على شطّ وادي جيحون في سمت النهر نحو ثلاث عشرة مرحلة إلى الترمذ، ومن الترمذ إلى زم نحو خمس مراحل، ومن زم إلى آمل نحو أربع مراحل، ومن آمل إلى مدائن خوارزم نحو اثنتي عشرة مرحلة، ومن كاث حومة خوارزم إلى بحيرتها نحو ستّ مراحل، فيكون الجميع أربعين مرحلة^(٥)، وهي من أحسن أرض الله، وأعمرها، وأكثرها خيراً، وأهلها أحسن الناس صورة، وأكملهم عقلاً،

(١) البكري: معجم ما استعجم، ج ٢ ص ٤٨٩، الحميري: الروض، ص ٢٠٤.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٣٠، الطبري: تاريخ، ج ١ ص ١٩٣، المقدسي: أحسن، ص ٢٦١، شيخ الرتبة: نخبة، ص ٢٢١.

(٣) الفراهيدي: العين، ج ٧ ص ١٩٥-٢١٦.

(٤) الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٣٥١، ابن الشمائل: مرصد، ج ١ ص ٤٥٥.

(٥) ابن حوقل: صورة، ج ٢ ص ٤٥٥.

وأقومهم طبعاً، وأكثرهم رغبة في الدين والعلم^(١). وقد قسم هذا الإقليم إلى أربعة أرباع وهي: نيسابور، ومرو، وهراة، وبلخ، وهي متباعدة المساحة^(٢)، وكانت مرو العاصمة الرئيسية للإقليم حتى قام الطاهريون ٢٠٥-٢٥٩هـ/٨٢١-٨٧٣م بنقلها إلى نيسابور.

ج- الفتح العربي الإسلامي لخراسان:

فإنها تعود إلى عهد الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م، فقد أصبحت خراسان ملاذاً للإمبراطور المهزوم يزدجر بن شهريار بن كسرى الثالث الذي تحصن بها بعد معركة نهاوند (فتح الفتوح) سنة ٢١هـ/٦٤١م، واتخذ من مرو مقراً له، وبنى بيتاً للنار، وعمل على إثارة الفرس على العرب الفاتحين، فكان من المهم فتح إقليم خراسان، والقضاء على رأس هرم الإمبراطورية الساسانية من جهة، وتأمين حدود الدولة العربية الإسلامية^(٣)، حينها أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه جند المسلمين بالانسيحاح في الإمبراطورية الفارسية، فدفع لواء خراسان إلى الأحنف بن قيس، فمن هو الأحنف بن قيس التميمي؟ هو: صخر بن قيس بن معاوية بن حصن بن عبّاد بن مرة بن عبيد من تميم، وقيل: اسمه: الضحّاك بن قيس، والأحنف لقب له، لحنف كان برجله، وكان أبو الأحنف يكنى: أبا مالك، وأمّه من باهلة، وكان الأحنف يكنى: أبا بحر. وأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قومه يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوا، فقال الأحنف: إنه ليدعوكم إلى الإسلام، وإلى مكارم الأخلاق، وينهاكم عن ملائمتها، فأسلموا وأسلم الأحنف، فبلغ ذلك النبي فقال: اللهم اغفر للأحنف"، فكان الأحنف يقول: فما شيء أرجى عندي من ذلك، ولم يفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفد إليه، وشهد مع علي رضي الله عنه صفين، ولم يشهد الجمل مع أحد

(١) القزويني: آثار، ص ٣٦١.

(٢) ابن رسته: الأعلام، ص ١٠٥، القزويني: آثار، ص ٣٦١، لسترنج، بلدان، ص ٤٢٤.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ٣٠٠، الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ١١٤، الخضري بك، محمد: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، مطبعة الاستقامة، ط ٤، القاهرة، ١٣٥٤هـ/١٩٣٤م، ج ١ ص ٢٢٣، إبراهيم، نجم عيدان: فتوح بلاد خراسان، مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، مج ١١، العدد ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص ١٤٢، حسين: ناهد، خراسان في العصر الأموي، رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه، إشراف: شكران خربوطلي، جامعة دمشق، ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م، ص ٨٣.

الفريقين^(١).

برز الأحنف في نظر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه شخصية ذات عقل، وكان ديناً مجاهداً في ميدان القتال، وذكر الأحنف: أنه قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فاحتبسه عنده حولاً، فقال: «يا أحنف، قد بلوتك وخبرتكَ، فلم أر إلا خيراً، ورأيت علانيتك حسنة، وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك، فإننا كنا نتحدث إنما هلك هذه الأمة كل منافق عليم».

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري: أما بعد: «فادن الأحنف بن قيس، وشاوره، واسمع منه»^(٢)، وشهد الأحنف نهاوند مع أهل البصرة، وعمل على فتح قُم، ومن ثم سار إلى قاشان ففتحها عنوة، ثم كانت محطة خراسان فسار على رأس جيشه حتى دخل خراسان من الطبيين، واستطاع فتح هراة عنوة، واستخلف عليها صحرار العبدي^(٣)، ثم سار نحو مرو الشاهجان فلما اقترب منها هرب يزدجرد إلى مرو الروذ^(٤)، ففتح الأحنف مرو الشاهجان، واستخلف عليها حارثة بن النعمان^(٥) وفي الوقت نفسه أرسل

^(١) ابن قتيبة: المعارف، ص ٤٢٣، البلاذري: فتوح، ص ٣٠٤، ابن سعد: الطبقات، ج ٧ ص ٩٣، ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عاصم القرطبي ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، علي محمد البحاي، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج ٢ ص ٧١٥، ابن الأثير: عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تح: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ص ٦٨.

^(٢) ابن سعد: الطبقات، ج ٧ ص ٩٤، ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، تاريخ عمر بن الخطاب، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٨٧، خطاب: محمود شيث، قادة فتح بلاد فارس، دار الفتح، بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، ص ٢٢٠.

^(٣) صحرار العبدي: هو صحرار بن صخر، ويقال صحرار بن عباس بن شراحيل العبدي، من عبد القيس، يكنى أبا عبد الرحمن، له صحبة ورواية يعد في أهل البصرة، وكان بليغاً، لَسِناً مطبوع البلاغة مشهوراً بذلك، انظر: ابن عبد البر، الاستيعاب، ج ٢ ص ٧٣٦.

^(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٢ ص ٤٣٤، أبو الفداء: المختصر، ج ١ ص ٢٠٥، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ٥٦٣.

^(٥) حارثة بن النعمان: ابن نفع بن زيد بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار الأنصاري أبو عبد الله، شهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من فضلاء الصحابة، قال: مررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جبريل جالساً بالمقاعد فسلمت عليه وجزت فلما رجعت وانصرف النبي صلى الله عليه وسلم قال لي: هل رأيت الذي كان معي قلت نعم قال فإنه جبريل وقد رد عليك السلام، انظر: الصفدي: الوافي، ج ١ ص ٢٠٤.

الأحنف قواته لفتح باقي البلاد، فاستطاع مطرف بن عبد الله بن الشخير^(١) فتح نيسابور، والحارث بن حسان^(٢) فتح سرخس^(٣).

أما الأحنف فإن الإمدادات وصلته من الكوفة، فسار نحو مرو الروذ حيث يقيم يزدجرد فلما سمع الأخير بقدوم جيش المسلمين هرب منها إلى بلخ، وقد استنجد يزدجرد بخاقان الترك وغوزك الصغد وملك الصين على الجيوش العربية الإسلامية فأجابه خاقان الترك ثم انسحب وتراجع هو وجنده، ولعل سبب نجدة خاقان ليزدجرد ليس لأنه حليفه أو لأسباب عاطفية بل كان لمصلحة في إبعاد العرب المسلمين الفاتحين عن مدينة بلخ؛ لأن هذه المدينة هي مفتاح السيطرة على بلاد ما وراء النهر، فليس من مصلحة خاقان الترك أن يفتح المسلمون مدينة بلخ؛ لأن الخطوة التالية لفتحها هو عبور العرب المسلمين نهر جيحون، وفتح بلاد ما وراء النهر، ومن ثم تهدد ملكه تهديداً مباشراً، بينما كان جواب ملك الصين حكمة تكتب بماء الذهب، فقد قال لرسول يزدجر: صف لي هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فأني أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل منكم مع كثررتكم، إلا بخير عندهم وشر فيكم. فقلت: سلمي عما أحببت. فقال: أيوفون بالعهد؟ قلت: نعم. قال: وما يقولون لكم قبل القتال؟ قال قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إما دينهم، فإن أجبنأ أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة، أو المنازدة. قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوع قوم وأرشدهم. قال: فما يحلون وما يجرمون؟ فأخبرته. قال: هل يحلون ما حرم عليهم أو يجرمون ما حلل لهم؟ قلت: لا. قال: فإن هؤلاء القوم لا يزالون على ظفر حتى يحلوا حرامهم أو يجرموا حلالهم.

(١) مطرف بن عبد الله بن الشخير: بصري تابعي، ثقة من خيار التابعين، رجل صالح وكان أبوه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ولم ينج من فتنة ابن الأشعث بالبصرة إلا رجلاً من مطرف بن عبد الله ومحمد بن سيرين انظر: العجلي: أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح ت ٢٦١هـ/٨٧٤م، معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم وأخبارهم، تح: عبد العظيم البستوي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط ١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج ٢ ص ٢٨٢.

(٢) الحارث بن حسان ويقال الحارث بن يزيد الذهلي بن كلدة من بني الحارث بن ذهل، يعد في الكوفيين، قليل الحديث، روى عنه أبوه وائل شقيق بن سلم، انظر: الصفدي: الوافي، ج ١ ص ١٩٤.

(٣) الواقدي: فتوح، ص ١٣٤، النويري: نهاية، ج ١ ص ١٧٣، ابن كثير: البداية، ج ١ ص ١٦٥.

ثم قال: أخبرني عن لباسهم؟ فأخبرته، وعن مطاياهم؟ فقلت: الخيل العرب، ووصفتها له. فقال: نعمت الحصون! ووصفت له الإبل وبروكها وقيامها بحملها. فقال: هذه صفة دواب طوال الأعناق. وكتب معه إلى يزيدجرد: إنه لم يمنع أن أبعث إليك بجند أوله بمرور وآخره بالصين الجهالة بما يحق علي، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها، ولو خلا لهم سربهم أزالوني ما داموا على ما وصف، فسالمهم وأرض منهم بالمساكنة، ولا تهيجهم ما لم يهيجوك، فأقام يزيدجرد بفرغانة ومعه آل كسرى بعهد من خاقان^(١). ونزل الأحنف مرو الروذ واستخلف عليها خالد بن النعمان الذهلي، وواصل زحفه إلى بلخ والتقى بيزدجرد الذي فر على أثر الهزيمة الساحقة التي نزلت به وبجيشه، فعبّر نهر جيحون، ونزل مدينة فرغانة، وظل مقيماً بها حتى انتهت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

سار الأحنف فدخل بلخ، وفتح البلاد من نيسابور إلى طخارستان؛ إحدى أقاليم بلاد ما وراء النهر، واستخلف عليها ربعي بن عامر التميمي^(٢)، وعاد إلى مرو الروذ^(٣)، وكتب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح خراسان فاستبشر الخليفة خيراً بهذا الفتح. وقال: لوددت أي لم أكن بعثت إلى خراسان جنداً، ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار. وخشى الخليفة أن يتقدم الأحنف في بلاد فارس والترك فكتب إليه: "أما بعد فلا تجوزن النهر (جيحون) واقتصروا على ما دونه وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان، فداوموا على الذي دخلتم به يدم لكم النصر وإياكم أن تعبروا فتفضوا"، ثم جمع عمر رضي الله عنه الناس وخطبهم، وقرأ عليهم كتاب الفتح فقال: "فالحمد الذي أنجز وعده، ونصر جنده ألا إن الله قد أهلك ملك الجوسية، وفرق شملهم، فليسوا يملكون من بلادهم شيراً يضر بمسلم ألا وإن الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم، لينظر كيف تعملون! ألا وإن المصرين من مسالحها اليوم كأنتم والمصريين فيما مضى من البعد، وقد غلوا في البلاد، والله بالغ أمره، ومنجز وعده، ومتبع آخر ذلك أوله، فقوموا في أمره على رجل يوف لكم بعده، ويؤتكم وعده، ولا تبدلوا ولا تغيروا، فيستبدل الله بكم غيركم، فإني لا أخاف

^(١) الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ١٠٧، مسكوية: تجارب، ج ١ ص ٤٠٩، ابن الأثير: الكامل، ج ٢ ص ٤١٧، السيوطي: تاريخ، ص ١١٥، الجاحظ: الحيوان، ج ٤ ص ٢١٢.

^(٢) ربعي بن عامر: أدرك النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد فتح دمشق، ثم خرج إلى القادسية مع هاشم بن عتبة وشهد فتوح خراسان، انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ١٨ ص ٤٩.

^(٣) ابن سعد: الطبقات، ج ٧ ص ٩٤، خطاب: قادة فتح بلاد فارس، ص ٢٢١.

على هذه الأمة أن تؤتي إلا من قبلكم" (١).

أما أهل خراسان فبعد رحيل يزيدجرد عن بلادهم صالحوا الأحنف، ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله، ثم سار الأحنف بجند الكوفة من مرو الروذ إلى بلخ فأنزلهم بها. ثم عاد إلى مقر قيادته في مرو الروذ، وهكذا استحق الأحنف بن قيس لقب "سيد المشرق المسمى بغير اسمه" كما يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأصبح الأحنف النذير الصادق بانتهاء الدولة الساسانية، واستطاع نشر الإسلام في ربوع تلك البلاد، وتم فتح خراسان سنة اثنتين وعشرين للهجرة (٢)، فقيام العرب بفتح خراسان لم يكن أمراً يسيراً بعد أن شكلت جبهة ضدهم من الفرس والترك؛ لذلك استمرت عملية الفتح منذ خلافة عمر بن الخطاب حتى خلافة عثمان بن عفان التي تشكل المرحلة الثانية من عمليات الفتح التي قام بها العرب المسلمون (٣).

وما ترتب على إرسال الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه للأحنف بن قيس عدة أمور غير خراسان، وهي فتح مناطق عدة منها أصبهان، والري، وجرجان، وطبرستان، وكذلك تنقل يزيدجرد الذي كان سبباً في فتح هراة، ونيسابور، ومرو، وبلخ، وأضف إلى ذلك إدراك أهل فارس حقيقة العرب المسلمين، وذلك عندما قالوا لملكهم يزيدجرد: "ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم أوفياء وأهل دين وهم يلون بلادنا" (٤).

وبتولي عثمان بن عفان رضي الله عنه خلافة المسلمين رأى أن خير وسيلة لتأمين الفتوحات العربية الإسلامية في المشرق هو القضاء التام على الإمبراطورية الفارسية والتخلص النهائي من ملكهم الذي فر إلى فرغانة، وأخذ يستنجد بملوك الترك والصين، ومن جهة أخرى القضاء على ثورات أهل فارس وخراسان التي اشتعلت بعد وفاة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٥).

(١) الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ١٧٣، ابن كثير: البداية، ج ١ ص ١٧٠، النويري: نهاية، ج ١٩ ص ١٧٦، دحلان: أحمد بن السيد زيني، الفتوحات الإسلامية، المطبعة الميرية، مكة، ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م، ص ٩١.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ١٧٣، ابن الأثير: الكامل، ج ٢ ص ٤١٤، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ٥٦٤، ابن الطقطقي: الفخري، ص ٧٤، دحلان: الفتوحات، ص ٨٩، خطاب: قادة فتح بلاد فارس، ص ٢٢٥.

(٣) حسين: خراسان، ص ٨٩.

(٤) مسكوية: تجارب، ج ١ ص ٤٠٧، ابن الأثير: الكامل، ج ٢ ص ٤١٧.

(٥) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٤٠.

ففي سنة ٢٩هـ/٦٤٩م عزل عثمان بن عفان رضي الله عنه أبا موسى الأشعري عن البصرة وولى مكانه عبد الله بن عامر بن كريز، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وكان سبب عزله أن أهلها والأكراد نقضوا الصلح في السنة الثالثة من خلافة عثمان رضي الله عنه، فنادى أبو موسى في الناس وحضهم على الجهاد، وذكر من فضل الجهاد ماشياً، فحمل نفر على دوابهم، وأجمعوا على أن يخرجوا رجالة. وقال آخرون: لا نعجل بشيء حتى ننظر ما يصنع، فإن أشبه قوله فعله فعلنا كما يفعل، فلما خرج أخرج ثقله من قصره على أربعين بغلاً، فتعلقوا بعنانه، وقالوا: احملنا على بعض هذه الفضول، وارغب في المشي كما رغبتنا، فضرب القوم بسوطه، فتركوا دابته، فمضى، وأتوا عثمان فاستعفوه منه، وقالوا: ما كل ما نعلم نحب أن تسألنا عنه، فأبدلنا به^(١)، ويذكر اليعقوبي أن الخليفة عثمان رضي الله عنه كتب إلى ابن عامر وإلى سعيد بن العاص عامله على الكوفة يأمرهما بالنفوذ إلى خراسان، ويقول: أيكما سبق إلى خراسان فهو أمير عليها فاستعان عبد الله بن عامر بأحد دهاقين خراسان، فدلّه على طريق مختصر إليها، فكان عثمان رضي الله عنه حريصاً على أن يتنافس الأمراء فيما بينهم في الجهاد، وفتح بلدان جديدة^(٢).

على كل حال أصبح عبد الله بن عامر والياً على البصرة، ووصلت مقدمة جيوشه إلى خراسان، فاستهل عام ٣٠هـ/٦٥٠م بإرسال الأحنف بن قيس ذلك القائد المحنك الدارس لطبيعة هذه البلاد من قبل إلى خراسان فأتى الطبسين (بابا خراسان)، فصالحه أهلها على ستمئة ألف درهم، فسار إلى قهستان، وذلك أنه سأل عن أقرب مدينة إلى الطبسين، فدل عليها فلقيته الهياطلة؛ وهم أترك، ويقال: هم قوم من أهل فارس كانوا يلوطون فنفاهم فيروز إلى هراة، فصاروا مع الأترك، فكانوا معاونين لأهل قوهستان، فلقبه أهلها فقاتلهم حتى ألقاهم وحصنهم، ثم قدم عبد الله بن عامر وصالح أهلها على ستمئة ألف درهم^(٣).

ثم وجه ابن عامر الأحنف إلى طخارستان، فأتى الموضع الذي يقال له: قصر الأحنف، ويدعى بشق الجرذ أو (سوانجرذ)، وكان حصناً لمدينة مرو الروذ، وله رستاق عرف فيما بعد برستاق الأحنف، فحاصر

(١) ابن خياط: تاريخ، ص ٩٢، الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٩٩، ابن كثير: البداية، ج ٧ ص ١٤٠، ابن الأثير، الكامل، ج ٢ ص ٢٩١.

(٢) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢ ص ١٦٦، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ١٦، الصلابي: علي محمد محمد، تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ٢٥٢.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ٣٩٠، ابن الأثير: الكامل، ج ٢ ص ٤٩٤، ابن خلدون، ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ٥٧٨.

الأحنف أهله، فصالحوه على ثلاثمائة ألف درهم فقال الأحنف: أصالحكم على أن يدخل رجل منا القصر فيؤذن فيه، ويقيم فيكم حتى انصرف فرضوا، وكان الصلح عن جميع الرستاق، ثم مضى الأحنف إلى مرو الروذ فصالح أهلها بعد قتال شديد، ثم اجتمع له أهل طخارستان، والجوزجان، والطارقان، والفارياب، ومن حولهم من المدن فبلغوا ثلاثين ألفاً، ثم انضم إليهم أهل الصغانيان من إقليم طخارستان، واقتتلوا قتالاً شديداً حتى انهزم الفرس، فطاردتهم المسلمون حتى ألحقوا بهم خسائر فادحة في الأرواح والأموال، غير أن الأحنف صالح أهل طخارستان على أربعين ألف، وقيل: ستمئة ألف درهم^(١).

ثم أرسل الأحنف الأقرع بن حابس التميمي في سرية من المسلمين من بني تميم إلى الفارين إلى الجوزجان، وقال: يا بني تميم تحابوا وتبادلوا تعتدل أموركم، وابدؤا بجهد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم، فسار الأقرع فلقى العدو بالجوزجان، فكانت في المسلمين جولة، ثم كروا فهزموا، وفتحوا الجوزجان عنوة، وقال ابن الغريزة النهشلي:

سقى صوب السحاب إذا استهلّت مصارع فتية بالجوزجان

إلى القصرين من رستاق حوف أفادهم هناك الأقرعان^(٢)

وبعد جولة من القتال انتصر المسلمون، وفتحت المدينة عنوة، أما الأحنف فإنه فتح الطالقان والفارياب صلحاً، ثم سار الأحنف من مرو الروذ إلى بلخ فحاصروهم، فصالحه أهلها على أربعمئة ألف، فرضي منهم بذلك، واستعمل ابن عمه، وهو أسيد بن المتشمس ليأخذ منهم ما صالحوه عليه، ومضى إلى خوارزم فأقام حتى هجم عليه الشتاء، فقال لأصحابه: ما تشاؤون؟ فقالوا: قد قال عمر بن معد يكره:

إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

فأمر الأحنف بالرحيل، ثم انصرف إلى بلخ، وقد قبض ابن عمه ما صالحهم عليه^(٣).

(١) البلاذري: فتوح، ص ٣٩٣، الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ٣١١، ابن الأثير: الكامل، ج ٢ ص ٤٩٥، النويري: نهاية، ج ١٩ ص ٤٢٣، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ٥٧٩، الصلابي: تيسير، ص ١٧٦.

(٢) البلاذري: فتوح، ص ٣٩٤.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ٣٩٤، الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ٣١٢، ابن الأثير: الكامل، ج ٢ ص ٤٩٦، النويري: نهاية، ج ١٩ ص ٤٢٣، ابن كثير: البداية، ج ١ ص ٢٤٥، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ٥٧٩، الصلابي: تيسير، ص ١٧٦.

أما عبد الله بن عامر فكان في الوقت نفسه يرسل جيوشه للاستيلاء النهائي على إقليم خراسان، فأرسل يزيد الجرشي إلى رستاق نيسابور ففتح عنة، ثم فتح باخرز، وجوين، ووجه ابن عامر الأسود بن كلثوم العدوي إلى بيهق؛ من أعمال نيسابور، وحاول فتح المدينة غير أنه سقط شهيداً في المعركة، واستطاع أدهم بن كلثوم الذي تولى القيادة بعده فتح المدينة^(١).

وفي الوقت نفسه كان ابن عامر قد نجح في فتح مدن بشت، ورخ، وزاد، وخواف، واسبرائن، وأرغيان، ثم أتى مدينة أبرشهر؛ وهي مدينة نيسابور، فحاصرها أشهراً حتى طلب حاكمها الأمان فصالحه عبد الله بن عامر على مليون درهم. وقيل: سبعمئة ألف درهم، وولى على نيسابور قيس بن الهيثم السلمي^(٢).

ثم وجه ابن عامر عبد الله بن خازم إلى قلعة حمران، من أعمال نسا، ففتحها وصالحه حاكم المدينة على ثلاثمئة ألف درهم تؤدي إلى المسلمين، وقيل: صالحه على الخراج بشرط ألا يقتل أحداً من أهل المدينة، ثم توجه عبد الله بن خازم إلى أبيورد فصالحه حاكمها على أربعمئة ألف درهم، ثم سار ابن خازم إلى سرخس فقتل حاكمها وفتح المدينة عنة^(٣)، ثم طوس التي صالحته على ستمئة ألف درهم، أما هراة فإن عبد الله بن عامر وجه إليها أوس بن ثعلبة، ويقال: خليل بن عبد الله الحنفي فبلغ حاكمها خبر سير جيش المسلمين إليهم فأرسل إلى ابن عامر وصالحه عن هراة وباذغيس وبوشنج على مليون درهم، وأرسل مرزيان (مرو الشاهجان) يسأل ابن عامر الصلح فأرسل إليه حاتم بن النعمان الباهلي فصالحه على مليون ومئتي ألف درهم^(٤).

وهكذا استطاع عبد الله بن عامر فتح إقليم خراسان ليصبح جزءاً من الدولة العربية الإسلامية، ودانت له جميع البلاد الواقعة في الضفة الجنوبية لنهر جيحون، وبدأت الجيوش العربية الإسلامية تعبر نهر

(١) ابن خياط: تاريخ، ج ١ ص ١٦٤، الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ٣٠٢، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣ ص ٣٣٠، دحلان، الفتوحات، ص ١٠٢، إبراهيم: فتوح بلاد خراسان، ص ١٤٧.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ١٤٠، ابن الأثير: الكامل، ج ٢ ص ٤٩٤، شاکر: محمود، موسوعة الفتوحات الإسلامية، دار أسامة، عمان، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١٠٤.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ٣٩٥، المقدسي: البدء، ج ٥ ص ١٩٨، دحلان: الفتوحات، ص ١٠٣.

(٤) يعقوبي: تاريخ، ج ٢ ص ١٩٣، ابن سعد، الطبقات، ج ٧ ص ٥١، الواقدي، فتوح، ص ١٣٤.

جيحون بالفعل حتى صالحه دهاقين الأتراك الغربيون^(١).

وأدى عبد الله بن عامر شكر هذه النعمة الكبيرة، فأحرم بعمره من نيسابور، ثم قدم على الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه في المدينة المنورة، أما مصير إقليم خراسان بعد رحيل ابن عامر عنها فقد اختلف المؤرخون حوله، فيذكر ابن الأثير أن عبد الله بن عامر قد استخلف على إقليم قيس بن الهيثم السلمي الذي سار إلى أرض طخارستان، بعد أن أعلنوا الثورة ضد المسلمين، واستطاع قيس أن يعيد سيطرة المسلمين على الإقليم حتى أذعنوا له بالطاعة سوى مدينة سمنجان التي امتنعت عليه، فحاصروهم حتى فتحها عنوة^(٢).

ويذكر اليعقوبي: أن عبد الله بن عامر قد قسم خراسان بين أربعة من قواده وهم: قيس بن الهيثم السلمي وراشد بن عمرو الجديدي، وعمران بن الفضيل البرجمي، وعمرو بن مالك الخزاعي^(٣). أما ابن كثير: فقد ذكر أن عبد الله بن عامر قد استخلف على خراسان عبد الله بن خازم^(٤)، ويعلل البلاذري ذلك بأن ابن خازم قد افتعل عهداً على لسان عبد الله بن عامر^(٥). أما خليفة بن خياط فيتفق مع البلاذري في تولية عبد الله بن خازم. ولكنه يعلل ذلك بشجاعة ابن خازم وتحقيقه الانتصار الكبير على الترك^(٦).

والذي يبدو أن عبد الله بن عامر بعد أن يمم وجهه شطر المسجد الحرام لأداء العمرة سنة ٣٢هـ/٦٥٢م قد ترك خراسان بين ثلاثة من قواده، وهم بالتحديد: الأحنف بن قيس، وحاتم بن النعمان الباهلي، وقيس بن الهيثم السلمي، وذلك لدورهم الكبير في حركة الفتح العربي الإسلامي لهذا الإقليم الشاسع، يضاف إلى ذلك أنه كان من الصعب على قائد واحد أن يحكم هذا الإقليم الشاسع منفرداً.

(١) حسن: الإسلام، ص ١١٨.

(٢) ابن خياط: تاريخ، ج ١ ص ١٦٦، البلاذري: فتوح، ص ٣٩٦، الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ٣١٥، النويري: نهاية، ج ١٩ ص ٢٦٧، دحان: الفتوحات، ص ١٠٣.

(٣) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢ ص ١١٦.

(٤) ابن كثير: البداية، ج ١٠ ص ٢٤٦.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ٥٤١.

(٦) ابن خياط: تاريخ، ص ٩٧.

وبغض النظر عن تولى حكم خراسان، فقد ظل الوضع هكذا حتى استشهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه^(١)، وبويع بالخلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، واجتاحت العالم الإسلامي فتنة كبرى انتفضت في بعض البلدان الإسلامية، وكان من الطبيعي أن تتأثر خراسان بهذه الفتنة، وكانت نيسابور أول إقليم من أقاليم خراسان يعلن الثورة، وامتنعت عن دفع الخراج، ومع انشغال الخليفة علي رضي الله عنه بالمشاكل الخطيرة التي واجهته لم يغفل أمر خراسان، ولم يتردد في إرسال الجيوش لقمع هذه الثورات، وردَّ أهل هذه البلاد إلى الطاعة، فأرسل في عام ٣٧هـ/٦٥٧م القائد جعد بن هبيرة المخزومي^(٢) إلى خراسان ولكنه لم يستطع أن يدخل نيسابور، وعاد إلى الخليفة علي في الكوفة^(٣).

لم ييأس الخليفة الراشدي علي رضي الله عنه، وبعث مرة أخرى خليلد بن قرة اليربوعي^(٤) الذي حاصر المدينة حتى صالحوه، ويذكر اليعقوبي أن ماهويه مرزيان مرو حضر إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكتب له كتاباً بالصلح^(٥)، ومع ذلك فقد ظلت خراسان مضطربة الأحوال حتى استشهد الخليفة علي سنة ٤٠هـ/٦٦٠م، وبدأت مرحلة جديدة بقيام الدولة الأموية.

وهكذا فإن جيوش المسلمين قد وصلت إلى بلاد ما وراء النهر للمرة الثانية، وذلك بفتح طخارستان ومحاولة فتح خوارزم، وفي المرتين على يد القائد الأحنف بن قيس مع الدور الكبير لكل من البصرة والكوفة في عمليات الفتح حتى عرفت هذه الفتوح بفتوحات البصرة والكوفة، وسرعان ما تمت السيطرة على هرم فارس، والقضاء على يزيدجرد في عقر داره، وجعل مرو معسكر العرب والمسلمين، واستقامت فارس

^(١) ابن العربي: أبو بكر ت ٥٤٣هـ/١١٤٩م، العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، تح: محب الدين الخطيب، الدوحة، ط ٢، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ج ١ ص ٢٠٧، الغزالي: أبو حامد محمد = بن محمد ت ٥٠٥هـ/١١١١م، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٤م، ج ٤ ص ٤٧٩.

^(٢) هو ابن أبي وهب بن عمرو بن عائذ المخزومي، أمه أم هانئ بنت أبي طالب، البلاذري: فتوح، ص ٥٧٥.

^(٣) البلاذري: فتوح، ص ٣٩٥ الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ٣١٦.

^(٤) ابن خياط: تاريخ، ص ١٢٠، الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٢٢٢.

^(٥) اليعقوبي: البلدان ص ٢٩٦، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ١٢٩، نص الصلح: "بسم الله الرحمن الرحيم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن ماهويه أبراز مرزيان مرو جاءني، وإني رضيت عنه وكتب سنة ست وثلاثين" ثم إنهم كفروا وأغلقتوا أبرشهر، انظر: الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ٥٥٨.

لفتحها ودخلت في الصلح كحل أفضل من الدخول في معارك متكررة إلا أن دبَّ الخلل في الجانب العربي الإسلامي عند مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وما تبع ذلك من الفتن التي حدثت في ديار الإسلام، فكانت مسوغاً ودافعاً للثورات والخروج عن الدولة العربية الإسلامية وجمود حركة الفتوحات حتى سنة ٤١هـ/٦٦١م ليأتي الخليفة معاوية بن أبي سفيان وتبدأ المرحلة الثانية من عملية الفتح.

ثالثاً- الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد ما وراء النهر زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان ٤١-٦٠هـ/٦٦١-٦٨٠م:

كان الظهور الأول لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان العمل السياسي والإداري في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد ولاه فتح قيسارية، وقد أثبت معاوية بهذا الفتح جدارته وحسن قيادته، فأكسبه ذلك ثقة الجميع.

في سنة ثماني عشرة للهجرة توفي يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما في طاعون عمواس، فولى عمر معاوية عمل أخيه في دمشق وبعلبك والبلقاء^(١)، وكان بعض الناس ولاسيما شيوخهم قد استغربوا تولية عمر رضي الله عنه لمعاوية مع حداثة سنه، ووجود من هو أكبر منه وأفضل؛ لذا سوغ عمر رضي الله عنه عمله هذا، حيث قالوا: ولى حدث السن، بقوله: تلوموني في ولايته، وأنا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم اجعله هادياً مهدياً واهداً به"^(٢).

ومن أهم إنجازاته العسكرية هما: سن نظام الصوائف والشواني، وتكوين أسطول بحري إسلامي لأول مرة في تاريخ العرب والإسلام^(٣)، وبعد سنتين من خلافة عثمان رضي الله عنه ضمت حمص وفلسطين لمعاوية وغيرها من المناطق، وأصبح الحاكم المطلق لبلاد الشام، وبعد مقتل الخليفة عثمان، وتولي الخليفة

(١) الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ٤٣١، ابن كثير: البداية، ج ٧ ص ٥٤، ابن سعد: الطبقات، ج ٧ ص ٤٠٦.

(٢) ابن حنبل: المسند، ج ٢٩ ص ٤٢٦، الخلال: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد ت ٣١١هـ/٩٢٣م، السنة، تح: عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، ط ١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ج ٢ ص ٤٥١، الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير ت ٣٦٠هـ/٩٧٠م، الأوسط، تح: طارق بن محمد، عبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، د.ت، ج ١ ص ٢٠٥، الأصبهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ج ٨ ص ٣٥٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج ٢ ص ٤٨٨.

علي رضي الله عنه خلافة المسلمين أراد عزل معاوية، وقد اختار أمير المؤمنين علي بدلاً من معاوية عبد الله بن عمر، فأبى عليه عبد الله قبول ولاية الشام واعتذر عن ذلك، وبعد اعتذار ابن عمر عن قبول ولاية الشام أرسل أمير المؤمنين علي سهيل بن حنيف بدلاً منه إلا أنه عاد راجعاً قبل وصوله مشارف الشام^(١)، وتفاقمت الأحداث ووقعت الوقائع، وكانت وقعة الجمل ومعركة صفين، واضطربت الأوضاع الداخلية للدولة العربية الإسلامية واستغل ملك الروم الخلاف الذي وقع بين علي ومعاوية، وطمع في ضم بعض الأراضي التي تحت هيمنة معاوية إليه، قال ابن كثير: "وطمع في معاوية ملك الروم بعد أن كان قد أخشاه وأدّله، وقهر جندهم، فلم رأى ملك الروم اشتغال معاوية بحرب علي تدانى إلى بعض البلاد في جنود عظيمة وطمع فيه، فكتب معاوية إليه: والله لئن لم تنته وترجع إلى بلادك يا لعين لاصطللحن أنا وابن عمي عليك ولأخرجنك من جميع بلادك ولأضيّقنّ عليك الأرض بما رحبت، فعند ذلك خاف ملك الروم وانكف، وبعث يطلب الهدنة"^(٢).

مع كل المحاولات والجهود المضنية لم يستطع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أن يحقق ما يريد؛ إذ لم يستطع أن يستولي على الشام بسبب التفكك والتصدع الذي حدث داخل جيشه، وتفرق كلمة رجاله، وظهرت الأهواء، فاضطر أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في سنة أربعين للهجرة أن يقبل بتسوية فيكون العراق له، والشام لمعاوية، ولا يدخل أحدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة ولا غزو^(٣)، وبعد زمن استشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم المرادي^(٤)،

(١) ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العباسي ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م، المصنف في الأحاديث والآثار، تح: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ج ٧ ص ٤٧٢.

(٢) ابن كثير: البداية، ج ١١ ص ٤٢٦.

(٣) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٦، البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م، التاريخ الأوسط، تح: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، ط ١، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ج ١ ص ٤١، وعن عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، وأبو بكر وعمر جالسان عنده، فسلمت عليه وجلسنا فبينما أنا جالس إذ أتني بعلي ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف الباب؛ أي أغلق وأنا أنظر، فما كان بأسرع من خرج علي وهو يقول: قضي لي ورب الكعبة، ثم ما كان بأسرع من أن خرج معاوية وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة، انظر: ابن كثير: البداية، ج ١١ ص ٤٢٧.

(٤) ابن سعد: الطبقات، ج ٣ ص ٣٥.

وقد اختار الناس الحسن بعد والده، وقد استمر في خلافته ستة أشهر، وتلك المدة تدخل ضمن الخلافة الراشدة التي أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن مدتها ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً، فقد روى الترمذي بإسناده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك"، ومن ثم تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وذلك سنة ٤١هـ/٦٦١م العام الذي سمي بعام الجماعة^(١).

استقرت الأمور وتأسست الدولة الأموية، وكانت أولى مهامها إعادة ضبط الحكم في الأقاليم التي تمردت، والعمل على استئناف حركة الفتوحات، فولى قيساً بن الهيثم السلمي خراسان، ثم عزله، وولى خالد بن عمرو، فلم تستقم له خراسان فعزله؛ لذلك فقد عهد معاوية إلى رجل حصيف كان صاحب الدور الأكبر في فتح هذه البلاد؛ وهو عبد الله بن عامر بن كريز، فولاه البصرة وضم إليه خراسان، فأُسند الأخير ولايتها إلى القائد قيس بن الهيثم السلمي الذي استطاع النهوض بالبلاد، واستهل ولايته بالزحف إلى بلخ، وكان أهلها قد نكثوا العهد بعد وفاة الخليفة علي رضي الله عنه فأخرب (معبد النوبهار) التي كان له دور في مقاومة المسلمين حتى سأل أهل المدينة الصلح فصالحهم على الطاعة وعدم نكث العهد^(٢)، ثم عزله عبد الله بن عامر، وولى عبد الله بن خازم^(٣) الذي استطاع أن يقضي على ثورات هراة، وبوشنج، وباذغيس حتى

^(١) ابن الجعد: علي ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م، مسند ابن الجعد، تح: عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر، بيروت، ط ١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج ١ ص ٤٧٩، ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد ت ٢٤١هـ/٨٥٥م، فضائل الصحابة، تح: وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج ١ ص ٤٨٧، الشيباني: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد ت ٢٨٧هـ/٩٠٠م، الآحاد والمثاني، تح: باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية، الرياض، ط ١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج ١ ص ١١٦، ابن حبان: محمد ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تح: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج ١٥ ص ٣٥.

^(٢) البلاذري: فتوح، ص ٣٩٦، الطبري: تاريخ، ج ٣ ص ١٧٣، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ١٥، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ٦، Gibb: the Arab Conquests, p16.

^(٣) يذكر اليعقوبي أن عبد الله بن عامر بعث مع عبد الله بن خازم عبد الرحمن بن سمرة، انظر: اليعقوبي: تاريخ، ج ٢ ص ١٥١، والبلدان، ص ٢٦٦.

أدعوا له بالطاعة وطلبوا الأمان^(١).

واستمر عبد الله بن عامر والياً على البصرة حتى سنة ٤٥هـ/٦٦٥م، ثم عزل، وذلك عائد إلى أن ابن عامر كان حليماً كريماً ليناً، لا يأخذ على أيدي السفهاء، وفسدت البصرة في أيامه، فشكا ذلك إلى زياد بن أبيه، فقال له: جرد السيف، فقال له: إني أكره أن أصلحهم بفساد نفسي^(٢). وولى الحارث بن عبد الله الأزدي ٤٥هـ/٦٦٥م، فأقام بها أربعة أشهر ثم عزله معاوية وولى زياد بن أبي سفيان.

١- زياد بن أبي سفيان ٤٥-٥٣هـ/٦٦٥-٦٧٣م:

جمع معاوية الكوفة والبصرة لزياد بعد وفاة المغيرة بن شعبة، فكان زياد أول من جمع له بينهما^(٣) خراسان وسجستان ثم السند والبحرين وعمان، وقدم البصرة فخطب خطبته البتراء، وسميت بذلك لأنه لم يفتتحها بالحمد والثناء^(٤)، وكان الهدف النهائي عند زياد إقرار هيئة الدولة، والحصول على طاعة العامة، وبذلك تستقيم الأمور في البصرة؛ إذ ترى العامة أن الأمر لا هزل فيه ولا هوان في تطبيق العقاب، ولم يكن خافياً على زياد بن أبيه ضرورة إعادة تنظيم جهاز الشرطة حتى يتمكن من تحقيق سيطرة فعالة على الأوضاع الأمنية؛ لذلك عمل زياد على اتخاذ بعض الإجراءات التي تسمح له بفرض هيمنته، منها زيادة عدد الأفراد العاملين في الشرطة، فصعد عددهم حتى وصل أربعة آلاف فرد، وعين اثنين في منصب صاحب الشرطة بدلاً من واحد، وبلغ من دقته في عهده أنه قال: "لو ضاع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه"^(٥)، وترتب على ذلك ما قاله الطبري: "وكان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم في العقوبة، وجرد السيف، وأخذ بالظنّة، وعاقب على الشبهة،

(١) البلاذري: فتوح، ص ٣٩٦، الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ٤٣٤، ابن الأثير: الكامل، ج ٢ ص ٤٩٥، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٣٨، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ٩.

(٣) ابن خياط: تاريخ، ص ١٢٨، ابن قتيبة: المعارف، ص ١٩٥.

(٤) مسكوية: تجارب، ج ٢ ص ١٦، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٤٤، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ١٠، الجاحظ: البيان، ج ٢ ص ٧١، ابن كثير: البداية، ج ١١ ص ١٦٨، العصامي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك ت ١١١١هـ/١٦٩٩م، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٩م، ج ٣ ص ١١٦.

(٥) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٢٢٤، مسكوية: تجارب، ج ٢ ص ١٩.

وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً، حتى أمن الناس بعضهم بعضاً، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها، وساس الناس سياسة لم يرَ مثلها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله، وأدّر العطاء، وبني مدينة الرزق^(١)، وعندها ضمّ معاوية الكوفة إلى ولاية زياد واستطاع أن يفرض النظام الأمني حيث حقق للأمميين رغبتهم في استقرار النظام والأمن في كل من البصرة والكوفة، وأصبحت الشرطة أهم قوة داخلية وأكثرها فاعلية، وقد استمر زياد على سياسة التصدي لحركات التمرد والعصيان في إقليم خراسان، ثم بدأ يتطلع إلى فتح بلاد ما وراء النهر وبحكم موقع مدينة بلخ التي تمثل باب بلاد ما وراء النهر الجنوبي، فلا عجب أن يركز زياد على هذه المدينة بل على إقليم خراسان كله لتكون منطلقاً ينطلق منه المسلمون في غزواتهم إلى تلك البلاد لنشر الإسلام في ربوعها، وليس كما يقول المستشرق المجري فامبري المتعصب الشعوبي: "إن العرب كانت تستهويهم ما عرف عن بلاد الصغد من الثراء"^(٢)، وهو كلام غير صحيح لا ينم إلا عن عصبية يحملها فامبري بين جنبيه.

وجعل زياد خراسان أرباعاً، واستعمل على مرو أمير بن أحمر اليشكري الذي كان أول من أسكن العرب في مرو^(٣)، وعلى أبرشهر(نيسابور) خليل بن عبد الله الحنفي، وعلى مرو الروذ والفارياب والطارقان قيس بن الهيثم، وعلى هراة وباذغيس وقادس وبوشنج نافع بن خالد الطائي^(٤).

وأمر زياد حاجبه فقال: ادع لي الحكم- وهو يريد الحكم بن أبي العاص الثقفي- فخرج الحاجب، فرأى الحكم بن عمرو الغفاري فأدخله، فقال زياد: رجل له شرف وله صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعقد له على خراسان، ثم قال له: ما أردت، ولكن الله عز وجل أرادك، وإن كان يعقوبي يذكر أن تعيين الحكم قد جاء بأمر من الخليفة نفسه^(٥). وكان قد غزا طخارستان، فغنم غنائم كثيرة، وغزا أهل

(١) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٢٢٢.

(٢) فامبري: بخارى، ص ٥٧.

(٣) البلاذري: فتوح، ج ١ ص ٤٠٨، عماش: قتيبة، ص ٦٥، الصلاحي: علي محمد، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتدايعات الانهيار، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج ١ ص ٣٨٣.

(٤) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٢٢٤.

(٥) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢ ص ١٥٥.

جبل الأشل وغنم منها غنيمة عظيمة، وكان ذلك سنة ٥٠هـ/٦٧٠م، وقد كتب الحكم إلى زياد يخبره بالفتح، وكتب الأخير لمعاوية، بذلك فكان رده أن أمير المؤمنين كتب إليه أن اصطفي لي الصفراء، والبيضاء، والروائع، فلا تحركن شيئاً حتى تخرج ذلك، فكتب إليه الحكم: أما بعد، فإن كتابك ورد، تذكر أن أمير المؤمنين كتب إلي أن اصطفي له كل صفراء وبيضاء والروائع، ولا تحركن شيئاً، إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، وإنه والله لو كانت السماوات والأرض رتقاً على عبد اتقى الله عز وجل جعل الله سبحانه وتعالى له مخرجاً، وقال للناس: "اغدوا على غنائمكم"، فغدا الناس، وقد عزل الخمس، فقسم بينهم تلك الغنائم، فقال الحكم: اللهم إن كان لي عندك خير فاقبضني، وفي رواية قال: اللهم إني سئمت بني أمية وسئمتوني فارحمهم مني وارحني منهم ثم لبث جمعة واحدة ومات في مرو، ودفن في دار خالد بن عبد الله أخي خليلد بن عبد الله الحنفي سنة ٥٠هـ/٦٧٠م^(١)، وكان الحكم أول من شرب من النهر اغترف بترسه فشرب، ثم توضأ وصلى من وراء النهر ركعتين^(٢)، وفي هذه الأوقات بدأت الجيوش العربية الإسلامية تستقر للمرة الأولى في شمال جيحون، واستخلف الحكم من بعده أنس بن أبي أناس بن زعيم، وكان كتب إلى زياد: "أني قد رضيته الله وللمسلمين ولك، فقال زياد: اللهم إني لا أرضاه لدينك ولا للمسلمين ولا لي، وكتب زياد إلى خليلد بن عبد الله الحنفي بولاية خراسان، ثم بعث الربيع بن زياد الحارثي إلى خراسان ٥٠-٥٣هـ/٦٧٠-٦٧٣م^(٣)، وقد قال أنس بن أبي أناس رداً على زياد عندما عزله:

(١) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٢٢٩، ابن عبد البر: الاستيعاب، ج ١ ص ٣٥٧، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٦٦، وأسد الغابة، ج ٣ ص ٥١، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ٢٢٩، ابن كثير: البداية، ج ١١ ص ٢١٧، ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، صفوة الصفوة، تح: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج ١ ص ٢٦٠، الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج ٢ ص ٤٧٥، ابن عبد ربه: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم ت ٣٢٨هـ/٩٣٩م، العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ج ١ ص ٥٥، النويري: نهاية، ج ٢ ص ٣٢٨.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ٢٤٣.

(٣) ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ١١، الصلابي: علي محمد، معاوية بن أبي سفيان - شخصيته وعصره، دار الأندلس الجديدة، مصر، ط ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٤٣٤، يعضون: إبراهيم، من دولة عمر إلى دولة عبد

ألا من مبلغ عني زيادا مغلغلة يخب بها البريد
أعزلني وتطعمها خليدا لقد لاقت حنيفة ما تريد
عليكم باليمامة فاحرثوها فأولكم وآخركم عبيد^(١)

وقد توجه الربيع بن زياد إلى خراسان في خمسين ألفاً، من البصرة خمسة وعشرون ألفاً، ومن الكوفة خمسة وعشرون ألفاً، على أهل البصرة الربيع، وعلى أهل الكوفة عبد الله بن أبي عقيل، وعلى الجماعة الربيع بن زياد، وغلبوا على طخارستان، ثم نزلوا مدينة مرو ومنها راحوا ينطلقون إلى أطراف خراسان، وتم فتح بلخ صلحاً، وفتح قوهستان عنوة، وكانت بناحيتهما أترك فقتلهم وهزمهم، وكان ممن بقي منهم نيزك طرخان فقتله قتيبة بن مسلم في ولايته، وكان الربيع قد قطع النهر فغنم وسلم، وكان الحكم بن عمرو قطع النهر قبله في ولايته إلا أنه لم يفتح،^(٢) ويمكن القول: إن الربيع قد وطد نفوذ المسلمين في هذه المناطق حتى قال: "لوضع حبل بيني وبين خراسان علمت من أخذه"، وذكر الطبري شدته في الحكم ووصف الأوضاع في عهده بقوله: "وكان زياد أول من شد أمر السلطان، وأكد الملك لمعاوية، وألزم الناس الطاعة، وتقدم في العقوبة، وجرّد السيف، وأخذ بالظنّة، وعاقب على الشبهة وخافه الناس في سلطانه خوفاً شديداً، حتى أمن الناس بعضهم بعضاً، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق عليها بابها، وساس الناس سياسة لم ير مثلاً لها، وهابه الناس هيبة لم يهابوها أحداً قبله، وأدّر العطاء، وبنى مدينة الرزق"^(٣).

وقد كتب زياد إلى معاوية أني ضببط العراق بشمالي ويميني فارغة فاشغلها بالحجاز، فكتب له عهداً

الملك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١، ص٣١٣، فيصل، شكري: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص٢٠٤.

(١) الطبري: تاريخ، ج٥ ص٢٨٦، ابن عبد البر: الاستيعاب، ج٤ ص١٦٠، الصفدي: الوافي، ج١٨ ص٨٣، عطوان: حسين، الشعر في خراسان من الفتح إلى نهاية العصر الأموي، دار الجليل، ط٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٨٢.

(٢) ابن خياط: تاريخ، ج١ ص٢١١، البلاذري: فتوح، ج١ ص٣٨٥، الطبري: تاريخ، ج٥ ص٢٢٦، ابن الجوزي: المنتظم، ج٥ ص٢٤٣، الياضي: مرآة الجنان، ص٩٩، ابن كثير: البداية: ج١١ ص٢٥٩، ابن تغري بردي: يوسف ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، د.ت، ج١ ص١٣١.

(٣) الطبري: تاريخ، ج٥ ص٢٢٣، مسكوية: تجارب، ج٢ ص١٩.

بذلك وجمع له الحجاز مع العراقيين، وخاف أهل الحجاز من ذلك لما سمع بولايته أهل المدينة اجتمع الكبير والصغير بمسجد رسول الله، وقدموا ابن عمر فاستقبل القبلة ودعا معهم، وكان من دعائه أن قال: اللهم اكفنا يمين زياد، وضجوا إلى الله تعالى ولاذوا بقبر النبي ثلاثة أيام لعلمهم بظلمه وجوره وفسقه؛ فخرجت طاعونة على أصبعيه، فأرسل إلى شريح، وكان قاضيه، فقال: حدث بي ما ترى، وقد أمرت بقطعها، فأشّر علي، فقال له شريح: إني أخشى أن يكون الجراح على يدك، والألم على قلبك، وأن يكون الأجل قد دنا، فتلقى الله عز وجل أجذماً وقد قطعت يدك كراهية لقائه، أو أن يكون في الأجل تأخير، وقد قطعت يدك فتعيش أجذم، وتعير ولدك، فتتركها وخرج شريح فسألوه، فأخبرهم بما أشار به، فلاموه، وقالوا: هل أشرت عليه بقطعها، فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "المستشار مؤتمن"^(١)، وقد توفي زياد عام ٥٣هـ/٦٧٣م بعد أن بلغت ثقة الدولة الأموية فيه حداً لم يسبق إليه مثيل فقد منحت إليه سلطة التحكم بالمشرق إضافة إلى البصرة والكوفة، وتولى ابنه عبيد الله البالغ من العمر الخامسة والعشرين أمر الجهاد، فاستطاع أن يخضع أهل آمل غرب جيحون، ولما مات بعد ذلك بشهرين خلفه خليفه بن عبد الله الحنفي^(٢)، وبهذه السلطة التي أصبحت متداولة فيما بينهم يمكن القول: إن المشرق آنذاك كان يحكم بالشراكة الثقافية الأموية.

وفي خضم هذه الوقائع بدأت جموع العرب المسلمين التدفق على ما وراء النهر، واتخذوا من مرو خراسان قاعدة تخرج منها الجيوش العربية الإسلامية للفتح، وأصبح المسلمون ينظرون عن كثب إلى بخارى بعد أن اقتحمت جيوشهم نهر جيحون، وكان العبور على الإبل، ووقفوا على أحوال الترك، وما صادفوه من نجاح أثناء عملياتهم السريعة ساعدهم على ذلك، وقد أدت خراسان في فتح بلاد ما وراء النهر الدور نفسه الذي قامت به برقة في فتح المغرب، أو دور المغرب الأقصى في فتح الأندلس وكانت خراسان ملاذ

(١) الكشي: أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر ت ٢٤٩هـ/٨٦٣م، المنتخب من مسند عبد بن حميد، تح: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السنة، القاهرة، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١٠٦، الهروي: علي بن سلطان محمد أبو الحسن نور الدين الملا ت ١٠١٤هـ/١٦٠٥م، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج ١ ص ٣١٩.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٢٨٩، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٨٧، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ١٧، العصامي: سمط، ج ٣ ص ١٢١، شعبان: الثورة، ص ٧٦.

الجيوش إذا حل الشتاء، لأنه من الخطط الاستراتيجية والعسكرية التي يتصف بها قادات الفتح العربي الإسلامي في أي جبهة كانت فلا بد من إيجاد قاعدة آمنة، وملاذ لهم من البرد القارس ولكي تكون قاعدة انطلاق للفتوحات المتقدمة، ولعل هذا التشابه بين المشرق والمغرب في تكتيكات الحروب ربما يكون عائداً إلى عقلية الحجاج العسكرية الناجحة.

٢- عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان والياً على خراسان ٥٤هـ/٦٧٤م:

ولى معاوية عبيد الله بن زياد خراسان، وفي عام ٥٥ هـ/٦٧٥م ولاه البصرة، وأوصى معاوية عبيد الله بن زياد بهذه الوصية إني قد عهدت إليك مثل عهدي إلى عمالي، ثم أوصيك وصية القرابة لخاصتك عندي: "لا تبعن كثيراً بقليل، وخذ لنفسك من نفسك، واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء تخف عليك المؤونة وعلينا منك، وافتح بابك للناس تكن في العلم منهم أنت وهم سواء، وإذا عزمت على أمر فأخرجه إلى الناس، ولا يكن لأحد فيه مطمع، ولا يرجعن عليك وأنت تستطيع، وإذا لقيت عدوك فغلبوك على ظهر الأرض فلا يغلبونك على بطنها، وإن احتاج أصحابك إلى أن تواسيهم بنفسك فآسيهم. وفي رواية قال له: اتق الله ولا تؤثرن على تقوى الله شيئاً، فإن في تقواه عوضاً، وق عرضك من أن تندسه، وإذا أعطيت عهداً فوف به، ولا تبعن كثيراً بقليل، ولا تخرجن منك أمراً حتى تُبرمه، فإذا خرج فلا يردن عليك، وإذا لقيت عدوك فكن أكثر من معك، وقاسمهم على كتاب الله، ولا تطمعن أحداً في غير حقه، ولا تؤيسن أحداً من حق له، ثم ودعه"^(١)، وسار عبيد الله إلى خراسان في آخر سنة ثلاث وخمسين، فخرج معه من الشام الجعد بن قيس النمري يرجز بين يديه بمرثية زياد يقول فيها:

أبق علي عاذلي من اللوم	فيما أزيلت نعمتي قبل اليوم
قد ذهب الكريم والظل الدوم	والنعم المؤثل الدثر الحوم
والماشيات مشية بعد النوم	ليت الجياد كلها مع القوم
سقين سم ساعة قبل اليوم	لأربع مضي من شهر الصوم ^(٢)

^(١) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٢٩٦، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٣٤٥، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ١٨، خطاب: قادة الفتح، ص ١٢٥.

^(٢) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٢٩٧.

وصل خراسان سنة ٥٤هـ/٦٧٤م، ثم قطع النهر إلى جبال بخارى على الإبل في أربعة وعشرين ألفاً، فكان أول من قطع إليهم جبال بخارى في جند، ففتح راميش ونسف بيكند^(١)، فأرسلت خاتون ملكة بخارى التي كانت وصية على ابنها الصغير طغشادة بن بخار خدات، وقد استنجدت ملكة بخارى بالترك تستمدهم فجاءها منهم عدد كبير، فلقاهم المسلمون وهزموهم، وعند القتال انتصروا عليهم، فبعثت خاتون تطلب الصلح والأمان، وصالحها عبيد الله على ألف ألف درهم؛ أي مليون درهم، فلم يفتح بخارى وفتح بيكند، وكان قتال عبيد الله الترك من زحوف خراسان التي تذكر، وقد ظهر منه بأس شديد، فقد ذكر في شجاعته، فقيل: "لم ير أشجع بأساً من عبيد الله بن زياد لقي زحف الترك بخراسان، فيقاتل فيحمل عليهم، فيطعن فيهم، ويغيب ثم يرفع رايته تقطر دماً، وبقي عبيد الله بخراسان سنتين، فقدم البصرة ومعه خلق من أهل بخارى، وهم ألفان كلهم جيد الرمي بالنشاب"^(٢).

إذاً تولى ابن زياد أرفع المناصب في أيام معاوية ويزيد، وكان موضع ثقة بني أمية، وكان يعتمد في حكمه على القسوة لفرض سيطرته على الناس، وكان لا يبالي من أجل تدعيم سيطرته أن يرتكب كل الإجراءات الرادعة قتلاً وتعذيباً وحجزاً للممتلكات والأموال، فقد كان ذا شخصية يحب الإمارة ويحب السيطرة، ولقد أساء ابن زياد، فترك تصرفه الأهوج في قتل الحسين رضي الله عنه أثراً بالغاً في أيامه، ولا يزال حتى اليوم، ولو مزج بين صلابة القائد ورحمة القدرة لكانت سيرته غير ذلك.

٣- سعيد بن عثمان بن عفان ٥٦هـ/٦٧٦م:

هو سعيد بن عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو عثمان القرشي الأموي المدني^(٣)، ولى معاوية عثمان، وكان السبب أن سعيداً سأل ذلك، قال له: إن بها عبيد الله بن زياد، فقال: أما والله لقد اصطنعك أبي ورقاك حتى بلغت باصطناعه المدى الذي لا يجارى إليه ولا

^(١) النرشخي: تاريخ، ص ٦٢، دحان: الفتوحات، ص ١٦٤.

^(٢) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٢٩٨، ابن الأثير: الكامل، ج ٧ ص ٣١٩، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ٧٥، خطاب: قادة الفتح، ص ١٢٦، الصلابي: معاوية، ص ٤٣٦.

^(٣) ابن سعد: الطبقات، ج ٥ ص ١٥٣، البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م، التاريخ الكبير، محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، د.ت، ج ٣ ص ٥٠٣، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٢١ ص ٢٢٠.

يسامى، فما شكرت بلاءه ولا جازيته، وقدمت هذا يعني يزيد وبايعت له، والله لأنا خير منه أباً وأماً ونفساً! فقال معاوية: أما بلاء أبيك فقد يحق عليك الجزاء به، وقد كان من شكري لذلك أني قد طلبت بدمه، وأما فضل أبيك على أبيه فهو والله خير مني، وأما فضل أمك على أمه فلعمري امرأة من قريش خير من امرأة من كلب، وأما فضلك عليه فوالله ما أحب أن الغوطة ملئت ليزيد رجالاً مثلك، فقال له يزيد: يا أمير المؤمنين ابن عمك وأنت أحق من نظر في أمره، قد عتب عليك فأعتبه فولاه حرب خراسان^(١)، وتروي المصادر التاريخية أن سعيداً بن عثمان بن عفان قد اصطحب معه إلى خراسان حوالي أربعة آلاف رجل فيهم عدد من مشاهير رجالات القبائل العربية في البصرة والكوفة، وكان من ضمنهم حوالي خمسين عابثاً وقاطعاً للطريق، وفيهم يقول الراجز:

الله أنجأك من القصيم ومن أبي حردبة الأثيم

ومن غويث فاتح العكوم ومالك وسيفه المسموم^(٢)

أما مالك فهو مالك بن الربيع المازني التميمي^(٣)، وهم ممن تابوا، ورجعوا إلى رشدهم، وفضلوا الجهاد في سبيل الله، ومالك بن الربيع هو القائل:

أَلَمْ تَرْنِي بَعْتُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَقَّانَ غَازِيَا

فَلِلَّهِ دَرِّي يَوْمَ أَتْرُكُ طَائِعاً بَنِيَّ بِأَعْلَى الرِّقْمَتَيْنِ وَمَالِيَا^(٤)

وقدم سعيد خراسان فقطع النهر إلى سمرقند، فخرج إليه أهل الصغد، فتوافقوا يوماً إلى الليل ثم انصرفوا من غير قتال، فقال مالك بن الربيع يذم سعيداً:

(١) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ٢٨٧، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ١٠٤، ابن الأعمش: الفتوح، ج ٢ ص ٢٤، ابن كثير: البداية، ج ١١ ص ٣٠٥، ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢١ ص ٢٢٥، ابن خلکان: وفيات، ج ٦ ص ٣٤٨.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٣٠٦.

(٣) للتوسع حول توبة مالك والحديث الذي دار بينه وبين سعيد انظر: ابن الأعمش: الفتوح، ج ٢ ص ٢٧.

(٤) القرشي: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب ت ١٧٠هـ/٧٨٦م، جمهرة أشعار العرب، تح: علي محمد البجادي، نخبة مصر للطباعة، القاهرة، د.ت، ص ٦٠٨، اليزيدي: أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبي محمد بن المبارك ت ٣١٠هـ/٩٢٢م، الأمالي، مطبعة جمعية دائرة المعارف، حيدر آباد الدكن، الهند، ط ١، ١٣٩٧هـ/١٩٣٨م، ص ٤٠، الأخفش: أبو المحاسن علي بن سليمان بن الفضل ت ٣١٥هـ/٩٢٧م، الاختيارين المفضليات والاصمعيات، تح: فخر الدين قباوة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص ٦٢٢.

ما زلت يوم الصغد ترعد واقفا من الجبن حتى خفت أن تنتصرا
وما كان في عثمان شيء علمته سوى نسله في رهطه حين أدبرا
ولولا بنو حرب لظلت دماؤكم بطون العظايا من كسير وأعوورا^(١)

فلما كان الغد خرج إليهم سعيد بن عثمان، وبلغ خاتون ملكة بخارى عبوره النهر، فحملت إليه الصلح الذي صالحت عليه عبيد الله بن زياد، وأقبل أهل الصغد وكيش ونسف إلى سعيد في مئة ألف وعشرين ألفاً، فالتقوا ببخارى، وقد ندمت خاتون على أدائها الجزية، فنكثت العهد، ولكن قسماً من الحشود المجتمعة لقتال سعيد انصرفوا قبل مباشرة القتال، فأثر انصرافهم في معنويات الآخرين، واهتزت معنوياتهم، فلما رأت خاتون ذلك أعادت الصلح، فدخل سعيد مدينة بخارى فاتحاً^(٢)، وغزا سمرقند، فأعانته خاتون بأهل بخارى، فنزل على باب سمرقند، وحلف ألا يبرح أو يفتحها، وقاتل المسلمون أهل سمرقند ثلاثة أيام، وكان أشد قتالهم في اليوم الثالث حيث فُتئت عين سعيد، ولزم أهل سمرقند أن يفتح سعيد ذلك القصر عنوة، ويقتل من فيه، فطلبوا الصلح، فصالحهم على سبعمئة ألف درهم، وعلى أن يعطوه رهناً من أبناء عظمائهم، وعلى أن يدخل المدينة ومن شاء، ويخرج من الباب الآخر، فأعطوه خمسة وعشرين من أبناء ملوكهم، ويقال: إنهم أعطوه أربعين من أبناء ملوكهم، ويقال: ثمانين^(٣)، ويقال: إن هؤلاء الذين أرسلتهم خاتون كانوا ممن يعدون بالخارجين عليها، فتخلصت بذلك من أشد أعدائها خطراً عليها^(٤)، وكان معه من الأمراء المهلب بن أبي صفرة الأزدي وغيره، واستشهد معه يومئذ قثم بن العباس بن عبد المطلب^(٥)، وكان يُشبهه بالنبي صلى الله عليه وسلم، وكان أخوه عبد الله بن عباس دفن بالطائف، وأخوه

(١) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٣٠٦، الدينوري، عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م، الشعر والشعراء، بيروت، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ج ١ ص ٣٥٤.

(٢) البلاذري: فتوح، ص ٣٩٧.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ٣٩٨، المقدسي: البدء، ج ٦ ص ٤، أبو الفداء: المختصر، ص ١٨٧، الذهبي: العبر، ج ١ ص ٤٤، البلاذري: أنساب، ج ٥ ص ٦١٥.

(٤) الترشيحي: تاريخ، ص ٦٣، فامبري: بخارى، ص ٥٨.

(٥) وفيه يقول داود بن سلم:

عتقت من حلي ومن رحلتي . . يا ناق إن أدنيتني من قثم

معبد استشهد بأفريقيا، وعبيد الله بالمدينة، وكلهم من أب واحد وأم واحدة فيقال: لم يرَ قبور أخوة أبعد من قبور هؤلاء الأخوة بني العباس^(١). هذا وانصرف سعيد بن عثمان إلى ترمذ ففتحها صلحاً^(٢).

وكان معاوية قد خاف من سعيد أن يخلعه، فعزله معاوية عام ٥٧هـ/٦٧٦م، فأخذ سعيد مالا من خراج خراسان، فوجه معاوية من أخذ المال منه ومضى سعيد بالرهائن الذين أخذهم من أبناء عظماء سمرقند حتى ورد بهم المدينة النبوية، فدفع ثيابهم ومناطقهم إلى مواليه، وألبسهم جباب الصوف، وألزمهم السقي والعمل، وألقاهم في أرض يعملون له فيها بالمساحي، فأغلقوا يوماً باب الحائط ووثبوا عليه فقتلوه، ثم قتلوا أنفسهم بالحبل خنقاً^(٣)، فقال خالد بن عقبة بن أبي معيط الأموي:

ألا إن خير الناس نفساً ووالداً سعيد بن عثمان قتيل الأعاجم
فإن تكن الأيام أردت صروفها سعيداً فهل حي من الناس سالم؟
وقال أيضاً يرثيه:

يا عين جودي بدمع منك تهتائاً وأبكي سعيد بن عثمان بن عفاناً^(٤)

وحين تمّ الصلح بين خاتون وسعيد، زارت خاتون سعيداً بمقرّه، فطلعت عليه في زينتها الملكية،

إِنَّكَ إِنْ أَدْنَيْتَ مِنْهُ غَدَاً . . . حَالَفَنِي الْيُسْرُ وَمَاتَ الْعَدَمُ
فِي كَفِّهِ بَحْرٌ وَفِي وَجْهِهِ . . . بَدْرٌ وَفِي الْعَرْيَيْنِ مِنْهُ شَمَمُ
أَصَمُّ عَنْ قِيلِ الْخَنَا سَمْعُهُ . . . وَمَا عَنِ الْخَيْرِ بِهِ مِنْ صَمَمِ
لَمْ يَدِرْ مَا لَا وَبَلَى قَدْ دَرَى . . . فَعَاظَهَا وَاعْتَاَصَ مِنْهَا نَعَمُ

انظر: البُرِّي: محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى ت ٦٤٥هـ/١٢٥٦م، الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، علق: محمد التونجي، دار الرفاعي، الرياض، ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج ٢ ص ٣٥.
(١) البلاذري: فتوح، ج ١ ص ٣٩٨، أبو الفداء: المختصر، ج ١ ص ١٨٧. ابن الوردي: تاريخ، ص ١٦١، اليافعي: مرآة الجنان، ص ١٠٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ١٠٥، أبو الفداء: المختصر، ج ١ ص ١٨٧، ابن الوردي: تاريخ، ج ١ ص ١٦١.
(٣) البلاذري: فتوح، ص ٣٩٩، الترشيحي: تاريخ، ص ٦٥، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٢١ ص ٢٢٨، البلاذري: أنساب، ج ٥ ص ٦١٥.

(٤) ابن سعد: الطبقات، ج ١ ص ٢١٦، البلاذري: أنساب، ج ٥ ص ٦١٦، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٢١ ص ٢٢٦، الصغددي: الوافي، ج ١٣ ص ٢٩٩، ابن الزبير: مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله ت ٢٣٦هـ/٨٥٠م، نسب قريش، تح: ليفي برونفسال، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، د.ت، ص ١١١.

وكانت نادرة الجمال على ما يقال، فادّعى أهل بخارى أن القائد المسلم أعجب بجمالها أيّما أعجاب، وجرى ذكر إعجاب سعيد بها في الأغاني الشعبية التي لا يزال أهل بخارى يردّدونها ويتغنّون بها حتى اليوم^(١). هذا الإعجاب لا ذكر له في المصادر العربية الإسلامية المعتمدة إلا عند الترشيحي، وكتابه هذا قد ألفه وأهداه إلى الأمير نوح بن نصر الساماني (٣٣١-٤٤٣هـ/٩٤٣-٩٥٤م)، وهذا البلاط لا يختلف كثيراً عن بلاط العباسيين الذين كانوا بمثابة معارضة للحكم الأموي، وما نقله المجري فامبري لا يمكن تفسيره إلا من باب التعصب ضد العرب المسلمين.

إذا تمكن سعيد بن عثمان بن عفان في عام واحد من ولايته من خلال عملياته العسكرية أن يفتح بخارى، وسمرقند، وترمذ، وبهذه الفتوحات يكون قد وضع لبنة جديدة على خطا عمليات فتح بلاد ما وراء النهر إلا أنه يؤخذ عليه أنه لم يف سعيد لأهل سمرقند بإعادة الرهن لهم، بل جاء بالغلمان معه إلى المدينة المنورة، وجعل يستعملهم في النخيل والطين، وهم أولاد الدهاقين وأرياب النعم، فلم يطبقوا ذلك العمل وسمّموا عيشهم، فوثبوا عليه في حائط له، وبذلك غدر بهم، فكان هذا الغدر وبالأعلى عليه، إذ قدم حياته ثمناً لغدره، لقد كان سعيد يعتد بشخصيته، طموحاً، مُتَرَفِّفاً، سخيّاً، وكان من شخصيات قريش البارزة. كما سلف أن معاوية بن أبي سفيان قد عزل سعيداً، واستعمل عبد الرحمن بن زياد ٥٩هـ/٦٧٩م، ولم يقم بأي عمليات، وبقي حاكماً على خراسان حتى توفي معاوية ٦١هـ/٦٨١م، وآلت الخلافة إلى ابنه يزيد بن معاوية الذي عزل عبد الرحمن بن زياد، وولى أخاه سلم بن زياد^(٢).

٤- سلم بن زياد بن أبي سفيان ٦١هـ/٦٨٠م:

قبل الحديث عن سلم وأعماله العسكرية لا بد من وقفة لبرهة من الزمن على الأوضاع ما بعد حكم معاوية، وتولية ولده يزيد الحكم^(٣)، وبهذا الأمر كانت بداية انطلاق لأحداث انفجار وموجة غضب، فقد ظهرت وبانت المعارضة للبيت الأموي التي كانت خافطة نوعاً ما زمن معاوية ولا سيما السخط من أبناء

(١) الترشيحي: تاريخ، ص ٦٤، فامبري: بخارى، ص ٥٩.

(٢) البلاذري: فتوح، ج ١ ص ٣٩٩، الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٤٧١، المقدسي: البدء، ج ٦ ص ١٥، ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي ت ٧١١هـ/١٣١١م، مختصر تاريخ دمشق، تح: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطي، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٤م، ج ١٠ ص ٩٦.

(٣) ابن الأعمش: الفتوح، ج ٢ ص ٤٥.

الصحابه الذين رأوا أنهم أحق بالحكم من يزيد، وكانت أول موجات السخط خروج الحسين بن علي إلى العراق فقد كان أهل الكوفة راسلوه، ووعدوه النصر، والخروج معه ضد يزيد، وسارت الأمور بشكل مغاير لما خطط له، فانتتهت حياة الحسين بن علي رضي الله عنه مع أصحابه في كربلاء سنة ٦١هـ/٦٨٠م، وهذا كان من جهة العراق أحد مركزي المعارضة الرئيسيين للحكم الأموي، وبوفاة الحسين سرعان ما استغل عبد الله بن الزبير مقتل الحسين بن زياد للخروج والتشجيع بالحكم الأموي، وكان ابن الزبير يمثل المركز الرئيسي الثاني، وموقعه الحجاز ولاذ بالكعبة، وامتنع عن البيعة ليزيد، وأصبحت الأمور أكثر تعقيداً^(١).

وكان سلم بن زياد وفد على يزيد بن معاوية آنذاك يطلب أن يوليه عملاً، فقال له يزيد: "لعمري ما أنت بدون غيرك، ولقد وجبت يا بني زياد محبتكم على آل سفيان"^(٢)، فعقد له عقداً وولاه خراسان وسجستان وهو ابن أربع وعشرين سنة، وأوصاه أن يكفيه، أمر هذين الثغرين ليتفرغ لمشاكل الحجاز^(٣)، وفي رواية قال له يزيد: يا أبا حرب، أوليك عمل أخويك: عبد الرحمن وعباد؟ فقال: ما أحب أمير المؤمنين، فولاه خراسان وسجستان، فوجه سلم الحارث بن معاوية الحارثي من الشام إلى خراسان، وقدم سلم البصرة، فتجهز وسار إلى خراسان، ومعه المهلب بن أبي صفرة وعبد الله بن خازم وسادات البصرة، ونزل مرو، ووجه أخاه يزيد بن زياد إلى سجستان^(٤).

وفي سنة ٦٢هـ/٦٨١م توجه بحملة من مرو إلى بلاد ما وراء النهر، فصالحه أهل خوارزم على أربعمئة ألف، وحملوها إليه، وقطع النهر ومعه امرأته أم محمد بنت عبد الله بن عثمان بن أبي العاصي الثقفي، وكانت أول عربية عبر بها النهر، ووجد خاتون ملكة بخارى قد نقضت العهد، واستنجدت بجيرانها من الصغد، فكتبت إلى طرخان ملك الترك تستمده وتستنجده على أن تزوجه نفسها، وجاء طرخان في جيش عظيم من الترك والصغد وناهضهم القتال فهزمهم، وأعادت خاتون الصلح من جديد مع سلم،

(١) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٣١٦، ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٥ ص ١٢٥.

(٢) ابن الأعمش: الفتوح، ج ٢ ص ١٨٩.

(٣) ابن عساکر: تاريخ دمشق، ج ٢٢ ص ١٤٤. وفي وصية أخرى يذكرها ابن حمدون: محمد بن الحسن بن محمد بن علي ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م، التذكرة الحمدونية، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج ١ ص ٤٢٩.

(٤) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٤٧٢، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ١٩٨، ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، ج ١٠ ص ٩٦، الزركلي: الأعلام، ج ٣ ص ١١٠.

واستعاد بخارى، وأتى سمرقند فأعطاه أهلها ألف دية، وولد له ابن سماه الصغدي، ووجه سلم بن زياد وهو بالصغد جيشاً إلى حجندة، وفيهم أعشى همدان فهزموا فقال الأعشى:

لَيْتَ خَيْلِي يَوْمَ الْحُجْنَدَةِ لَمْ تُهْ زَمْ وَغُودِرْتُ فِي الْمَكْرِ سَلِيْبَا
تَحْضُرُ الطَّيْرُ مَصْرَعِي وَتَرْوُحُ تْ إِلَى اللَّهِ بِالْدمَاءِ خَضِيْبَا

ثمَّ رجع سلم إلى مرو، ثمَّ غزا سنة ٦٣هـ/٦٨٢م فقطع النهر وقتل بندون أو بيدون الصغدي، وقد كان الصغد جمعت له فقاتلها^(١).

وعاد مسرعاً إلى مرو ليعالج مشاكل المنطقة الداخلية، فقد أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، فقد مات يزيد بن معاوية سنة أربع وستين فبويع بعده معاوية بن يزيد بن معاوية، فلم يمكث إلا ثلاثة أشهر حتى توفي، وقيل: بل ملك أربعين يوماً ثمَّ مات، ولما بلغ سلم موت يزيد بن معاوية كتم ذلك، ولكنَّ الخبر انتشر بين الناس في خراسان انتشار النار في الهشيم، ولما علم سلم بانتشار خبر موت يزيد بين الناس، أظهر موت يزيد وابنه معاوية، ودعا الناس إلى البيعة على الرضا حتى يستقيم أمر الناس على خليفة، فبايعوه ثمَّ نكثوا بعد شهرين^(٢)، وكان سلم محسناً إليهم محبوباً فيهم، ولكن قسماً من القبائل العربية خلعوه عصبية وتعصباً وفتنة، فلم يجد أهل خراسان أميراً قد حبههم مثل سلم بن زياد حتى إنهم سمو باسمه في تلك السنة أكثر من ألف غلام مولود، ولكن قائلهم قال: بئس ما ظنَّ سلم، إن ظنَّ أنه يتأمر علينا في الجماعة والفتنة، ووثب أهل خراسان بعمالهم فأخرجوهم، وغلب كل قوم على ناحية، ووقعت الفتنة، ووقعت الحرب، ونشب الاقتتال بين القبائل العربية، وأصبحت خراسان مناطق في كل منطقة قائد وأمير، وتساقطت القتلى بين المسلمين بالسيوف وتوقف الفتح^(٣).

على أي حال استطاع سلم أن يحرز نصراً في ظروف صعبة من حيث سخونة المشهد السياسي، وبرودة المناخ في بلاد ما وراء النهر التي تجمد فيها الأنهار، ويعبر عليها الخيول والجمال بما تنوء بأحمالها،

^(١) ابن خياط: تاريخ، ج ١ ص ٢٣٥، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٥ ص ٢٢، النرشخي: تاريخ، ص ٦٥-٦٧، ابن العماد:

شذرات، ج ١ ص ٢٨٢، فامبري: بخارى، ص ٦٠، خطاب: قادة الفتح، ص ١٥٦.

^(٢) البلاذري، فتوح، ص ٤٠٠، أبو الفداء: المختصر، ص ١٩٣، النويري: نهاية، ج ٢٠ ص ٥١٣.

^(٣) الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٥٤٦.

ودور سلم قد بَيَّنَّه القاصي قبل الداني، حيث يذكر المؤرخ شافان أنه استطاع العثور ضمن المجموعة الصينية (تشي - فو - يون - كوى) على كتاب بعث به حاكم سمرقند إلى إمبراطور الصين سنة ١٠٠هـ/٧١٨م ينوه فيه عن التحول العربي الجديد، وفي الغارات، ويذكر أن بداية الصراع مع العرب كانت منذ ٣٥ عاماً مشيراً إلى جهود سلم^(١)، وكيف لا، وهو من أعاد فتح الصغد بكاملها وبخارى وسمرقند وخوارزم، فأُنجز في الفتوحات، واعتزل الفتن فقد سُجن عند عبد الله بن الزبير في مكة تسع سنوات ٦٣-٧٣هـ/٦٨٣-٦٩٢م، ولم يلوث سيفه، فكان السجن خيراً له من هذه الفتنة التي قطعت ومزقت الإحن والسُخائم والعصبية القبلية صفوف العرب في قاعدة الفتح العربي الإسلامي لبلاد ما وراء النهر خراسان.

وبعد عرض الأحداث والعمليات في عهد معاوية بن أبي سفيان كان من المتوقع وجود خطوات واسعة في تقدم الفتوحات في المشرق، ولكن ما هو سبب الفتور النسبي في الجناح الشرقي ذلك أن معاوية قد أولى حرب الروم البيزنطيين عناية فائقة أكثر مما كانت عنايتهم بأمر الإمبراطورية الساسانية، وكذلك ولده يزيد، وربما ذلك عائد إلى:

١- أن العراق وهي مركز الحركات الشرقية لم ينقاد لهما، وإنما كان ناراً ملتهبة تخبو لتشتعل، فلم يتح للدولة أن ينصرفوا إلى الفتوح، وأن يسيروا البعوث، وهم لا يملكون سلطانهم الكامل على الكوفة والبصرة.

٢- أن البيزنطيين الروم أقرب إلى مركز الخلافة في دمشق وأدنى من الإمبراطورية الفارسية، وقد تم القضاء على الأسرة الساسانية منذ مقتل يزيدجرد في مرو في خلافة عثمان رضي الله عنه، فلم يكن في الجناح الشرقي ما يخيف دمشق، وإنما الخطر من الإمبراطورية البيزنطية التي كانت لا تزال تنبض بكل مقومات الحياة، وتعاقب الأباطرة الأقوياء حتى استقر الأمر للخليفة عبد الملك بن مروان^(٢).

^(١) بارتولد: تركستان، ص ١٨٣، محمود: الإسلام، ص ١٢٠.

^(٢) فيصل: حركة الفتح، ص ١٨٩.

رابعاً- الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد ما وراء النهر زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ٧٢-

٨٦هـ/٦٩٢-٧٠٤م:

أسلف الحديث أن الخلافة العربية الإسلامية في دمشق قد نعت موت يزيد بن معاوية عام ٦٤هـ/٦٨٣م^(١)، وتبدلت الأمور، واشتعلت نيران الفتنة العربية القبلية القيسية واليمانية، وولاية خراسان بعد سلم بيد عبد الله بن خازم، وظل عبد الله والياً على خراسان من قبل عبد الله بن الزبير حتى قتل سنة ٧٣هـ/٦٩٣م.

وأقام عبد الله بن خازم بخراسان، وفي ولايته خرج عليه أهل هراة والطالقان، ووجد الترك في ذلك فرصة عظيمة فأغاروا على خراسان^(٢)، ولكن سرعان ما تخلص ابن خازم من معارضيه، وكتب عبد الملك إلى عبد الله بن خازم السلمي يدعوه إلى بيعته، وله خراسان سبع سنين مع سورة بن أشيم النميري، فقال ابن خازم لسورة: لولا أن أضرب بين بني سليم وبني عامر لقتلتك، ولكن كل هذه الصحيفة، فأكلها، ولمعرفة عبد الملك بابن خازم وتوقعه رفض الكتاب كتب عبد الملك إلى بكير بن وشاح -أحد بني عوف بن سعد، وكان خليفة ابن خازم على مرو- بعهدده على خراسان ووعدده بها، فخلع بكير بن وشاح عبد الله بن الزبير، ودعا إلى عبد الملك بن مروان، فأجابه أهل مرو، وبلغ ابن خازم، فخاف أن يأتيه بكير بأهل مرو، فيجتمع عليه أهل مرو وأهل أبرشهر، فرحل إلى ابنه بالترمد، فتبعه بحير بن ورقاء الصريمي صريم بن الحارث^(٣)، فلحقه وتقاتلا وقتل ابن خازم على يد وكيع بن عميرة القريعي وهو ابن الدورقية^(٤) عام ٧٢هـ/٦٩٢م^(٥).

(١) المسعودي: مروج، ج ٣ ص ٧٣، ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م، الإمامة والسياسة، تح: علي شيري، دار الأضواء، ط ١، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص ٢٣٤، ابن كثير البداية، ج ١ ص ٦٨٤.

(٢) للتفاصيل، الطبري: تاريخ، ج ٣ ص ٣٨٦ النويري: نهاية، ج ٢١ ص ٦١.

(٣) بحير بن ورقاء الصريمي صريم بن الحارث وكان في حرب مع ابن خازم، انظر: الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ١٧٦.

(٤) لأن أمه من سبي دورق بلد بخوزستان، البلاذري: الأنساب، ج ١٣ ص ٣١٢، الحموي: معجم البلدان، ج ٢ ص ٤٨٣.

(٥) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ١٧٦، البلاذري: فتوح، ص ٤٠٥، مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٢٤٨، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ص ١٢١، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٢٤٦، المقدسي: البدء، ج ٢ ص ٢٤٨، فلهاوزن: يوليوس، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، تر: محمد عبد الهادي أبو ريده، وحسن مؤنس، القاهرة، د.ت، ص ٤٠١-٤٠٤.

أما ابنه موسى فقد عبر نهر جيحون في مئتين وعشرين رجلاً، واستقر في بخارى، وبعد ثورة عارمة قامت ضده توجه منها إلى سمرقند، وسار منها إلى كش، ثم استقر به المقام في مدينة ترمذ، بعد أن دارت بينه وبين أهل المدينة معارك طاحنة سرعان ما انضم إلى موسى جند أبيه، وكثر جمعه بالمدينة، فصار والياً عليها^(١)، واستمرت جهوده في هذه البلاد حوالي من خمسة عشر عاماً ٧٠-٨٤هـ / ٦٨٩-٧٠٤م حتى تولى يزيد بن المهلب، وانضم إلى موسى ثابت بن قتيبة الخزاعي الذي استقل بخراسان، وبعد وقت غير طويل دبَّ الخلاف بين موسى وثابت، وقتل الأخير بالفتن التي أعقبت ذلك، واسترد الأمويون نفوذهم في البلاد بفضل المفضل بن المهلب بن أبي صفرة بعد أن مد له يد العون أخشيد الصغد وتم القضاء على موسى عام ٨٥هـ/٧٠٤م، وهكذا انحاز أمراء الترك في هذا الصراع إلى الخلافة الأموية^(٢).

وهكذا توقفت حركة الفتوحات العربية الإسلامية في هذه المنطقة بسبب النزاعات التي دارت حول الخلافة الإسلامية في بلاد الشام، ونجح عبد الملك بن مروان في القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير عام ٧٣هـ/٦٩٣م، وما تبعها من مشكلات في النصف الشرقي من الدولة العربية الإسلامية، وولى عبد الملك بن مروان على خراسان وسجستان:

١- أمية بن عبد الله بن خالد الأموي ٧٤-٧٨هـ/٦٩٣-٦٩٧م:

ولى عبد الملك أمية الذي ظل ثلاث سنوات كاملة يحاول إصلاح ما فسد من خراسان بعد قتل ابن خازم، ولما استتب له الأمر سنة ٧٤هـ/٦٩٣م^(٣) عزم على غزو بخارى خارجاً من طخارستان، فجهز جيشه، وسار حتى بلغ نهر جيحون، وهناك أستأذنه بكير بن وشاح في العودة إلى مرو^(٤)، وعندما وصلها

(١) البلاذري فتوح، ص ٥٥١-٥٥٣، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٢٤٦، النويري: نهاية، ج ٢١ ص ٢٦٥-٢٧٥.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ١٧٦، محمود: الإسلام، ص ١٢١، خطاب: قادة الفتح، ص ٣٥٧.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ٣٨٦، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ١٩٩، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ١٧٢، البيهقي: أبو الحسن ظهير الدين علي بن زيد بن محمد بن الحسين ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م، تاريخ بيهق، دار اقرأ، دمشق، ط ١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ١٩٦، السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م، إسعاف المبطل برجال الموطأ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د. ت، ج ١ ص ٥، ضياء الدين: الرئيس، عبد الملك بن مروان موحد الدولة، دار الثقافة، القاهرة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، ص ٢٦٦.

(٤) البلاذري: فتوح، ص ٣٨٦، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٢٥١، ابن كثير: البداية، ج ١١ ص ٦١٥.

أعلن الثورة ضد أمية فاضطر الأخير إلى مصالحة أهل بخارى على فدية قليلة يؤدونها للمسلمين، وعاد إلى مرو للقضاء على ثورة بكير، وبعد جولة من الحروب ليست بالطويلة نجح أمية في قتل بكير بن وشاح والقضاء على الثورة، وعندما اطمأن أمية على استقرار الأمن في خراسان في أوائل عام ٧٨هـ/٦٩٧م غزا الحتل إحدى مدن طخارستان لنقضهم الصلح الذي أبرموه مع سعيد بن عثمان بن عفان إلا أنه لم ينجح في فتحها، وكاد الجيش أن يهلك^(١) ولم يستمر أمية والياً على خراسان بعد غزو الحتل، فقد عزله عبد الملك بن مروان^(٢)، وضم خراسان إلى الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق.

٢- الحجاج بن يوسف الثقفي ٧٨-٨٦هـ/٦٩٧-٧٠٤م:

ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي العراق دون خراسان وسجستان سنة ٧٥هـ/٦٩٤م، وكان من قبل على مكة والمدينة، وفي عام ٨٧هـ/٦٩٧م، عزل الخليفة عبد الملك بن مروان أمية عن خراسان وسجستان وجعلهما إلى أعمال الحجاج بن يوسف الثقفي^(٣)؛ ليصبح سلطان المشرق المتفرد بحكمه، ولتبلغ الفتوحات في عهده أوجها ولاسيما في بلاد ما وراء النهر، ومن أهم الولاة الذين ولاهم الحجاج خراسان وسجستان هم:

أ- المهلب بن أبي صفرة الأزدي ٧٩هـ/٦٩٨م:

استؤنف الفتح العربي الإسلامي لبلاد ما وراء النهر سنة ٨٠هـ/٦٩٩م؛ أي بعد أربع عشرة سنة من التوقف عن الفتوحات وإعمال العصبية القبلية، وقد اختار الحجاج لهذا الإقليم رجالاً من خيرة رجال عصره ممن عرف بالشجاعة والإقدام، وهو المهلب بن أبي صفرة الأزدي الذي فرغ من حروب الخوارج الأزارقة^(٤)، وبدأ مرحلة جديد من حياته بتوليّه إقليم خراسان، فنزل العاصمة مرو، ثم أخذ يعيد الهدوء والأمن والنظام إلى البلاد، ومن ثم عبر بنفسه نهر بلخ على رأس جيش تعداده ثمانية آلاف مقاتل، ونزل كش، فأقام المهلب بمدينة كش ما يقرب من سنتين، وقيل له: لو تقدمت إلى ما وراء ذلك، فقال: "ليت

(١) البلاذري: فتوح، ص ٣٨، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٢٠١، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٢٥٢.

(٢) يعلى ابن قتيبة عزل أمية إلى ما اتصف به من الجبن وعدم الشجاعة، ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج ١ ص ١٦٦-١٧١.

(٣) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٦١٢، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٤٨١، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ٤٥.

(٤) لمزيد من التفاصيل ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ص ٢٠٤، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ٤٦.

حظي من هذه الغزوة سلامة هذا الجند وعودهم سالمين^(١)، ثم جعل يغزو البلاد غزواً متواصلاً، فخيّل له بسمرقند، وأخرى ببخارى وثالثة بطخارستان، ورابعة ببست، وكلما فتح فتحاً أخرج الخمس لبيت المال، وأرسله إلى الحجاج، ويقسم الباقي بين أصحابه، ووجه المهلب ابنه يزيد إلى بلاد الختل، وملكها الشبل أو كما ورد في مصادر أخرى (السبل) بناء على ترغيب ابن عم الملك، وفي بلاد الختل تمكن الملك الشبل من ابن عمه فقتله، وكان ذلك مقابل الخضوع للعرب المسلمين وهذه كانت المرة الأولى التي يستعين بها الهياطة بالمسلمين ضد بعضهم بعضاً، أما يزيد بن المهلب فقد استطاع تحقيق أهداف الحملة، فقد اضطره إلى المصالحة ودفع الفدية، بعد أن هزمه عسكرياً، وقام بمضايقته في حصار قلعة الشبل، وأرسل ابنه الثاني حبيب إلى رابنجن، ولم تجر معركة بينهما، واقتصرت على مناوشات صغيرة، ومبارزات فردية، ثم قفل ملك بخارى عائداً إلى بلده لسبب غير معلن، وقد يكون نتيجة النزاعات الداخلية في بخارى، وفي رواية أخرى وافى صاحب بخارى في أربعين ألفاً، فقام قسم من أهالي بخارى بالهروب والاختباء بإحدى القرى فاجتثهم، وعاد حبيب إلى أبيه منتصراً^(٢).

وتذكر بعض المصادر أن المهلب توسع في أشروسنة شرق الصغد وفتح مدينة خجند^(٣)، وتجدد الإشارة إلى أن في هذه الأوقات كانت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث وأثرت في حركة الفتوح ولاسيما عند تقدمه إلى العراق واحتلاله الكوفة والبصرة، ولم يتم القضاء عليه حتى عام ٨٣هـ/ ٧٠٢م، وكان لثورة ابن الأشعث الأثر الكبير في جهود حركة الفتوحات.

وعاد المهلب إلى مرو، ولم يلبث إلا قليلاً، وتوفي عام ٨٢هـ/ ٧٠١م وخلفه على حكم خراسان ابنه يزيد، وقد قيل في مناقب المهلب: "ساد الأحنف بحلمه، ومالك بن مسمع بمحبته للعشيرة، وقتيبة بدهائه،

(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٦٣٣، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ص ٢٣٤، شاهين: حمدي، الدولة الأموية المفترى عليها، دار الكتاب، القاهرة، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص ٢٤٨.

(٢) البلاذري: فتوح، ص ٥٧٦، الذهبي: العبر: ج ٣ ص ٤٦، اليعقوبي: تاريخ، ج ٢ ص ٣٣٠، النرخسي: تاريخ، ص ٧٠، خطاب: قادة الفتوح، ص ٢٠٦، الصلابي: الدولة الأموية، ج ٢ ص ٣٧، زيادة: محمود، الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه، دار السلام، القاهرة، ط ١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص ١٩٣،

Gibb: the Arab Conquests, p25.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ٥٧٦.

وساد المهلب بهذه خلال كلها^(١).

ب- يزيد بن المهلب ٨٣هـ/٧٠١م:

أقر الحجاج بن يوسف تولية يزيد بن المهلب على خراسان، ونجح يزيد في فتح جبال البتم، وغزا خوارزم^(٢) التي أصاب منها سبباً كثيراً، وغزا قلعة نيزك ب (بادغيس) ولم يلبث يزيد في حكم خراسان سوى فترة بسيطة، ثم عزله الحجاج خوفاً من أطماعه في السلطة وسوء معاملته المالية فضلاً عن ازدياد آل المهالبة في خراسان^(٣)، وكتب الحجاج إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب بالزبيريّة، فكتب إليه عبد الملك: "إني لا أرى نقصاً بآل المهلب طاعتهم لآل الزبير، بل أراه وفاء منهم لهم، وإن وفاءهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لي"، فكتب إليه الحجاج يخوفه غدرهم، فكتب إليه عبد الملك: "قد أكثر في يزيد وآل المهلب، فسم لي رجلاً يصلح لخراسان"، فلما أذن عبد الملك للحجاج في عزل يزيد كره أن يكتب إليه بعزله، فكتب إليه أن استخلف المفضل فعزل الحجاج بن يوسف يزيد بن المهلب عن خراسان، وولاه المفضل بن المهلب أخا يزيد، وللفرزدق أبيات في عزل يزيد بن المهلب:

أبا خالد ضاعت خراسان بعدكم وقال ذوو الحاجات أين يزيد

فما لسرير الملك بعدك بهجة وما لجواد بعد جودك جود^(٤)

قيل ليزيد: أي بيت استحسنته من المدائح التي قيلت فيك؟ فقال هذا البيت:

فتى زاده السلطان في الحمد رغبة إذا غيّر السلطان كلّ خليل^(٥)

بدأ المفضل جهاده بغزو مدينتي آخرون وشومان من إقليم بخارى، فظفر وغنم^(١)، وقسم ما أصابه من

(١) المبرد: محمد بن يزيد ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م، الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ج ١ ص ١٦٨، ابن نباتة: سرح العيون، ص ١٠٢، ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ج ٢ ص ١٨، الزركلي: الأعلام، ج ٥ ص ٢٦٥.

(٢) البلاذري: فتوح، ص ٥٥٦، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٢٣، ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٤٨٣.

(٣) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢ ص ١٩٣، الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٤٧٧، المقدسي: البدء، ج ٦ ص ٣٧، النويري: نهاية، ج ٢١ ص ١٦٠، حسين، خراسان، ص ١٢٦.

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٧ ص ١٢١.

(٥) البيهقي: تاريخ بيهق، ص ٢٠١.

غنائم بين جنده، ويبدو أن المفضل قد نجح في استعادة فتح هذه المنطقة من بلاد ما وراء النهر في مدة زمنية قصيرة جداً؛ إذ لم يبقَ في ولاية خراسان سوى تسعة أشهر فقط وهذا يدل على قيادته الحكيمة^(١)، وعلى كل حال فقد عزل الحجاج المفضل عن خراسان وأقصى الحجاج جميع المهالبة عن خراسان وماوراء النهر؛ لأنهم كانوا خصومه السياسيين الذين ينازعونه على السلطة ويكون بعزل المفضل انتهى دور المهالبة في الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد ما وراء النهر.

وأسندت ولاية خراسان إلى الرجل الذي شئت له الأقدار أن يخطو الخطوة الحاسمة في فتح بلاد ما وراء النهر، وأن يرتبط فتح هذه البلاد باسمه، ذلك هو قتيبة ابن مسلم الباهلي، الذي استثمر جهود كل القادة الكبار الذين سبقوه، وحرثوا له البلاد، ومهدوا له الطريق ابتداء من عبد الله بن عامر، ومروراً بزياد بن أبي سفيان وابنه عبيد الله، وسعيد بن عثمان بن عفان، والمهلب بن أبي صفرة وأولاده.

^(١) البلاذري: فتوح، ص ٥٥٧، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٤٨٥، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ص ١٦٤.

^(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٤٨٧، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ص ٢٦١، المزني: جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج ٢٨، ص ٤٢١.

الفصل الرابع

الفتوحات العربية الإسلامية زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك

(٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م)

أولاً- التعريف بقتيبة بن مسلم الباهلي:
١- اسمه ونسبه.
٢- أسرته.
٣- قبيلته.
ثانياً- قتيبة بن مسلم الباهلي والحجاج بن يوسف الثقفي قبل عمليات الفتح.
ثالثاً- ولاية قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان.
رابعاً- فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي:
أ- المرحلة الأولى: فتح طخارستان والطالقان والصغانيان.
ب- المرحلة الثانية: فتح بخارى.
ج- المرحلة الثالثة: فتح خوارزم وسمرقند.
د- المرحلة الرابعة: فتح فرغانة والشاش وكاشغر.
خامساً- مصرع قتيبة بن مسلم الباهلي.
سادساً- الاستراتيجية العسكرية لقتيبة بن مسلم الباهلي في الفتوحات.
سابعاً- قتيبة بن مسلم الباهلي القائد الحكيم.
ثامناً- ما وراء النهر بعد مقتل قتيبة.

تعد هذه المرحلة الأخيرة والمنظمة في عمليات الفتح العربي الإسلامي لما وراء النهر التي كانت تنقض الصلح بين الحين والآخر، وكان التمرد سمة لفتوحات المشرق حتى مجيء القائد الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي الذي استطاع أن يقهر كل الظروف وغيرها من التحديات، ووضع برنامجاً من خلاله تصدر الحقبة الزمنية التي كانت مادة دسمة في المصادر التي اقتصرنا فقط حول الأعمال العسكرية التي قادها قتيبة بن مسلم الباهلي، وهذا ما يراه بعضهم ربما مأخذاً على المصادر العربية؛ لأنها اقتصرنا بهذا العقد الزمني (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م) على الناحية العسكرية فقط بالفعل كانت الأحداث العسكرية هي المتصدرة، وكيف لا وكانت لها الصدارة بعد أعوام وأعوام من الفتح والتراجع ونقض الصلح حتى تمكن قتيبة من وضع البصمات الأخيرة والنهائية في تثبيت دعائم الحكم العربي والإسلامي فيما وراء النهر، فمن هو قتيبة بن مسلم الباهلي؟

أولاً- التعريف بقتيبة بن مسلم الباهلي:

١- اسمه ونسبه:

ولد زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان عام (٤٩هـ / ٦٦٩م)^(١)، واختلف حول سلسلة نسبه في عدة مصادر، فهو على العموم أبو حفص قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن أسيد بن زيد بن قضاعي من بني هلال بن عمرو من باهلة، وكان مسلم بن عمرو عظيم القدر عند يزيد بن معاوية، ويكنى أبا صالح وفيه يقول الشاعر:

إذا ما قرش خلا ملكها فإنّ الخلافة في باهلة
لربّ الحرون أبي صالح وما تلك بالسنة العادلة^(٢)

وأورد ابن خلكان بأنه: أبو حفص قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين بن ربيعة بن خالد بن أسيد الخير بن قضاعي بن هلال بن سلامة بن ثعلبة بن وائل بن معن بن مالك بن أعصر بن سعد بن قيس بن

^(١) ابن خياط: تاريخ، ج ١ ص ٢٠٩.

^(٢) ابن قتيبة: المعارف، ص ٤٠٦، الجواليقي: أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن ت ٥٤٠هـ/١١٤٥م، شرح أدب الكاتب لابن قتيبة، تق: مصطفى الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ١٢٥.

عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الباهلي^(١).

٢- أسرته:

والده مُسلم بن عمرو بن حُصَيْن بن أُسَيْد بن زَيْد بن قُضَاعِيَّ^(٢)، ويقال له: صاحب الحرون وهو من خيل باهلة من الفحول الشهيرة يضرب بها المثل، فكان فارساً، وكان يلقب بالسائس لبصره بالخيل وصنعتة لها^(٣)، ويقال: إنه كان جمالاً في أيامه الأولى، وكان مسلماً عظيماً القدر عند يزيد بن معاوية ولكن قتل مسلم مع مصعب بن الزبير سنة ٧٢هـ/٦٩١م^(٤)، لكن ما الذي جعل مسلماً ينحاز إلى الزبيريين أعداء بني أمية وواليتهم الحجاج؟ وكيف لم يؤثر ذلك في المستقبل القريب على ولده قتيبة عندما اختير من قبل الحجاج ليكون والياً على خراسان وقائد عمليات المشرق؟ يوضح ابن عساكر برواية أنه قد تم العفو عنه بواسطة خالد بن يزيد بن معاوية، فطلب له الأمان من عبد الملك، فأرسل إليه: ما تصنع بالأمان وأنت بالموت، وقد كان جريحاً قال: "ليسلم لي مالي ويأمن ولدي، فحمل على سرير فأدخل على عبد الملك، فقال عبد الملك لأهل الشام: هذا أكفر الناس لمعروف، ويحك أكفرت معروف يزيد بن معاوية عندك فقال: له خالد تؤمنه يا أمير المؤمنين فأمنه، ثم حمل فلم يبرح الصحن حتى مات^(٥). وكانت أمه تدعى الغراء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد بن سعد بن زرارة^(٦)، وكان لأخواله دور مهم في حمايته عند نشوب

(١) وهناك اختلاف بين المصادر حول سلسلة نسبه انظر البلاذري: أنساب، ج ١٣ ص ٢٣٣، المرزباني: أبو عبيد الله محمد بن عمران ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م، معجم الشعراء، تح: ف. كرنكو، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص ٣١، السمعاني: الأنساب، ج ٢ ص ٧١، ابن خلكان: وفيات، ج ٤ ص ٨٦، ابن حزم: جمهرة أنساب، ص ٢٤٦، الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي، ت ٣٥٦هـ/٩٦٩م: الأغاني، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط ١، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ص ١٥٩.

(٢) ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن ت ٣٢١هـ/٩٩٣م، الاشتقاق، عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص ٢٧٣، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٥٨ ص ١١٤.

(٣) ابن الكلبي: هشام بن محمد أبي النضر ت ٢٠٤هـ/٨١٩م، أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تح: حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ١٤٢٣هـ/٢٠١٣م، ص ٦٣.

(٤) الفسوي: يعقوب بن سفيان بن جوان ت ٢٧٧هـ/٨٩٠م، المعرفة والتاريخ، تح: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج ٣ ص ٣٣١، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٢ ص ٣١، الذهبي: سير، ج ٤ ص ٤١٠.

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٥٨ ص ١١٥.

(٦) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٦١٥، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٦١٥.

فتنة مقتله، وقال قتيبة بن مسلم لما ماتت أمه: سُدَّ دُونِي بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، فَقِيلَ لَهُ: نَعَمْ، وَبَابٌ مِنْ أَبْوَابِ النَّارِ؛ لِأَنَّكَ مَا كُنْتَ تَأْمَنُ أَنْ تَعْقَهَا.

قال كشاجم^(١):

أبعد مصاب الأمّ ألف مضجعاً وآوي إلى خفض من العيش أو ظلّ؟
سترضع عيني قبرها من دموعها بما كلفته من رضاعي ومن حملي
رثيت لنصل يأخذ الموت جفنه وأعجب من فرع ينوح على أصل^(٢)

ولقتيبة أخوة كثر، وهم: بشار، وزيد، وعبد الكريم، وعبد الله، وصالح، وعبد الرحمن، وحماد، وزريق، وضرار، وعمر، ومعبد، والحصين. أما أولاده فهم: مسلم، وقطن، وكثير، والحجاج، وعبد الرحمن، وسلم، وصالح، وعمر، ويوسف^(٣).

٣- قبيلته:

ينتمي قتيبة إلى قبيلة باهلة، التي تنسب إلى باهلة بن أعصُر، ويقال: يعصر بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان، اتَّفَقَ على هذا أهل النسب وباهلة امرأة، أمُّ ولد معن بن مالك بن يعصر، وهي باهلة بنت سعد العشيرة من مذحج (وهي اليوم تعرف بقحطان) وبها عُرفت^(٤)، وأعصر أو (يعصر) له ولدان هما: مالك وعمرو، فمالك أبو قبيلة باهلة، ومضر الجد الثالث للقبيلة وهو

^(١) كشاجم: أبو الفتح محمود بن الحسين، كاتب وشاعر وأديب مبدع ومتفنن فارسي الأصل، ولد في العراق وأقام في حلب، ومدح الحمدانيين ت ٣٥٠هـ/٩٦١م، انظر: الذهبي: سير، ج ١٢ ص ٣١٠.

^(٢) كشاجم: محمود بن الحسين ت ٣٦٠هـ/٩٧١م، ديوان كشاجم، ص ٣٢٨، الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد ت ٥٠٢هـ/١١٠٨م، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار الأرقم، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج ٢ ص ٥٥١.

^(٣) ابن خلكان: وفيات، ج ٢ ص ١٤٨.

^(٤) البلاذري: أنساب، ج ١٣ ص ٢٢٨، ابن حزم: جمهرة، ص ٢٤٥، العصامي: سمط، ج ١ ص ٣٥١، الهمداني: أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمي ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م، عجلة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب، تح: عبد الله كنون، المطابع الأميرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص ٢٢، البكجري: مغلطي بن قليج بن عبد الله ت ٧٦٢هـ/١٣٦٠م، إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: عادل بن محمد، أسامة بن إبراهيم، الفاروق الحديثة، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج ٦ ص ٣٦٧.

الجد السادس عشر للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

وقد أثّرت كثير من القلاقل حول قبيلة باهلة حتى إن بعضهم كان يستنكف من الانتساب إلى باهلة حتى قال الشاعر، وقد نسب هذا البيت إلى بشر بن أبي خازم الأسدي:

وما ينفَعُ الأصلُ من هاشمٍ إذا كانتِ النَّفسُ من باهلة^(١)

وروي أن قتيبة مازح أعرابياً فقال: أيسرك أن تكون باهلياً فقال: لا والله. قال: فتكون باهلياً خليفة قال: لا والله، ولو أن لي ما طلعت عليه الشمس، قال: فيسرك أن تكون باهلياً، وتكون في الجنة، فأطرق ثم قال: بشرط أن لا يعلم أهل الجنة أنني باهلي، فضحك من قوله. وقيل أيضاً:

وَلَوْ قِيلَ لِلْكَلبِ يَا باهلي عوى الكلب من لؤم هذا النَّسبِ^(٢).

وقيل لأبي عبيدة: يُقال: إن الأصمعي دُعي في النسب إلى باهلة فقال: هذا ما يمكن، فقيل: ولم قال: لأن الناس إذا كانوا من باهلة تبرؤ منها فكيف يجيء من لا هو منها فينتسب إليها. فلاشك بالخلاف والعداء الذي كان يكرهه أبو عبيدة العدو للدود للأصمعي المتصدي لقبيلته بالتنقص والثلب؛ إذ لا وازع يمنعه، ولا رادع يردعه عن الافتراء، والكذب، وهو المعروف بتبّع نقائص العرب جميعهم بل باختلاق كثير من النقائص والافتراءات^(٣).

^(١) الثعالبي: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م، التمثيل والمحاضرة، تح: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ط ١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٤٥٦، الثعالبي: المنتحل، تح: أحمد أبو علي، المطبعة التجارية، الإسكندرية، ١٣١٩هـ/١٩٠١م، ص ١٣٨، الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، الشعور بالعور، عبد الرزاق حسين، دار عمار، الأردن، ط ١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص ١٩٤، وليس في ديوان بشر المطبوع ذكر لهذا البيت، انظر: الأسدي: بشر بن أبي خازم ت ٢٢٠هـ/٥٩٨م، ديوان بشر، تح: عزة حسن، منشورات وزارة الثقافة، ط ٢، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

^(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١٠ ص ١٠٥، ابن الجوزي: المنتظم، ج ١٠ ص ٢٠٤، القزويني: أبو القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الرافي ت ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، التدوين في أخبار قزوين، تح: عزيز الله العطاردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ج ٢ ص ٢٠٣.

^(٣) الجاسر: حمد، باهلة القبيلة المفتري عليها، دار اليمامة، الرياض، ط ١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص ٦٥٥. ولأبو عبيدة هذا كتاب في مثالب العرب.

وليس أوضح من هذا الافتراء الذي نسب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ذكر: أن الأشعث بن قيس الكندي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتتكافأ دماؤنا فقال: "نعم لو قتلت رجلاً من باهلة لقتلتك به"، والعجب العجيب أن ينسب هذا القول لمن قال: "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ فَلْيَبْشُرْ بَيْتًا فِي النَّارِ"^(١)، وهل يعقل أن يزدي رسول الله أو ينتقص أحداً من المسلمين؟

وسئل حسين بن بكر الكلابي النسابة عن السبب في اتضاع باهلة وغني (أخو مالك بن أعصر) عند العرب، فقال: "لقد كان بينهما غناء وشرف، ولم يضعهما إلا إشراف أخويهما فزارة وذبيان عليهما بالماثر، فدنؤا بالإضافة إليهما"^(٢).

كانت قبيلة باهلة كغيرها من القبائل العربية لما انتشر الإسلام بين العرب من الوفود التي وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم وكان رئيس ذلك الوفد مطرف بن الكاهن فقال: يا رسول الله، سلمنا للإسلام وشهدنا دين الله في سماواته، وأنه لا إله غيره، وصدقناك، وآمنا بكل ما قلت، فاكتب لنا كتاباً، وكان ذلك بعد فتح مكة، وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً فيه الفرائض، وشرائع الإسلام كتبه عثمان بن عفان رضي الله عنه^(٣).

ثم انتشر الإسلام في هذه القبيلة كغيرها من قبائل العرب، فكان منها من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعضهم شارك في الفتوحات العربية الإسلامية، لهذا تعد هذه القبيلة من قبائل العرب التي لها مواقف محموددة في الإسلام، ومنها موقعة القادسية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفي فتح الشام كان بعض الباهليين قواداً فأبلوا بلاءً حسناً في فتح مدينة حمص، وذكر: "أنه كانت لأبي إمامة

(١) البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م، صحيح البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج ١ ص ٣٣، ابن حنبل: مسند، ج ٢٠ ص ١٩٢.

(٢) ابن خلكان: وفيات، ج ٤ ص ٩١.

(٣) ابن سعد: الطبقات، ج ٣ ص ١٢٢، النويري: نهاية، ج ١٨ ص ٥٠، ابن كثير: البداية، ج ٧ ص ٣٦١، ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، الإصابة في تمييز الصحابة، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج ٦ ص ١٠٠، علي: المفصل، ج ٧ ص ١٩٥.

راية، وأبو إمامة باهلي صحابي جليل^(١).

هذا ذكر القبيلة التي ينتسب إليها فاتح ما وراء النهر، وبعض الافتراءات التي نسبت إلى قبيلته، وليس البحث بصدد الدفاع عن القبيلة أو ذكر بطونها أو التعريف بها، أما مآثر هذه القبيلة في الفتوحات العربية الإسلامية التي حدثت بعد الخلفاء الراشدين، فالكلام عنها يطول، ولو لم يكن منها سوى ما قام به قتيبة بن مسلم لكفاها فخراً وشرفاً.

ثانياً- قتيبة بن مسلم الباهلي والحجاج بن يوسف الثقفي قبل عمليات الفتح ٧٥هـ/٦٩٤م:

كان أول ظهور لقتيبة على ساحة الأحداث عندما كانت العراق تغلي بالفتن والثورات الهائجة في كل حذب وصوب، وبذكاء قتيبة وحنكته العسكرية والسياسية وقف إلى جانب الحجاج عندما ثار ابن الجارود في البصرة، وكان قتيبة آنذاك على ميمنة الحجاج، فاستطاع أن يبرهن للحجاج أنه رجل حرب، وبعد القضاء على ابن الجارود سنة ٧٥هـ/٦٩٤م^(٢) سرعان ما اشتعلت الكوفة بثورة شبيب الخارجي، وهنا كان لقتيبة الدور الأكبر، وذلك من خلال ما يرويه الطبري وابن الأثير: لما فض شبيب كتائب الحجاج دخل عليه في مجلسه مجموعة من القواد، فقال: "إني دعوتكم لأمر فيه أمان ونظر، فأشيروا علي، إن هذا الرجل قد تبجح بجبوحته، ودخل حريمكم، وقتل مقاتلتكم، فأشيروا علي، فأطرقوا، وفصل رجل من الصف بكرسيه فقال: إن أذن لي الأمير تكلمت، فقال، تكلم، فقال: إن الأمير والله ما راقب الله، ولا حفظ أمير المؤمنين، ولا نصح للرعية، ثم جلس بكرسيه في الصف".

فغضب الحجاج فقال: من المتكلم؟ فخرج قتيبة بكرسيه من الصف فأعاد الكلام، قال: فما الرأي؟ قال: أن تخرج إليه فتحاكمه، قال: فارتد لي معسكراً ثم اغد لي، قال:

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٧ ص٤٦٥، ابن العديم: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م، بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ج٣ ص١٣٣٦، ابن حجر: الإصابة، ج٥ ص٥٨٠.

(٢) البلاذري: أنساب، ج٧ ص١٨٧، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٥٨ ص١٥٨، ابن الأثير: الكامل، ج٣ ص٤٢٩، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج٣ ص٥٥، العصامي: سمط، ج٣ ص٣٦٦.

واليوم الثاني صلى الحجاج الصبح ثم دخل، فجعل رسوله يخرج ساعة بعد ساعة فيقول: أجا بعد؟ أجا بعد؟ ولا ندري من يريد! وقد امتلأت المقصورة بالناس، فخرج الرسول فقال: أجا بعد؟ وإذا قتيبة يمشي في المسجد عليه قباء هروي أصفر، وعمامة خز أحمر، متقلداً سيفاً عريضاً، ففتح له الباب فدخل ولم يحجب، فلبث طويلاً ثم خرج، وأخرج معه لواءً منشوراً، فصلى الحجاج ركعتين وخرج الحجاج يتبعه، ونزل قتيبة يصف الجند ونشب القتال، وهزم شبيب ومن معه^(١)، وللمرة الثانية يحقق نجاحاً بمساعدة الحجاج والإخلاص له، وتم القضاء على شبيب ويُرزع في ذهن الحجاج أنه قائد عسكري في طور التكوين والظهور، وبالفعل كان قتيبة محط أنظار الحجاج، وقد سلف في رواية الطبري أنه ذكر أن الحجاج كان ينتظر مجيء قتيبة، ودخل إليه ولم يحتجب، وهذا فيه دلالة على أن قتيبة أصبح متكاً للحجاج، وهو ابن ثمان وعشرين سنة؛ إذ أثبت كفاءته وخبرته القوية.

وكانت له في ثورة ابن الأشعث وقفة إخلاص زمن ظهرت فيه الثورة وتخلي الناس عن الحجاج كما أنه حذر الحجاج من بسطام بن مصقلة الشيباني، وهزم ابن الأشعث وخمدت ثورته وتحققت لقتيبة القدرة على تحقيق الأمن والاستقرار، وبناء قاعدة قوية لينطلق منها لفتوحاته الكبرى^(٢).

وأراد الحجاج قتل من بقي في ديوان ابن الأشعث من أصحابه حين ظفر بهم، فقال له قتيبة بن مسلم: أصلح الله الأمير إن الله قد أعطاك ما تحب من الظفر، فأعطه ما يحب من العفو، فبلغ ذلك عبْد المَلِك، فَقَالَ: لله در قتيبة لقد أبلغ في الموعظة، ولقد أحسن الحجاج في القبول^(٣). وهنا أضاف قتيبة للحجاج على ما سلف أنه ذو حكمة، واستطاع قتيبة بحكمته أن يوقف حمام الدماء الذي كاد أن يغرق العراق وأهلها، لا بل في كل مكان من دولة العرب والإسلام.

وما كان من الحجاج يوم ظهر على ابن الأشعث بدير الجماجم بحكمة قتيبة بن مسلم أن نادى مناديه في الناس: "من رجع فهو آمن، ومن لحق بقتيبة بن مسلم بالري فهو آمن"، فلحق به خلق كثير ممن

^(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٢٧٤، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٤٣٥.

^(٢) ابن خياط: تاريخ، ج ١ ص ٢٨٨، ابن الأثير: الكامل، ج ٣ ص ٤٤٠، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ٦٥.

^(٣) الجاحظ: البيان، ج ٢ ص ٧٤، البلاذري: أنساب، ج ٧ ص ٢٢٢.

كان مع ابن الأشعث^(١)، وكان ذلك عام ٨٣هـ/٧٠٢م عندما تولى قتيبة من قبل الحجاج إمارة الري، وقضى على ابن الأشعث كما ذكر آنفاً.

ثالثاً- ولاية قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان ٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م:

قَدِمَ قتيبة والياً إلى خُراسان من قبل الحجاج، ووصل عاصمتها مرو ٨٦هـ/٧٠٥م، وقام بإخضاعها بعدما كانت القلاقل والنزاعات والتمردات التركية المتكررة ضد العرب والمسلمين وحكمهم في المنطقة^(٢)، وقبل مسير قتيبة إلى خراسان كان هناك لقاء جمع بينه وبين الحجاج في مدينة واسط، وضعت الخطط المتبعة في تنشيط الحرب في ما وراء النهر، ونزاعات الأتراك ويضيف ابن خياط أنه أثناء دخول قتيبة إلى خراسان لقيه دهاقنة بلخ فساروا إليه وانضموا له^(٣)، وبولاية قتيبة على خراسان لم يكن بخراسان قيسي إلا استبشر بولايته ولا يمانى إلا كره ذلك^(٤)، ولعل الشعر أكثر إفصاحاً عن ولاية قتيبة بن مسلم الباهلي حيث قال الفرزدق:

بكت جزعاً مروا خراسان أن رأَت به باهلياً من بعد آل المهلب^(٥)

وقال نهار بن توسعة:

كانت خراسان أرضاً إذ يزيد بها وكان باب من الخيرات مفتوح

فبدلت بعده قردا يطيف به كأنما وجهه بالخل منصوح^(٦)

وربما يكون هذا المدح ليزيد عائداً إلى إغداقه الأموال، ولاسيما من أسباب عزله هو الإسراف

(١) ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٣٤١.

(٢) النرشخي: تاريخ، ص ٦٩، البلاذري: أنساب، ج ١٣ ص ٢٣٣، أحمد: غزوة شهاب، الحركة الفكرية في إقليم خراسان،

دار جليس الزمان، عمان، ٢٠١٤، ص ٢٨، ٢٥، Gibb: the Arab Conquests: p. 25.

(٣) ابن خياط: تاريخ، ص ٣٩١، البلاذري: فتوح، ص ٤٠٥.

(٤) ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ٩٣.

(٥) الفرزدق: همام بن غالب بن صعصعة ت ١١٤هـ/٦٤١م، ديوان الفرزدق، تق: علي فاعور، دار الكتب العلمية،

بيروت، ط ١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٤١.

(٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢ ص ٢٢، اليوسي: الحسن بن مسعود بن محمد ت ١١٠٢هـ/١٦٩٠م، زهر الأكم في

الأمثال والحكم، تح: محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الثقافة، المغرب، ط ١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج ١ ص ١٧٨.

بالأموال، والأمر الآخر هو معارضة يزيد للحجاج، فكان بغضهم لقتيبة إنما هو بغض لمن أرسله ألا وهو الحجاج.

وكانت الأوضاع في خراسان غير ثابتة ولا مستقرة، فلما وصل قتيبة إلى خراسان ألقى القبض على المفضل وعماله وزجهم بالسجن، وخطب الناس، وحثهم على الجهاد، وقال:

"إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه، ويذب بكم عن الحرمات، ويزيد بكم المال استفاضة، والعدو وقماً(ذلاً)، ووعد نبيه النصر بحديث صادق، وكتاب ناطق، فقال: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} ^(١)، ووعد المجاهدين في سبيله أحسن الثواب، وأعظم الذخر عنده فقال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ}، إلى قوله: {أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ^(٢) ثم أخبر عن قتل في سبيله أنه حي مرزوق، فقال: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} ^(٣)، فتجنزوا موعود ربكم، ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر، وأمضى ألم، وإياي والهويني ^(٤)".

وكان لهذا الخطاب أبلغ الأثر في حماس جنوده للقتال، وقد نجح قتيبة في توحيد صفوف العرب تحت راية واحدة، وفي ذلك يقول الشاعر حنظلة بن عرادة التميمي:

أتيت خراسان ابن عمرو وأهلها حيارى ونار بينهم تتحرق
فأطفأناها والعدل منك سجية وأنت لعمري للسداد موفق
فمرنا أبا حفص بما شئت إننا إلى كل ما تهوى نحب ونسبق
فأنت لنا راع ونحن رعية وكفأك بالإحسان فيك تدفق

(١) سورة التوبة: آية، ٣٣.

(٢) سورة التوبة: آية ١٢٠-١٢١.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٦٩.

(٤) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٢٤، ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ٩٣، الصلابي: الدولة الأموية، ج ٢ ص ٤١، عبد اللطيف: العالم الإسلامي، ص ٢٩٥، خطاب: قادة الفتوح، ص ٣٨٥، إبراهيم: فتوح، ص ١٦٠.

فلا تأخذنا يا قتيبة بما مضى من الجهل إنَّ الحُرَّ يعفو ويرفق^(١)

كما عمل على كسب ثقة الخُراسانيين وودهم، فقرَّبهم وعهد إليهم بالوظائف، وعمل قتيبة بكل دهاء سياسي، فتارة باللين وتارة بما هو أهله، فقرَّب الزعماء القبليين إليه، وابتعد عن منازعتهم وفي الوقت نفسه قال: يا أهل خراسان احذروا أن يصيبكم مني فاقة فإنه ليس بعد السوط إلا السيف^(٢)، وبمجيء قتيبة تغيرت ملامح الفتح العربي الإسلامي، وقد توفر ذلك بسياسة إدارية محكمة يمثلها الخليفة الوليد، ووالي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي اللذان كانا من وراء قتيبة لتحقيق الرغبة الجادة في توسيع نطاق الفتح شرقاً، فرجل حصيف مثل قتيبة، ومن ورائه دعم يؤيده كان جديراً لجعل فتوحات ما وراء النهر أن تعطي أطايب ثمارها^(٣).

وأخذ يستعد لغزو إقليم ما وراء النهر، والظروف السياسية أصبحت على ما يرام بعد القضاء على ثورات العراق ولاسيما ابن الأشعث، وكذلك انتهاء الحجاج من بناء مدينة واسط. إذاً تهيأ قتيبة للفتوحات، وكانت البداية من فتح "آخرون وشُومان" اللتين نقضتا الصلح، فنظَّم الجيش، وخرج من مرو، وقد خلف فيها حامية بقيادة إياس بن عبد الله بن عمرو، وعين على خراجها عثمان بن السعدي، وانطلق إلى غزواته^(٤).

واستمرت فتوحاته حوالي عشر سنين ٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٥م، فتح فيها ما وراء النهر، ثم عبر نهر سيحون، حتى وصل كاشغر حدود الصين، وبالإمكان تقسيم فتوحات قتيبة إلى أربع مراحل كل مرحلة منها تختص بفتح إقليم من أقاليم ما وراء النهر.

رابعاً- فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي:

١- المرحلة الأولى: فتح طخارستان والطالقان والصغانيان ٨٦-٨٧هـ/٧٠٥-٧٠٦م:

(١) ابن الأَعمش: الفتوح، ج ٣ ص ٩٦، قد ورد الكثير من الشعر بين مادحاً وغير ذلك ولكن القول أن أقوال الشعراء لم تكن لتصلح دائماً للأخذ بها كحقائق تاريخية.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٢٤، ابن الأَعمش: الفتوح، ج ٣ ص ٩٥.

(٣) فيصل: حركة الفتح، ص ٢١٢.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ص ٢٧١، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ٧٣.

انطلق قتيبة من مرو قاعدة الفتوحات لما وراء النهر، وسار إلى إقليم طخارستان هذا الإقليم الذي لم يستقر فيه حكم المسلمين منذ فتحه الأول على يد الأحنف بن قيس في خلافة عثمان رضي الله عنه بسبب كثرة الثورات، وقد جرت عادة العرب المسلمين في غزواتهم السالفة أن يعبروا نهر جيحون إما من ترمذ وإما من زم وإما من آمل و الاندفاع نحو بيكند، ثم بخارى، وكانوا يتعرضون عندئذ لهجمات على الأجنحة من الجنوب والشمال علاوة على مقاومة العدو لهم من الجبهة^(١)، ولكن قتيبة تفادى ذلك؛ إذ تقدم عام ٨٦هـ/ ٧٠٤م من مرو باتجاه الشرق مع أعالي نهر جيحون في ولاية طخارستان، ونظراً لأهميتها فقد رأى قتيبة أن يحكم سيطرته عليها، ثم واصل سيره، فلما كان بالطالقان أتاه دهاقنة بلخ وساروا معه، فقطع النهر، فتلقاه ملك الصغانيان بهدايا ومفاتيح من ذهب ودعاه إلى بلاده، فمضى معه، فسلمها إليه؛ لأن ملك (آخرون) و(شومان) كان يسيء جواره، ثم سار قتيبة منها إلى آخرون وشومان، وهما من طخارستان التي لا مفر من السيطرة عليها سيطرة تامة لتوطئة الفتح العربي الإسلامي لبلاد ما وراء النهر^(٢)، فصالحه ملكها على فدية أداها إليه فقبلها قتيبة، وهناك أتاه أهل بلخ وعظماؤها مرحبين في ركابه مما شجعه على المضي قدماً إلى بلخ، فظل بها مدة حتى أخضع أهلها، ولم يجد قتيبة أمامه صعوبات تذكر، فعبر نهر جيحون، ثم انصرف إلى مرو واستخلف على الجند أخاه صالح بن مسلم، وعندما بلغ الحاجاج ذلك كتب إلى قتيبة يلومه: "إن غزوت فكن في مقدم الناس، وإذا قفلت فكن في أخرياتهم وساقطهم". وجاء أيضاً إلى قتيبة ملك مدينة كفيان^(٣) بنحو ما جاء به مالك الصغانيان وسلم إليه بلده، وذكر الطبري أن صالحاً بن مسلم افتتح باسارا وكاشان وأورشت، وهي من فرغانة، وفتح أخسيكت، وهي مدينة فرغانة القديمة أيضاً، وكان معه نصر بن سيار فأبلى يومئذ، فوهب له قرية تُدعى تنجانة^(٤)، ثم قَدِم صالح على قتيبة فعينه على الترمذ، وبهذا الفتح الكبير استهل قتيبة ولايته على خراسان^(٥).

(١) البلاذري: فتوح، ص ٥٩٠، النرشخي: تاريخ، ص ٧٣. عماش: قتيبة، ص ٩٥، فيصل: حركة الفتح، ص ٢١٠.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٢٤-٤٢٥، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٢٤١، الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٤٧٦،

البلاذري: فتوح، ص ٥٩٠، الخضرى: الدولة الأموية، ص ٣٢١، فامبري: بخارى، ص ٦١.

(٣) ووردت كفيان وكفتان إلا أنه لم أجد لها تعريف في مصادر الجغرافية.

(٤) لم أجد لها تعريف في مصادر الجغرافية.

(٥) البلاذري: فتوح، ص ٥٩٠، اليعقوبي: تاريخ، ج ٢، ص ٣٤٢، الطبري: تاريخ، ج ٦، ص ٤٢٤-٤٢٥، ابن كثير:

وهكذا استطاع قتيبة أن يفرض سيطرته على إقليم طخارستان مع العلم أن فيروز بن يزدجرد موجود فيها، وكان ينتظر الفرصة المواتية للثورة على العرب، وإن كان ذلك بشكل مؤقت وضمن أيضاً نيزك بعقد صلح معه ومشاركة نيزك لقتيبة في حروبه القادمة، وتعهد قتيبة لنيزك في المقابل ألا يدخل باذغيس^(١)، وهذه الظروف الهادئة ما مكنت قتيبة من السير نحو بخارى، ولم يبق أمامه سوى نيزك صاحب قلعة باذغيس الذي نقض صلحه مع قتيبة، وكون حلفاً مع ملوك طخارستان، وسوف يأتي الحديث عنه.

٢- المرحلة الثانية: فتح بخارى ٨٧-٩٠هـ/٧٠٦-٧١٠م:

فتح إقليم بخارى كان على مرحل، ولم يكن دفعة واحدة، ويمكن تلخيصها على النحو الآتي:

أ- فتح بيكند ٨٧هـ/٧٠٦م^(٢):

مدينة بيكند ذات الأهمية العسكرية والاستراتيجية بين مدن بلاد ما وراء النهر تقع إلى الجنوب الغربي من بخارى على نهر زرفشان (زور شان)، وعلى الطريق التجاري المهم الذي يربط بخارى بمرور عبر مدينة آمل على جيحون، وكانت من أهم المدن التجارية بين الصين وبحر الخزر وخراسان حتى قال عنها الطبري: "مدينة التجار"، علاوة على أنها منطقة زراعية؛ إذ تقع في سهل بخارى الغني بمياه نهر زرفشان، وكانت المدينة محاطة بأسوار ضخمة ومحمية بقوة كبيرة؛ لذلك سميت كما يقول غفوروف: "المدينة ذات النطاق النحاسي" لكثرة دروع وأسلحة الحرس على الأسوار، فهي تمثل أقرب مدن بخارى للمسلمين في خراسان فضلاً عن كونها الباب الجنوبي الغربي لبلاد ما وراء النهر؛ لذا فقد حرص الترك على تحصين المدينة فأحاطوها بسور منيع، وأقاموا فيها الاستحكامات العسكرية^(٣)، فقد أعد قتيبة لفتح بيكند عدته قبل أن ينهض بالسير إليها، فعمل على الإكثار من عدد جنده، فطلب من نيزك استخدام الترك معه، "وكان نيزك

البداية، ج ٩ ص ٦١، قدامة بن جعفر: الخراج، ص ٤٠٧، الترشيحي: تاريخ، ص ٧٣، عماش: قتيبة، ص ٦٩، ٧٣، زناقي: أنور محمود، موسوعة تاريخ العالم، تاريخ العرب والمسلمين منذ ظهور الإسلام وحتى العصر المعاصر، د.م، د.ت، ج ٢ ص ١٤٩، الصلابي: الدولة الأموية، ج ٢ ص ٤١، دحلان: الفتوحات، ج ١ ص ١٨١.

^(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٢٦، ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١٠٧، فامبري: تاريخ، ص ٦١.

^(٢) في هذا العام شرع الخليفة الوليد بن عبد الملك بن مروان في بناء جامع دمشق الأموي، انظر ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١ ص ٢٣١.

^(٣) الترشيحي: تاريخ، ص ٤٤-٦٩، عماش: قتيبة، ص ٧٩، فامبري: بخارى، ص ٦١.

صاحب الترك قد سار إلى قتيبة فلم يزل معه يحضر حروبه^(١)، أضاف إلى ذلك الجند الكثيف من العرب والموالي، وقد أورد الطبري عددهم فهم: من قبيلة بكر سبعة آلاف، ومن تميم عشرة آلاف، ومن بني عبد القيس أربعة آلاف، ومن الأزد عشرة آلاف، ومن الكوفة سبعة آلاف، ومن أهل البصرة تسعة آلاف، ومن الموالي سبعة آلاف، فجموع هؤلاء أربعة وخمسون ألفاً قسمهم قتيبة إلى خمسة ألوية، ولعل هذا التقسيم الجغرافي أو القبلي له دور سلبي فيما بعد ولاسيما على قتيبة نفسه ومقتله، وتولى هو القيادة العامة للجيش، وقد عمل قتيبة في إقليم بخارى على مبدأ سياسة كل منطقة على حدة، فكانت البداية من بيكند دون المناطق الأخرى؛ أي تشتيت العدو بأن لا يكون في مكان واحد^(٢).

هكذا جهز قتيبة جيشه ثم سار من مرو مقر حكمه في خراسان حتى وصل إلى مدينة آمل ومنها إلى زم، ثم عبر نهر جيحون إلى بيكند، وهناك استنصر أهل بيكند بالترك فأتوهم في جمع كبير، وأخذوا الطريق على المسلمين فلم ينفذ لقتيبة رسول ولا خبر لمدة شهرين حتى إن الحجاج قد أشفق على المسلمين المجاهدين، وأمر الناس بالدعاء لهم في المساجد^(٣)، وذلك عائد إلى تفوق العدو، ومعرفة البخاريين لأراضيهم وطبيعتها، فقد تمكنوا مع حلفائهم الترك من تطويق الجيش العربي الذي كان يحاصر بيكند، فقطعت جميع خطوط مواصلته، وبات في ضيق شديد، ويقول صاحب تاريخ بخارى: "على أن قتيبة لم يجر في خاطره أي تفكير في الهرب بالرغم مما كان فيه من جرح"^(٤).

وكان لقتيبة عين من العجم يقال له: تندر، فأعطاه أهل بخارى مالاً جزيلاً على أن يأتي قتيبة فيخذه عنهم، فجاء إليه، فقال له: أخلي، فأخلاه، فلم يبق عنده سوى رجل يقال له: ضرار بن حصين، فقال له تندر يخبره: "بأن الحجاج قد مات، فلو انصرفت بالناس إلى مرو"، وأراد تندر أن يثبث هذا الخبر لإرباك قتيبة بإشاعة لا صحة لها فضرب عنقه، ثم قال قتيبة لضرار: لم يبق أحد سمع هذا غيري وغيرك، وإني

(١) البلاذري: فتوح، ص ٤٠٦، اليعقوبي: تاريخ، ج ٢ ص ٢٠٠.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٣٠، أبو خليل: شوقي، فتح سمرقند، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ٤٠.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ٤٠٧، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٣٤٤، ابن كثير: البداية، ج ٩ ص ٧١.

(٤) النرشحي: بخارى، ص ٦٨، عماد: قتيبة، ص ٨٠.

أعطى الله عهداً إن ظهر هذا الخبر حتى تنقضي حربنا لأحقنك به، فاملك عليك لسانك، فإن انتشار هذا يفت في أعضاد الناس^(١). استطاع القائد العسكري أن يحمي جيشه من إشاعات كانت لها الأثر الكبير في نفوس الجند فقد تمكن من بتر هذا الأمر في المجلس نفسه، وأدرك ما لهذا الخبر من دور في زعزعة نفوس الجند، ولا سيما في لحظة حاسمة كهذه.

نفض قتيبة فحرض الناس على الحرب، ووقف على أصحاب الرايات يحرصهم، فاقتتل الناس قتالاً شديداً، وأنزل الله على المسلمين الصبر، فلما انتصف النهار أمر قتيبة أصحابه بالجد في القتال فانهمز العدو وقتل أكثرهم، وفر الباقون إلى داخل الحصن، فأمر قتيبة بهدم سور المدينة، فسألوه الصلح فأجابهم، وفتحت المدينة أبوابها، واستعمل قتيبة عليها ورقاء بن نصر الباهلي^(٢).

وعاد قتيبة إلى مرو وما إن سار قتيبة خمسة فراسخ عن المدينة حتى نقضوا الصلح، وقتلوا عامله ومن معه ظناً من أهل بيكنند أن هجوم العرب المسلمين هذا كباقي الهجمات السالفة مجرد غزوة وستنتهي^(٣)، فرجع قتيبة فنقب السور فسقط، فسألوه الصلح فأبى، ودخلها عنوة، وقتل من كان بها من المقاتلة، وكان فيمن أخذ من المدينة رجل أعور، وهو الذي استجاش الترك على المسلمين، فقال لقتيبة: أنا أفدي نفسي بخمسة آلاف حريرة (حريرة) صينية قيمتها ألف ألف، فاستشار قتيبة الناس، فقالوا: هذا زيادة في الغنائم؛ وما عسى أن يبلغ من كيد هذا؟ قال: والله لا يروّع بك مسلم أبداً، وأمر به فقتل، وأصابوا فيها من الغنائم والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يحصى، ولا أصابوا بخراسان مثله^(٤).

ولما فرغ قتيبة من فتح بيكنند رجع إلى مرو وقوي المسلمون، فاشترى السلاح والخيل، وجلبت إليهم الدواب، وغالوا بالسلاح حتى بلغ ثمن الرمح سبعين ديناراً، وكان في الخزائن سلاح وآلة حرب كثيرة، فكتب قتيبة إلى الحجاج يستأذنه في توزيع ذلك السلاح على الجند، فأذن له، وأخرجوا ما كان في الخزائن من غدة الحرب^(٥).

(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٠٦.

(٢) ابن خياط: تاريخ، ص ١٩٠ ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ص ٢٧٩.

(٣) Gibb: the Arab Conquests, p33.

(٤) ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١٠٨.

(٥) ابن خياط: تاريخ، ص ٣٠٠، البلاذري: فتوح، ص ٥٩١، اليعقوبي: تاريخ، ج ٢ ص ٣٤٢، الطبري: تاريخ،

إن الرواية التي تسردها المصادر التاريخية حول الأعور الذي افتدى نفسه من قتيبة بأموال طائله تدحض رأي فامبري في رغبة المسلمين في الحصول على الغنائم الذي يقول: "ولنا أن نتصور مبلغ ما كان عليه بدو الصحراء البسطاء لهفة للاستحواذ على كنوز المغلوبين المكدسة"^(١)، أما الترشيحي فقد ذكر أن قتيبة قد أخرب المدينة كلها، وأنها صارت خاوية بحيث لم يبق بها أحد غير أنه يعود فيناقض نفسه حيث يقول في موضع آخر: لم تكن المدينة تخربت كلها وبقيت خاوية ثم عمرت سريعاً على يد أهلها أنفسهم^(٢). وهذا تناقض واضح، يحكم ببطلان هذه الرواية، وهكذا يحلو لهذا المستشرق المتعصب فامبري وشعوبية الترشيحي أن يصورا هؤلاء الفاتحين بهذه الصورة البشعة صورة السفاحين القاتلين للأطفال والنساء الباحثين عن الأموال بأي صورة، ما يؤكد تعصب وشعوبية كل منهما أنهما تفردا في رواية ذكرنا أن سبب نقض أهل بيكند للصالح بعد خروج قتيبة منها وقتل نصر بن ورقاء الباهلي إنما هو عائد إلى أن الأخير قام بالاعتداء على بنات أحد رجال المدينة، وهو سبب غير مقنع ليقوم بهكذا عمل في وقت مخرج للغاية حيث لم يكن قتيبة قد غادر المنطقة سوى خمسة فراسخ؛ أي يوم واحد فقط^(٣). ولو تم التسليم بالقول: إن قتيبة قد أخرب بيكند، وهو قائد عسكري حصيف، ويقدم عماش رؤية يمكن الأخذ بها من حيث سير العمليات العسكرية فيقول: كان سقوط المدينة بيد العرب المسلمين ذا أثر بليغ ليس بالنسبة إلى العرب فقط، بل في جميع بلاد ما وراء النهر؛ إذ كانت تعد جوهرة ما وراء النهر وبلد التجار والتجارة الرائجة، وبالفعل حطم قتيبة أسوار بيكند وأخضعها بقوة؛ لأنها نكثت بالعهد، ومثلت بجثة نصر بن ورقاء الباهلي، وأن سبب قسوته مع المدينة وحاميتها مرده إلى:

١. أنها نكثت بالعهد، وتلك كبيرة في نظر المسلم الذي جسد المفاهيم الأخلاقية والقيم

ج٦ص٤٣٠-٤٣٢، مسكوية: تجارب، ج٢ص٣٩٤، النويري: نهاية، ج٢١ص٢٨٤، ابن الأعمش: الفتوح، ج٣ص١٠٩، ابن الجوزي: المنتظم، ج٦ص٢٧٩، ابن الأثير: الكامل، ج٤ص٢٤٤، ابن نباتة: سرح العيون، ص١٨٩، دحلان: الفتوحات، ج١ص١٨١-١٨٢، زيادة: الحجاج، ص٣٢٨.

(١) فامبري: بخارى، ص٦٣.

(٢) الترشيحي: تاريخ، ص٧٥-٧١.

(٣) الترشيحي: تاريخ، ص٧٠، فامبري: بخارى، ص٦٢، وانظر أيضاً: البشبيشي: جمال الدين عبدالله بن أحمد، جامع التعريب بالطريق القريب، تح: نصوحي أونال قرع ارسلان، جامعة أتاتورك، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٢٣٢.

والوفاء بالعهد.

٢. أن جيش قتيبة كان قليل العدد، وليس له طاقة بحصار المدينة لمدة طويلة تجاه عدو يتفوق بالعدد عليه.

٣. أن بيكند كانت أول المدن، وأن قتيبة يعرف جيداً أنه سيتقدم في المستقبل نحو بخارى، وسمرقند، والشاش، فكيف يترك مدينة لها تلك الأسوار الضخمة على خط مواصلته، وإذا تمردت واحتمت خلف الأسوار تقطع خط مواصلته وتحصره.

٤. أراد أن تكون بيكند مثلاً للآخرين، وأراد بتلك القسوة أن تكون مسموعة، فلا يتمرد حاكم في المستقبل، وذلك بعد نظر وأصالة رأي أعطت نتائج رائعة فيما بعد^(١).

إذاً تمكن العرب المسلمون من فتح الجنوب الغربي لبلاد ما وراء النهر، والحصول على كميات كبيرة من الأسلحة التي ستساعدهم على تأمين التجهيزات والاستعدادات لمواصلة الفتوحات في هذه البلاد والتوجه نحو الأمام.

ب- فتح نومشكت ورامثين من قرى بخارى ٨٨هـ/٧٠٦م:

استقر قتيبة بن مسلم في مرو أيام الشتاء للراحة وإعداد رجاله للقتال، فلما أقبل فصل الربيع ندب الناس، واستخلف على مرو أخاه بشَّاراً بن مُسلم، ويذكر النرشخي أن قتيبة واصل السير من بيكند إلى قرى بخارى^(٢) دون أن يعود إلى خراسان، ويبدو أن هذا الرأي غير صائب؛ لأن جيوش قتيبة كانت في حاجة إلى الراحة، ولا سيما بعد الحصار الطويل في فتح بيكند؛ ولأن فصل الشتاء قد حل على المسلمين؛ وهو فصل تصعب فيه مواصلة القتال نظراً لانخفاض درجة الحرارة التي قد تصل في هذه المناطق إلى درجة التجمد، وعندما ندب الناس قال لهم: "إني أغزيكم قبل أن تحتاجوا إلى حمل الزاد، وأنتقلكم قبل أن تحتاجوا إلى الأدفاء"^(٣)، وفي سنة ٨٨هـ/٧٠٦م غزا قتيبة نومشكت، فتلَّقاه أهلوها، فصالحهم، ثم سار إلى

(١) عماش: قتيبة، ص ٨٣.

(٢) النرشخي: تاريخ، ص ٧٥.

(٣) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٣٤.

راميشنة، فصالحه أهلها، وانصرف عنهم وزحف إليه الترك ومعهم الصغد وأهل فرغانة في مئتي ألف^(١)، وملكهم (كور بغانون) ابن أخت ملك (فغفور)^(٢) الصّين، فاعترضوا المسلمين، وكان تدخل ملك الصين السريع والمبكر ما هو إلا لرد العرب المسلمين خشية وصولهم إلى بلادهم وخشيتهم على التجارة ولاسيما تجارة الحرير التي كانت بيد الصين؛ ولحقوا عبد الرحمن بن مسلم، وهو على الساقة وبينه وبين قتيبة وأوائل العسكر ميل، فقاتلهم عبد الرحمن ومن معه، وأرسل إلى أخيه، فرجع بالمسلمين، وقد أشرف الترك على الظهور على عبد الرحمن ومن معه، فلما رأى المسلمون قتيبة طابت نفوسهم، وقويت، وقاتلوا إلى الظّهر، فانهمز الترك ومن معهم، وكان نيزك يومئذ مع قتيبة، فأبلى بلاء حسناً، ورجع قتيبة بعد هزيمتهم إلى مرو^(٣)، وفي رواية يرويها النرشخي ويؤيده في طبيعة الحال فامبري أن قتيبة استعمل الحيلة في تفريق الخصوم، فقد أرسل حيان النبطي^(٤) لمقابلة طرخون ملك الصغد، موضحاً له أنه إذا اندحر العرب، وانسحبوا فإن حلفاءه من الترك سوف يخلعوناه من العرش، ويسيطرون على بلده، ومن الأسلم له أن يعقد صلحاً مع قتيبة بحجة أن إمدادات كبيرة قد وصلت إلى قتيبة، وأنه لا طاقة له بهم، وأنه قرر الانسحاب، فسوف ينسحب الآخرون، وهذا ما تم فعلاً إذ انسحب ملك الصغد، وباشر الآخرون بالانسحاب تبعاً.

والرواية كما يرويها النرشخي هي: "وعندما حمي الوطيس قابل حيان النبطي طرخون، وقال: لقد ذهب عنك الملك وأنت لا تدري. قال: وكيف؟ فقال: نحن نستطيع أن نبقي هنا مادام الجو حاراً، والجو الآن بارد، وقد آن لنا أن نرحل، وما دمنا هنا فإن هؤلاء الأتراك يحاربوننا، فإذا ما ذهبنا من هنا يحاربونك؛

(١) دحلان: الفتوحات، ص ١٨١.

(٢) فغفور أو بغبور وهو لقب ملوك الصين كقيصر الروم وكسرى الفرس، النرشخي: تاريخ، ص ٧٥.

(٣) ابن الأَئِمْ: الفتوح، ج ٣ ص ١٠٩، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ١٥، النويري: نهاية، ج ٢١ ص ٢٨٥، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٦ ص ١٢٥، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤١٥، ابن تغري بردي: النجوم، ج ١ ص ٢١٤، عطوان: الشعر في خراسان، ص ٢٦، خطاب، قادة الفتوح، ص ٣٨٩-٣٩٠، أبو خليل: فتح، ص ٦٠.

(٤) حيان النبطي: مولى لبكر بن وائل بن ربيعة، وقد قيل مولى تيم الله بن ثعلبة، ويقال: مولى بني شيان، ولقب بحَيَّان النبطي، لأنه جاء من العراق، يروى عن قتادة وشهر بن حوشب والعراقيين، سكن بلخ، وله بمرور خطبة، روى عنه علقمة بن مرثد وبكير بن معروف، وكان صدوقاً فيما يروى إذا كان دونه ثبت، وكانت كنيته أبو بسطام وهم إخوة أربعة: مقاتل، والحسن، ويزيد، ومصعب بنو حيان، السمعاني: الأنساب، ج ١٣ ص ٢٦.

لأن ولاية الصغد مكان جميل ولا مثيل له في الدنيا جمالاً، فكيف يتركون لك الصغد ويرحلون عنها؟ وتبقى في عناء، ويأخذون ملكك، فقال طرخون: وما حيلتي؟ قال: تعقد صلحاً مع قتيبة وتعطيه شيئاً، وتظهر للترك بأنه قد وصل لنا جيش عظيم عن طريق كش ونخشب مدداً من الحجاج، وتقول لهم: إني عائد ليعودوا هم أيضاً، فإذا ما عقدت معنا الصلح، وأخذت منا العهد، لن نريد بك سوءاً، ولن نؤذيك، وتخرج أنت من هذا العناء، فقال طرخون: لقد أحسنت نصحي، فلأفعل هكذا، سأعود الليلة. فلما أقبل الليل بعث طرخون بشخص إلى قتيبة، واصطلح، وأرسل مالا قدره ألفاً درهم، ونفخوا في البوق وذهبوا، فقال الدهاقنة والأمراء: ماذا حدث؟ فقال: احذروا، تنهبوا، فقد بعث الحجاج بعسكر عظيم من ناحية كش ونخشب ليأتوا من خلفنا ويحيطون بنا، وإني عائد إلى ولايتي، فبعث (كور مغانون) بشخص، وسأل الخبر فأخبروه بهذه الحالة، فنفخ هو أيضاً في البوق وعاد، وكانوا ينهبون الولاية ويمضون، فصرف الله تعالى هذا البلاء عن المسلمين^(١).

هذه الرواية كما أرادها راويها، ولكن ما يرويه كل من الطبري وابن الأثير والنويري أن طرخون هو من نادى حيان النبطي، وطلب منه أن يتوسط الصلح لأمر آخر يتعلق بحيان النبطي الذي له دور كبير وكثير في الوساطات؛ أي هو شخصية معروفة بهذا الأمر، فلجئوا إليه^(٢)، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هل يعقل لتحالف ضم مئتي ألف من شتى بقاع المنطقة وهو من لحق بجيش المسلمين الذي كان عليه عبد الرحمن بن مسلم أن يتخلى عن محاربة العرب المسلمين ببعض كلمات قد ساقها حيان لطرخون؟.

ج- فتح بخارى ٨٩هـ/٧٠٧م:

في سنة ٨٩هـ/٧٠٧م ورد إلى قتيبة كتاب من الوالي الحجاج بن يوسف يأمره بغزو بخارى وكان ملكها حينئذ وردان خذاه^(٣) الذي اغتصب الملك من طغشاده بن خاتون، فغير قتيبة نهر جيحون عند زم، فلقيه أهل كش ونسف في طريق المفازة (الصحراء)، وقتلوه وانتصر عليهم، ومضى في طريقة إلى بخارى،

(١) الترشيحي: تاريخ، ص ٧٢، فامبري: بخارى، ص ٦٥.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٤٥، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٢٤٤، النويري: نهاية، ج ٢١ ص ٢٨٨.

(٣) ابن خياط: تاريخ، ص ٣٠٢، الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٣٢٧، وقد ورد اسم صاحب بخارى عنده (صول) على رواية الترشيحي أن الملكة خاتون هي التي كانت تحكم البلاد، الترشيحي: تاريخ، ص ٧٥.

فنزل مدينة خرقانة أو (خرقانه) السفلى، فلقوه بجمع كبير، واستطاع المسلمون تحقيق النصر بعد قتال استمر يومين كاملين، فقال نهار بن توسعة:

وباتت لهم منا بخرقان ليلة وليتنا كانت بخرقان أطولا^(١)

ثم اتجه قتيبة إلى وردان خذاه ملك بخارى فلم يظفر منه بشيء فعاد إلى مرو. وكتب إلى الحجاج بخبره، وهذا الخبر من شأنه أن يغضب سلطان المشرق الحجاج، فكتب إليه أن صوّرها لي والطرق إليها، ففعل قتيبة، وتجدد الإشارة هنا إلى الحجاج وطلبه بتصوير المنطقة والطرق إليها إلى أن الحجاج كان يمتلك خبراء واستراتيجيين، وأنه يمتلك من الخبرة العسكرية التي جعلته يضع خطة الفتح، وهو البعيد عنها أميال من المسافات، فكتب إليه الحجاج: "ارجع إلى مراغتك فتب إلى الله عزّ وجلّ ممّا كان منك وائتها من مكان كذا وكذا"، ويضيف الطبري قول الحجاج: "وأنّ كش بكش وانسف نسف ورد وردان وإياك والتحويط ودعني من ثنيات الطريق وارجع إلى مراغتك"^(٢)، وهنا إشارة إلى قتيبة كي يلتزم باب التوبة، وأن يسلك الطريق المستقيم، وبالفعل تهيأ قتيبة بن مسلم من جديد لفتح بخارى الذي تمكن منها فعلاً في سنة ٩٠هـ/٧٠٩م، بعدما اعتمد على خطة جغرافية يرسم خريطة للمقاطعات التي تضم بلدان كش ونسف ووردان وضعها له والي العراقين الحجاج بن يوسف ساعدته على فتحها من جديد، فأرسل وردان خذاه إلى الصغد والترك ومن حولهم يستنصرهم، فأتوهم وقد سبق إليها قتيبة فحصرهم، فلما جاءهم الإمدادات خرجوا إليهم يقاتلونهم، فقالت الأزد: اجعلونا على حدة وخلّوا بيننا وبين قتالهم، فقال لهم قتيبة: شأنكم، تقدّموا فتقدّموا، فصبّروا جميعاً، ثمّ جال المسلمون وركبهم المشركون، فحطّموهم حتّى دخلوا عسكر قتيبة وجازوه، وقد أبدت نساء العرب شجاعة فائقة في هذه الحروب في إلهاب الحماس، إذ كنّ يضرّبن وجوه الخيل ويكيّبن حتّى يكر الناس راجعين إلى الحرب، فمشى قتيبة إلى بني تميم فقال: "يا بني تميم، فيوما كأتاكم، فداؤكم أبي"^(٣)، فأخذ اللواء وكيع بيده، وقال: يا بني تميم، أتسلموني اليوم؟ فقالوا:

^(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٣٩.

^(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٤٠، مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٣٩٨، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٢٤٩، ابن خلدون: ديوان المتبدأ، ج ٣ ص ٧٦.

^(٣) ويقول نهار بن توسعة التميمي في هذا النصر:

لا يا أبا المطرف، وكان هريم بن أبي طحمة المجاشعي^(١) على خيل بني تميم ووكيع رأسهم، فقال وكيع: يا هريم، قدّم خيلك وعبر هريم في الخيل، وانتهى وكيع إلى النهر، فدعا بخشب فجعله جسراً على النهر، وقال لأصحابه: "من وطن منكم نفسه على الموت فليعبر، ومن لا فليثبت مكانه"، فما عبر معه إلا ثمانية رجل، وقال لهريم: "إني مطاعن القوم فاشغلهم عنا بالخيل"، فطاعنوههم بالرمح، فما كفوا عنهم حتى حدروهم عن موقفهم، وأما كش ونسف ففتحتهما صلحاً^(٢)، وفتح الله على يديه بخارى، وفض أولئك الجمع، وكتب قتيبة بهذا الفتح العظيم إلى الحجاج في العراق، وبهذا أكمل قتيبة فتح إقليم بخارى كله في ثلاث سنوات، فكان يغزوه في الصيف ويعود في الشتاء إلى مرو حتى تمكن من فتحه وثبت أقدام المسلمين فيه^(٣).

وهناك رواية للبلاذري ملخصها: أن قتيبة أتى بخارى فلم يستطع فتحها، فطلب من سكانها السماح

لعمري لقد فازت تميم بذكرها وسائر أحياء العراق وقوف

ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١٠٧.

(١) هريم تصغير هرم بن عديّ أبي طحمة بن حارثة بن الشريد بن مرة المجاشعي الدارمي التميمي ت ١٢٠هـ/٧٣٨م، من فرسان تميم نعتة ابن حزم بفارس خراسان، ثم كان مع عدي بن أرطاة في قتال يزيد بن المهلب، وعاش بعد ذلك وكبر، وأراد تحويل اسمه إلى أعوان الديوان ليعفى من الغزو، وكان أمياً، فقليل له: إنك لا تحسن أن تكتب، فقال: إن لا أكتب فلنأني أمحو الصحف!، الجاحظ: البيان، ج ٢ ص ٧٤، المبرد: الكامل، ج ٣ ص ٢٧٩، ابن دريد: الاشتقاق، ص ٢٤١. وورد اسمه في بعض المصادر هزيم، انظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢ ص ٦١، النويري: نهاية، ج ٢١ ص ٢٨٧.

(٢) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢ ص ٢٠٠، ابن الأثير الكامل، ج ٤ ص ٢٨.

(٣) ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١٠٩، إلا أنه يخلط بين فتح بخارى ويكند من حيث الأحداث ولا سيما التحالف التركي الصيني وينسبه لفتح بخارى، وهذه الأحداث هي في سنة ٨٨هـ/٧٠٦م في بيكند وليست في ٩٠هـ/٧٠٩م، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٣٩-٤٤٤، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ص ٢٩٤-٢٩٥، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٢٣، النويري: نهاية، ج ٢١ ص ١٧٤-١٧٥. ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٢٢. عطوان: الشعر، ص ٢٦، أبو النصر: عمر، سيوف أمية في الحرب والإدارة، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م، ص ٢٦٩، ٨٣، شاعر: محمود، التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، ط ٧، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج ٤، ص ٢٠٦، عماش: قتيبة، ص ٩٧-٩٩.

Skirne, Francis Henry-Denision Ross, Edward; The heart of Asia, a history of Russian Turkestan and the Central Asian Khanates from the Earliest times, Methuen, London, 1899, p.46

له بالدخول إليها لصلاة ركعتين بها، وبعد أن أذنوا له أكمن لهم قوماً تكاثروا على باب المدينة حتى دخلوها وغدروا بأهلها^(١).

وهذه الرواية غير مقبولة ففيها استخفاف بالقارئ، فكيف لعدو أن يسمح لمن ينتظر الفرصة للدخول عليه أن يساعده بذلك، وأضف إلى ذلك أن الفاتحين العرب المسلمين كانوا بعيدين عن الغدر والخيانة، والذي ينفي هذه الرواية إطلاقاً هو الصلح الذي كان في نهاية المطاف، وهو دفع جزية سنوية، وتقدم بخارى قوة مقاتلة تحارب إلى جانب العرب المسلمين التي ستكون ميزة في جعل الفتوح اللاحقة أكثر يسراً وسرعة، وأضف إلى ما سلف أن الحفريات الروسية الحديثة كشفت عن مجموعة من الوثائق التي تخص قتيبة ودراستها من قبل الروس تبين أنها موافقة لما جاء به الطبري من أحداث واقعية بعيدة عن الخيال كموضوع الصلاة في بخارى، حتى موضوع إدخال الجنود في صناديق إلى سمرقند غير مقبول.

د- طخارستان وغدر نيزك وإعادة الفتح ٩٠هـ/٧٠٩م:

سلف الحديث عن قدوم نيزك على قتيبة، وصالح قتيبة أهل باذغيس على ألا يدخلها قتيبة وقد تم الصلح بينهما، ونص المراسلة كما يذكرها الطبري: "وكتب إليه قتيبة حين صالح ملك شومان فيمن في يديه من أسرى المسلمين أن يطلقهم، ويهدده في كتابه، فخافه نيزك، فأطلق الأسرى، وبعث بهم إلى قتيبة، فوجه إليه قتيبة سليم الناصح مولى عبيد الله بن أبي بكرة يدعو إلى الصلح وإلى أن يؤمنه، وكتب إليه كتاباً يلحف فيه بالله: لئن لم يقدم عليه ليغزونه، ثم ليطلبه حيث كان لا يقلع عنه حتى يظفر به أو يموت قبل ذلك، فقدم سليم على نيزك بكتاب قتيبة وكان يستنصحه فقال له: "يا سليم، ما أظن عند صاحبك خيراً، كتب إلي كتاباً لا يكتب إلى مثلي! قال له سليم: إن هذا رجل شديد في سلطانه، سهل إذا سوهل، صعب إذا عوسر، فلا يمنعك منه غلظة كتابه إليك، فما أحسن حالك عنده وعند جميع مضر!"^(٢).

فقدم نيزك مع سليم على قتيبة، فصالحه أهل باذغيس في سنة سبع وثمانين على ألا يدخل باذغيس، وذكر أن نيزك حاكم باذغيس قد ساعد قتيبة في فتح بعض بلدان ما وراء النهر، وبعد فتح بخارى استأذن نيزك قتيبة في العودة إلى طخارستان، فما هو مسوغ عودة نيزك إلى طخارستان؟ وما الذي دفعه إلى أخذ

^(١) البلاذري: فتوح، ص ٤٠٦.

^(٢) ابن خياط: تاريخ، ص ٣٠٠، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٢٨.

الإذن من قتيبة والرحيل عنه؟.

في الواقع هناك بعض المسوغات التي يذكرها الطبري: أن قتيبة فصل من بخارى ومعه نيزك، وقد ذعره ما قد رأى من الفتوح، وخاف قتيبة، فقال: لأصحابه وخاصته: "إني قد هبت هذا العربي لما يتم على يده من الفتوح مع هذا متهم أنا، ولست آمنه، وذلك أن العربي بمنزلة الكلب، إذا ضربته نبج، وإذا أطعمته بصبص واتبعك، وإذا غزوته ثم أعطيته شيئاً رضي، ونسي ما صنعت به، وقد قاتله طرخون مراراً، فلما أعطاه فدية قبلها ورضي، وهو شديد السطوة فاجر فلو استأذنت ورجعت كان الرأي، قالوا: استأذنه فلما كان قتيبة بآمل استأذنه في الرجوع إلى طخارستان، فأذن له، فلما فارق عسكره متوجهاً إلى بلخ قال لأصحابه: أغدوا السير، فساروا سيراً شديداً حتى أتوا النوبهار، فنزل يصلي فيه وتبرك به"^(١)، وندم قتيبة على إذنه له، فأرسل إلى المغيرة يأمره بحبس نيزك، وسار نيزك وتبعه المغيرة، فوجده قد دخل شعب خلم، فرجع المغيرة، وأظهر نيزك الخلع، وكتب إلى أصبهذ بلخ، وإلى باذان ملك مرو الروذ، وإلى ملك الطالقان، وإلى ملك الفارياب، وإلى ملك الجوزجان، يدعوهم إلى خلع قتيبة، فأجابوه، فواعدتهم الربيع أن يجتمعوا ويغزوا قتيبة، ولما بلغ قتيبة هذا التحالف أرسل أخاه عبد الرحمن بن مسلم في اثني عشر ألفاً للقضاء على نيزك^(٢). وعلى رأي جب يرى أن سبب غدر نيزك أنه لم يعد لديه بصيص أمل في الاستقلال، وذلك عندما رأى أن قتيبة قد عمد إلى وضع خطط محكمة لفتح منظم هدفه توطيد السيادة العربية الإسلامية على المنطقة^(٣).

وبالعودة إلى عبد الرحمن فقد وجه قتيبة له القول: أن أقم ولا تحدث شيئاً، فإذا حسر الشتاء فعسكر، وسر نحو طخارستان، واعلم أنني قريب منك، فسار عبد الرحمن، فنزل البروقان، وأمهل قتيبة، حتى إذا كان في آخر الشتاء كتب إلى أهل نيسابور أبيورد وسرخس، فقدموا عليه مع أهل هراة، فأوقع بالطالقان؛ لأن ملكها وافق نيزك على حرب قتيبة، وواعده مع من استجاب للنهوض معه من الملوك لحرب قتيبة، فسار

(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٤٥، مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٤٠٢.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٤٦، مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٤٠٢، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ص ٢٩٥، النويري: نهاية، ج ٢١ ص ٢٨٩، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٢٣، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ٧٧، عطوان: الشعر، ص ٢٦.

(٣) Gibb: the Arab Conquests, p36.

قتيبة إلى الطالقان، فأوقع بأهلها، وبلغ مرزبان مرو الروذ، فهرب إلى بلاد الفرس، فقدم قتيبة مرو الروذ، فوجد ابنين له فقتلتهما وصلبهما، ومضى إلى ملك الفارياب، فتلّقاه ملكها بالطاعة، فرضي عنه ولم يقتل بها أحداً، واستعمل عليها رجلاً، وخرج صاحب الجوزجان هارباً، فترك أرضه ولحق بالجلال، ثم مضى يتبع أخاه عبد الرحمن، وكان خلف نيزك على فم الشعب (شعب خلم) مقاتلة، وترك أيضاً في قلعة من وراء الشعب مقاتلة، فأقام قتيبة أَيْاماً يقاتلهم على هذا المضيق لا يقدم منهم على شيء، ولا يقدر على دخوله، ولا يعرف طريقاً يفضي إلى نيزك إلا الشعب أو مفازة لا تحمل العساكر، فهو في ذاك متحير؛ إذ قدم عليه الرؤب خان^(١)، فاستأمنه على أن يدلّه على مدخل القلعة التي من وراء الشعب، فأمنه قتيبة وأعطاه ما سأل، وبعث معه رجالاً ليلاً، فانتهى بهم إلى القلعة التي من وراء شعب خلم، فطرقوهم وهم آمنون، وفلّوهم وهرب من كان في الشعب، ودخل قتيبة والناس معه الشعب، وسار إلى نيزك، وقدم أخاه عبد الرحمن، وبلغ نيزك فارتحل من منزله حتى قطع وادي فرغانة، ووجه ثقله وأمواله إلى كابل شاه، ومضى حتى نزل الكرز وعبد الرحمن بن مسلم يتبعه، فنزل عبد الرحمن، وأخذ بمضايق الكرز، ونزل قتيبة بينه وبين عبد الرحمن فرسخان، فتحرز نيزك في الكرز، وليس إليه مسلك إلا من وجه واحد، وذلك الوجه صعب لا تطيقه الدواب، فحاصره قتيبة شهرين حتى قل ما في يد نيزك من الطعام، وأصابهم الجدري وجُدِرَ جبغويه، وخاف قتيبة الشتاء، فدعا سليمان الناصح، فقال: انطلق إلى نيزك واحتل لتأتيني به بغير أمان، وبالفعل نجح سليم في مهمته، وقدم بنيزك على قتيبة. وبعد مشاورة الحجاج بن يوسف بقتله التي جاءت بالموافقة على قتل نيزك، وخرج قتيبة بعد اليوم الرابع من كتاب الحجاج الذي ينص على قتل نيزك فجلس وأذن للناس، فقال: ما ترون في قتل نيزك؟ وكثرت الأقاويل فيه، ودخل ضرار بن حصين الضبي فقال:

ما تقول يا ضرار؟ قال: أقول: إني سمعتك تقول: أعطيت الله عهداً إن أمكنك منه أن تقتله، فإن لم تفعل لا ينصرك الله عليه أبداً فأطرق قتيبة طويلاً، ثم قال: والله لو لم يبق من أجلي إلا ثلاث كلمات لقلت: اقتلوه، اقتلوه، وأرسل إلى نيزك فأمر بقتله وأصحابه فقتل مع سبعة أشخاص، وكان مقتله سنة ٩١هـ/٧١٠م، وبمقتله استقرت أمور طخارستان نهائياً للمسلمين^(٢)، وقال نهار بن توسعة يمدح قتيبة

(١) ملك الرؤب وسمنجان أو الزوب جار، الطبري: تاريخ، ج ٤ ص ٤٤٥، مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٤٠٤.

(٢) اليعقوبي: تاريخ، ج ٢ ص ٣٤٢، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٥٤-٤٥٦، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ص ٢٩٩، ابن الأثير:

بعد مقتل نيزك في قصيدة منها:

أصبت و وفقت ابن عمرو ولم	تزل على كل حال قد توفق للرشد
قتلت عدو الله نيزك بعدما	أتى وجنود المسلمين على حقد
فكم ثم كم من غمرة قد عقرتها	وكم عاند في القوم قومت للقصد
وكم مقتر أنعشته يا بن مسلم	وأعطيته الآمال في طلب الحمد
وكم من عظيم البال يختال في الوغى	تركت صريعاً لليدين وللخد
وكم بئس أغنيته بعد عيلة	فأصبح ذا مال كثير و ذا لبد
ومن متلد دغدغت بالسيف ماله	وقدما قديما كان يأوي الى صغد ^(١)

وما إن عاد قتيبة إلى العاصمة مرو حتى راسله ملك الجوزجان الذي هرب من بلاده؛ لأنه أيد نيزك ثم تراجع عن موقفه عندما علم بمصرعه يطلب منه الأمان، فأمنه على أن يأتيه، فطلب منه رهنًا ويعطيه رهائن، فأعطاه قتيبة حبيب بن عبد الله بن حصين الباهلي، وأعطى ملك الجوزجان رهائن من أهل بيته، ثم قدّم على قتيبة الذي صالحه ومكث عنده إلى أن خرج راجعاً إلى بلاده، لكنه مات في الطالقان مسموماً؛ مما جعل بعض أهل الجوزجان يعتقدون أنه قُتل قتلاً مدبراً فقتلوا حبيباً، فما كان من قتيبة إلا أن قتل الرهائن الذين كانوا عنده ونقضوا الصلح، وبهذا اضطربت أحوال الجوزجان من جديد؛ مما جعل قتيبة يسرع لإعادة النظام إليها، ثم توجه نحو المشرق وقطع النهر، وأعاد فتح المناطق المتمردة فيه، وهي: شومان، وآخرون، وكش، ونسّف، ثم عاد إلى مرو من جديد، وذلك سنة ٩١هـ/٧١٠م^(٢)، وامتنعت عليه الفارياب في هذه السنة فأحرقها، وصالح أخاه عبد الرحمن طرخون ملك الصغد، وأعطاه طرخون أموالاً كثيرة^(٣)، ثم

الكامل، ج ٤ ص ٣١-٣٣، النويري: نهاية، ج ٢١ ص ١٧٥-١٧٨، الذهبي: تاريخ الاسلام، ج ٦ ص ٢٥٢-٢٥٣، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٢٣، أبو خليل: فتح، ص ٦٣، عطوان: الشعر، ص ٢٦-٢٧، العسلي: بسام، قتيبة بن مسلم الباهلي، دار النفائس، بيروت، ط ٤، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص ٤٢.

^(١) ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١١٥.

^(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٦٠-٤٦٢، مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٢٧٢، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٢٦١، الذهبي: العبر، ج ١ ص ٧٨.

^(٣) النويري: نهاية، ج ٢١ ص ١٧٨-١٧٩، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٣٧.

غزا سنة ٩٢هـ/٧١١م سجستان، ولسجستان قصة مع ابن الأشعث^(١) الذي خلع وخرج إليها مخالفاً لعبد الملك بن مروان والحجاج، فهادن زنبيل وصار إليه، ثم إن زنبيل أسلمه خوفاً من الحجاج، فصالح الحجاج زنبيل على أن لا يغزوه سبع سنين، ويقال: تسع سنين على أن يؤدي بعد ذلك في كل سنة تسعمئة ألف درهم، وهكذا بقيت سجستان طيلة هذه الحقبة هادئة دون نزاعات فلما انقضت السنون ولى الحجاج الأشهب بن بشر الكلبي سجستان، فعاصر زنبيل في العرض التي أداها فكتب إلى الحجاج يشكوه إليه فعزله الحجاج، لما ولى قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان وسجستان في أيام الوليد بن عبد الملك ولى أخاه عمرو بن مسلم سجستان، فطلب الصلح من زنبيل دراهماً، فذكر أنه لا يمكنه إلا ما كان فارق عليه الحجاج من العروض، فكتب عمرو بذلك إلى قتيبة فسار قتيبة إلى سجستان، فلما بلغ زنبيل قدومه أرسل إليه إننا لم نخلع يداً من الطاعة، وإنما فارقتمونا على عروض فلا تظلمونا، فقال قتيبة للجند: اقبلوا منه العروض؛ وهي خمسمئة ألف درهم ومائتي رأس من الرقيق والغلمان فإنه ثغر مشؤوم فرضوا بها، ثم انصرف قتيبة إلى خراسان وعاد إلى مرو، واستعمل عليهم عبد ربه بن عبد الله بن عمير الليثي^(٢).

وفي ختام هذه المرحلة أحكم قتيبة سيطرته على إقليم طخارستان، وقضى على التحالف الذي تزعمه نيزك، وبات الجميع يخشى قوة المسلمين؛ لذا فقد صار لفتح بخارى أثر كبير في إظهار قوة المسلمين في هذه البلاد^(٣).

(١) للتوسع في جيش الطواويس الذي أطلق عليه هذا اللقب لكثرة عتاده وقيل لكثرة ما كان فيه من الفتيان المنعوتين بالجمال والذي أرسله الحجاج لتأديب زنبيل سجستان، انظر: المسعودي: التنبيه، ص ٢٧١، الثعالبي: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص ٤٨١، الزمخشري: جار الله ت ٥٨٣هـ/١١٤٣م، ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ج ٥ ص ٤١٥.

(٢) البلاذري: فتوح، ص ٣٨٨، اليعقوبي: البلدان، ص ١٠٧، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٦٨، المسعودي: التنبيه، ص ٢٧٢، ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١١٨-١١٩، الأفتسي: أبو جعفر أمين الدولة محمد بن محمد بن هبة الله العلوي الحسيني ت ٥١٥هـ/١١٢١م، المجموع اللبيب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ٤٥، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٢٧٢، القحطاني: سعيد بن علي بن وهف، أبراج الزجاج في سيرة الحجاج، د.م، د.ت، ص ١١٩، العسلي: قتيبة، ص ٤٨.

(٣) عماش: قتيبة، ص ١٠٢، محمود: الإسلام والحضارة، ص ١٢٥.

٣- المرحلة الثالثة: فتح خوارزم وسمرقند ٩١-٩٣هـ/٧١٠-٧١٢م:

هذه هي المرحلة الثالثة من مراحل الفتح العربي الإسلامي لبلاد ما وراء النهر، وفي هذه المرحلة فرض قتيبة السيادة العربية الإسلامية على حوض نهر جيحون، وتوج عمله فيها بالاستيلاء على خوارزم وسمرقند.

أ- فتح خوارزم:

في سنة ٩٣هـ/٧١١م قضى قتيبة الشتاء، وكان يستعد لفتح سمرقند، ولكن حدثت تطورات حالت دون ذلك، ومصدر هذه التطورات هي خوارزم، وأن ملك خوارزم، ويسميه ابن الأعمش (جنغان) كان ضعيفاً، فغلبه أخوه خرزاد على أمره، وخرزاد أصغر منه، فعاث في البلاد، ونشر فيها الفساد، وسلب الأموال والأعراض، فإذا قيل لـ (جنغان) ما فعل أخوه، قال: لا أقوى عليه، وقد ملأه مع هذا غيظاً، فلما طال ذلك منه كتب إلى قتيبة يدعوه إلى أرضه يريد أن يسلمها إليه، وبعث إليه بمفاتيح مدائن خوارزم، ثلاثة مفاتيح من ذهب، واشترط عليه أن يدفع إليه أخاه، وكل من كان يقف في وجهه، ويحكم فيه بما يرى، وبعث في ذلك رسلاً، ولم يطلع أحداً من مرابطيه ولا دهاقينه على ما كتب إلى قتيبة، فأظهر قتيبة أنه يريد الصغد، ورجع رسل خوارزم شاه إليه بما يجب من قبل قتيبة، وسار واستخلف على مرو ثابراً الأعور مولى مسلم، فجمع ملوكه وأحباره ودهاقينه فقال: إن قتيبة يريد الصغد، وليس بغازيكم، فهل نتنعم في ربيعنا هذا فأقبلوا على الشرب، والتنعم، وأمنوا عند أنفسهم الغزو، فلم يشعروا حتى نزل قتيبة في هزار سب دون النهر، فقال خوارزم شاه لأصحابه: ما ترون؟ قالوا: نرى أن نقاتله، قال: لكني لا أرى ذلك، قد عجز عنه من هو أقوى منا وأشد شوكة، ولكني أرى أن نصرفه بشيء نؤديه إليه، فنصرفه عامنا هذا، ونرى رأينا، قالوا: ورأينا رأيك، فأقبل خوارزم شاه فنزل في مدينة الفيل^(١) من وراء النهر. فصالحه على عشرة آلاف رأس ومتاع^(٢)، وبعث قتيبة

(١) وقال كعب الأشقري:

رامتك فيل بما فيها وما ظلمت، ... ورامها قبلك الفجفاجة الصلف

الفجفاجة والفجفاج: الكثير الكلام والفخر لما ليس عنده، انظر: الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٧١، عطوان: الشعر، ص ١٤٢.

(٢) ربما المقصود بهذا العدد هو أن يؤخذ منهم الجزية لا أن يكون هذا العدد من العبيد، فإن هذا العدد مبالغ فيه، فهل

أخاه إلى ملك خرزاد، وكان يعادي خوارزم شاه، فقاتله، فقتله عبد الرحمن، وغلب على أرضه، وقدم منهم على قتيبة بأربعة آلاف أسير فقتلهم^(١)، وسلّم قتيبة إلى خوارزم شاه أخاه ومن كان يخالفه من أمرائه فقتلهم، ودفع أموالهم إلى قتيبة^(٢)، وتمكن الأخير من خوارزم. سلف الذكر أن قتيبة أراد سمرقند، ولكن تطورات ما جعلته يسير إلى خوارزم، فهل يمكن لقائد عسكري كقتيبة كان يتجهز لسمرقند، وبدعوة من ملك له خلاف مع أخيه يجعل زحف الجيوش إليه؟ لربما أراد بهذا أن يوطد الأمن شمال جيحون، وبمساعده ملك خوارزم يتسنى له الحصول على حلفاء جدد.

ب- فتح سمرقند ٩٣هـ / ٧١١م:

قبل البدء بالحديث عن الفتوحات هناك أمران مهمان: الأول على الصعيد العربي؛ وهو الاضطراب الحاصل في جيش قتيبة، فقد أصبح لدى الجند شيء من الضجر من الحملات الطويلة المتكررة ولاسيما أنهم للتو خارجون من سجستان وخوارزم، فكان الرفض في الخروج إلى سمرقند، وطلبوا العودة إلى الديار، ولكن قتيبة رفض طلبهم ودعم موقفه بوصول كتاب الحجاج الذي يثني به على رأي قتيبة بالمسير إلى سمرقند، فقد قال في كتابه: "أما بعد فإني لست بآيس؛ إذ فتح الله علينا وعليك خوارزم، وأغنمنا أموالها وخزائنها وغنائمها، أن يفتح الله عليك وعلينا ما بعدها، وقد بلغني أنك تريد السير إلى سمرقند، وأنا أنشدك أن غزوت بالمسلمين، وأنا أسأل الله أن يعز نصرك، وأن يحسن عاقبتك، وأن يمدك بالملائكة المردفين، وأن يرغب قلوب أهل سمرقند. . . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته"^(٣)، ونجح قتيبة في رفع معنويات الجند. وأما الأمر الثاني فهو على صعيد سمرقند ففي أوقات وجود قتيبة في سجستان قامت ثورة أطاحت بطرخون الذي قبل بالسيادة العربية الإسلامية على سمرقند ودفع

يعقل أن يستطيع تأمين المسكن والمطعم لعدد مثل هذا فأني طعام يكفيهم .

(١) من أمر بقتلهم هو ملك خوارزم ، انظر ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١٢١، على أية حال العدد مبالغ فيه جداً.
(٢) ابن خياط: تاريخ، ص ٣٠٥، ابن قتيبة: المعارف، ص ٤٠٧، البلاذري: فتوح، ص ٤٠٦، يعقوبي: البلدان، ص ١٣٣، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٩٦، مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٤١٠، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ص ٣٠٨، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٤٦، النويري: نهاية، ج ٢١ ص ٢٩٥، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ٧٩، خطاب، قادة الفتوح، ص ٣٩٧، العسلي: قتيبة، ص ٤٨، عماش: قتيبة، ص ١٠٥.
(٣) ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١٢٢، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٧٢.

الجزية لقتيبة، وتولى الحكم عوضاً عنه غوزك، وبهذا يكون أهل سمرقند قد نقضوا الصلح المبرم مع قتيبة عام ٩٠هـ/٧١١م بعد فتح بخارى والامتناع عن دفع الجزية للمسلمين^(١).

و بعد فتح قتيبة خوارزم قام إليه القائد الجحش بن مزاحم السلمي، وقال له سرّاً: إن أردت الصغد (سمرقند) يوماً من الدهر فالآن، فإنهم آمنون من أن تأتيهم من عامك هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام، فقال قتيبة: هل أشار عليك بهذا أحد؟ قال: لا، فقال: أسمع منك أحد؟ قال: لا فقال: والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك^(٢)، فلما كان الغد أمر قتيبة أخاه عبد الرحمن فسار في الفرسان والرماة، وقدم الأتقال يريد مرو، فسار يومه، فلما أمسى كتب إليه قتيبة: إذا أصبحت فوجه الأتقال إلى مرو، وسر في الفرسان والرماة نحو الصغد، واكتم الأخبار، فإني بالأثر، ففعل عبد الرحمن ما أمره، وخطب قتيبة الناس، وقال لهم:

إن الصغد شاغرة برجلها، وقد نقضوا العهد الذي بيننا، وصنعوا ما بلغكم، وإني أرجو أن تكون خوارزم والصغد كقريظة والتّضير^(٣).

ثم سار فأتى الصغد، فبلغها بعد عبد الرحمن بثلاثة أو أربعة أيام، فقال: إنا إذا نزلنا بساحة قوم "فساء صبايح المُنْدَرين"^(٤). وقدم معه أهل خوارزم وبخارى، فقاتلوا شهراً واحداً وهم محاصرون، وخاف أهل الصغد طول الحصار، فكتبوا إلى ملك الشاش وأخشاد وخاقان وفرغانة أنّ العرب إن ظفروا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به فانظروا لأنفسكم، ومهما كان عندكم من قوة فابذلوها، فانتخبوا من أبناء الملوك وأهل

(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٦٤، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٤٨، فلهاوزن: تاريخ الدولة، ص ٤١٤، فامبري: بخارى، ص ٦٦، عبد اللطيف: العالم الإسلامي، ص ٣٤٧.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٧٢، مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٤١٩، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٤٨، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٤١.

(٣) ابن خياط: تاريخ، ص ٣٠٥، ابن قتيبة: المعارف، ص ٥٦٨، البلاذري: فتوح، ص ٤٠٦، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٧٢، مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٤٢٠.

(٤) سورة الصافات: آية ١٧٧. وقد قالها قتيبة تيمناً بقول النبي صلى الله عليه وسلم عند ما حاصر خيبر، الأبيهي: شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، المستطرف في كل فن مستطرف، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص ٢٢٣.

التّحدة من أبناء المرازية والأساورة والأبطال، وأمروهم أن يأتوا عسكر قتيبة؛ فيبيتوه، وولّوا عليهم ابنا لخاقان، فساروا، وبلغ قتيبة الخبر^(١)، وهنا يمكن القول إن الاستطلاعات التي كانت لدى قتيبة من الناحية العسكرية كانت في يقظة دائمة في كل وقت وحين؛ أي كان لديهم رصد دقيق لتحركات العدو.

فانتخب قتيبة من عسكره مئة، وقيل: ستّمئة من أهل التّحدة والشجاعة، وأعلمهم الخبر، وأمروهم بالمسير إليهم، فساروا، وعليهم صالح بن مسلم، فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم، فجعل صالح له كمينيناً، فلما مضى نصف الليل جاءهم عدوّهم، فلما رأوا صالحاً حملوا عليه، واقتتلوا فشدّ الكمينان عن يمين وشمال، فقتلهم المسلمون، وأسروا منهم، ولم يفلت منهم إلا الشريد، وأخذوا سلاحهم وأسلاهم، وسأل بعض الأسرى عن القتلى فقالوا: "ما قتلتم إلا ابن ملك أو عظيماً أو بطلاً، إن كان الرجل ليعدّ بمئة رجل"^(٢).

بينما قتيبة نصب المجانيق على سمرقند فأرسل إليه غوزك: إنما تقاتلني بإخوتي وأهل بيتي من العجم، فأخرج إلي العرب، فغضب قتيبة عند ذلك، وميز العرب من العجم، وأمر العجم باعتزالهم^(٣)، ورماهم فثلمه ثلثة، ثم أمر قتيبة الناس بالجدّ في القتال، وأن يبلغوا ثلثة المدينة، ففعلوا، وحملوا وقد تترّسوا حتى بلغوا الثلثة، ووقفوا عليها، فرماهم الصّعد بالنشاب، فلم يبرحوا، فأرسلوا إلى قتيبة أن انصرف عنا اليوم حتى نصالحك غداً، فقال: لا نصالحهم إلا ورجالنا على الثلثة، وقتيبة يناجي نفسه: "حتى متى يا سمرقند يعيش فيك الشيطان، أما والله لئن أصبحت لأحاولن من أهلك أقصى غاية"^(٤)، فصالحهم من الغد على ألفي ألف ومائتي ألف مثقال في كل عام، وأن يعطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس، وأن يخلوا المدينة لقتيبة، فلا يكون لهم فيها مقاتل، فيبني فيها مسجداً فيصلّي فيه، ويخطب، ويطعم ويخرج، فلما تمّ الصّلاح بنى

(١) الطبري: تاريخ، ج٦ ص٤٧٤، مسكويه: تجارب، ج٢ ص٤٢٠، ابن الأثير: الكامل، ج٤ ص٥٠، النويري: نهاية، ج٢١ ص٢٩٦، اليافعي: مرآة الجنان، ص١٤٥.

(٢) الطبري: تاريخ، ج٦ ص٤٧٥، الذهبي: العبر، ج١ ص٧٩.

(٣) الطبري: تاريخ، ج٦ ص٤٧٤، مسكويه: تجارب، ج٢ ص٤١٥، ابن كثير: البداية، ج١٢ ص٤٤١. بارتولد: تركستان، ص٣٠٣.

(٤) الطبري: تاريخ، ج٦ ص٤٧٨، ابن الأثير: الكامل، ج٤ ص٤٨، عبد اللطيف: عبد الشافي محمد، السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص٢٧١، أبو خليل: فتح، ص٧١.

المسجد، ودخلها قتيبة في أربعة آلاف انتخبهم، فدخل المسجد، فصلّى فيه، وخطب وأكل طعاماً، ثم أرسل إلى الصّغد يقول: من أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذ، فإني لست خارجاً منها، ولست آخذ منكم إلا ما صالحتكم عليه، غير أنّ الجند يقيمون فيها، وقيل: إنه شرط عليهم في الصّلع مئة ألف رأس وبيوت النيران وحلية الأصنام، فقبض ذلك، وأتى بالأصنام، فأخذ ما عليها، وأمر بها فأحرقت، وكانت الأعاجم تقول: إن فيها أصناماً من استخف بها هلك فحرقها قتيبة بيده، وأسلم منهم خلق كثير، فقال المختار بن كعب الجعفي في قتيبة:

دوخ الصغد بالقبائل حتّى ترك الصغد بالعراء قعوداً^(١)

فوجد من بقايا الأصنام، وهي أصنام بوذا^(٢) التي حرقها مسامير من الذهب وزن خمسين ألف مثقال، وأصاب بالصّغد جارية من ولد يزدجرد، فأرسلها إلى الحجاج، فأرسلها الحجاج إلى الوليد، فولدت له ابنه يزيد بن الوليد، وتلا قتيبة بعد نصره قوله تعالى: «وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى»^(٣). وبعدما صالح الصغد دعا قتيبة نهار بن توسعة، فقال: يا نهار، أين قولك، أي أين أنت مما قلت سالفاً:

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب

أقاما بمرور الروذ رهن ضريحه وقد غيبا عن كل شرق ومغرب

أفغزو هذا يا نهار؟ قال: لا، هذا أحسن، وأنا الذي أقول:

وما كان مذكنا ولا كان قبلنا ولا هو فيما بعدنا كابن مسلم

أعم لأهل الترك قتلاً بسيفه وأكثر فينا مقسماً بعد مقسم^(٤)

ثم رجع قتيبة إلى مرو، واستعمل على سمرقند إياس بن عبد الله على الحرب، وجعل على الخراج عبيد الله بن أبي عبيد الله مولى مسلم، وكانت تعليمات حازمة جداً متعلقة بالداخلين إلى سمرقند والخارجين

(١) المرزباني: معجم الشعراء، ص ٤٠٨، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٥٠، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٤٣.

(٢) انظر الفصل الثاني من البحث عن بوذا وتماثله في ما وراء النهر.

(٣) سورة النجم: آية ٥٠-٥١.

(٤) الدينوري: الشعر، ج ١ ص ٥٢٩، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٧٩، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٦٢ ص ٣٢٠، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٥٠.

منها، وقد أحكمت بشكل أممي كبير، وربما ذلك عائد إلى مكانة سمرقند عند الصغد؛ ولأنها نقضت الصلح؛ فكانت التدابير أشد لموقعها، وأعطى قتيبة تعليماته: "لا تدعن مشركاً يدخل باب سمرقند إلا مختوم اليد، ثم لا تدعه بها إلا مقدار ما تحف طينة ختمه، فإن جفت وهو بها فاقتله، ومن رأيته منهم ومعه حديدة أو سكينه فاقتله بها، وإذا أغلقت الباب فوجدت بها أحداً منهم فاقتله"^(١).

أثناء سير عمليات الفتح هناك بعض القضايا التي لا بد من الحديث عنها:

١. محكمة سمرقند:

لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم، وأسكنها المسلمين على غدر، فكتب عمر إلى عامله يأمره أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين أخرجوا، فنصب لهم جميع بن حاضر الباجي، فحكم بإخراج المسلمين على أن يباذلوهم فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة، فقال أهل الصغد: بل نرضى بما كان، ولا نجدد حرباً، وتراضوا بذلك، فقال أهل الرأي: قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم، وأمنونا وأمناهم، فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ولا ندري لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة، فتركوا الأمر على ما كان، ورضوا ولم ينازعوا^(٢).

والقضية هي إثارة العدل؛ وأي عدل ذلك الذي شهد له القاضي والداني وهو الخليفة الراشدي الخامس كما عده المؤرخون، وهو عمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذه الرواية كما هو مشار إليه في الحاشية ذكرت في العديد من المصادر، وفتح سمرقند كان في عام ٩٣هـ/٧١١م، وخلافة عمر بن عبد العزيز تبدأ في عام ٩٩هـ/٧١٧م، فالفارق الزمني كبير، وأضف إلى ذلك أن قائد العمليات هو قتيبة بن مسلم الذي لا يشك لا به ولا بالذين كانوا معه ليقوم بغدر أهل سمرقند، وإن عملية الفتح واضحة كما سردتها المصادر التاريخية، ولا يظن بقتيبة أن يفعل هذا الأمر، وإن القاضي الذي ولده

^(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٨٠، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٤٢.

^(٢) البلاذري: فتوح، ص ٤٠٧، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٦٨، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ١١٥، النويري: نهاية، ج ٢١ ص ٣٧٠، ضميرية: عثمان، القانون الدولي، مجلة البيان، العدد ١٠٣، ص ١٠٠، حبيب: كمال، نحو بناء إسلامي لمصطلح الأقلية، مجلة البيان، العدد ٩٢، ص ٩٠.

عمر بن عبدالعزيز وهو جُميع بن حاضر لم يكن له أي ترجمة في كتب التراجم، وعلاوةً على ما ذكر، وفي الرواية التي ذكرها الطبري التي يقول فيها على لسان قتيبة أثناء صلح قتيبة مع أهل سمرقند: "من أراد منكم أن يأخذ متاعه فليأخذ، فإني لست خارجاً منها، ولست آخذ منكم إلا ما صالحتكم عليه، غير أن الجند يقيمون فيها"، وهذه الرواية الوحيدة التي ليس لها ذكر سوى عند الطبري لم يذكر فيها قضية الغدر أو ما شابه ذلك.

٢. رواية في فتح سمرقند:

قال الدهقان لقتيبة: إنك لو أقمت على هذه المدينة عمرك لم تصل إليها، لأننا نجد في كتب آبائنا، أنه لا يقدر عليها إلا رجل اسمه بالان أو (إكاف الجمل)، لست إياه، فامض لشأنك، فقال قتيبة: الله أكبر، فأنا إكاف الجمل، أنا قتيبة، والقتب^(١): قتب الجمل^(٢). وهذه الأسطورة التي لا ترقى لأن تكون رواية تاريخية، فهي تنكر جهود العرب المسلمين في عملياتهم العسكرية، ولو كانت صحيحة لما كان هناك المنجنيق الذي دك أسوار سمرقند، وأزغم أهلها على دخول رُسل الحضارة العربية الإسلامية إليها.

٣. رواية أخرى في فتح سمرقند:

زعموا أن قتيبة احتال عندما يئس من فتحها، فهيأ صناديق، وجعل لها أبواباً من أسافلها، تغلق من داخل، وتفتح، وجعل في كل صندوق رجلاً ومعه سيفه، وأقفل أبوابها العليا. ثم أرسل إلى الدهقان: أما إذا كان هذا هكذا، فإني راحل عنك إلى الصغانيان وناحيتها، ومعني فضول أموال وسلاح، فوادعني، وأحرز هذه الصناديق عندك إلى عودي أن سلمت. فأجابه إلى ذلك، وتقدم قتيبة إلى الرجال أن يفتحوا أبواب الصناديق في جوف الليل، فيخرجوا، ثم

(١) الفراهيدي: العين، ج ٥ ص ١٣١، الخطابي: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي ت ٣٨٨هـ/٩٩٨م، غريب الحديث، تح: عبد الكريم إبراهيم الغرابوي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ج ٣ ص ٤٨٦، الرازي: مختار الصحاح، ج ٥ ص ٥٩، ابن منظور: لسان، ج ١ ص ٦٦٠.
(٢) ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١٢٣، الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٣٢٧، يعقوبي: تاريخ، ج ٢ ص ٢٠١، فامبري: بخارى، ص ٦٦.

يصيرون الى باب المدينة فيفتحوه.

وأمر الدهقان بالصناديق، فأدخلت المدينة فلما جنَّ الليل، وهدأ الناس خرج الرجال، ومعهم السيوف، لا يستقبلهم أحد إلا قتلوه، حتى أتوا باب المدينة، فقتلوا الحرس، وفتحوا الباب ودخل قتيبة بالجيش، ووقعت وهرب الدهقان في سرب فلحق بالملك، وصارت سمرقند في قبضة قتيبة، فخلف عليها رجلاً، وسار حتى أتى الصغانيان، فهرب الملك منهم حتى صار في بلاد الترك، ووجل فيها، وخلق المملكة لقتيبة^(١).

هذه الأسطورة تعطي أمرين اثنين: هما أن أهل سمرقند ولاسيما من هم بقرب غوزوك وقادته يملكون السذاجة والبلاهة لدرجة يكاد يقهقه منها من لا يملك العقل، كيف لهم أن يقبلوا إدخال الصناديق من أناس لهم معهم حرب، وأضف إلى ذلك خلال دراسة سمرقند لا يوجد مصدر إلا وذكر أهلها بالشدة والبأس ورجاحة العقل وأما الأمر الثاني فهو طعن في سلوكيات الفاتحين وانطوائها على الخبث والمكر. ولا شك أن هذه من الزيادات التي تنسب للقصة والأدب ولربما هي استعارة من الأدب، الجاهلي من قصة الزباء ملكة الجزيرة مع القصير بن سعد اللحمي التي يرويها الميداني وكأنه الخبر نفسه^(٢).

٤. من عجائب سمرقند:

وتزعم الرواة أنّ قتيبة بن مسلم لما افتتح سمرقند أفضى إلى أثاث لم ير مثله، وإلى آلات لم ير مثلهما، وأراد أن يري الناس عظيم ما فتح الله عليهم، ويعرفهم أقدار القوم الذين ظهروا عليهم، فأمر بدار ففرشت وفي صحنها قدور أشتات ترتقى بالسلام^(٣).

(١) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٣٢٧.

(٢) تفاصيل القصة، انظر: الميداني: أحمد بن محمد بن إبراهيم، ت ٥١٨هـ/١٢٤م، مجمع الأمثال، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط ٢، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، ج ١ ص ٢٣٣.

(٣) المبرد: الكامل، ج ٣ ص ١١، ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٤ ص ١٢٣، التوحيدي: أبو حيان علي بن محمد بن العباس ت ٤٠٠هـ/١٠٠٩م: البصائر والذخائر، تح: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج ٨ ص ١٩١، الرازي: منصور بن الحسين ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م، نثر الدر في المحاضرات، تح: خالد عبد الغني مخفوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ج ٧ ص ١١٦، ابن حمدون: التذكرة، ج ٧ ص ١٩٤، ابن العديم: بغية، ج ٦ ص ٢٨٢٩.

إذاً نجح قتيبة في فتح خوارزم وسمرقند في عام واحد، وفرض سيطرته الكاملة على حوض نهر جيحون ليتجه نحو الأقاليم السبخونية.

ج- المرحلة الرابعة: فتح فرغانة والشاش وكاشغر ٩٤-٩٦هـ/٧١٢-٧١٤م:

في هذه المرحلة اتجهت الحملات العربية الإسلامية إلى إخضاع المقاطعات الواقعة على نهر سيحون؛ أي القسم الغربي الذي كان عبارة عن دويلات غزية صغيرة متناحرة تدعى خانيات التاركش (targesh)^(١)، بعدما أنهى قتيبة القسم الشرقي الذي كانت فيه الإمبراطورية الغزية التي كانت تحكم من قبل كابغان الذي ورد اسمه في المصادر العربية كما مر سالفاً (كور بغانون)، حيث إن المقاومة في هذه المناطق كانت أشرس وأعنف من المناطق السالفة لما اشتهر عن سكان إقليم فرغانة والشاش من القوة والشجاعة والبأس والجرأة والإقدام حتى كانوا مضرب المثل في ذلك^(٢).

١- فتح إقليم فرغانة والشاش:

قطع قتيبة سيحون، وفرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين ألف مقاتل، فساروا معه، فقسم قتيبة جيشه إلى فرقتين، فوجه القسم الأول إلى الشاش، وتوجه هو إلى فرغانة فأتى خجندة، فجمع له جموع هائلة من الترك، فلقوه فاقتتلوا مراراً، فكانت معركة شرسة حول مدينة خجندة، ويبدو أن نتيجة المعركة لم تكن حاسمة مما جعله يطلب مدداً من الحجاج الذي لم يتوان عن إمداده بقوات من العراق، بل أمر محمد بن القاسم الثقفي أن يوجه إليه أيضاً مدداً من السند، فاحتياج قتيبة إلى إمدادات من العراق والسند فوق ما معه من قوات كبيرة يعكس المقاومة الشرسة التي لقيها في أقاليم سيحون، وكان الظفر للمسلمين وفتح أشروسنة^(٣)، وقول ابن خياط "وافتح قلاعها"^(٤) يقدم دلالات على تحصينات قوية ولربما هذا يفسر شراسة المعركة لما أدته القلاع من دور مهم في المعركة

(١) تركماني: تاريخ الأتراك، ص ٤٨.

(٢) الجاحظ: رسائل الجاحظ، ج ١ ص ٤٥.

(٣) البلاذري: الفتوح، ص ٤٠٧، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٨٣، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٥٥، ابن العماد: شذرات، ج ١ ص ٣٧٠.

(٤) ابن خياط: تاريخ، ص ٣٠٦.

الدائرة بين الطرفين، ثم إن قتيبة أتى كاشان، وأتاه الجنود الذين وجههم إلى الشاش، وقد فتحوها حتى وصل إلى كابل فحاصرها، وافتتحها وانصرف إلى مرو^(١)، وقد قال سحبان وائل القيسي يذكر قتالهم بخجندة التي هي قريبة من بلاد الصين أبياتاً في ذلك:

فسل الفوارس في خجن دة تحت مرهفة العوالي
هل كنت أجمعهم إذا هزموا وأقدم في القتال
أم كنت أضرب هامة ال عاتي وأصبر للعوالي^(٢)

ذكر المعركة ابن الأعثم، ولكن ما يتراد إلى الفكر عن روايات ابن الأعثم حول فتوحات قتيبة أنه قد ربط أغلبها بالخدع والحيلة مع الغدر، وهذا يفقد قتيبة ومن معه الجهود، ولا سيما الجهود العسكرية المبذولة من قبلهم، وبغدر قتيبة يكون قد أفقد تلك الرسائل التي يحملها عن الإسلام ونشر الصدق والأمانة لا شك أن الحرب خدعة، ولكن ليس بغدر.

وهذا نص الرواية لديه: "ثم أقبل قتيبة حتى نزل على ملك فرغانة و اسمه باشك، وكان له حصن وثيق يقال له: مجندة، وقد جمع باشك في ذلك الحصن جميع ما يحتاج إليه من آلة الحصار قال: فأقام عليه قتيبة سبعة أشهر حتى في ما كان عنده، ثم خدعه قتيبة فاستنزله من حصنه بغير أمان، ثم قدمه فضرب عنقه صبراً".

فأنشأ حاجب بن ذبيان المازني في ذلك يقول أبياتاً مطلعها:

كم من عدو قتلت ذي كلب جهم المحيا صبحت بالحرب^(٣)

وفي هذه المرحلة من عام ٩٤-٩٦هـ/٧١٢-٧١٤م استطاع قتيبة أن يعبر نهر سيحون، وفتح الممالك السيوخونية الثلاث: الشاش، وأشروسنة، وفرغانة.

(١) النويري: نهاية، ج ٢١ ص ٢٠٠، الذهبي: العبر، ج ١ ص ٨٠، الياضي: مرآة، ص ١٥٨، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٦١، ابن خلدون: تاريخ، ج ٣ ص ٨٠، أبو عبيدة: موجز، ص ١٤، عبد اللطيف: السيرة، ص ٢٧٢.
(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٨٤، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٥٥، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٦١، عطوان: الشعر، ص ١٤٦.

(٣) ابن الأعثم: الفتوح، ج ٣ ص ١٣٢.

وفي هذه الأوقات مرض الحجاج مرضته التي توفي فيها، فلما أحسَّ من نفسه الضعف وعلم أنه ميت كتب الى قتيبة بهذا الكتاب: "أما بعد يا قتيبة"، فإني كتبت إليك كتابي هذا وقد اشتد وجعي، ولعل الله تبارك وتعالى أن يجعل هذه كفارة لذنوبي... وإني لأعلم رجالاً من المنافقين سيشتد سرورهم ما لي عند الله من عداوتهم إياي على دينه وأخذ حقه منهم، وإني لأعلم رجالاً يشد ذلك جزعهم لما يتخوفون من ظهور الأعداء، وقد علمت أن الذي ينصرهم في حياتي هو الذي يضرمهم بعد مماتي، فانظر يا قتيبة أن تكن أشد مما كنت في أمر الله وجهاد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير، أستودعك الله يا قتيبة، أنت ومن معك من المسلمين حتى نلتقي نحن وأنت غداً بين يدي الرب الرحيم" (١).

وتوفي الحجاج بالعراق ليلة الجمعة لسبع مضين من شهر رمضان، وقد أثر موت الحجاج في قتيبة تأثيراً كبيراً، فهو الذي كان يقف خلفه يشد من أزره بكل عزم وتصميم، وأهم من هذا كله الثقة الكبيرة بين الرجلين والتي هي من أهم عوامل النجاح، يقول الكرديزي: "وحيثما سمع قتيبة بموت الحجاج اغتم غمّاً شديداً" (٢)، ولقد حزن قتيبة حزناً عميقاً على موت قائده الكبير الحجاج، وتمثل بهذين البيتين من الشعر، فقال:

لعمري لنعم الفتى من آل جعفر بحوران أمسى أعلقته الحبال

فإن تحي لا أمل حياتي وإن تمت فما في حياة بعد موتك طائل (٣)

وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعرف طبيعة العلاقة بين الحجاج وقتيبة، ويعرف قدر الرجلين، والثقة المتبادلة بينهما والتعاون الذي كانت له ثمار طيبة، وكان في مصلحة الإسلام والمسلمين، بل مصلحة الدولة، وإذا كان الحجاج قد مات فليحاول الخليفة الاحتفاظ بقتيبة ليواصل جهاده وجهوده في خدمة

(١) ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١٣٠.

(٢) الكرديزي: زين، ص ١٧٩.

(٣) الحصري: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري ت ٤٥٣هـ/١٠٦١م، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت، د.ت، ج ٣ ص ٦٨١، ابن حمدون: التذكرة، ج ٢ ص ٢٨٥، ابن المنقذ: أبو المظفر مؤيد الدولة محمد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م، لباب الآداب، تح: أحمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، ط ٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ١٣٥.

الإسلام؛ لذلك كتب له يزيكه ويشجعه، وكان مما قال له: "قد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك في جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك، وصانع بك الذي يجب لك، فأتم مغازيك، وانتظر ثواب ريك، ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك، كأني انظر إلى بلادك والشجر الذي أنت فيه"^(١).

وأحدثت هذه الرسالة أثراً طيباً في نفس قتيبة، وأعطته دفعة قوية من العزم والتصميم، فعاد نشاطه ورغبته في الجهاد، فخرج من مرو ليواصل فتوحاته، حيث وصل إلى كاشغر.

٢- فتح كاشغر وغزو الصين ٩٦هـ/٧١٤م:

غزا قتيبة كاشغر، فسار وحمل مع الناس العائلات العربية ليسكنهم بسمرقند، وهي من بين خطط قتيبة في تعريب تلك المناطق، فلما عبر النهر استعمل رجلاً على معبر النهر يقال له: الخوارزمي ليمنع من يرجع إلا بجواز منه، وهذا الخوارزمي ومن معه أشبه بحامية على هذا المعبر^(٢)، ومضى إلى فرغانة، وأرسل إلى شعب عصام من يسهل الطريق إلى كاشغر، وهي أدنى مدائن الصين، وبعث جيشاً مع (كبير بن فلان)^(٣) إلى كاشغر، فغنم وسبى سبياً، فحتم أعناقهم، وأوغل حتى بلغ قريب الصين، فكتب إليه ملك الصين: "أن ابعث إلي رجلاً شريفاً يخبرني عنكم وعن دينكم"، فانتخب قتيبة عشرة لهم جمال وألسن وبأس وعقل وصلاح، فأمر لهم بعدة حسنة ومتاع حسن من الخز والوشي وغير ذلك وخيول حسنة، وكان منهم هبيرة بن مشمرج الكلابي^(٤)، فقال لهم: إذا دخلتم عليه، فأعلموه أنني قد حلفت أنني لا أنصرف حتى أطمأ بلادهم، وأختم ملوكهم، وأجبي خراجهم، فساروا وعليهم هبيرة، فلما قدموا عليهم دعاهم ملك الصين،

(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٩٣، ابن الجوزي: المنتظم، ج ٦ ص ٢٣٣، ابن خلدون: تاريخ، ج ٣ ص ٨٤، العصامي: سمط، ج ٣ ص ٣٠١، الصلابي: الدولة، ج ٢ ص ٤٥، عبد اللطيف: السيرة، ص ٢٧٣.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٠٠.

(٣) أو كثير بن فلان أو كثير بن إم الرقاق، انظر: الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٠٠، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٦٧، عماش: قتيبة، ص ١٣٠.

(٤) هبيرة بن مشمرج الكلابي: أحد الأشراف الشجعان الفصحاء توفي بفارس ٩٦هـ/٧١٤م، ورثاه سودة السلولي:

لله در هبيرة بن مشمرج ... ماذا تضمن من ندى وجمال

وبديهة يعيا بما أبنأوها ... عند احتفال مشاهد الأقوال، انظر: ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٦٨، الزركلي: الأعلام، ج ٨ ص ٧٦.

فلبسوا ثياباً بياضاً تحتها الغلائل، وتطيبوا ولبسوا النعال والأردية^(١)، ودخلوا عليه وهو في مدينة عظيمة يقال: إن عليها تسعين باباً في سورها المحيط بها يقال لها: خان بالق^(٢) من أعظم المدن، وأكثرها ريعاً، ومعاملات وأموالاً، حتى قيل: إن بلاد الهند مع اتساعها كالشامة في ملك الصين، والصين لا يحتاجون إلى أن يسافروا في ملك غيرهم؛ لكثرة أموالهم ومتاعهم، وغيرهم محتاج إليهم؛ لما عندهم من المتاع، والخير الوفير، وسائر ملوك تلك البلاد تؤدي إلى ملك الصين الخراج؛ لقوته وكثرة جنده وعدده، فدخلوا الرسل على ملك الصين في قلعة عظيمة حصينة، بقدر مدينة كبيرة، وعنده عظماء قومه، فجلسوا، فلم يكلمهم الملك ولا أحد ممن عنده، فنهضوا، فقال الملك لمن حضره: "كيف رأيتم هؤلاء؟ فقالوا: رأينا قوماً ما هم إلا نساء، ما بقي منا أحد إلا انتشر ما عنده"، فلما كان الغد دعاهم، فلبسوا الوشي^(٣) والعمام الخنز والمطارف^(٤)، وغدوا عليه، فلما دخلوا قيل لهم: ارجعوا، وقال لأصحابه: كيف رأيتم هذه الهيئة؟ قالوا: هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك، فلما كان اليوم الثالث دعاهم، فشدوا سلاحهم ولبسوا البيض والمغافر، وأخذوا السيوف والرماح والقسي وركبوا. فنظر إليهم ملك الصين فرأى مثل الجبل، فلما دنوا ركزوا رماحهم وأقبلوا مشمرين، فقبل لهم: ارجعوا، فركبوا خيولهم وأخذوا رماحهم ودفعوا خيلهم كأنهم يتطاردون، فقال الملك لأصحابه: كيف ترونهم؟ قالوا: ما رأينا مثل هؤلاء. فلما أمسى بعث إليهم: أن ابعثوا إلي زعيمكم، فبعثوا إليه هيرة بن مشمرج، فقال له: قد رأيتم عظم ملكي، وأنه ليس أحد مانعكم مني، وأنتم في يدي بمنزلة البيضة في كفي، وإني سائلكم عن أمر، فإن لم تصدقوني قتلتمكم. قال: سل. قال: لم صنعتم بزيكم الأول اليوم الأول والثاني والثالث ما صنعتم؟ قال: أما زينا اليوم الأول فلباسنا في أهلنا، وأما اليوم الثاني

(١) الأردية: المعاطف، ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن ت ٣٢١هـ/٩٩٣م، جمهرة اللغة، تح: رمزي بعلبكي، دار العلم والملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج ٢ ص ٩١٤.

(٢) مدينة خان بالق أو خان بالغ أو باليق اسم قديم لمدينة بكين الحالية عاصمة الصين، وخان بالق من أعظم مدن الدنيا ومدينة السلطان في وسطها، انظر: ابن بطوطة: رحلة، ج ٤ ص ١٥١.

(٣) ثياب ملونة ومزخرفة ومنمنمة، الزبيدي: تاج العروس، ج ٤٠ ص ٢٠١.

(٤) المطارف: هي أردية خز مربعة لها أعلام، فإذا كانت مدورة على شاكلة الطيلسان فهي التي كانت تسمى الخبية تلبسها النساء، انظر: الفارابي: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ت ٣٩٣هـ/١٠٠٢م، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج ٤ ص ١٣٩٤.

فزينا إذ أمتنا أمراؤنا، وأما الثالث فزينا لعدونا، قال: ما أحسن ما دبرتم دهركم، فقولوا لصاحبكم ينصرف، فإني قد عرفت قلة أصحابه، وإلا بعثت إليكم من يهلككم. قال: كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون^(١)؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل، فإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل، ولسنا نكرهه ولا نخافه، وقد حلف أن لا ينصرف حتى يطاء أرضكم، ويختتم ملوككم، ويعطي الجزية. فقال: فإننا نخرجه من يمينه، ونبعث تراب أرضنا فيطأه، ونبعث إليه ببعض أبنائنا فيختتمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاهما، فبعث إليه بهدية وأربعة غلمان من أبناء ملوكهم، ثم أجازهم فأحسن، فقدموا على قتيبة، فقبل قتيبة الجزية، وختم الغلمان وردهم، ووطئ التراب، فقال سودة بن عبد الملك السلوي:

لا عيب في الوفد الذين بعثتهم للصين إن سلكوا طريق المنهج
كسروا الجفون على القذى خوف الردى حاشا الكريم هبيرة بن مشمرج
أدى رسالتك التي استرعيتها فأذاك من حنث اليمين بمخرج^(٢)

على أي حال لم يكن هذا الاتصال الأول بين العرب والصين المتمثل بأسرة تانغ الذي دام حكمها ثلاثة قرون (٦١٨-٩٠٧م)^(٣)، وهذه المدة تغطي عهد الخليفتين عثمان وعلي رضي الله عنهما والعصرين الأموي والعباسي، وبحسب السجلات الملكية لأسرة تانغ التي تخص العرب واسمها (سجل داشي) تؤكد أن الاتصال كان في عهد الإمبراطور قاوتسنغ عام ٣١هـ/٦٥١م^(٤)، وكانت معرفة الصين بالعرب ربما تكون أول مرة عندما استنجد يزيدجرد الثالث بملك الصين وطلب الأخير من رسول يزيدجرد أن يصف له العرب وبعد حين من الزمن أجابه ملك الصين: "هذه صفة طوال الأعناق"، فطلب ملك الصين من يزيدجرد،

^(١) قصد بها بلاد الشام.

^(٢) الطبري: تاريخ، ج٦ ص٥٠٠، مسكويه: تجارب، ج٢ ص٤٢٢، ابن الجوزي: المنتظم، ج٧ ص١٢، ابن الأثير: الكامل، ج٤ ص٦٧، النويري: نهاية، ج٢١ ص٣٠٠، ابن كثير: البداية، ج١٢ ص٥٥٧، ابن خلدون، تاريخ، ج٣ ص٨٥، دحلان: الفتوحات، ص١٩٧، خطاب: قادة الفتح، ص٤٠٤، عماش: قتيبة، ص١٣١-١٣٣.

^(٣) هونخام: هيلدا، تاريخ الصين من قبل التاريخ إلى القرن العشرين، تر: أشرف محمد كيلاي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٣٨.

^(٤) هويدي: فهمي، الإسلام في الصين، عالم المعرفة، الكويت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٤٣.

وقال له: "سالمهم وارضَ منهم بالمساكنة، ولا تهيجهم ما لم يهيحوك"^(١)، وبعضهم يرى الاتصال مع فيروز بن يزدجرد^(٢)، ولكن أبرز اتصال هو اتصال قتيبة بن مسلم الباهلي عام ٩٦هـ/٧١٤م، ويذكر هذا الصدام (هوخام) ويقول: إن خليفة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي هذا التاريخ يوافق خلافة الوليد في دمشق، ولكن لا يعقل أن يكون الخليفة نفسه؛ لأنه في هذه الأوقات كان خبر وفاة الوليد كاد يصل إلى قتيبة الذي كان هو في حدود الصين، ولعل المقصود هو قتيبة بن مسلم الباهلي عندما أرسل سفارته، وهي تتوافق مع هذا التاريخ، وقد استقبل الوفد في تشانجان إلا أنه يجعل تاريخ الاستقبال في عام ٩٥هـ/٧١٣م، ويتابع قوله: إن الجيوش العربية الإسلامية جاءت إلى الشرق عبر فارس بسيوفهم وبدينهم الذي حولوا المشرق إلى عبادة الله، والمعابد إلى مساجد، ويضيف أنه كانت هناك مناوشات بين الجيش العربي الإسلامي والجيش الصيني انتهت بهزيمة ساحقة للجيش الصيني^(٣)، ولعله بعد هذه الهزيمة طلب المفاوضات فأرسل لهم قتيبة هبيرة ومن معه.

إلا أن بعضهم يشكك في أن فتوحات قتيبة في الصين قد توغلت، بل هي على مشارف الصين أو حدودها الأولى لا أكثر للمسلمين، في حين يؤكد المستشرق المجري فامبري أن جيوش المسلمين قد وصلت إلى تركستان الشرقية، وهاجمت أمراء الأويغور، وأن مدينة كانتون تسمى اليوم (غونتو) بشرق الصين، وهو أقدم المساجد في الصين، وكانت هذه المنطقة آخر حدود الإسلام الشرقية^(٤) في حين يخالفه جب^(٥). وبحسب ما يؤكد عمّاش أيضاً أنها قرية من قانسو الذي يذكرها فامبري، وبهذا يكون العرب

(١) الطبري: تاريخ، ج٤ ص١٧٢، مسكويه: تحارب، ج١ ص٤٠١، ابن الأثير: الكامل، ج٢ ص٤١٧، النويري: نهاية، ج١٩ ص٢٧٥.

(٢) آرنولد: الدعوة، ص٣٣٢.

(٣) هوخام: تاريخ الصين، ص١٦٧.

(٤) فامبري: تاريخ بخارى، ص٦٩، الصيني: يوسف بن عبد الله، الصين أكبر سوق مفتوح للدعوة الإسلامية ولكن!، مجلة البيان، العدد ٢٢١، ص١٠، وانظر أيضاً، شاكرو: محمود، تركستان الشرقية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ص٥٠ وما بعدها.

(٥) Gibb: The Arab ,p67.

المسلمون وصلوا منتصف الصين^(١).

اكتفى قتيبة بهذا من ملك الصين، ويبدو أن الذي حملة على التساهل وقبول الحل الوسط الذي عرضه الملك ما حدث في داخل الدولة العربية الإسلامية، فقد توفي الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة (٩٦هـ/٧١٤م)^(٢)، ولم تكن علاقة قتيبة على ما يرام مع الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٤-٧١٧م)؛ لذلك لم ير أنه من المناسب أن يتوغل فاتحاً بلاد الصين، وهو لا يشعر بالأمان من ورائه، وكان سبب ذلك أن الوليد بن عبد الملك أراد أن يجعل ابنه عبد العزيز ولي عهده، ودس في ذلك إلى القواد والشعراء، فقال جرير في ذلك:

إذا قيل أي الناس خير خليفة؟ أشارت إلى عبد العزيز الأصابع
رأوه أحق الناس كلهم بها وما ظلموا، فبايعوه وسارعوا^(٣)
وقال أيضاً جرير يحض الوليد على بيعة عبد العزيز:

إلى عبد العزيز سمت عيون الرعية إذا تحيرت الرعاء
إليه دعت دواعيه إذا ما عماد الملك خرت والسماء
وقال أولو الحكومة من قريش علينا البيع إن بلغ الغلاء
رأوا عبد العزيز ولي عهد وما ظلموا بذلك ولا أساءوا
فماذا تنظرون بها وفيكم جسور بالعظائم واعتلاء!
فزحلفها بأزمليها إليه أمير المؤمنين إذا تشاء

(١) عماش: قتيبة، ص ١٣٣.

(٢) الوليد بن عبد الملك: تمثل خلافته العصر الذهبي في الحكم الأموي من حيث الإصلاحات والبناء والتنظيمات الإدارية والفتوحات التي كانت في كل حذب وصوب، فقتيبة في بلاد ما وراء النهر ووصل إلى قلب الصين، ومحمد بن القاسم الثقفي في السند، وموسى بن النصير وطارق بن زياد في شبه الجزيرة الإيبيرية ووصلوا حتى فرنسا، وقد وصف ابن كثير فتوحاته فقال: "فتوحات عظيمة في دولة الوليد بن عبد الملك، على يدي أولاده وأقربائه وأمرائه حتى عاد الجهاد شبيهاً بأيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه". انظر: ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٦٠.

(٣) لم أجد في ديوانه المطبوع، انظر: الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٠٦، المرزباني: معجم الشعراء، ص ٤٠٩، ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٣٦ ص ٣٧١.

فإن الناس ——— قد مدوا إليه أكفهمُ وقد برح الخفساء
ولو قد بايعوك ——— ولي عهد لقام الوزن واعتدل البناء^(١)

فبايعه الحجاج بن يوسف وقتيبة على خلع سليمان، ثم هلك الوليد، وقام سليمان بن عبد الملك، فخافه قتيبة، ومن ثم كانت مأساة كبرى حيث إن فاتح ما وراء النهر قد قتل والتساؤلات كثيرة وكبيرة حول نهاية هذا القائد، وسيُفصل لها لاحقاً.

وتغلق صفحات قتيبة بشهادة أحد المؤرخين الغربيين الذي طالما اتهم المسلمين بالعدوان والخيانة والطمع في خيرات بلاد ما وراء النهر؛ وهو المستشرق المجري فامبري الذي لم يستطع إلا أن يبدى إعجابه بالقائد قتيبة. فيقول: قائد أدى حذره، وشجاعته، وقوة جلده إلى إطفاء آخر بصيص لحضارة إيران القديمة، ويغرس من بعد ذلك تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم في وديان تيان شان المترامية الأطراف^(٢).

خامساً- مصرع قتيبة بن مسلم الباهلي^(٣):

تولى قتيبة بن مسلم الباهلي ولاية خراسان عام ٨٦هـ/٧٠٥م بدعم مطلق النظير من الحجاج بن يوسف الثقفي، ومباركة من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وعملت فتوحاته في ما وراء النهر حتى أذعن له الإمبراطور الصيني، وكان ذلك من خلال دعم والي العراق له بالمال والسلاح دعماً له مادياً ومعنوياً، ولاسيما أن هذا الدعم كان لقائد بأمس الحاجة إليه؛ لكونه من القبائل العربية التي كان عليها بعض النظرات التي تحط من شأنها^(٤)، فكان الحجاج وسلطته وبطشه وحكمته أشبه بقبيلة قتيبة والسند له، وكانت العلاقة بينهما قائمة على الارتباط الوثيق والتنسيق الكامل، وهي أشبه ما يمكن القول عنها إنه قد توافقت القيادة العبقريّة للحجاج مع الكفاءة العسكرية مع قتيبة حتى إن قتيبة قد سمى أحد أولاده الحجاج، أضف إلى ذلك أن قتيبة كان إذا أعطى العهد لبعض المناطق المفتوحة يضمن تنفيذ العهود بدمته وذمة

(١) الخطفي: جريز ت ١١٤هـ/٧٣٢م، ديوان جريز، دار صادر، بيروت، د.ت، ص ١٤.

(٢) فامبري: بخارى، ص ٦١.

(٣) للتوسع في أحداث مقتل قتيبة بن مسلم انظر: السري: أحمد علي، نهاية الفاتح قتيبة بن مسلم، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الإمارات العربية المتحدة، العدد ٢٢، ص ٨٦.

(٤) انظر من هذا البحث عن قبيلته، ص ٢١٤.

الحجاج^(١).

وكذلك علاقته بخليفة المسلمين الوليد بن عبد الملك الذي عرف لقتيبة الفضل ولدوره وبلائه وكان ذلك واضحاً وجلياً بعد وفاة الحجاج عندما أرسل الوليد كتابه لقتيبة يثني عليه ويبارك مساعيه^(٢). وبمحاولات الوليد عزل أخيه سليمان، وتثبيت ابنه عبد العزيز كان ذلك يتطلب مجهوداً كبيراً ولاسيما من قبل القواد والجيش، فطاعوه الحجاج على ذلك، وكذلك قتيبة بن مسلم، وجماعة من أهل الشام^(٣). وفي رواية أخرى يرويها البلاذري: "أن الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم أشارا على الوليد بتولية ابنه عبد العزيز العهد مكان سليمان أو بعده، فحقد على قتيبة سليمان، فلما استخلف سليمان قال قتيبة وهو بخراسان: أيها الناس قد وليكم هبنقة القيسي، وذلك أن سليمان كان يعطي أهل الشرف واليسار والنباهة ولا يرفع خسيصة ولا يصطنع خاملاً، وذلك أن هبنقة كان يخص سمان إبله بالمرعى والعلف ويضرب المهازيل (الضعاف)، ويقول: أنا لا أصلح ما أفسد الله، ولا أفسد ما أصلح، فنسب إلى الحق"^(٤). ولم يكن سهلاً أبداً إقصاء ولي للعهد، وإحلال الآخر لارتباط ذلك بيمين بيعة في عنق المبايع يكون ملزماً به حتى الموت، بالإضافة إلى قيم الوفاء التي أعلى العرب من شأنها، ولكي لا تصبح العهود والمواثيق موضع استهتار من أحد، وقد كان أصل الصعوبة يكمن في النظر إلى ولاية العهد بوصفها حقاً شخصياً للمبايع له، وهو حق مدعوم بقبول الناس لهذا الحق. ولذلك كانت محاولات الإقصاء التي شهدتها تاريخ المسلمين من أكثر المواقف حرجاً، وارتبطت على الدوام بانقسامات لم تخل من إراقة الدماء، وقد ذكر الوليد من قبل بعض خواصه بأن الناس لن يجيبوه إلى ما طلب، ولو فعلوا هانت أيمانهم على ابنه أيضاً فقال له: "يا أمير المؤمنين، إنَّ الناس لا يجيبونك إلى هذا، ولو أجابوك لم آمنهم على الغدر بابتك"^(٥)، حتى قال عمر بن عبد العزيز للوليد في هذا الشأن: "يا أمير المؤمنين إنما بايعنا لكما في عقدة واحدة

(١) يعقوبي: تاريخ يعقوبي، ج ٢ ص ٢٨٧، ابن الكلبي: جمهرة، ص ٩٣، ٤٩٣، Gibb: the Arab Conquests, p29.

(٢) انظر الكتاب المرسل من الخليفة إلى قتيبة بتفاصيله في هذا البحث، ص ٣٤.

(٣) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٠٧، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٧٢.

(٤) البلاذري: أنساب، ج ٨ ص ١٠٣.

(٥) مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٤٢٢.

فكيف نخلعه ونتركه" ^(١)؛ ولذلك لا بد من انتزاع التنازل منه، وقد أراد الوليد لهذه الغاية - بعد رفض سليمان القدوم إلى دمشق من فلسطين - التوجه إلى فلسطين ليخلعه هناك، لكنه مرض ومات قبل ذلك، وانعقدت البيعة إلى سليمان، فخافه قتيبة بن مسلم ^(٢)، أما الحجاج فقد نجاه القدر، وتوفي قبل خلافة سليمان بن عبد الملك، ولم يبق سوى قتيبة بن مسلم الذي سيعاني مرارة هذا الأمر من قبل سليمان وآل المهلب الذين عزلهم قتيبة بأمر من الحجاج وساقهم مكبلين إلى الحجاج، وقام بسجنهم، وكان فيهم يزيد بن المهلب الذي تمكن هو وبعض إخوته من الفرار من سجن الحجاج، والذهاب إلى فلسطين ليحتمي بأمرها سليمان بن عبد الملك، وبهذا الأمر تصبح الصورة واضحة من قبل كل من آل المهلب وسليمان اللذين هما أعداء الحجاج وقتيبة ^(٣).

١- المراسلات بين قتيبة وسليمان:

لا يمكن نكران المراسلات بين قتيبة وسليمان، وهي كثيرة، وفي مصادر متعددة، ولكن تتصف هذه الروايات بالتناقض والأسئلة المطروحة هنا تتعلق بطرفين أحدهما قتيبة هل خلع قتيبة بن مسلم الخليفة سليمان أم لا؟ والآخر هل خلع الخليفة سليمان بن عبد الملك قتيبة بن مسلم الباهلي أم لا؟. والبدائية من البلاذري الذي يؤكد تثبيت سليمان لقتيبة حيث يقول: "فكتب سليمان إلى قتيبة بالولاية، وأمره بإطلاق كل من في حبسه، وأن يعطي الناس أعطياتهم، ويأذن لمن أراد القفول في القفول، وكانوا متطلعين إلى ذلك، وأمر رسوله بإعلام الناس ما كتب به". إن أمر سليمان لرسوله بإعلام الناس ما كتب ينم عن ضياع الثقة بينهما، وهذا ما تنبه إليه قتيبة حيث قال: "هذا من تديره علي"، وقام فقال: أيها الناس إن سليمان قد مناكم مخ أعضاء البعوض، وأنكم ستدعون إلى بيعة أنور ^(٤) صبي لا تحل ذبيحته، وكانوا حنقين عليه لشتمه إياهم فاعتذر من ذلك، وقال: إني غضبت فلم أدر ما قلت وما أردت

^(١) ابن عساكر: تاريخ، ج ٣٦ ص ٣٧٠.

^(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٧٢.

^(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ص ٢٨٥-٢٨٧.

^(٤) أنور: ولعلها أنوك أي أحمق عاجز وجاهل وهذا ما نقله عماش عن محقق كتاب البلاذري عبد الحميد العلوجي، انظر: عماش: قتيبة، ص ١٤٤.

لكم إلا الخير فتكلموا، وقالوا: "إن أذن لنا في القفول كان خيراً له، وإن لم يفعل فلا يلومن إلا نفسه"، وبلغه ذلك فخطب الناس فعدد إحسانه إليهم، وذم قلة وفائهم له، وخلافهم عليه وخوفهم بالأعاجم الذين استظهر بهم عليهم، فأجمعوا على حربه، ولم يجيبوه بشيء، وطلبوا إلى الحصين بن المنذر أن يولوه أمرهم فأبى، وأشار عليهم بوكيع بن التميمي، وقال: لا يقوى على هذا الأمر غيره؛ لأنه أعرابي جاف تطيعه عشيرته وهو من بني تميم، وقد قتل قتيبة بني الأهثم فهم يطلبونه بدمائهم، فسعوا إلى وكيع فأعطاهم يده فبايعوه، وكان السفير بينه وبينهم قبل ذلك حيان النبطي الذي مال إلى جانب وكيع^(١).

مما سلف يتبين ما يلي:

أ- أن سليمان ثبت قتيبة وإن كان مع رسوله الذي بعثه إلى قتيبة فيه بعض الحمز واللمز عندما طلب منه إعلام الناس ما كتب سليمان لقتيبة.

ب- تحدث قتيبة بسليمان مالا يرضي الحاضرين، وبوصفه بالصبي الأحق، وهو إيدان بالخلع، إن لم يكن خلعاً واضحاً.

ج- تقدم اعتذار من قتيبة عما صدر منه معترفاً أنه كان غضباً، ولم يدر ما تكلم به.

د- مسألة قفول الجند التي كانت شرارة الموقف وأساسه، لأنهم توعدوه بقولهم فلا يلومن إلا نفسه، وهنا تصبح المسألة أنها مسألة قبلية إن صح التعبير أو مسألة شخصية بين قائد وجنوده وهو القفول إلى الديار، ولا سيما أن العربي عطش دائماً إلى دياره، وهذا يوضح أن مسألة الخلع تأتي في المرحلة الثانية، لأن مرحلة القفول بالمرتبة الأولى، وهنا واجههم قتيبة بتخويفهم بالأعاجم.

هـ- أن الأمر أصبح لرجل بينه وبين قتيبة دماء ولا سيما أنه وصف من قبل الحصين أنه جاف تطيعه عشيرته تجاه رجل تعد قبيلته حامله الذكر بين القبائل العربية.

أما ابن أعثم الكوفي وفي جزء من روايته ينفرد بذكر أمور مهمة، منها أن الخليفة سليمان عين يزيد بن المهلب أميراً على خراسان في حربها وخراجها بعدما أن عرض عليه العراقيين فرفض مدعياً أن خراج العراق لا يستخرج إلا بالضرب والشتم، ومتى فعلت ذلك أكون عندهم كالحجاج فتغلظ علي قلوبهم، وأرجوا من

(١) البلاذري: فتوح، ص ٤٠٨.

أمير المؤمنين أن يعفني من هذا، وهذا معناه عزل قتيبة عن ولايته، ولاسيما أن العادة جرت أن يكون والي العراق هو مسؤول عن المشرق ولاسيما خراسان^(١)، وهو ما عبر عنه قتيبة حين علم أن الخليفة ولي يزيد العراق فقال: "لئن ولاه العراق فقد ولاه خراسان، اللهم إني أسألك ميتة كريمة"، ويذكر أن قتيبة كتب إلى سليمان بن عبد الملك يهنئه بالخلافة ويعزيه بأخيه الوليد، وأنه وجه الكتاب مع رجل من الأزد، أي من أهل اليمن، ومن قوم يزيد بن المهلب تحديداً، وهو اختيار يظهر دلالة في أن قتيبة يرغب في إعطاء يزيد والخليفة معاً إشارة برغبته في معالجة المأزق الذي وضعته فيه تطورات الأحداث، وأهم ما ينفرد به ابن اعثم إيراده نص كتاب من الخليفة سليمان رداً على تهنئة قتيبة له بالخلافة، وفي الكتاب عزل رقيق لقتيبة:

"أما بعد فإن الناس قد اشتد عليهم البلاء في ولاية الحجاج من الخوف والحبس والتشريد حتى ضاقت صدورهم، وقد أحب أمير المؤمنين أن يحل عقد الخوف عنهم، وأن ينعشهم بالعدل والإنصاف والأمن، وقد فهم أمير المؤمنين كتابك وتهنئتك، وما قد أضمرت في نفسك من الخلاف، فلا تفسد صالح عملك بشق العصا؛ فإن أمير المؤمنين وإن عزلك عن خراسان ولاك غيرها، فأقبل إلى أمير المؤمنين فيمن أحببت من إخوانك وقوادك آمناً مطمئناً والسلام"^(٢)

رمانى سليمان بأمره	سيحمله منى على شر مركب
رمانى بجبار العراق ومن له	على كل حى حد ناب ومخلب
وللموت خير من حياة ذليلة	وحبل ضعيف قد وهى مقتضب
وللترك أدنى في الوداد مودة	وأقرب منى من بنى المهلب ^(٣)

وهكذا يكون الخليفة سليمان قد وضع قتيبة أمام طريقين لا ثالث لهما: إما قبول العزل والتوجه إلى الشام، وإما إعلان التمرد.

وأما الطبري الذي يروي حادثة مقتل قتيبة بن مسلم وبدأها بثلاثة كتب موجهة من قبله للخليفة سليمان، وهي على الشكل الآتي: أن قتيبة لما أتاه موت الوليد بن عبد الملك وقيام سليمان، أشفق من

^(١) ابن الأعثم: الفتوح، ج ٣ ص ١٣٤.

^(٢) ابن الأعثم: الفتوح، ج ٣ ص ١٣٦.

^(٣) البلاذري: أنساب، ج ٨ ص ٢٨٩.

سليمان؛ لأنه كان يسعى في بيعة عبد العزيز بن الوليد مع الحجاج، وخاف أن يولي سليمان يزيد بن المهلب خراسان، قال: فكتب إليه ثلاثة كتب

الأول: يهنئه بالخلافة، ويعزيه على الوليد، ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد، وأنه له عليه مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان.

الثاني: يعلمه فيه فتوحه وعظم قدره عند ملوك العجم، وهيبته في صدورهم، وعظم صوته فيهم، ويذم المهلب وآل المهلب، ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه.

الثالث: كان فيه خلعه لسليمان بن عبد الملك لئن لم تقرن على ما كنت عليه، وتؤمني لأخلعك خلع النعل، ولأملأها عليك خيلاً ورجالاً.

وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من باهلة، وقال له: "ادفع إليه هذا الكتاب، فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً، فقرأه ثم ألقاه، فادفع إليه هذا الكتاب، فإن قرأه وألقاه إلى يزيد فادفع إليه هذا الكتاب، فإن قرأ الأول ولم يدفعه إلى يزيد فاحتبس الكتابين الآخرين قال: فقدم رسول قتبية فدخل على سليمان وعنده يزيد بن المهلب، فدفع إليه الكتاب، فقرأه، ثم ألقاه إلى يزيد، فدفع إليه كتاباً آخر فقرأه، ثم رمى به إلى يزيد، فأعطاه الكتاب الثالث، فقرأه فتمعر لونه^(١)".

ثم تذهب الرواية في تصوير الموقف في دار الخلافة تماماً كما رسمه قتبية، ومن العسير تقبل هذا التصوير المسرحي المتحقيق بحذافيره. أما أن تكون كتب قتبية قد تضمنت تهديداً للخليفة بالخلع فأمر غير متوقع عند أخذ طبيعة معسكر قتبية في الحسبان، بل إن تطيب العلاقة مع سليمان ومحاوله استرضائه، هو ما يمكن أن نتصوره في مثل هذه الظروف، وهو الذي تضمنه كتاب التهئة الذي أورده ابن أعثم، وقد تحدثت الرواية عن هذا الاسترضاء في واحد من الكتب لولا أنه ختم بتهديد بالخلع إن لم يول الخليفة، وأثر عليه يزيد.

زد على ذلك أن الطبري يورد روايتين متناقضتين بشأن موقف قتبية من يزيد؛ حيث نجد في الرواية الأولى تحذيراً من استعماله بدلاً منه، وفي الرواية الأخرى حديثاً عن كتابين يحملان موقفين متضادين من

^(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٠٨، مسكويه: تحارب، ج ٢ ص ٤٢٢.

يزيد، فقد كان الأول وقيعة به، وكان الثاني ثناء عليه أما موقف الخليفة من هذه الكتب حسب هذه الرواية فيرد على الوجه الآتي: يذكر الطبري أن الخليفة كافأ حامل الكتب بصرة من المال، وأقر قتيبة على خراسان، وأرسل له عهداً بذلك مع رسول من قبله^(١).

٢- المشاورات والخطب:

فَقَلَ رسول قتيبة إلى خراسان فلما وصل قال قتيبة له: ما وراءك، فقال: ورائي أني كنت أتيت بعهدك من أمير المؤمنين، فلما صرت إلى حلوان وسمع الرسول بخلعك رجع بعهدك إلى صاحبه^(٢) وقد أكثر المشورة قتيبة فبدأها بالبختري بن عبد الله الأسدي، وكان عظيم القدر في خراسان، وسأله ما يقول الناس عنه فقال: يقولون: "إنك خالع عاص"، فقال قتيبة: "لا حول ولا قوة إلا بالله"، فقال قتيبة: فو الله ما من غائب هو أحب إلي من الموت، واستشار أخوته، فقال له عبد الرحمن: اقطع بعثاً فوجه فيه كل من تخافه، ووجه قوماً إلى مرو، وسر حتى تنزل سمرقند، ثم قل لمن معك: من أحب المقام فله المواساة، ومن أراد الانصراف فغير مستكره ولا متبوع بسوء، فلا يقيم معك إلا مناصح، وقال له عبد الله: اخلعه مكانك، وادع الناس إلى خلعه فليس يختلف عليك رجلان، فأخذ برأي عبد الله، فخلع سليمان. أما نص الخطبة، كما يوردها الطبري، فهو كما يلي:

"إني قد جمعتكم من عين التمر وفيض البحر، فضمامت الأخ إلى أخيه، والولد إلى أبيه، فقسمت بينكم فيئكم، وأجريت عليكم أعطياتكم غير مكدره ولا مؤخره، وقد جربتم الولاة قبلي، أناكم أمية فكتب إلى أمير المؤمنين: إن خراج خراسان لا يقوم بمطبخي، ثم جاءكم أبو سعيد، فداوم بكم ثلاث سنين لا تدرن أني طاعة أنتم أم في معصية! لم يجب فيئاً، ولم ينكأ عدواً، ثم جاءكم بنوه بعده، يزيد، فحل تتبارى إليه النساء، إنما خليفتمك يزيد بن ثروان هبنقة القيسي^(٣)".

(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٠٩.

(٢) ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١٤٠.

(٣) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٠٩، يزيد بن ثروان القيسي، من قيس بن ثعلبة، المعروف بهبنقة، ويلقب بذي الودعات: مضرب المثل في الغفلة، يقال: أحق من هبنقة! وهو جاهلي، يذكرون من خبره أنه كان يجعل في عنقه قلادة من ودع وخزف وعظم، وسئل عنها فقال: لأعرف بها نفسي! فسرقها أخ له وتقلدها، فلما رآه قال: إن كنت أنت أنا،

ولكن أين اللفظ الصريح في هذا الخطاب حول خلع قتيبة لسليمان، ولربما يظن من هذه الخطبة رغبة قتيبة معرفة وضع قابلية معسكرة لو تطورت الأحداث، وفي رواية ابن أعثم لهذه الخطبة هناك زيادة مهمة وهي: "وإنما خليفتمكم يزيد بن ثروان هبنقة القيسي، بل هو أحق منه، وأقل عقلاً من باقل، وقد رأيتم عدلي فيكم وإنصافي إياكم، فهاتوا ما عندكم"^(١). والعبارة الأخيرة هي أهم ما في هذه الزيادة، لأنها تشرح بوضوح أن قتيبة لم يخلع، وإنما قصد تذكير جيشه بفضائله تجاههم، وهذا يعني أن قتيبة إنما أراد معرفة مواقف الجند، مؤملاً الحصول على دعم منهم من أجل إقناع الخليفة بأنه الوالي الجمع عليه لبقية والياً على خراسان، فهذا هو الملاذ الوحيد مما ينتظره من عقاب.

وعندما قال: هاتوا ما عندكم لم يجبه إلى ما طلب من مؤازرة لبقية والياً، وليس طلب الخلع كما هو واضح بالخطاب فغضب وأخذ يسب القبائل واحدة واحدة:

"لا أعز الله من نصرتم، والله لو اجتمعتم على عنز ما كسرتم قرناً يا أهل السافلة، ولا أقول أهل العالية، يا أوباش الصدقة، جمعتمكم كما تجمع إبل الصدقة من كل أوب، يا معشر بكر بن وائل، يا أهل الكذب والبخل، بأي يومكم تفخرون؟ يوم حربكم أو يوم سلمكم فو الله لأننا أعز منكم يا أصحاب مسيلمة، يا بني ذميم، ولا أقول تميم، يا أهل الخور والقصف والغدر، كنتم تسمون الغدر في الجاهلية كيسان يا أصحاب سجاح، يا معشر عبد القيس القساة، تبدلتم بأبر النخل أعنة الخيل يا معشر الأزدي، تبدلتم بقلوس السفن أعنة الحصن، إن هذا لبدعة في الإسلام! والأعراب، وما الأعراب! لعنة الله على الأعراب! يا كناسة البقر والحمير في جزيرة ابن كاوان، حتى إذ جمعتمكم كما تجمع قرع الخريف قلتكم كيت وكيت! أما والله إني لابن أبيه وأخو أخيه، أما والله لأعصبنكم عصب السلمة إن حول الصليان الزمزمة. يا أهل خراسان، هل تدرون من وليكم؟ وليكم يزيد بن ثروان. إن الشام أب مبرور، وإن العراق أب مكفور، حتى متى يتبطح أهل الشام بأفنيتمكم وظلال دياركم! يا أهل خراسان، انسبوني تجدونني عراقي الأم، عراقي الأب، عراقي الهوى والرأي والدين، وقد أصبحتم اليوم فيما ترون من الأمن والعافية. قد فتح الله لكم

فمن أنا؟ قال شاعر: عش بجدّ وكن هبنقة يرض بك الناس قاضيا حكما

ابن خلكان: وفيات، ج ٤ ص ٣٢١، الزركلي: الأعلام، ج ٨ ص ١٨٠.

(١) ابن الأعثم: الفتوح، ج ٣ ص ١٤٣.

البلاد وآمن من سبلكم، فالظعينة تخرج من مرو إلى بلخ بغير جواز، فاحمدوا الله على النعمة، وسلوه الشكر والمزيد" ^(١).

وفي هذ الخطبة والمشاتمة ليس هناك لفظ صريح في خلع قتيبة للخليفة، وإنما الأمر توضح هو أن الخلاف ليس بين قتيبة وسليمان بقدر ما هو بين يزيد بن المهلب الذي يوغر صدر سليمان وبين قتيبة الذي يحاول أن يجد لنفسه سنداً يتكئ عليه من رجالات معسكره إن جاء يزيد إلى خراسان، وهذا أمر لا مفر منه؛ لأن يزيد يريد خراسان والقبائل قد صرحت قولها: "إن شاء فليخلع سليمان بن عبد الملك وإن شاء فليسمع ويطع، فإن هو لم يأذن لنا فلا يلومن إلا نفسه" ^(٢).

فقتيبة في موقف حرج، فلا خليفة يسنده كسالفه، ولا الحجاج ولا قبيلة قوية يعتمد عليها، فباهلة القيسية التي ينتمي إليها قتيبة لم يكن لها ذلك الوزن الكبير في خراسان وما وراء النهر، والذي لا شك فيه أن قتيبة لم يتبن سياسة قبلية، بل عمل على جعل القبائل تترك أحقادها جانباً، ويصبح أفرادها جيشاً منضوياً تحت راية الفتح، والدليل على ذلك تخلي القبائل عنه عندما احتاجهم في تأييدهم له في هذه المحنة ^(٣).

٣- مقتل قتيبة بن مسلم الباهلي:

الحديث الآن عن كيفية مقتل قتيبة بن مسلم، وسيتم التسليم بأن قتيبة خلع الخليفة ريشاً تتبين الحقائق بعد سرد أحداث مقتله رحمه الله.

كان في طليعة القبائل الأزد، ومن ورائهم آل المهلب الذين لهم مع قتيبة حساب قديم منذ عشر سنوات، فأتوا حضين بن المنذر فقالوا: إن هذا قد دعا إلى ما دعا إليه من خلع الخليفة، وفيه فساد الدين والدنيا، ثم لم يرض بذلك حتى قصر بنا وشتمننا، فما ترى يا أبا حفص؟ وكان يكنى في الحرب بأبي ساسان، ويقال: كنيته أبو محمد، فقال لهم: حضين: مضر بخراسان تعدل هذه الثلاثة الأخماس، وتقيم أكثر الخمسين، وهم فرسان خراسان، ولا يرضون أن يصير الأمر في غير مضر، فإن أخرجتموهم من الأمر أعانوا

^(١) ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١٤٦، الطبري: تاريخ، ج ٥ ص ٥١١.

^(٢) ابن الأعمش: الفتوح، ج ٣ ص ١٤٤.

^(٣) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥١٠، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٧٤.

قتيبة، قالوا: إنه قد وتر بني تميم بقتل ابن الأهم، قال: لا تنظروا إلى هذا فإنهم يتعصبون للمضرية، فانصرفوا رادين لرأي حضين، فأرادوا أن يولوا عبد الله بن حوذان الجهضمي، فأبى، وتدافعوها، فرجعوا إلى حضين، فقالوا: قد تدافعنا الرئاسة، فنحن نوليكم أمرنا، وربيعة لا تخالفك، قال: لا ناقة لي في هذا ولا جمل، قالوا: ما ترى؟ قال: إن جعلتم هذه الرئاسة في تميم تم أمركم، قالوا: فمن ترى من تميم؟ قال: ما أرى أحداً غير وكيع، فسألوه أن يقوم بأمرهم، فقال: نعم^(١)، وتمثل قول الأشهب بن رميلة:

سأجني ما جنيت وإن ركني لمعتمد إلى نضد ركني^(٢).

وهذا له أيضاً حساب قديم مع قتيبة الذي صرفه عن رئاسة تميم إلى غيره^(٣)، وكتب عمر بن يزيد بن عمير الأسدي إلى قتيبة بن مسلم، حين عزل وكيع عن رئاسة بني تميم، وولّاها ضراراً بن حسين الصّبي: "عزلت السّباع وولّيت الضّباع"^(٤)، وهنا يكون المشهد تزعم وكيع الانقلاب ضد قتيبة، وقد بايعه ما يقارب الخمسين ألفاً^(٥)، وقد روي أن وكيعاً كان مع قتيبة لما سار من الري إلى خراسان، فرأى وكيع في منامه كأنه هدم شرف مدينته، فسأل المعبر فقال: أشرف يسقطون من جاههم على يدك، ويوسمون فكان كذلك^(٦).

وبخراسان يومئذ من المقاتلة من أهل البصرة من أهل العالية تسعة آلاف، وبكر سبعة آلاف، رئيسهم الحضين بن المنذر، وقيم عشرة آلاف عليهم ضرار بن حصين الضبي، وعبد القيس أربعة آلاف عليهم عبد الله بن علوان عوذى، والأزد عشرة آلاف ترأسهم عبد الله بن حوذان، ومن أهل الكوفة سبعة آلاف عليهم جهم بن زحر أو عبيد الله بن علي، والموالي سبعة آلاف عليهم حيان، وانضم حيان النبطي زعيم الموالي البالغ عددهم سبعة آلاف الذين كانوا أعوان قتيبة، وانقلبوا عليه، وربما ذلك عائد إلى أن قتيبة قد أخفق في دمجهم مع الجيوش العربية، ولكن هل يكون الدمج أمراً سياسياً أم هو اجتماعي محض يحتاج إلى الوقت

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ج ١ ص ١١، ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ١ ص ٥٩.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥١١، مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٤٣١.

(٣) ابن قتيبة: المعارف، ص ٤١٦، ابن خلكان: وفيات، ج ٤ ص ٨٧.

(٤) الجاحظ: الحيوان، ج ٦ ص ٥٦٠.

(٥) ابن حبيب: أبو جعفر البغدادي محمد بن أمية بن عمرو ت ٢٤٥هـ/٨٥٩م، الخبر، تح: إيلزة ليختن شتير، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت، ص ٢٥٤.

(٦) ابن سيرين: محمد ت ١١٠هـ/٧٢٨م، تفسير الأحلام، مطبعة مصطفى البابي، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م، ج ٢ ص ٧٥.

والتعايش مع بعضهم بعضاً، واتصل حيان بوكيع قائلاً له: "أرأيت إن كففت عنك، وأعنتك تجعل لي جانب نهر بلخ وخراجة ما دمت حياً، وما دمت والياً؟ قال: نعم، فقال للعجم، هؤلاء يقاتلون على غير دين، فدعوهم يقتل بعضهم بعضاً، قالوا: نعم، فبايعوا وكيعاً سرّاً"^(١)، وفي رواية أراد قتبية أن يتخلص من حيان ولكنه بلغ حيان هذا الأمر فتحذر من قتبية، وادعى المرض، وهكذا يكون قتبية بين فكي كماشة بين شخصين هما: وكيع التميمي زعيم الانقلاب، وحيان النبطي زعيم الأعاجم مع غياب أي موقف من دار الخلافة في بلاد الشام (الرملة).

وقيل لقتبية: إن الناس يبايعون وكيعاً، فدرس ضرار بن سنان الضبي إلى وكيع، فبايعه سرّاً، فظهر لقتبية أمره، فأرسل يدعوه، فوجده قد طلى رجله بمغرة^(٢)، وعلق على رأسه حرزاً، وعنده رجلان يرقيان رجله، فقال للرسول: قد ترى ما برجلي، فرجع فأخبر قتبية، فأعاده إليه يقول له: لتأتيني محمولاً، قال: لا أستطيع، فقال قتبية لصاحب شرطته: انطلق إلى وكيع فأتني به، فإن أبي فاضرب عنقه، فقال هريم بن أبي طحمة: أنا آتيك به أصلحك الله، فانطلق فأتى وكيعاً، وقد سبق إليه الخبر والخيل يأتيه، فخرج وخرج معه هريم وهو على يمينه ونادى وكيع في الناس، فأقبلوا أرسالاً من كل وجه، وأقبل في الناس وهو يقول:

قرم إذا حمّل مكروهة شدّ الشراسيف^(٣) لها والحزيم^(٤)

واجتمع إلى قتبية أهل بيته وخواص أصحابه وثقاته، وأمر قتبية رجلاً أن ينادي أين بنو عامر؟ أذكركم الله والرحم. قال محقر: أنت قطعتها. قال: ناد لكم العتي. قال محقر: لا أقالنا الله إذن، فقال قتبية عند ذلك:

يا نفس صبراً على ما كان من ألم إذ لم أجد لفضول العيش أقرانا

مالت الأعاجم إلى عسكر وكيع وكبروا، فبعث قتبية أخاه صالحاً إلى الناس، فرماه رجل من بني ضبة،

(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥١٢، مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٤٣٢.

(٢) طين أحمر يصبغ به، وحمرة ليست ناصعة. أو شقرة بكثرة، الهروي: تهذيب، ج ٨ ص ٢٦٥.

(٣) وهي مقاط أطراف الاضلاع التي تشرف على البطن والواحد منها شرسوف، انظر: ابن السكيت: يعقوب بن إسحاق ت ٨٥٨/هـ ٢٤٤م، الكنز اللغوي في اللسن العربي، تح: أوغست هفنز، مكتبة المتني، القاهرة، د.ت، ص ٢١٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٧٥.

وقيل: من بلعم، فأصاب رأسه، فحمل إلى قتيبة ورأسه مائل، فوضع في مصلاه، وجلس قتيبة عنده ساعة. وتهايج الناس، وأقبل عبد الرحمن أخو قتيبة نحوهم، فرماه أهل السوق والغوغاء فقتلوه، وأحرق الناس موضعاً كانت فيه إبل لقتيبة ودوابه، ودنوا منه. فقاتل عنه رجل من باهلة، فقال له قتيبة: انج بنفسك. فقال: بئس ما جزيتك إذا، وقد أحسنت إلينا، وجاء الناس حتى بلغوا فسطاطه فقطعوا أطنابه، وجرح قتيبة جراحات كثيرة، فقال جهم بن زحر بن قيس لسعد: انزل فخذ رأسه، فنزل سعد فشق الفسطاط، واحتز رأسه، ويقول الفرزدق:

ونحن قتلنا الباهلي بن مسلم ونحن قتلنا قبل ذاك ابن خازم
كأن رؤوس الناس إذ سمعوا بنا مدمغة هاماتهم بالأهائم^(١)

وقتل معه من إخوته: عبد الرحمن، وعبد الله، وصالح، وحسين، وكان عدة من قتل مع قتيبة من أهل بيته أحد عشر رجلاً، ونجا عمر بن مسلم أخو قتيبة نجاه أحواله، وكانت أمه العبراء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة القيسية. فلما قتل قتيبة صعد وكيع المنبر، فقال: مثلي ومثل قتيبة كما قال الأول: "من ينك العير ينك نياكا"^(٢)، أراد قتيبة قتلي وأنا قتال، فأرسل وكيع إلى سليمان برأسه وخاتمه ورؤوس أهله^(٣)، وقد قيل في وكيع حين قتل قتيبة بن مسلم:

فإن نلت خيراً أو أصبت إمارة إلى بعض شهر أو يكون إلى شهر
فسقت وكم من فاسق قد رأيت أصاب ثراء ثم عاد إلى فقر^(٤)

إذا وقعت الواقعة التي قتل بها فاتح ما وراء النهر، وسميت بوقعة وكيع التميمي^(٥)، ووصل رأس قتيبة ومن معه إلى سليمان بن عبد الملك قال سليمان للهديل بن زفر حين وضع رأس قتيبة ورؤوس أهل بيته

(١) المقدسي: البدء والتاريخ، ج ٦ ص ٤٢، لم أجده في ديوانه المطبوع.

(٢) الميداني: مجمع الأمثال، ج ٢ ص ٣٠٥.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ٤٠٩، اليعقوبي: البلدان، ص ١٣٣، الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥١٧، ابن دريد: الاشتقاق، ص ٢٣٠، مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٤٣٧، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٧٥، النويري: نهاية، ج ٢١ ص ٣٤٢، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٦١٥، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ٨٧.

(٤) الزمخشري: ربيع الأبرار، ج ١ ص ٤٧٠.

(٥) فلهاوزن: تاريخ الدولة، ص ٢٥٠-٢٥٣.

بين يديه: هل ساءك هذا يا هذيل؟ قال: لو ساءني ساء قوماً كثيراً، فكلمه خريم بن عمرو والقعقاع بن خليد، فقال: ائذن في دفن رؤوسهم، قال: نعم، وما أردت هذا كله^(١)، وهي إشارة من سليمان إلى أنه لم يكن يريد ذلك، ولم تكن له يد في ذلك، ومع ذلك ذهب قتيبة نتيجة للعلاقة السيئة التي كانت بين الرجلين منذ الوليد الذي أراد عزل سليمان وتولية ابنه عبد العزيز، فالمشهد هنا كان بين يزيد بن المهلب الحاقداً على قتيبة، ومن كان له عون ألا وهو الحجاج، ويزيد هذا كان طامعاً بولاية خراسان، وبئس قتيبة لمعسكره أنه يريد منهم دعماً لتثبيت ولايته بخراسان ضد المهلب لا ضد سليمان وخلعه، فكان معسكره مليئاً بالأحقاد والعصبيات القبلية التي ذهب ضحية لها.

٤- تنافس وكيع ويزيد يبرئ قتيبة من الخلع:

وبعد مقتل قتيبة صفى الجو ليزيد بن المهلب ووكيع التميمي، وأصبح التنافس بينهما على خراسان، ولاسيما أن يزيد يخشى مما قدمه وكيع لسليمان فيكافئه بولاية خراسان، فبدأت محاولات يزيد بن المهلب تشويه صورة وكيع التميمي قاتل قتيبة، وزعيم الانقلاب ضده، والمتغلب على ولاية خراسان، ولثني الخليفة عن إصدار مرسوم من الخلافة بتثبيت وكيع رسمياً في ولاية خراسان استعان بعبد الله بن الأهم التميمي، أحد الفارين من معسكر قتيبة، وقام عبد الله بن الأهم بتنفيذ ما طلب منه يزيد بن المهلب، وهي أن يعيب وكيعاً، قاتل قتيبة، عند الخليفة كي لا يوليه خراسان رسمياً، وقد وعده يزيد بمئة ألف درهم مكافأة إن فعل ذلك^(٢).

وكانت قيس تزعم أن قتيبة لم يخلع^(٣)، يعني أن الخلع تهمة ألصقتها خصوم القيسية بقتيبة لإزاحته، ويبدو أن قيساً أخذت تدافع عن مواقعها ومواقفها في خلافة سليمان، وكأن خلع قتيبة المزعوم لسليمان قد فهم أنه موقف لقيس كلها، كما يبدو أن ركود غبار مقتلة قتيبة أفسح المجال لصوت آخر يعلو، وهو الصوت الذي ينكر تهمة الخلع الملصقة بقتيبة، وقد كان متواصلاً لدرجة أن الخليفة سليمان يرضخ، ويأمر يزيد بن المهلب واليه إلى العراق أن يتحقق من الأمر قائلاً: "إن أقامت قيس البينة أن قتيبة لم يخلع فينزع

^(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥١٩، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٧٨.

^(٢) النويري: نهاية الأرب، ج ٢٢ ص ٣٤٤.

^(٣) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٢٧.

يداً من طاعة أن يقيد وكيعاً به"^(١)، أي أن الخليفة سليمان، وفي محاولة منه لاسترضاء قيس قد أراد إظهار صورة أخرى تجاه قتيبة، فأوكل إلى يزيد مهمة التحقق من أقوال قيس في براءة قتيبة من الخلع، وقد أدت تبدلات المصالح إلى الاهتمام بهذه الفكرة؛ لأن من مصلحة يزيد الآن وقد ذهب خصمه قتيبة أن يثبت هو الآخر براءة قتيبة من الخلع ليتهم وكيع بقتله ظلماً، فتسقط عنه ولاية خراسان لتصفو له، وهناك شاهد أساسي وقوي على أن تهمة الخلع كانت باطلة وأنها ألصقت بقتيبة إصافاً، هذا الشاهد هو عبدالله بن الأهمتم نفسه، فبحسب الرواية فإن يزيد بن المهلب لم يف للرجل بالمئة ألف درهم التي وعده بها، فأحب ابن الأهمتم أن يصعب مهمة يزيد في تبرئة قتيبة من الخلع، ولا سيما أن يزيد حاز ولاية خراسان، وأرسل إليها ابنه مخلدة، فذهب ابن الأهمتم إلى رجل حبسه مخلد، وأراد منه إخراج كتب زعم أن رجلين من أعوان قتيبة هما القعقاع بن خليلد العبسي، وخرم بن عمر المري^(٢) كتبها إلى قتيبة في خلع سليمان، لكن الرجل أنكر الأمر، ورأى في الإقرار بهذا الأمر خديعة عن دينه، فما كان من ابن الأهمتم إلا أن زور كتباً على لسان من ذكر لكنه كشف، وهذا يعني أن ادعاء وجود كتب بهذا المعنى من بعض رجال قتيبة غير صحيح، والمهم هو أن إخفاق ابن الأهمتم في تلفيق فكرة خلع قتيبة لسليمان نكايه بيزيد بن المهلب تنفي عن قتيبة تهمة الخلع التي ألصقت به مبرراً لقتله، وبإسقاط تهمة الخلع تستقيم الأحداث ثانية.

لقد كان قتيبة يعي ضعف موقفه بسبب خلعه سليمان من ولاية العهد، كما كان يعي أيضاً أثر موقعه هذا في معسكره، إن ما كان يهم قتيبة في المقام الأول ليس زيادة سخط الخليفة عليه بالخلع، بل الحصول على دعم القبائل في معسكره لاستمرار ولايته؛ لأنها الملاذ الوحيد مما ينتظره من مصير^(٣).

وذهب قتيبة ولم تذهب محاسنه، وإن لم تشفع له، وقد قال رجل من عجم خراسان: "يا معشر العرب! قتلتم قتيبة، والله لو كان منّا ثم مات فينا لجعلناه شهيداً وحفظنا تابوته إلى الحشر نستفتح به إذا غزونا"، وقال الإصبهذي يوماً لرجل: "يا معشر العرب! قتلتم قتيبة ويزيد وهما من سادات العرب قال: نعم، فأيهما كان أهيب في صدوركم وأعظم قدراً عندكم؟" فقال له الإصبهذي: لو كان قتيبة بالمغرب بأقصى

(١) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٢٧.

(٢) مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٤٤٣.

(٣) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٢٧، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٨٣، النويري: نهاية، ج ٢١ ص ٣٤٦.

حجر به مكبلاً بالحديد ويزيد معنا في بلادنا وال علينا، لكان قتيبة أهيب في صدورنا وأعظم من يزيد"، ورثى الشعراء قتيبة، وأكثروا^(١)، ومنهم عبد الرحمن الباهلي فقال:

كان أبا حفص قتيبة لم يسر بجيش إلى جيش ولم يعل منبرا
ولم تخفق الرايات والجيش حوله وقوف ولم يشهد له الناس عسكريا
دعته المنايا فاستجاب لربه وراح إلى الجنات عفا مطهرا
فما رزى الإسلام بعد محمد بمثل أبي حفص فبكيه عبهرا^(٢)

والفضل ما شهدت به الأعداء! يقول فامبري عن القائد قتيبة: "هكذا قضى قتيبة عمره المليء بالحياة ذلك الرجل الذي أقام للإسلام في أرض كانت على الدوام أخصب البقاع حمية وتحمساً للإسلام"^(٣) نعم قتل قتيبة في مدينة فرغانة إحدى أقاليم نهر سيحون ببلاد ما وراء النهر في شهر ذي الحجة سنة ٩٦هـ/٧١٥م، وكان عمره حين توفي سبعاً وأربعين سنة وكانت ولايته عشر سنين فقد استطاع خلالها أن يحقق كل هذه الانتصارات الباهرة^(٤).

سادساً- الاستراتيجية العسكرية في فتوحات ما وراء النهر:

بعد أن تم عرض أخبار الفتوحات العربية الإسلامية التي قام بها قتيبة بن مسلم الباهلي وتحقيق النصر والنجاح في سير تلك العمليات العسكرية التي خاضها في بلاد ما وراء النهر، والعمل على نشر الدين الإسلامي، وتحقيق مبدأ العبودية لله وحده واعتناق تلك الشعوب لهذه العقيدة الجديدة التي أصبحت متساوية في الحقوق والواجبات مع أولئك الفاتحين، فتمازجت الحضارات لإنتاج حضارة إنسانية أعلاها التسامح والقيم الإنسانية عنوانها قوله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة لأشدهم عداوة له: "اذهبوا فأنتم

(١) الطبري: تاريخ، ج٦ ص٥١٩، مسكويه: تجارب، ج٢ ص٤٣٨، ابن الأثير: الكامل، ج٤ ص٧٨، النويري: نهاية، ج٢١ ص٣٤٢.

(٢) الطبري: تاريخ، ج٦ ص٥٢١، ابن الأثير: الكامل، ج٤ ص٧٨، النويري: نهاية، ج٢١ ص٣٤٢، ابن كثير: البداية، ج٢١ ص٣٤٢، عطوان: الشعر، ص٢٠٤.

(٣) فامبري: بخارى، ص٧٠.

(٤) ابن قتيبة: المعارف، ص٢٣٠ ابن خلكان: وفيات، ج٣ ص٥١٣.

الطلاق^(١)، ليس هذا فقط في جبهة ما وراء النهر مع قتيبة بل وفي كل الجبهات، كجبهة السند مع محمد بن القاسم الثقفي وموسى بن نصير وطارق بن زياد في الأندلس مقتدين بتعاليم القرآن الكريم ويقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} ^(٢)، وقوله تعالى: {وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} ^(٣)، استطاع قتيبة أن يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وأن يطبق قول النبي صلى الله عليه وسلم أن الحرب خدعة، فقد ورد في كتب الصحاح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الحَرْبُ خَدَعَةٌ" ^(٤)، والخدعة غير الغدر، والغدر لم يكن موجوداً في الفتوحات العربية الإسلامية، وعمل على إيجاد تكتيك استراتيجي وعسكري يتمكن من خلالهما من العمل على تحذير الاستقرار في أقاليم بلاد ما وراء النهر التي تميزت بحركة الارتداد والنقض بين الحين والآخر والتغلب على الصعاب.

١- تنظيم البريد:

كان العراق (البصرة، ثم الكوفة، ومن ثم واسط) مركزاً لاستقطاب القبائل العربية من أجل إشراكها في عمليات فتوح المشرق الإسلامي التي صدرت عنه كل العمليات الحربية العسكرية، وجعل الحجاج منها خزاناً للجيوش، ومركزاً للاحتياط من حيث تعبئة الجند، وإرسال المؤازرات ولاسيما إلى خراسان وما وراء النهر والسند.

وفي المقاييس الحديثة وعبر غوغل (Google) تحدد المسافة من دمشق مركز الخلافة العربية الإسلامية إلى حدود الصين (فرغانة) حيث عمليات قتيبة بن مسلم وفتوحاته إلى كاشغر في الصين (٦٠٠٠ كم)،

^(١) ابن سيد الناس: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، تح: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج ٢ ص ٢٢٦، السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين ت ٩١١هـ/١٠٥٠م، الشمال الشريفة، تح: حسن بن عبيد باحيشي، دار طائر العلم، د.ت، ص ٢٢٠.

^(٢) سورة الحجرات: آية ١٣.

^(٣) سورة آل عمران: آية ١٠٤.

^(٤) ابن حنبل: مسند، ج ٢ ص ٤٧، البخاري: صحيح البخاري، ج ٤ ص ٦٤، النيسابوري: صحيح مسلم، ج ٣ ص ١٣٦١.

ولكن كانت علاقة قتبية مع الحجاج؛ أي في واسط وليس في دمشق فإن المسافة تكون قد اختزلت إلى (٥٠٠ كم) هذه المسافة البعيدة جداً بين قتبية في جبهات القتال وقاعدة جيوشه وإمداداته في العراق استطاع أن يتغلب عليها بتنظيم البريد بينه وبين مقر قيادته.

البريد: لغة واصطلاحاً: قالت العرب: الحُمَّى بريد الموت، أراد أنها رسول الموت تُنذر به، وسكك البريد: كل سكة منها اثنا عشر ميلاً، وفي الحديث: "لا تقصر الصلاة في أقل من أربعة برد"^(١)، وهي ستة عشر فرسخاً، أي كل بريد أربعة فراسخ وقيل لدابة البريد: بريد، لسيره في البريد؛ قال الشاعر:

إني أنص العيس حتى كأني عليها بأجواز الفلاة، بريد^(٢)

يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا أُبْرِدْتُمْ إِلَيَّ بِرَيْدًا فاجعلوه حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الْأَسْمِ"^(٣)، وذلك للتفاؤل بحسن صورته واسمه، وهذا يدخل في باب صفات صاحب البريد، وهناك اختلاف حول أصل كلمة بريد، بعضهم يرى أنها تعريب من الأصل الفارسي (بريدة دم)، ومعناها مقصوص الذنب، وذلك أن الفرس كانوا يقصون ذنب الخيول والبغال دلالة على أنها حيوان البريد، وأنشد امرئ القيس:

على كل مقصوص الذنابي معاود بريد السرى بالليل من خيل بربرا^(٤)

ويرى بعضهم أنها محرفة من (البردي) نوع من الورق المستخدم لدى المصريين القدماء، بينما

^(١) ابن الأثير: المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م، النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج ١ ص ١٦٦.

^(٢) الفراهيدي: العين، ج ٨ ص ٢٩، ابن منظور: لسان، ج ٣ ص ٨٦.

^(٣) أبو شيبعة: المصنف، ج ٦ ص ٤٧٠، البزار: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م، مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، تح: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ج ١ ص ٢٧٨، الحدادي: زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين ت ١٠٣١هـ/١٦٢١م، التيسير بشرح الجامع الصغير، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط ٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج ١ ص ٥٧.

^(٤) ابن دريد: جمهرة، ج ١ ص ٢٩٥، علي: المفصل، ج ٥ ص ٣١٠.

القلقشندي يرى أنه عربي مشتق من أبرد أي أرسل^(١).

إذاً المعادلة أصبحت كل بريد أربعة فراسخ، وكل فرسخ يعادل ثلاثة أميال، وكل ميل يقارب ٢٠٠٠ متر أو ١٦٠٠ متر، أي كل فرسخ خمسة كم^(٢)، وقد استخدمت في البريد الخيل والبغال والجمال، وكان لعامل البريد الحق على الولاة الذين يمر بأرضهم أن يقدموا له البدل من الخيل والطعام والراحة^(٣)، وبالعودة إلى واسط والصين والمسافة التي بينهما هي ٥٠٠٠ كم، وبحسب المعادلة السالفة يتبين أن المسافة بين واسط والصين أي بين الحجاج وقتيبة ١٠٠٠ فرسخ، هذه المسافة الشاسعة والبعيدة كل البعد تغلب عليها هذا القائد العسكري بتنظيم البريد بينه وبين الحجاج، فكان البريد من بغداد إلى حلوان، ثم همدان إلى الري، ومنها إلى نيسابور، فمرو إلى سمرقند، ومنها إلى الشاش أو فرغانة على حدود الصين^(٤).

وكان البريد يأتيه أو يرسله بالخيال التي تقطع مسافة قدرها ثلاثون كم في الساعة^(٥)، فإن البريد بين قتيبة وبغداد لا يتجاوز ١٠ أيام، وما مراسلات قتيبة والحجاج في فتح بخارى عندما طلب الأخير من قتيبة أن يصور له المنطقة ويرسلها إليه إلا دليل على سرعة البريد بينهما، فكتب إليه الحجاج: "أن صورها لي، فبعث إليه بصورتها"^(٦)، وبعد وفاة الحجاج أرسل الخليفة الوليد بن عبد الملك بريداً محملاً بكتاب إلى قتيبة يقول فيه: "عرف أمير المؤمنين بلاءك وجهادك وجدك في جهاد أعداء المسلمين، وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك ما تحب، فلا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك حتى كأني أنظر إلى بلادك، والثغر الذي أنت به"^(٧). وكان الخليفة أراد معرفة كل ما يدور في بلاد ما وراء النهر، ولو كان في ذلك مشقة لما طلب منه ذلك، ولا سيما قوله: كأني أنظر إلى بلادك.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٤ ص ٣٦٦.

(٢) رمضان: حميد السيد، الأوزان والمقاييس والمكاييل عند العرب المسلمين، دار الملاح، ط ١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص ١٣-١٠٨-١١٠.

(٣) سعداوي: نظير حسان، نظام البريد في الدولة الإسلامية، دار مصير للطباعة، مصر، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م، ص ٧٩.

(٤) ابن خرداذبة: المسالك، ص ١٩، قدامة بن جعفر: الخراج، ص ١٠٣، سعداوي: نظام، ص ٨٨-٩٤.

(٥) عماد: قتيبة، ص ٢٠.

(٦) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٤٠.

(٧) ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٥٤، ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ٣ ص ٨٣.

٢- الكمائن و الحصون:

الكمين: وهي من كمن الشيء في الشيء أي؛ توارى فيه، والشيء كامن، ومنه سمي الكمين في الحرب، وهو من حيل الحرب، وهو أن يستخفوا في ممكن لا يفطن لهم^(١).

وقد استخدمت الكمائن في الحروب التي خاضها العرب المسلمون وأجادوا استخدامها، وأول من أجاد الكمائن خالد بن الوليد سنة ١٢هـ/٦٣٣م، ويشترط بالكمين أن يكون مستوراً خفياً عن رصد العدو وقرباً من الماء والمرعى لاحتمال مكوثهم مدة زمنية طويلة، وتكون ساعة ظهورهم على عدوهم في حال الغفلة، وإن كان في الصيف فليكن في أحر ساعاتها وأبردتها في الشتاء، وليكون الكمين على هيئة كراديس منتشرة منقطعة من غير أن يبعد بعضهم عن بعض، وأن تكون حملتهم انكماشاً لا اختلاطاً ليسرعوا العودة إلى موقعهم مع الجيش^(٢)، وهذه بعض الشروط التي وضعها أهل الخبرة العسكرية التي طبقها قتيبة بن مسلم الباهلي، فأبدع في نصب الكمائن لعدوه في فتوحه لسمرقند سنة ٩٣هـ/٧١١م، عندما بلغته الأخبار حول وصول الإمدادات لأعداء المحاصرين الذين طال بهم الحصار، فكتبوا إلى ملك الشاش، وفرغانة يستنجدون بهم، فانتخبوا من أولاد الملوك وأهل النجدة من أبناء المرازمة والأساورة والأبطال، وأمروهم أن يأتوا معسكر قتيبة، فإنه مشغول عنه بحصار سمرقند، وولوا عليه ابناً لخاقان، فساروا، وبلغ قتيبة الخبر عن طريق (العيون - الجواسيس)، فانتخب من عسكره أربعمئة، وقيل: ستمئة من أهل النجدة والشجاعة وأعلمهم الخبر، وعليهم صالح بن مسلم، فنزلوا على فرسخين من العسكر على طريق القوم، فجعل صالح له كمينين، بقي هو على قارعة الطريق فلما مضى نصف الليل جاءهم عدوهم، فلما رأوا صالحاً حملوا عليه، فلما اقتتلوا شد الكمينان عن يمين وشمال، وتم القضاء على حملة كان قوامها أبناء الملوك والفرسان حتى قيل فسألناهم عمن قتلنا فقالوا: ما قتلتم إلا ابن ملك أو عظيماً أو بطلاً، وكان الرجل يعد بمئة رجل^(٣)، وبهذا الكمين الذي أوجدته العبقرية العسكرية عند قتيبة بن مسلم تم القضاء على مدد وصل

(١) ابن دريد: جمهرة، ج ٢ ص ٩٨٣، الفارابي: الصحاح، ج ٦ ص ٢١٨٨، الحميري: شمس العلوم، ج ٩ ص ٥٨٩٧.

(٢) الهرثي: صاحب المأمون، مختصر سياسة الحروب، تح: عبد الرؤوف عون، المؤسسة المصرية العامة، د.ت، ص ٥٠.

(٣) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٧٦، ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٤٧، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٦ ص ١٤٠، الياضي: مرآة الجنان، ص ١٤٥، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٤٠، ابن العماد: شذرات الذهب، ج ١ ص ٣٦٤.

لسمرقند من أبرع الفرسان لفك حصار سمرقند ولاسيما أن الكمين هذا كان ليلاً فأثبت قتيبة ومن معه نجاحاً ونصراً ليس في صنع الكمائن فحسب، بل وفي إدارة الهجوم الليلي بكل سرعة وخفة لتحركات الجيش العربي الإسلامي، والجدير بالذكر هو دور **العيون**:^(١) التي كان لها دور كبير في رصد تحركات العدو والحصول على معلومات دقيقة، وهذه العيون التي ييشها قتيبة في مراقبة أعدائه هي التي مكنته من معرفة وصول إمدادات لأعدائه فأنفذ وبكل سرعة إلى تشكيل الكمين، وعندما خاناه أحد عيونيه يدعى (تندر)^(٢)، وذلك في موقعة بخارى سنة ٧٨هـ/٧٠٥م لم يترفق به، فالخيانة والغدر في قاموس قتيبة لم ولن توضع، ومن جهة أخرى كان صارماً في ذلك خشية انتشار ما أراد إشاعته بين الجند فكان عقابه القتل.

الحصن: حصنت الشيء تحصيناً إذا منعته وحظرت، وقيل: هي القلعة، وهي ترادف كلمة (أطم) وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "أنه لما خرج إلى معركة أحد جعل نساءه في أطم؛ أي الحصن المبني بالحجارة"^(٣)، أي المكان الذي لا يقدر عليه لارتفاعه، وجمعه حصون وحصن بالضم حصانة فهو حصين أي منيع^(٤)، إذاً هو موقع دائم، وبناء قوي ومحصن يمكن الدفاع منه تجاه العدو^(٥)، والجدير بالذكر أن من أقسام القلعة هو الحصن، أو البرج المحصن، وهو بناء شاهق يشبه البرج، وله جدران سمكية، وكان بالإمكان الدفاع عن هذا الحصن بسهولة حتى وإن تم الاستيلاء على بقية القلعة أو تدميرها، وكان الحصار للحصون بعدما يرفض أهله الصلح، فيفرضونه على الحصون والمدن، ويلمون بكل ما يحيط من طرق ومسالك ومصادر الماء والتموين ومنع دخول أو الخروج من الحصون، وتحقيق الثبات وتجهيز المجموعات الاقتحامية

(١) العيون: وصفاتهم أن يكونوا صادقين، كتومين للسر، عارفين بلغة العدو، صبورين إذا ظفر العدو بهم، للتوسع، انظر:

الهرثمي: مختصر، ص ٢٢-٢٤.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٣٠، عماد: قتيبة، ص ٨١.

(٣) البزار: مسند، ج ٣ ص ١٩١، الطبراني: المعجم الأوسط، ج ٤ ص ١١٦.

(٤) ابن دريد: جمهرة، ج ١ ص ٥٤٣، الهروي: تهذيب، ج ١ ص ١٦٦، الخطابي: غريب الحديث، ج ١ ص ١٠٥، الفيومي:

أحمد بن محمد بن علي ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨م، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت،

ج ١ ص ١٣٩.

(٥) عوض: سامي، معجم المصطلحات العسكرية، دار أسامة، الأردن، ط ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ١٩٩.

لاقتحام الحصن عندما يبدأ بالانهيار^(١).

استخدم العرب المسلمون أساليب تعبوية في مهاجمة القلاع والمدن، فقتيبة بن مسلم الباهلي واجه أثناء فتوحاته تحصينات ومدناً محصنة، واتبع في بيكنه كل المحاولات لخرق أسوارها أو تسلقها أو إحداث ثغرات فيها عن طريق العرادات أو المنجنيق، وعانى الجيش العربي الإسلامي المشاق حتى أعملوا الحيلة؛ وهي طريقة الحفر تحت الأسوار والبروج^(٢)، ثم وضع الفعلة في أصل المدينة فعلقوها بالخشب، وهو يريد إذا فرغ من تعليقها أن يحرق الخشب فتهدم، فسقط الحائط واستطاعوا أن يصنعوا ثغرة فصاح قتيبة بأن كل من نفذ الثغرة أعطيته ديته^(٣)، وفتح بخارى كانت استراتيجية قتيبة فيه واضحة كما رسمها الحجاج بن يوسف الثقفي محذراً إياه من الجبال والمنعطفات، وحاصر قتيبة المدينة وتخلص بانسحاب سريع ومنظم من أن تطبق عليه الإمدادات الكبيرة التي وصلت من الترك والصغد وبالتفاف سريع اندفع بهجوم مكون من المشاة بعد أن جعل نهرًا صغيراً يفصلهم عن عدوهم باجتيازه بعد أن عملوا قنطرة من الخشب على هذا النهر محققاً النصر على بخارى ومن والاه^(٤).

٣- الخيل:

اهتم العرب المسلمون في تطوير أسلحتهم ليتمكنوا من تحقيق النصر على عدوهم أخذين بقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ}^(٥)، فكانت التجهيزات والاستعداد لخوض المعارك في جيوش تابعة لدولة العرب والإسلام التي حققت الانتصارات في مشارق الأرض ومغاربها، وكان اهتمام قتيبة كما كان اهتمام أسلافه في تنظيم الجيش وعتاده ولاسيما في الخيل، وكيف لا وهو العربي الأصل الذي يعلم قيمة الخيل ومكانتها، ولاسيما أن الله قد أقسم بالخيـ

(١) الهرثمي: مختصر، ص ٥٦-٦٤.

(٢) كما فعل عبادة بن الصامت أثناء فتح مدينة اللاذقية، انظر: البلاذري، فتوح، ص ١٣٤.

(٣) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٣١، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٠٨، النرشخي: تاريخ، ص ٦٩.

(٤) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٤٢، الجنابي: تنظيمات، ص ١٩٠.

(٥) سورة الأنفال: آية، ٦٠.

وبصهيلها ونففسها ومباغتتها للعدو، بل وبالغبار الذي يخرج عند هيجانها^(١) قال تعالى: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا^(١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا^(٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا^(٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا^(٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا^(٥)، و أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اركبوا الخيل فإنها ميراث أبيكم إسماعيل"^(٦)، وقد بنوا على هذا الحديث أن أول من ركب الخيل إسماعيل عليه السلام، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الخيال معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، فامسحوا نواصيها، وادعوا لها بالبركة"^(٧).

وكان التشجيع من رسول الله كبيراً للاهتمام بالخيال ودورها الذي لا يخفى على أحد في الفتوحات العربية الإسلامية، فكانت شريكة للفتاحين في وطء المعمورة في كل مكان لنشر رسالة الحق، والخير في الدنيا والآخرة، فكانت تعرض كما يعرض الجند، وبعد فتح بيكند اشترى قتيبة اثنا عشر ألفاً من الخيل الجياد واثنا عشر ألف هجين وتعهدها بالرعاية طوال فصل الشتاء، وعندما أخذ في الاستعداد للفتوحات قيدها وأضمهرها حتى تذوب شحومها، وليس بذلك غريب على قتيبة وهو ابن صاحب الحرون؛ والد قتيبة بن مسلم الباهلي، والحرون من خيل باهلة بلغ سعرها ألف دينار، وليس في الأرض جواد من لدن زمن يزيد بن معاوية ينسب إلا إلى الحرون وقال الشاعر فيه:

إِذَا مَا قُرَيْشٌ خَلَا مُلْكُهَا فَإِنَّ الْخِلَافَةَ فِي بَاهِلِهَا

^(١) الزجاج: أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل ت ٣١١هـ/٩٢٣م، معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج ٥ ص ٣٥٣، القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م، الجامع لأحكام القرآن تفسیر القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ج ٢٠ ص ١٥٣، البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج ٥ ص ٣٣١.

^(٢) سورة العاديات: الآيات ١-٥.

^(٣) القاري: علي بن سلطان محمد ت ١٠١٤هـ/١٦٠٥م، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٠م، ج ٧ ص ٢٦٦٤.

^(٤) البخاري: صحيح، ج ٤ ص ٢٨، الشيباني: الأحاد والمثاني، ج ٤ ص ٣٦٢، ابن الكلبي: أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب ت ٢٠٤هـ/٨١٩م، أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تح: حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص ٢٤.

الفصل الرابع: الفتوحات العربية الإسلامية زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ/٧٠٥-٧١٤م)

لِرَبِّ الْحَرُونَ أَبِي صَالِحٍ وما ذاك بالسُّنَّةِ الْعَادِلَةِ^(١)

إذاً اهتم قتيبة بالخيـل فأثبت أنه قائد استطاع أن يعد العدة من رباط الخيل وتجهيزها ساعده على ذلك أنه من عائلة كانت ذات اهتمام بالخيول، وما شراؤه للخيـل وإعدادة إلا لتكون ضمن استراتيجيات عسكرية في خدمة جنوده وخفة حركتهم والسرعة في النقل والتنقل.

٤ - الغنائم:

ما أخذ من أموال المشركين بقتال؛ أي ما غنمه المسلمون من أرض العدو عن حرب، وللغنيمة عند العرب أسماء منها: الحباسة، والمهباله، والغنمى^(٢).

ذكرها الله في سورة الأنفال التي أنزلها في غزوة بدر وسماها أنفالاً؛ لأنها زيادة في أموال المسلمين فقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ} ^(٣) إلى قوله: {وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} ^(٤)؛ وقال: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} ^(٥). وفي الصحيحين عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي: - ومنها - وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي" ^(٦)، إذا هذه الغنائم كانت توزع على من شهد المعركة، ويتم التقسيم وفق المنهج الوارد في القرآن الكريم، وأصاب

^(١) ابن الكلبي: أنساب الخيل، ص ١١٧-١١٩، الجواليقي: أبو منصور، كتابان في الخيل، تح: نوري الفيضي، وحاتم الضامن، عالم الكتب، ط ١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٦٦، الأعرابي: محمد بن زياد ت ٢٣١هـ/٨٤٥م، أسماء الخيل وفرسانها، تح: محمد أحمد، النهضة المصرية، ط ١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص ١١٤-١١٥.

^(٢) العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م، الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم، القاهرة، د.ت، ص ١٧٠، ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م، غريب القرآن، تح: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ج ١ ص ٢٢٨، البعلي: محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، المطلع على ألفاظ الممنوع، تح: محمود الأرنؤوط، وياسين محمود الخطيب، مكتبة السوادي للتوزيع، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص ٢٥٥.

^(٣) سورة الأنفال: آية، ١.

^(٤) سورة الأنفال: آية، ٤١.

^(٥) سورة الأنفال: آية، ٦٩.

^(٦) البخاري: صحيح، ج ١ ص ٩٥، النيسابوري: صحيح مسلم، ج ١ ص ٣٧٠.

المسلمون يوم فتح ما وراء النهر الكثير من الغنائم التي غنموها من فتوحاتهم ولاسيما يوم فتح بيكند سنة ٨٧هـ/٧٠٥م فقد غنم المسلمون الكثير الكثير، ويكند هذه كانت مدينة التجار والتجارة^(١)، ولكن قتيبة وجد أن السلاح الذي غنمه الجيش كبير جداً فأمر بمصادرة الأسلحة من الجنود وأصدر قراراً يحرم به ولأول مره أن يكون السلاح من ضمن الغنائم، وأخذ بتجميع السلاح من أجل تشكيل وحدات عسكرية جديدة، وكان تطلعه دائماً في سبيل تحقيق المنفعة العامة على الخاصة^(٢)، وضمن هذا المبدأ تقدم المصلحة العامة على الخاصة أن رجلاً أعور كان هو الذي استجاش الترك على المسلمين، فقال لقتيبة أنا أفدي نفسي بخمسة آلاف حرية صينية قيمتها ألف ألف؛ أي مليون درهم وقال قتيبة: لأصحابه ما ترون؟ قالوا: نرى أنّ فدائه زيادة في غنائم المسلمين، وما عسى أن يبلغ من كيد هذا؟ قال: لا والله، لا يروّع بك مسلم أبداً، وأمر به فقتل^(٣).

هذا المبلغ من المال الذي سيدخل في غنائم المسلمين ولكن قتيبة ليس جانياً بل كان هادياً للحق والصواب، فرفض تلك الأموال، وقدم أمن وأمان المسلمين على كل هذا المال.

٥- الكتمان:

قال الحكماء: "سرّك من دمك، فانظر أين تجعله"^(٤)، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "استعينوا على حوائجكم بكتمان السرّ"^(٥)، فكانت السرية التامة عنواناً عريضاً لعمليات قتيبة بن مسلم في ما وراء النهر، وهي من أهم صفات القائد العسكرية في عملياته ولاسيما عندما يسعى إلى أن يحقق عنصر المباغتة ضد خصومه، ويتجلى ذلك في حديث دار بين المجشر بن مزاحم السلمي وقائده قتيبة عندما فرغا من خوارزم، فقال له سرّاً: إن أردت الصغد يوماً من الدهر فالآن، فإنهم آمنون من أن يأتيهم عامل هذا، وإنما بينك وبينهم عشرة أيام. قال: أشار عليك بهذا أحد؟ قال: لا. قال: فسمعه منك أحد؟ قال: لا

(١) مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٣٩٦.

(٢) عماش: قتيبة، ص ٨٢-١٦٢.

(٣) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٣١.

(٤) الوشاء: أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى ت ٩٣٦هـ/٩٣٦م، الظرف والظرفاء، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر، ط ٢، ١٣٧١هـ/١٩٥٣م، ص ٤٦.

(٥) الأصبهاني: حلية الأولياء، ج ٥ ص ٢١٥.

قال: والله لئن تكلم به أحد لأضربن عنقك^(١)، ليست السرية فقط، بل التخطيط المسبق ليحين الوقت المناسب، وإصدار العقوبة الشديدة بحق أحد قاداته ما هو إلا حرص من قتيبة على تحقيق استراتيجية صحيحة تمكنه من نشر التعاليم والأخلاق الإسلامية.

٦- الموالي:

وهم المسلمون من غير العرب، وشكل الموالي إلى جانب العرب سرايا في الجيش العربي، وفرض عمر رضي الله عنه لأهل بدر عربهم ومواليهم في خمسة آلاف، وقال: لا أفضلهم على من سواهم، وأن قوما قدموا على عامل لعمر بن الخطاب فأعطى العرب منهم وترك الموالي فكتب إليه عُمَرُ: "أما بعد فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم والسلام"^(٢). لا فرق بينهم وبين العربي، فالكل على مائدة واحدة، مائدة الإسلام، لا فرق بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى فكان هؤلاء لهم دور كبير في الجيوش العربية، وكان لجيش قتيبة من الموالي الذي يترأسهم حيان النبطي، ويقارب عددهم سبعة آلاف يقاتلون إلى جانب قتيبة، ويعلل بعضهم أن كثرة الموالي في جيش قتيبة بن مسلم الباهلي هو افتقاد قتيبة لسند القبيلة أو العشيرة، وهذا مردود ولا يقبل، كيف لقتيبة أن يفعل هذا وهو من حاربها بين الجنود ولا دليل على كثرة الموالي في جيش قتيبة إلا دليل واحد، وهو كثرة الفتوحات وكثرة من دخل من أهل بخارى وسمرقند و غيرها من بلدان ما وراء النهر، ويذكر أن هشام بن عبد الملك استشار أصحابه في رجل يصلح لخراسان فأشاروا عليه بأقوام ومنهم نصر بن سيار، فاختره، فقليل له: ليست له بها عشيرة، فقال هشام: أنا عشيرته، فكان مثل ذلك لقتيبة بل وأكثر، وأي عشيرة مثل عشيرته فقد كانت عشيرته الوليد والحجاج فكانا كلاهما سندا لقتيبة وإن هذا السند لقوته لتزول منه الجبال، ومن الموالي الذين شاركوا قتيبة في الحروب أهل بخارى والشاش وسمرقند الذين شاركوا في الفتوحات، ولكن عندما حاصر سمرقند أرسل إليه غوزك: إنما تقاتلني بإخوتي وأهل بيتي من العجم، فأخرج إلي العرب^(٣)، فغضب قتيبة واستطاع أن يميز العرب من غيرهم، وأثبت له أنه قادر على ذلك فقاتله في العرب فقط، وظفر عليه، وفتح المدينة، إذ كانت الحلول العبقريّة

^(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ٧٤، النويري: نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٢٩٦.

^(٢) البلاذري: فتوح، ص ٤٣٩-٤٤١.

^(٣) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٦٤، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٤١.

العسكرية لدى قتيبة في أحلك الظروف متوفرة وبكل ثقة.

٧- الرماة و الفعالة:

الرماة: وهم حملة الأقواس الذين يرمون السهام أو النشاب، ويسمونهم أيضاً النشابون^(١)، ومع جيش قتيبة كان الرماة أصحاب أهداف دقيقة، فكان مع قتيبة قوم رماة، فقال لهم: "اختاروا منكم رجلين، فاختراروا، فقال: أيكما يرى هذا الرجل، فإن أصابه فله عشرة آلاف وإن أخطأ قطعت يده، فتلكاً أحدهما وتقدّم الآخر، فلم يخطئ عينه، فأمر له بعشرة آلاف، وليس ببعيد أن تكون الفرقة التي جاءت مع عبيد الله بن زياد إلى البصرة التي سميت فرقة الرماة البخارية قد كانت مع جيش قتيبة ولاسيما كانت خبيرة بالموقع الجغرافي، وهم أبناء بخارى^(٢).

الفعالة: وهي في اللغة صيغة مبالغة، أي كثيرة الفعل، والعمل الكثير، ومع اتساع جبهات العرب المسلمين، وازدياد أعمالهم الحربية كفتح الطرق أو القناطر أو حفر الآبار كان الذين يعملون هذه الأعمال هم الفعلة (المهندسين)^(٣)، وقد أدت الفعلة دوراً كبيراً في فتوح ما وراء النهر، وقد استخدمها قتيبة أثناء الحرب مع بيكند عندما أمر بدك سور المدينة، وقد تحطم السور، وقتل من الفعلة عندما سقط الحائط ما يقارب الأربعين وهذا دليل أيضاً على كثرتهم.

المنجنيقيون^(٤): وهم أيضاً من الفعالة، وهم من الرماة الذين يرمون الحصون والأسوار بالمنجنيق، والمنجنيق: وهو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئاً إلا أهلكه، وقال القائل:

(١) الهروي: تهذيب، ج ١١ ص ٢٦٠.

(٢) مسكويه: تجارب، ج ٢ ص ٤١٦، ابن كثير: البداية، ج ١٢ ص ٤٤١، الجنابي: تنظيمات، ص ١٢٤.

(٣) الهرثمي: مختصر، ص ٧٢.

(٤) وأوّل من وضع المنجنيق جذيمة الأبرش ملك الحيرة على العرب، وذكر في تفسير سورة الأنبياء أن الكفار لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام ولم يقدر على القرب من النار ليلقوه فيها، فجاءهم اللّعين إبليس فعلمهم وضع المنجنيق فعملوه وألقوه فيه فقتلوا به في النار، فكان أول منجنيق عمل، القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٢ ص ١٥٣.

نصبوا منجنيقهم حول بيتي يا لقومي لبيتي المهدوم^(١)

وكان لقتيبة حسب رواية الطبري منجنيق يسمى (الفحجاء) استخدمها في حربه مع ملك شومان^(٢)، ويذكر غفوروف عن وثائق صغدية وصف غوزك للحصار العربي فيقول: "عند ذاك حاصر العرب المدينة، وأنهم وضعوا تجاه الجدران ثلاثمائة مكنة لتحطيم الجدران، وحفروا في ثلاثة أماكن خنادق كبيرة، وأنهم أرادوا أن يحطموا مدينتنا وقصيرتنا"^(٣)، من كلام غوزك يتبين أنه كان هناك ثلاثمائة منجنيق، وهذا شيء لا يصدق، ففي فتوح محمد بن القاسم الثقفي أنزل الناس منازلهم، وخندق ونصب عليها منجنيقاً يقال له: (العروس) كان يمدّ به خمسمائة رجل^(٤) إذا كل منجنيق يحتاج إلى هذا العدد من الرجال وأورد غوزك أن في جيش قتيبة ثلاثمائة منجنيق فكم يحتاج من الرجال، وإن كان هذا العدد أيضاً فيه مبالغة واضحة، وربما أراد غوزك زيادة العدد ليبرر موقف استسلامه أمام شعبه والتاريخ.

٨- التعريب:

كانت ومازالت اللغة هي الوسيلة الأولى للتفاهم والوسيط المهم بين المجتمعات والحضارات، وعند ذكر هذا المصطلح يتبادر إلى ذهن السامع تعريب اللفظ على سبيل المثال لا الحصر فقد عربت (يوهانس) وجعلت: يونس، وذلك أن يوحنا هو طور من أطوار هذا الاسم: (يوحانس)، فجاء العرب فعرّبوه إلى يوحنا وجعلوه يحيى^(٥).

ليس المراد تعريب اللفظ فقط وهو مطلوب، ولكن أرادت الفتوحات العربية الإسلامية تعريب النفوس والأخلاق بنكهة إسلامية كما جاء بها النبي محمد عليه الصلاة والسلام وهو القائل: "مَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَقَدْ أَبْغَضَنِي"^(٦). وقوله: "أَحِبُّ الْعَرَبَ لِثَلَاثٍ: لِأَنِّي عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنُ عَرَبِيٌّ، وَكَلَامُ

(١) الجاحظ: الحيوان، ج ٥ ص ١٦١.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٤٦٣.

(٣) عماش: قتيبة، ص ١١٣.

(٤) النويري: نهاية، ج ٢١ ص ٣٠٤.

(٥) الأسد: ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط ٧، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص ٢٤١.

(٦) البزار: مسند، ج ١٧ ص ٣٥٧، الهيثمي: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تح: حسين سليم أسد الداراني، دار المأمون، د.ت، ج ١٠ ص ٥٣.

أَهْلُ الْجَنَّةِ عَرَبِيٌّ"^(١)، وكان الحب للعرب لصلتهم بالقرآن وبالنعيم الأبدي لا الحب للعنصر فقط، فقد قال عليه الصلاة والسلام سلمان منا أهل البيت ونسبه إليه وهو فارسي، فَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: سَلَمَانُ مِنَّا، وَقَالَتْ الْأَنْصَارُ: سَلَمَانُ مِنَّا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَلَمَانُ مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ»^(٢) وما قاله القائل:

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك الحسيب أبا لهب^(٣)

إلا دلالة على أن العروبة وما اتصلت به من أخلاق هي التي رفعت العرب ومكانتهم بهذا الإسلام الخفيف، فكانت عقلية قتيبة بن مسلم الباهلي وهو الناظر إلى أسلافه وعدم استقراهم في ما وراء النهر التي شكلت عقبة أمام السيادة العربية الإسلامية، فسعى إلى تعريب اللسان والأخلاق، فكان معه من العرب ما يقارب الأربعين ألف، فكانت مهمته غير الفتوح بالمعارك فتوحات التعريب ونشر الأخلاق، وذكر ابن خلدون التعريب السياسي الديني قائلاً: "إنما يستفاد من الشريعة؛ وهي بلسان العرب لما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي، فوجب هجر ما سوى اللسان العربي من الألسن في جميع ممالكها، فلما هجر الدين اللغات الأعجمية، وكان لسان القائمين بالدولة العربية الإسلامية عربياً هجرت كلُّها في جميع ممالكها؛ لأنَّ النَّاسَ تبع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب"^(٤)، فعمل العرب المسلمون على توطين القبائل العربية في ما وراء النهر، ولاسيما القيسية واليمانية التي نزحت من العراقيين التي وصلت أعدادها إلى خمسين ألف أسرة عربية، ويقول اليعقوبي: "وليس بخراسان ذهب بموضع من المواضع إلا ما بلغني أنه يوجد في هذا الوادي وفي جميع مدن خراسان قوم من العرب من مضر وربيعة وسائر بطون اليمن إلا بأسروشنه، فإنهم كانوا يمنعون العرب أن يجاوروهم حتى صار إليهم رجل من بني

^(١) السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين ت ٩١١هـ/١٥٠٥م الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، تح: محمد بن لطفي الصباغ، جامعة الملك سعود، الرياض، د.ت، ص ١٦٤.

^(٢) الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي ت ٣٦٠هـ/٩٧٠م، المعجم الكبير، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج ٦ ص ٢١٢، ابن الجوزي: صفوة الصفوة، ج ١ ص ٢٠٣.

^(٣) كبريت: رحلة الشتاء والصيف، ص ٩٦.

^(٤) ابن خلدون: ديوان المبتدأ، ج ١ ص ٤٧٥.

شبيان فأقام هناك وتزوج فيهم^(١)، هذا وكان كان للقبائل الأثر الكبير في التعريب. وبالعودة إلى قتيبة فقد أصدر قراراً قضى بضرورة التخلص من الكتب القديمة المكتوبة بالخط الخوارزمي التركي، ومن ثم بناء الجامع في بخارى سنة ٩٤هـ/٧١٢م ودعا أهالي بخارى إلى الصلاة فيها والاجتماع، وأصدر أن من يأتي إلى الصلاة له درهمان تشجيعاً منه على زرع الإسلام العربي في نفوس الترك، وكذلك بنى مسجداً في سمرقند وسمح لأهالي البلاد بقراءة القرآن في الصلاة بالفارسية، وكان يقف رجل يصيح فيهم وقت الركوع "بكنيتا نكينت"، وأثناء السجود "نكونيا نكوني"، وهما جملتان من أهل بخارى معناهما الركوع والسجود، وأمر قتيبة أهل بخارى بإعطاء نصف بيوتهم للعرب^(٢)، كل ذلك من أجل تعريب النفوس وتركيتها، وإقامة الدين الحنيف، وجمع صفوفهم بعدما كانوا متناحرين.

تمكن قتيبة ومن معه من الفاتحين أن يقهروا الصعاب والتغلب على كل العقاقب التي واجهتهم، فلم يثنه عن عزمه في نشر الرسالة لا وعورة الطرق والمسالك ولا قساوة المناخ وشدته، وجعل حكمه بين التهيب والترغيب، وكانت له بطانة صالحة من أهله وأخوته الذين كانوا معه في كل مفاسل الفتوحات، وكان معه مجموعة من العلماء، كالضحاك بن مزاحم صاحب التفسير، والقاضي يحيى بن يعمر، ومحمد بن واسع كان لا يقدم عليه أحد في زمانه، في زهده وعبادته^(٣)، وكان قتيبة بن مسلم حين لقي الترك، وكان في جيشه أبو عبد الله فجعل يكسر السؤال عن محمد بن واسع، فأخبر أنه في ناحية من الجيش متكئاً على قوسه رافعاً إصبعه إلى السماء يُنْضِضُ (يصبص) بها؛ فقال قتيبة: "لإصبعه تلك أحبُّ إلي من عشرة آلاف سيف!"^(٤). ذلك هو التوكل بعد الأخذ بالأسباب التي تقف إلى جانب بعضها بعضاً، وكان على يقين أن أسباب النصر تحتاج إلى توفيق من الله سبحانه وتعالى، وبذلك دانت خراسان وما وراء النهر

(١) اليعقوبي: البلدان، ص ١٢٥.

(٢) النرشخي: تاريخ، ص ٧٧، الثامري: إحسان ذنون، الحياة العلمية لخراسان وبلاد ما وراء النهر في القرنين الثالث والرابع للهجرة، دار الطليعة، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص ٥٠.

(٣) ابن قتيبة: المعارف، ص ٤٧٧.

(٤) عبد الواحد المراكشي: محي الدين بن علي التميمي ت ٦٤هـ/١٢٧٥م، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تح: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م، ص ٢٠٩، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٨، ص ٢٦٠.

للسيادة العربية الإسلامية، وإن كان حظ قتيبة ممن كانوا معه في هذه الفتوحات أن قتل فإن حظ الأمة من فتوحاته أن أصبحت ما وراء النهر خزاناً بشرياً من العلماء وفي كافة الميادين ولا سيما في علم الحديث ولا سيما الصحيحين كالإمام البخاري، ومسلم، والترمذي، والخوارزمي، والشيخ الرئيس ابن سينا، وابن النفيس، وليس أجمل مما شهد به المتعصب ضد العروبة والإسلام فامبري الذي يقول: "إن بخارى التي قاومت العرب في البداية مقاومة عنيفة، قد فتحت لهم أبوابها لتستقبلهم ومعهم تعاليم نبهم، تلك التعاليم التي قوبلت في البداية بمعارضة شديدة، ثم أقبل القوم من بعد عليها في غير شديدة، حتى لترى الإسلام- الذي أخذ شأنه اليوم يضعف في جبهات آسيا الأخرى- قد غدا في بخارى اليوم-(١٨٧٣م)- على الصورة التي كان عليها أيام الخلفاء الراشدين"^(١).

سابعاً- قتيبة بن مسلم القائد الحكيم:

كان قتيبة قد وصف بالشجاعة والقائد العسكري الفذ حتى قال فيه دحلان: "فحل عمال الدولة الأموية"^(٢)، فقد كان قتيبة الحكيم ذو الثقافة العالية ذو الرأي السديد يمتلك الحكمة والمشورة، ويقتبس البحث بعضاً منها:

"ملاك الأكثر في السلطان الشدة على المذنب واللين للمحسن"، وكان يقول: "الخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقة، وأن كانت الجماعة لا تخطيء والفرقة لا تصيب"^(٣)، "وخاطب قتيبة الحجاج حين ظفر بأصحاب ابن الأشعث فأراد قتلهم: إن الله قد أعطاك ما تحب من الظفر، فأعطه ما يحب من العفو"^(٤)، "وقال: الكامل المرؤة من أحرز دينه ووصل رحمه، وتوقى ما يلائم عليه"، وسمع قتيبة بن مسلم

(١) فامبري: بخارى، ص ٦٧، وانظر أيضاً قول بارتولد في وصف أثر الإسلام في الترك وعالمية الإسلام وأثره في ديانات المشرق التي تركها أصحابها، ودخلوا أفواجاً في الإسلام وإن العكس غير صحيح، بارتولد: تاريخ الترك، ص ٧٠-٧١.

(٢) دحلان: الفتوحات، ص ١٩٩.

(٣) ابن عبد البر: يوسف بن عبد الله بن محمد ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م، بهجة المجالس وأنس المجالس، دار القلم، بيروت، د.ت، ص ٩٩، المقدسي: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج ت ٧٦٣هـ/١٣٦١م، الآداب الشرعية والمنح المرعية، عالم الكتب، د.ت، ج ١ ص ٣٢٨.

(٤) ونسب هذا القول لرجاء بن حيوة، انظر: الجاحظ: البيان، ج ٢ ص ٧٤.

رجلاً يغتاب آخر، فقال: لقد مضغت مضغة طالما لفظها الكرام"، وقال: "من أعجب برأيه، لم يشاور كفيًا، ولم يوات نصيحاً"^(١)، "لا يدعونك أمر قد تخلصت منه إلى الدخول في أمر لعلك لا تخلص منه"، وقال قتبية بن مسلم: "لا تطلبن الحوائج من كذوب، فإنه يقرها، وإن كانت بعيدة، ويبيدها إن كانت قريبة، ولا إلى رجل قد جعل المسألة مأكلة، فإنه يقدم حاجته قبلها، ويجعل حاجتك وقاية لها، ولا إلى أحق فإنه يريد نفعك فيضرك"^(٢). وقال قتبية بن مسلم: أربعة متعرضون للهوان والاستخفاف: "طالب الفضل من اللثام، والمفرط في الدالة على السلطان، والجالس في غير موضعه الذي يؤهل له، والمقبل على قوم بجديث وهم غير مستمعين له"، ومن أراد نفسه على أكثر مما عنده من علم ومنطق افتضح، وكان قتبية إذا غزا حَضَّ النَّاسَ على الصبر، ونهاهم عن الغلول، وقال: إياكم والحرص وطماح الأبصار، وأظلفوا أنفسكم عن المحارم، فإن أفلح النَّاسَ حجة أغلبهم للحرص والشهوة.

وقال قتبية: "يا بني لا تدخلوا الأسواق فتدق أحلاقكم، ولا تمزحوا فيستخف بكم، ولا تمشوا في العساكر فتصغروا عند أكفائكم".

وقال: "إن رأيك لا يتسع لكل شيء ففرغه للمهم، وإن مالك لا يُغني النَّاسَ كلهم، فاحصص به أهل الحق، وقال: البرُّ الوصول من لم يجعل للبعيد حظ القريب، ولم يصل رحماً بقطيعة أخرى، وكان يقول: الدنيا بخذافيها الخفض والدعة، وكان يقول: المرء هو من دواعي الشنآن"^(٣). وبعد هذا العرض الجمل من حكم قتبية الدالة على وافر ثقافته واتساعها، وما يمتلك من الحكمة في القيادة وفي الحياة إن كان قد أطلق على ابن سينا الشيخ الرئيس، فالجدير أن يطلق على قتبية بن مسلم الباهلي القائد الحكيم.

^(١) ابن عبد البر: بمحة المجالس، ص ٨٦-٩٩، ونسب إلى سيف بن ذي يزن، انظر: الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص ٣٠٠.

^(٢) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناي الليثي ت ٢٥٥هـ/٨٦٨م، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص ٦٠.

^(٣) ويروي ذلك عن حضين بن المنذر، وهو عن قتبية أثبت، انظر: البلاذري: أنساب، ج ١٣ ص ٢٣٤.

ثامناً- ما وراء النهر بعد مقتل قتيبة:

عند كاشغر قتل قتيبة بن مسلم وقتلت معه حركة تقدم الفتوحات العربية الإسلامية، فلا شيء يذكر على جبهات ما وراء النهر إلا مناطق جرجان وطبرستان من قبل يزيد بن المهلب^(١)، ومن ثم يزيد نفسه قام بثورة ضد الدولة الأموية^(٢)، وعلى كل حال واجه الأمويون الأواخر مشاكل جمّة في بلاد ما وراء النهر، كان أبرزها طموحات الأمراء الأتراك الذين أبقاهم الأمويون يحكمون بلادهم تحت السيادة العربية الإسلامية، وكان معظم هؤلاء تربطهم بالدولة الأموية معاهدات نظمت العلاقات بين الطرفين، ولا سيما التعاون العسكري والمالي، ولكن هؤلاء الأمراء كانوا يحاولون القفز فوق تلك المعاهدات مستغلين فترات الضعف والاضطراب التي كانت تمر بها الدولة الأموية في آخر أيامها التي امتلأت بحوادث الصراع بين الأمراء الأتراك الثائرين والعمال الأمويين، ومن أمثلة ذلك ثورة أمير فرغانة- بعد وفاة قتيبة- ومحاولة استرداد نفوذه القديم، وثورات بخارى وسمرقند، لكن الدولة الأموية لم تتهاون في مواجهة تلك الثورات وقمعها، ونجحت في إخضاع أغلب الأمراء الذين شرعوا يدخلون الإسلام، وظلت الدولة الأموية والأتراك الشرقيين في صراع يتبادلون النصر والهزيمة حتى تغلبت كفة الدولة الأموية على يد أسد بن عبد الله القسري (١١٧-١٢١هـ/٧٣٥-٧٣٨م) ونصر بن سيار (١٢١-١٢٩هـ/٧٣٨-٧٤٦م)^(٣) الذي حظي بمكانة في التاريخ العربي الإسلامي في تلك البلاد، فهو الذي حمى بلاد ما وراء النهر من خطر الأتراك الشرقيين، ومن ثم تولى الولاية أحد أبناء قتيبة بن مسلم يدعى قطناً^(٤)، وبعدها كانت الدعوات للرضا من آل محمد لتنتقل الرايات السوداء معلنة الإطاحة بالخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية.

(١) البلاذري: فتوح، ص ٣٢٧.

(٢) الطبري: تاريخ، ج ٦ ص ٥٨١.

(٣) البلاذري: فتوح، ص ٤١٤، الطبري: تاريخ، ج ٧ ص ١٩٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٤ ص ١٩٠، عبد اللطيف: العالم الإسلامي، ص ٣٥٣.

خاتمة

كان موضوع هذه الدراسة العمليات العسكرية التي سميت بالفتوحات العربية الإسلامية، وللعرب المسلمين تاريخ مشرف، وليس بالسهل من حيث حجم العمليات العسكرية وأخلاقيات الفاتحين العرب التي ترجمت على أرض الواقع في أثناء سير العمليات العسكرية وفي كل الجبهات، وهذه الدراسة مثال حي على عمليات جبهة المشرق، ولا سيما في بلاد ما وراء النهر في العصر الأموي الذي يعد عصر الفتوحات بامتياز؛ بل ذروة الفتوحات في تاريخ الدولة العربية الإسلامية، فكان لابد من دراسة بلاد ما وراء النهر والتعرف إليها قبيل عمليات الفتح من خلال دراسة أوضاع المنطقة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً بشكل موسع وبشيء من التفصيل لمعرفة قيمة هذه الفتوحات لتلك المنطقة. وقبل هذه الدراسة كان هناك دراسة جغرافية للمنطقة حيث يشكل العامل الجغرافي عاملاً ثابتاً في الدراسات العسكرية، وكانت الطبيعة الجغرافية مهمة في فتوحات العرب المسلمين، ولا سيما أن هناك بعض الدراسات التي تتحدث عن دور الجغرافية وأثرها في العمليات العسكرية سواء كانت سلباً أم إيجاباً.

وقد أثبتت الدراسة مدى التنوع الواضح في جغرافية بلاد ما وراء النهر من تضاريس وأنهار ومناخ قارس حتى إن نهر جيحون بأكمله يتجمد ليصبح جسراً تنقل عليه الأحمال، فتهدبط الحرارة حتى تصل درجة العشرين تحت الصفر، فكان على الفاتحين العرب التغلب على هذه الحواجز الطبيعية الجاثمة في وجه حركات الفتوحات للمنطقة من خلال الاعتياد على هذه الظروف والتغلب عليها عن طريق استخدام البسة خاصة وأغطية وخيام مع كميات وافرة ونوعية من الإمدادات الغذائية والأعلاف ووسائل النقل وإدارة دقيقة لهذه الفتوحات؛ لأن أي اضطراب سيكون مأساوياً حتماً على الفاتحين العرب البعيدين جداً عن قواعدهم الأصلية، ومناخ ما وراء النهر أدى دوراً مهماً في صد عمليات الفتوح أو تأخرها إن صح التعبير، فقد كانت الفتوحات أقل نشاطاً في فصل الشتاء وأكثر نجاحاً في فصل الربيع، والصيف إن كان صيفها حاراً غير أن العرب اعتادوا الحرارة أكثر من البرودة.

وأثبت البحث مفهوم بلاد ما وراء النهر يشمل المناطق الخصبة السهلة الواقعة بين نهري سيحون وجيحون اللذين يصبان في بحر خوارزم، وتم تقسيم المنطقة إلى ستة أقاليم جغرافية واضحة المعالم من خلال الرجوع إلى المصادر الجغرافية الأصلية التي أمدت البحث بوصف دقيق يوضح هذه الجغرافية المعقدة، وأبرز

البحث دور كل من مدينة بخارى وأهمية موقعها الجغرافي ومساحتها التي تصل إلى سبعة وثلاثين ميلاً في مثلها، ومدينة سمرقند التي تضرب جذورها في عمق التاريخ، وقد تغنى الرحالة المسلمون وأبدعوا في وصفها، وفضلوها على سائر بقاع الأرض، فصارت مقراً للتجار، يجتمعون فيها من كل حدب وصوب، وأضيف إليهما عدداً كبيراً من المدن والقرى التي تم التعريف إليها مع ذكر بعض الميزات التي تتعلق بكل منطقة على حدة، وكان لمقر العمليات ميزة لا يحسد عليها حيث إنه تفصل المنطقة عن جبهة المشرق حواجز مائية طبيعية مثل نهر جيحون الذي فصل مقرّ الحكم المتمثل بخراسان عن بلاد ما وراء النهر؛ إذ اختلفت الطبيعة المناخية والجغرافية والطبوغرافية في ما وراء النهر عما كانت عليه في العراق والشام وشبه الجزيرة العربية، وأضيف إلى ذلك الجبال وطبيعتها الوعرة التي فرضت على العرب امتلاك لياقة بدنية عالية وتحمل المشاق والتدرب على القتال في المناطق الجبلية.

وأظهر البحث أن بلاد ما وراء النهر قبيل الفتح الإسلامي كانت تعاني من التفكك السياسي، فلم تعرف قيام حكومة مركزية موحدة؛ بل ظهرت فيها عدة ممالك مستقلة بعضها عن بعض، وكانت متحاربة يحكم كلاً منها خان كبير تُدفع له الجزية، وهذه الممالك كانت تُفرض عليها سياسات الدول المجاورة لها من قبل الفرس والصينيين، وما ألقاب الملوك التي حملوها إلا دلالة من دلالات التأثير الفارسي في المنطقة، ولا يمكن إغفال دور الدهاقنة في المجالين الاقتصادي والسياسي الذين كانوا يتمتعون بمزايا كبيرة لا تقل عن الملوك، وعُدَّ نهر جيحون نهرًا من نار فصل بين شعبين متحاربين دوماً، هما: فارس، وطوران، ولكن الإسلام حول هذا النهر إلى نهر سلام وحضارة وعقيدة واحدة. وفي الحقيقة لم يكن نهر جيحون حداً فاصلاً بين طوران وفارس بل بين خراسان وبلاد ما وراء النهر؛ لأن الجزء الكبير من خراسان الذي وقع بين جيحون ونهر المرغاب عند واحة مرو كان بأيدي الهياطلة الذين كانوا من الأتراك، والذي حدث أنه وجب على العرب المسلمين قبل وصولهم إلى نهر جيحون تدمير كيانات الهياطلة، وقد فعلوا ذلك ونجحوا.

وقد عالج البحث آراء المؤرخين حول السكان الأصليين لبلاد ما وراء النهر، ثم خلّصت الدراسة إلى أن هذه البلاد كان يسكنها خليطٌ من عدة عناصر مختلفة، ومنها: العنصر الفارسي والصيني، والكردّي، والتركي وهذا العنصر الأخير كانت له الغلبة على باقي العناصر الأخرى وأن آسيا الوسطى الموطن الأصلي للترك الذين كانوا أجناساً عديدة، ولكنهم لم يكونوا وحدة؛ بل قبائل متفرقة لا يجمع بينهم سوى تشابهات

في اللغة ، وقد توصل البحث إلى أن مجتمع بلاد ما وراء النهر كان مجتمعاً طبقياً انقسم المجتمع إلى طبقة الأغنياء وتُعرف بالدهاقين التي تمتعت بجميع الحقوق والمزايا، وطبقة أخرى فقيرة هي طبقة الفلاحين التي حرمت من كل شيء، وكانت في انتظار من يخلصهم من هذا الحكم الطبقي البغيض؛ أي إنه كان يعاني من التفكك الاجتماعي، وكان هذا النظام الاجتماعي في بلاد ما وراء النهر شبيهاً إلى حد كبير بالنظام الاجتماعي الساساني، وذلك عائد لوصول المؤثرات الفارسية إلى بلاد ما وراء النهر التركية إن صح التعبير، وإن مجتمع بلاد ما وراء النهر تحكمه العادات والتقاليد البدوية التي توارثتها الأجيال، وهي تجسّد حركة المجتمع الإنساني عبر التاريخ في نشاطاته الفكرية والدينية والاجتماعية كما لا يمكن إغفال دور المرأة في مجتمع بلاد ما وراء النهر التي وصلت إلى أعلى مكانه في رأس نظام الحكم، فقد تمتعت بمكانة جيدة امتلكت فيها الحرية ولها كل الاحترام.

كما أظهر البحث أن مجتمع بلاد ما وراء النهر كان يعاني أيضاً من الاضطراب الديني حيث لم يعرف سكانه ديانة موحدة تلتف حولها شعوب المنطقة؛ بل على العكس ظهرت عدة ديانات مختلفة، منها: الزرادشتية التي وجدت لها أتباعاً في بلاد ما وراء النهر، ولا سيما أن أمراء تلك المنطقة قد اعتنقوا الزرادشتية، والجدير بالذكر أن هؤلاء الملوك قد اعتنقوها لتثبيت حكمهم من قبل ملوك فارس الذين كانت الزرادشتية دينهم وهم الداعمون لها، ومركزاً مهماً للديانة البوذية ومعبدها البوذي الكبير في النوبهار، وكان السادن الأكبر لهذا المعبد يحمل لقب برمك، وعند بدء عمليات الفتح لجهة المشرق كانت السدانة إلى برمك بن خالد بن برمك وهو أول من دخل في الإسلام، وهو جد أسرة البرامكة واسعة الشهرة في الدولة العربية الإسلامية وانتقلت المؤثرات البوذية إلى بلاد ما وراء النهر، وتركزت في سمرقند، واعتنق أمراء الهياطلة الترك هذه الديانة مخالفين الزرادشتية الفارسية، ولا سيما أن البوذية والزرادشتية كانتا على تناقض وتنافس كبيرين، وكذلك انتشرت الديانة المانوية التي انتهت بدور رجال الدين الزرادشتي الذين أقنعوا بهرام الأول بطلانها، وانتشرت الديانة المزدكية التي نادى بالشيوعية لأمرين مهمين رأت أنهما سبب الخلافات والتصادم ألا وهما: المال والنساء، وتعد أول اشتراكية بصفة دينية، ولم تكن المسيحية النسطورية بعيدة عن شعوب ما وراء النهر. والجدير بالذكر أن هذه الديانات قد تسربت من الشعوب المجاورة لهم، ولا سيما المؤثرات الفارسية والشامية والبابلية والجزيرة الفراتية، وأضيف إلى ذلك المؤثرات الصينية، ولا سيما على

الأقاليم السيوخونية غير أن هذه الديانات لم تُشعر الناس بالأمان والطمأنينة؛ مما جعل المنطقة كلها مهيأة لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف الذي سيخلصهم من هذه الأوهام كلها، ومع ذلك ظلت تلك الديانات تطل برأسها في المجتمع الإسلامي حتى نهايات العصر العباسي.

وكشف البحث عن تقدم الحياة الاقتصادية وازدهارها في بلاد ما وراء النهر قبل الفتح العربي الإسلامي. فقد وصف هذا الإقليم بتنوع ثرواته وغناها في جميع أوجه النشاط الاقتصادي، فقد ازدهرت الزراعة التي توفرت لها شروطها من وفرة ماءٍ وخصوبةٍ تربةٍ حتى تغنى بها الجغرافيون العرب، وراجحت التجارة الداخلية، وتعددت الأسواق والمواسم المتخصصة في كل سلعة منها على حدة، ونشطت التجارة الخارجية، ويرجع ذلك في المقام الأول إلى موقع هذه البلاد على طريق الحرير الذي صار همزة الوصل بين مناطق الإنتاج في آسيا ومناطق التوزيع في أوروبا، وغدت بيكند وسمرقند ونسف أهم مراكز لتجارة الحرير وتوزيعه في العالم كله، وأما الصناعة فقد كانت مزدهرةً ومتطورةً لتوفر موادها الأولية من تربية المواشي والمزروعات وتوفر التصدير للمنتجات، وأضف إلى ما سلف دور الأيدي العاملة في ازدهار الصناعة وتقدمها وتطورها في جميع أوجه النشاطات الاقتصادية التي أسهمت في إثراء السكان في إقليم ما وراء النهر.

خلصت الدراسة من خلال البحث في ماهية الفتوحات العربية الإسلامية ودوافعها والدعاوي التي اتهمت بها من قبل مشوهي التاريخ الإنساني، ومن أعداء الحضارة والإنسانية بالرد من قبل المستشرقين أنفسهم على أن العرب المسلمين عندما انساحوا من أرض جزيرة العرب منذ فتوحاتهم الأولى ما حملوا بين طياتهم سوى الحضارة والعدل والمساواة وتحليص الشعوب من عبادة لا تسمن ولا تغني من جوع، وأن الفتوحات العربية الإسلامية لم تكن بجد ذاتها هدفاً ولا من أجل إخضاع الأقوام الأخرى لدين الإسلام بقدر ما كانت إزالة تلك الحواجز والعوائق التي تمنع نشر الفكر الإسلامي ودون إجبار الناس على الدخول بالدين، فقد أعلن الإسلام أنه لا إكراه في الدين، وشهد كبار المستشرقين أن المدنية الإسلامية قد توسعت لا بالعمق؛ بل بمناقشة الفكر، فتهاوت تلك الحواجز القديمة البالية لتبدأ حياة فكرية جديدة على أساس المساواة المطلقة وروح المنافسة الحرة الشريفة.

وأثبت البحث أن فتح بلاد ما وراء النهر قد جاء نتيجة حتمية بعد نجاح المسلمين في فتح إقليم خراسان الذي أصبح قاعدة تنطلق منها جيوش المسلمين؛ أي إن الاستعدادات العسكرية في قاعدة

خراسان كانت قد اكتملت وأصبحت تضمن النجاح للقادة الفاتحين بمواصلة الفتح العربي الإسلامي والقيام بعمليات عسكرية ذات طابع أعمق وأوسع، وإن الفضل الأكبر في ذلك يرجع إلى القائد الأحنف بن قيس و زياد بن أبيه في خلافة عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان.

وعالج البحث بالتفصيل جهود المسلمين الأوائل في فتح بلاد ما وراء النهر منذ الخلافة الراشدة، مروراً بمعاوية بن أبي سفيان وحتى خلافة الوليد بن عبد الملك، وأن هؤلاء القادة قد تحملوا الصعاب، واستطاعوا مقاومة طبيعة الإقليم القارس في مناخه الذي لم يألفوه من قبل، كما استطاعوا التغلب على الممرات الجبلية في هذه البلاد، كل ذلك من أجل نشر الإسلام في هذه المناطق، وليس كما يردد المستشرقون من أجل الحصول على خيرات هذه البلاد كما ذكر آنفاً.

وأوضح البحث الدور المهم الذي قام به والي العراقين الحجاج بن يوسف الثقفي في مساندة القائد قتيبة بن مسلم الباهلي في فتح بلاد ما وراء النهر، فقد كان الحجاج يطلع على تحركات قتيبة خطوة بخطوة بأدق التفاصيل، ويمده بكل ما يحتاج إليه من العدة والعتاد، ولا ييخل عليه بالنصيحة والمشورة والخطط العسكرية، فقد كان له الفضل الكبير في حركة الفتوحات في المشرق الإسلامي كله بعد أن وطد حكم الأمويين في العراق، وقضى على ثورة ابن الزبير، ونجح بضبط العراق إلى حد كبير، إذ هيأت الظروف السياسية والعسكرية لعمليات الفتوح في جبهة المشرق في كل من بلاد ما وراء النهر وبلاد السند أيضاً، ومع ما قيل عن الحجاج وسياسته الظالمة، فلو وضعت هذه الأمور بكفة، وما قام به من استعدادات الفتوح لبلاد ما وراء النهر بكفة أخرى لرجحت الأخيرة عن كل مساوئه، وكذلك دور الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي اشتهر بكثرة الفتوحات حتى قيل عنه: أقام الجهاد في أيامه، وفتحت في خلافته فتوحات عظيمة كأيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولا يخفى على أحد أن عون الخلافة ومساندتها من أهم العوامل المشجعة وأعظمها للقادة في ميدان القتال، ولا سيما أمثال الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك الذي يعد عهده عهد انبعاث الحضارة الأموية، فريت واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج، فعهده يمثل المرحلة الثالثة للفتوحات العربية الإسلامية والحقيقة أن تاريخ الوليد هو تاريخ القادة الثلاثة الأبطال وفحول الإسلام الذين دوّخوا البلاد، وأوغلوا في سبيل تحقيق نشر الإسلام في مشرق الأرض ومغربها، وهم فاتح ما وراء النهر قتيبة بن مسلم الباهلي، وفاتح السند محمد بن القاسم الثقفي، وموسى بن نصير الذي أتم فتح

المغرب والأندلس، ولا يمكن إغفال الدور الذي أداه آل المهلب في بلاد ما وراء النهر وحساسية الموقف بينهم وبين الحجاج الذي أنهى دورهم في كل من خراسان وبلاد ما وراء النهر الذي عدّهم الأخير خصومه السياسيين بعدما كانوا يده اليمنى.

أكدت الدراسة دور الشعوبية الذي كان واضحاً في ذكر مثالب العرب وقبائلها، وقد نالت ما نالته قبيلة باهلة التي ينتمي إليها فاتح ما وراء النهر، فطالما تفاخر أبناء باهلة بنسبهم والقائمة تطول بذكر أبناء هذه القبيلة، ولعل قول الأحنف بن قيس وهو يفخر بأخواله الباهليين عندما قال: ومن له حال مثل خالي، وكان لها حصّة الأسد من هذه المثالب التي من شأنها العمل على نخر كيان الأمة حتى كادت تمزق وشائج القرى بين القبائل وتُسبب الفرقة والتباعد، فكان من المهم الاهتمام بعلم الأنساب لتوضيح غايته الأساسية، ومتى انتفت تلك الغاية السامية التي أساسها التعرف إلى أنساب العرب زالت الفائدة منه، واتخاذها في غير مكانه؛ وهو التفاخر والتفضيل بين شعب وآخر أو قبيلة على غيرها، ولا سيما أن الإسلام جاء ليرفع شعاراً مفاده أنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فلم تكن قبيلة باهلة من أحسن القبائل ولا من أحطها منزلة، وأي قبيلة سلمت من الهجاء حتى قريش التي ينتسب إليها النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم قد نالها نصيب، فكان أعداء العروبة والإسلام يتحينون الفرصة للطعن بكلاهما لدبّ الفرقة بين العرب الذين وحّدوا تحت راية واحد، فما وجدوا أفضل من إثارة النعرات القبلية التي من شأنها أن تُضعف أمر هذه الأمة، وما التنازع القيسي اليماني إلا أحد أسباب سقوط دولة الفتوحات العربية الإسلامية في عصرها الأموي.

وقد ذكر سالفاً دور الحجاج بوصول قتيبة بن مسلم الباهلي إلى ولاية خراسان بعد إنهاء دور المهالبة الذين عجزوا وأخفقوا في تحقيق فتوحات ثابتة يتمكنوا من خلالها من المحافظة على المناطق التي سيطروا عليها. لقد كان الدعم المادي والمعنوي من الخلافة في دمشق ومن الحجاج في العراق لقتيبة بن مسلم الباهلي دعماً مميزاً استطاع من خلاله قتيبة أن يُغيّر مسار الغارات غير المنتظمة التي كانت تطرأ عليها ظاهرة المدّ والجزر متأثرة بالفتن الداخلية، فيصيبها شيء من الفتور إلى عمليات فتح منظمة كان الهدف منها بسط السيادة العربية الإسلامية على بلاد ما وراء النهر وتمكن من إخضاع طخارستان والصغد وخوارزم وجميع الأراضي السجونية حتى وصل كاشغر وعقد صلحاً مع ملك الصين، وذلك كله في عشر

سنوات حيث استطاع بهذه المدة الزمنية أن يدمر كيانات الأتراك بعد أن استطاعت القوات العربية الإسلامية أن توقع الفرقة بين الإمارات التركية في هذه المنطقة، فدب النزاع بين إمارات فرغانة وحوارزم والصغانيان وشومان، وهذا النزاع ساعد المسلمين على فتح كل إمارة على حدة، إذ لم تجتمع للمسلمين جبهة تركية موحدة، على حين تجتمع المسلمون تحت راية إسلامية موحدة، وتعزز دور العنصر العربي في استيطانه بين ظهري بلاد ما وراء النهر فقد بلغ عددهم زهاء خمسين ألفاً بعائلاتهم؛ الأمر الذي أدى إلى نشر الثقافة العربية وتعاليم الإسلام والمساواة والحرية المطلقة بين الجميع فلا فرق بينهم إلا بالتقوى.

وأثبتت الدراسة أن قتيبة بن مسلم الباهلي رجل دولة وصانع سياسة، فقد عد العدد والخطط العسكرية، فكان رجل القيادة الذي يتحلى بالصبر والقدرة على جمع المعلومات الاستخبارية وتحقيق النصر بأقل وقت وجهد، وكانت أعماله العسكرية في التوقيتات المناسبة في الهجوم على خصمه، فكم تعمد تغيير مساره أثناء في الحملات، وكم أصرَّ على الكتمان في عملياته، وكم كان يمتلك من الإدراك والدراية في إدارة المعارك في الوقت المناسب، ومع بعده عن مركز الخلافة ومقر قيادة جيشه مع ذلك كانت طاعته عمياء في امتثال الأوامر التي يتلقاها من الخليفة أو الحجاج في العراق، كان قدوة لجنوده الذين جعلوا منه مثلاً يحتذون به، فكان قتيبة يعمل على تفعيل دور المحبة والألفة بين الجنود، وتفعيل روح الجماعة بين صفوفه العسكرية ورفع معنوياتهم حيث كان بين الجنود في المعارك ولم يتخلف عن جنوده يوماً، ولم تنه العمليات العسكرية التي قادها قتيبة على أن يتحلى بالحنكة السياسية لمواجهة المواقف الصعبة وأشدّها، وله الكثير من المواقف التي جنبت الطرفين الاقتتال وحقنت الدماء، ولا سيما أن فتوحات قتيبة بن مسلم الباهلي كانت عنيفة جداً، اقتضت من قتيبة وجنوده تضحيات جسيمة، وذلك عائد إلى اختلاف مناطق بلاد ما وراء النهر وأهلها عن الفاتحين من حيث اللغة والثقافة والبيئة والقومية، الأمر الذي تطلّب من قائد لم يتجاوز الأربعين من عمره أن يكون ذا حنكة سياسية وعسكرية يضمن من خلالها تحقيق النصر والفوز، ونشر العروبة والإسلام بحكمة لا بالإكراه والسيف، وليس كما تصورها بعض الروايات من خداع قتيبة لأهل هذه البلاد، و ما يردده المستشرقون من روايات أسطورية حول فتح هذه المدن في إقليم بلاد ما وراء النهر الذي بلغ طول حدوده ما يزيد على أربعة آلاف كيلومتر، وغدت المنطقة بكاملها مع خراسان التي قاعدتها مرو تزيد على أربعة ملايين كيلو متر مربع.

وأوضحت الدراسة أن قتيبة ذهب ضحية لذلك الصراع الدائر بين الكبار؛ فالوليد أراد تولية ابنه عبد العزيز الخلافة من بعده، وبين سليمان الذي علم بموافقة الحجاج وقتيبة لرأي الوليد بن عبد الملك، فالآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون، فحمل سليمان بن عبد الملك على قتيبة لهذا الأمر ولكن قتيبة بعد وفاة الوليد، وتسلم سليمان الحكم لم يخلع سليمان؛ بل ظل على العهد، ولكن الأزديين وممثلهم يزيد بن المهلب عدو الحجاج اللدود الذي أوغر صدر سليمان ابن عبد الملك على قتيبة الطامع بولاية خراسان، وأضف إلى ذلك أن قتيبة لم يجد سنداً من معسكره ليقفوا معه ضد يزيد الطامع بخراسان لا ضد سليمان؛ ذلك المعسكر الذي ترأسه وكيع الذي وقف ضد قتيبة، وحشد الناس ضده، وذلك عائد إلى تصفية حسابات قديمة، فقد عزله قتيبة عن رئاسة قبيلته. ومهما يكن من الأمر فقد حاولت القيسية الدفاع عن قتيبة، لكنهم كانوا عاجزين أمام تميم وأزد، فقد ساد الموقف الأحقادُ العصبيةُ الدفينةُ للحجاج ومن معه، فقتل قتيبة بن مسلم الباهلي بعد وفاة سنده الحجاج، ومن ثم وفاة الوليد، وهكذا يموت قتيبة تتوقف حركة الفتوحات العربية الإسلامية، وتتخلص الصين من دخول المسلمين إليها، ويجد بعض سكان ما وراء النهر الفرصة المناسبة للانتفاض على الحكم العربي الإسلامي.

وفي الختام سيذكر التاريخ مفتخراً بمفخرة من مفاخر العرب والمسلمين قتيبة بن مسلم الباهلي فاتح ما وراء النهر حتى حدود الصين الذي تغلب على كل الصعاب في سبيل تحقيق السيادة العربية الإسلامية ليذر بذراً لم يكن ليحصده هو؛ بل حصده الأمة بأكملها من خلال ما أنتجته من علماء تزخر كتب التراجم بذكرهم، أمثال البخاري والخوارزمي وغيرهم من العلماء الفحول كل في اختصاصه.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المصادر:

- الأبشيهي: شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م
- ١. المستطرف في كل فن مستطرف، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ابن الأثير: عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م
- ٢. الكامل في التاريخ، تح: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- ٣. أسد الغابة في معرفة الصحابة، تح: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- ٤. اللباب في تهذيب الأنساب، بيروت، دار صادر، (د.ت).
- ٥. جامع الأصول في أحاديث الرسول، تح: عبد القادر الأرناؤوط، وبشير عيون، دار الفكر، ط ١، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
- ابن الأثير: المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م
- ٦. النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- الأخفش: أبو المحاسن علي بن سليمان بن الفضل ت ٣١٥هـ/٩٢٧م
- ٧. الاختيارين المفضليات والاصمعيات، تح: فخر الدين قباوة، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- الإدريسي: محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحسني الطالبي ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م

٨. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- الأسدي: بشر بن أبي خازم ت٢٢ق.م/٥٩٨م
٩. ديوان بشر، تح: عزة حسن، منشورات وزارة الثقافة، ط٢، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
- الأصبهاني: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران ت٤٣٠هـ/١٠٣٨م
١٠. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
١١. صفة الجنة، تح: علي رضا عبد الله، دار المأمون للتراث، دمشق، د.ت.
- الاضطخري: أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي ت٣٤٦هـ/٩٥٧م
١٢. المسالك والممالك، تح: محمد جابر عبد العال الحيني، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د.ت.
- الأصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المرواني الأموي القرشي ت٣٥٦هـ/٩٦٩م
١٣. الأغاني، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط١، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.
- الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد ت٥٠٢هـ/١١٠٨م
١٤. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، دار الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- ابن الأعمش: أحمد الكوفي ت٣١٤هـ/٩٢٦م
١٥. كتاب الفتوح، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- الأعرابي: محمد بن زياد ت٢٣١هـ/٨٤٥م
١٦. أسماء الخيل وفرسانها، تح: محمد أحمد، النهضة المصرية، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.
- الأفطسي: أبو جعفر أمين الدولة محمد بن محمد بن هبة الله العلوي الحسيني

ت ٥١٥هـ/١١٢١م

- ١٧. المجموع اللفي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- ابن بابه: أحمد بن علي القاشاني بن الحائك الهمداني ت ٥١٠هـ/١١١٦م
- ١٨. رأس مال النديم في تواريخ أعيان أهل الاسلام، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- البخاري: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ت ٢٥٦هـ/٨٦٩م
- ١٩. التاريخ الكبير، محمد عبد المعيد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، د.ت.
- ٢٠. التاريخ الأوسط، تح: محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، ط ١، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
- ٢١. صحيح البخاري، تح: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- البري: محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى ت ٦٤٥هـ/١٢٥٦م
- ٢٢. الجوهرة في نسب النبي وأصحابه العشرة، علق: محمد التونجي، دار الرفاعي، الرياض، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- البزار: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م
- ٢٣. مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار، تح: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- البشيشي: جمال الدين عبد الله بن أحمد
- ٢٤. جامع التعريب بالطريق القريب، تح: نصوحي أونال قرع ارسلان، جامعة أتاتورك، ط ١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
- البعلي: محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م

٢٥. المطلع على ألفاظ المقنع، تح: محمود الأرناؤوط، ياسين محمود الخطيب، مكتبة السوادي للتوزيع، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.
- البغدادي: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م
٢٦. الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٢، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م.
- ابن بطوطة: محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م
٢٧. رحلة ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- البكجري: مغلطاي بن قليج بن عبد الله ت ٧٦٢هـ/١٣٦٠م
٢٨. إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: عادل بن محمد، أسامة بن إبراهيم، الفاروق الحديثة، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- البكري: أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد ت ٤٥٧هـ/١٠٩٤م
٢٩. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت، ط ٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.
٣٠. المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، د.م، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- البلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م
٣١. فتوح البلدان، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م
٣٢. الآثار الباقية عن القرون الخالية، تحرير: إدوارد سخاو، ليزج، ١٣٤٢هـ/١٩٢٣م.
٣٣. تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، عالم الكتب، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

- البيضاوي: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م
٣٤. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- ابن البيع: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن الحكم ت ٤٠٥هـ/١٠١٤م
٣٥. المستدرک علی الصحیحین، تح: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
- البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م
٣٦. دلائل النبوة، تح: عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- البيهقي: أبو الحسن ظهير الدين علي بن زيد بن محمد بن الحسين ت ٥٦٥هـ/١١٦٩م
٣٧. تاريخ بيهق، دار إقرأ، دمشق، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة بن موسى ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م
٣٨. سنن الترمذي، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.
- الترمذي: أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم ت ٣٢٠هـ/٩٣٢م
٣٩. نوارد الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، تح: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- ابن تغري بردي: يوسف ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م
٤٠. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، د.ت.
- التُّطيلي: بنيامين بن الرابي يونه ت ٥٦٩هـ/١١٧٣م
٤١. رحلة بنيامين، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

- التوحيدي: أبو حيان علي بن محمد بن العباس ت ٤٠٠هـ/١٠٠٩م
٤٢. البصائر والذخائر، تح: وداد القاضي، دار صادر، بيروت، ط ١،
١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- الثعالبي: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م
٤٣. التمثيل والمحاضرة، تح: عبد الفتاح محمد الحلو، الدار العربية للكتاب، ط ١،
١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ٤٤. المنتحل، تح: أحمد أبو علي، المطبعة التجارية، الإسكندرية، ١٣١٩هـ/١٩٠١م.
- ٤٥. لطائف المعارف، تح: إبراهيم الإياري، دار إحياء الكتب العربية، الأردن.
- ٤٦. ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- الجاحظ: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني ت ٢٥٥هـ/٨٦١م
٤٧. رسائل الجاحظ، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة،
١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- ٤٨. التاج في أخلاق الملوك، تح: أحمد زكي باشا، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط ١،
١٣٣٢هـ/١٩١٤م.
- ٤٩. الحيوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- ٥٠. المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- ٥١. البخلاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط ٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ٥٢. البيان والتبيين، دار الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- ابن الجعد: علي ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م
٥٣. مسند ابن الجعد، تح: عامر أحمد حيدر، مؤسسة نادر، بيروت، ط ١،
١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- الجواليقي: أبو منصور موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن ت ٥٤٠هـ/١١٤٥م

٥٤. المغرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، تح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب، ط٢، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
٥٥. شرح أدب الكاتب لابن قتيبة، تق: مصطفى الرافي، دار الكتاب العربي، بيروت.
٥٦. كتابان في الخيل، تح: نوري الفيسي، وحاتم الضامن، عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- ابن الجوزي: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م
 - ٥٧. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
 - ٥٨. صفوة الصفوة، تح: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
 - ٥٩. تاريخ عمر بن الخطاب، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٤م.
 - ابن حبان: محمد ت٧٣٩هـ/١٣٣٨م
 - ٦٠. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
 - ابن حبيب: أبو جعفر البغدادي محمد بن أمية بن عمرو ت٢٤٥هـ/٨٥٩م،
 - ٦١. المحبر، تح: إيلزة ليختن شتير، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
 - ابن حجر: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م
 - ٦٢. الإصابة في تمييز الصحابة، تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
 - ٦٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي ومحب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.
 - الحدادي: زين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين ت١٠٣١هـ/١٦٢١م.

٦٤. التيسير بشرح الجامع الصغير، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٦٥. فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ٧٥٧هـ/١٣٥٦م.
- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م
 - ٦٦. جمهرة أنساب العرب، تح: لجنة من العلماء، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
 - الحصري: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري ت ٤٥٣هـ/١٠٦١م
 - ٦٧. زهر الآداب وثمر الألباب، دار الجيل، بيروت، د.ت.
 - ابن حمدون: محمد بن الحسن بن محمد بن علي ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م
 - ٦٨. التذكرة الحمدونية، التذكرة الحمدونية، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
 - الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م
 - ٦٩. معجم البلدان، دار صادر، ط٢، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
 - الحميري: نشوان بن سعيد ت ٥٧٣هـ/١١٧٧م
 - ٧٠. شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تح: حسين العمري وآخرون، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
 - ٧١. خلاصة السير الجامعة لعجائب أخبار الملوك التابعة، تح: علي بن إسماعيل المؤيد، إسماعيل بن أحمد الجرافي، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م.
 - الحميري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م
 - ٧٢. الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، دار السراج، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.

- ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد ت ٢٤١هـ/٨٥٥م
٧٣. مسند الإمام أحمد بن حنبل، تح: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- ٧٤. فضائل الصحابة، تح: وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ابن حوقل: أبو القاسم محمد ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م
٧٥. صورة الأرض، صورة الأرض، دار صادر، بيروت، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.
- ابن خرداذبه: عبيد الله بن عبد الله ت ٢٨٠هـ/٨٩٣م
٧٦. المسالك والممالك، المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، ١٣٠٧هـ/١٨٨٩م.
- الخطابي: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي ت ٣٨٨هـ/٩٩٨م
٧٧. غريب الحديث، تح: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- الخطفي: جرير ت ١١٤هـ/٧٣٢م
٧٨. ديوان جرير، دار صادر، بيروت، د.ت.
- الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م
٧٩. تاريخ بغداد، تح: بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- ٨٠. المتفق والمفترق، تح: محمد صادق آيدن الحامدي، دار القادري، دمشق، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- الخلال: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد ت ٣١١هـ/٩٢٣م
٨١. السنة، تح: عطية الزهراني، دار الراية، الرياض، ط ١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م
٨٢. ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م
 - ٨٣. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
 - الخوارزمي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م
 - ٨٤. مفاتيح العلوم، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، د.ت.
 - ابن خياط: أبو عمرو خليفة ت ٢٤٠هـ/٨٥٤م
 - ٨٥. تاريخ خليفة بن خياط، تح: أكرم ضياء العمري، دار القلم، دمشق، ط ٢، ١٣٩٧هـ/١٩٧٦م.
 - أبو داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو ت ٢٧٥هـ/٨٨٨م
 - ٨٦. سنن أبي داود، تح: شعيب الأرناؤوط و محمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، بيروت، ط ١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
 - ابن دريد: أبو بكر محمد بن الحسن ت ٣٢١هـ/٩٩٣م
 - ٨٧. الاشتقاق، عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
 - ٨٨. جمهرة اللغة، تح: رمزي بعلبكي، دار العلم والملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- الدمشقي: جعفر بن علي (من علماء القرن السادس الهجري)
٨٩. الإشارة إلى محاسن التجارة وغشوش المدلسين فيها، تق: محمود الأرناؤوط، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

- الدميري: أبو البقاء محمد بن موسى بن عيسى بن علي ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م
- ٩٠. حياة الحيوان الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- الدينوري: أبو حنيفة أحمد بن داود ت ٢٨٢هـ/٨٩٥م
- ٩١. الأخبار الطوال، تح: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب، القاهرة، ط١، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.
- الدينوري: عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م
- ٩٢. الشعر والشعراء، بيروت، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
- الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م
- ٩٣. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المكتبة التوفيقية، د. م، د. ت.
- ٩٤. العبر في خبر من غير، تح: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- ٩٥. سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- الرازي: منصور بن الحسين ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م
- ٩٦. نثر الدر في المحاضرات، تح: خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
- الرازي: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ت ٦٦٦هـ/١٢٦٧م
- ٩٧. مختار الصحاح، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط٥، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م
- ٩٨. اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تح: علي سامي النشار، دار الكتب العلمية،

بيروت، د.ت.

- ابن رسته: أحمد بن عمر
٩٩. الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ليدن، ١٣٠٩هـ/١٨٩١م.
- الزبيدي: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني ت ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م
١٠٠. تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.م.
- ابن الزبير: مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت بن عبد الله ت ٢٣٦هـ/٨٥٠م
١٠١. نسب قريش، تح: ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، د.ت.
- الزجاج: أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل ت ٣١١هـ/٩٢٣م
١٠٢. معاني القرآن وإعرابه، تح: عبد الجليل عبده شلي، عالم الكتب، بيروت، ط ١،
١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- الزمخشري: جار الله ت ٥٨٣هـ/١١٤٣م
١٠٣. ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط ١،
١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م
١٠٤. الطبقات الكبرى، تح: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة،
ط ٢، ١٤٠٨هـ/١٩٨٢م.
- ابن سعيد الأندلسي ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م
١٠٥. نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، نصرت عبد الرحمن، مكتبة الأقصى،
عمان، د.ت.
- ابن السكيت: يعقوب بن إسحاق ت ٢٤٤هـ/٨٥٨م
١٠٦. الكنز اللغوي في اللسن العربي، تح: أوغست هفتر، مكتبة المتنبي، القاهرة،
د.ت.

- السمعاني: عبد الكريم بن محمد بن منصور ت ٥٦٢هـ/١١٦٦م
١٠٧. الأنساب، تح: عبد الرحمن بن يحيى وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد ط ١، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
- ابن سيد الناس: محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م
١٠٨. عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، تح: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ابن سيده: أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسى ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م
١٠٩. المحكم والمحيط الأعظم، تح: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ابن سيرين: محمد ت ١١٠هـ/٧٢٨م
١١٠. تفسير الأحلام، مطبعة مصطفى البابي، ١٣٥٩هـ/١٩٤٠م.
- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين ت ٩١١هـ/١٠٥٠م
١١١. لب اللباب، دار صادر، بيروت، د. ت.
١١٢. إسعاف المبطل برجال الموطأ، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د. ت.
١١٣. تاريخ الخلفاء، تح: حمدي الدمرداش، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
١١٤. الشمال الشريفة، تح: حسن بن عبيد باحيشي، دار طائر العلم، د. ت.
١١٥. الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة، تح: محمد بن لطفي الصباغ، جامعة الملك سعود، الرياض، د. ت.
- أبو شامة: أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م
١١٦. عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: إبراهيم الزبيق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

- ابن الشمائل: عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ت ٧٣٩هـ/١٣٣٨م
١١٧. مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت ط ١،
١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد ت ٥٤٨هـ/١١٥٣م
١١٨. الملل والنحل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- الشيباني: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد ت ٢٨٧هـ/٩٠٠م
١١٩. الآحاد والمثاني، تح: باسم فيصل أحمد الجوابرة، دار الراية، الرياض،
ط ١٤١١هـ/١٩٩١م.
- ابن أبي شيبعة: عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م
١٢٠. المصنف في الأحاديث والآثار، تح: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض،
ط ١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- شيخ الربوة: محمد أبي طالب ت ٧٢٧هـ/١٣٢٧م
١٢١. نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مطبعة الاكاديمية الإمبراطورية، بطربورغ،
١٢٨٢هـ/١٨٦٥م.
- الصابي: هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م
١٢١- رسوم دار الخلافة، تح: ميخائيل عواد، دار الرائد العربي، بيروت، ط ٢،
١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م
١٢٢. الوافي بالوفيات، تح: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت،
١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- ١٢٣. الشعور بالعمور، عبد الرزاق حسين، دار عمار، الأردن، ط ١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
- ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عاصم القرطبي

ت٤٦٣هـ/١٠٧٠م

١٢٤. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١،

١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

١٢٥. القصد والأتم في التعريف بأصول أنساب العرب والعجم، مطبعة السعادة،

القاهرة، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.

١٢٦. بهجة المجالس وأنس المجالس، دار القلم، بيروت، د.ت.

• ابن عبد ربه: أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن

سالم ت٣٢٨هـ/٩٣٩م

١٢٧. العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

• عبد الواحد المراكشي: محي الدين بن علي التميمي ت٦٤هـ/١٢٧٥م

١٢٨. المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر

الموحدين، تح: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، ط١،

١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.

• ابن العبري: غريغوريوس بن أهرون بن توما الملطي ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م

١٢٩. تاريخ مختصر الدول، تح: أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت، ط٣،

١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

• العجلي: أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح ت٢٦١هـ/٨٧٤م

١٣٠. معرفة الثقات من رجال أهل العلم والحديث ومن الضعفاء وذكر مذاهبهم

وأخبارهم، تح: عبد العليم عبد العظيم البستوي، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط١،

١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

• ابن العديم: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي ت٦٦٠هـ/١٢٦١م

١٣١. بغية الطلب في تاريخ حلب، تح: سهيل زكار، دار الفكر، دمشق.

ابن العربي: أبو بكر ت ٥٤٣هـ/١١٤٩م

١٣٢. العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه

وسلم، تح: محب الدين الخطيب، الدوحة، ط ٢، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

• العزيزي: الحسن بن أحمد المهلب ت ٣٨٠هـ/٩٩٠م

١٣٣. المسالك والممالك، جمعه: تيسير خلف، د.م، د.ت.

• ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ت ٧٥١هـ/١١٧٥م

١٣٤. تاريخ دمشق، تح: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، دمشق، ١٤١٥هـ/

١٩٩٥م.

• العسكري: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران

ت ٣٩٥هـ/١٠٠٤م

١٣٥. الفروق اللغوية، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم، القاهرة، د.ت.

• العصامي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك ت ١١١١هـ/١٦٩٩م

١٣٦. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تح: عادل أحمد عبد الموجود،

علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

• ابن العماد: عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م

١٣٧. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق،

ط ١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

• العمري: أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م

١٣٨. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبو ظبي،

١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

• الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد ت ٥٠٥هـ/١١١١م

١٣٩. التبر المسبوك في نصيحة الملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ/

١٩٨٨م.

- ١٤٠. إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٤م.
- الطائي: حبيب بن أوس بن الحارث أبو تمام ت ٢٣١هـ/٨٤٦م
- ١٤١. ديوان أبي تمام، تح: محمد عزام، دار المعارف، مصر، ط ٣، د.ت.
- الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي ت ٣٦٠هـ/٩٧٠م
- ١٤٢. المعجم الأوسط، تح: طارق بن محمد، عبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، د.ت.
- ١٤٣. المعجم الكبير، تح: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- الطبري: محمد بن جرير بن يزيد ت ٣١٠هـ/٩٢٢م
- ١٤٤. تاريخ الرسل والملوك، دار التراث، بيروت، ط ٢، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- ابن الطقطقي: محمد بن علي بن طباطبا ت ٧٠٩هـ/١٣٠٩م
- ١٤٥. الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تح: عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧.
- ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي بن خمارويه ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م
- ١٤٦. إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين، تح: محمود الأرناؤوط، الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- الفارابي: أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين ت ٣٥٠هـ/٩٦١م
- ١٤٧. معجم ديوان الأدب، تح: دكتور أحمد مختار عمر، مؤسسة دار الشعب، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- الفارابي: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري ت ٣٩٣هـ/١٠٠٢م
- ١٤٨. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم

- للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ت٧٣٢هـ/١٣٣١م
- ١٤٩. المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية، مصر، ط١، د.ت.
- الفراهيدي: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم ت١٧٠هـ/٧٨٦م
- ١٥٠. العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار الهلال، بيروت.
- الفردوسي:
- ١٥١. الشاهنامه ملحمة الفرس الكبرى، تر: سمير مالطي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م.
- الفرزدق: همام بن غالب بن صعصعة ت١١٤هـ/٦٤١م
- ١٥٢. ديوان الفرزدق، تق: علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- الفسوي: يعقوب بن سفيان بن جوان ت٢٧٧هـ/٨٩٠م
- ١٥٣. المعرفة والتاريخ، تح: أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ابن فضال: أحمد ت٣١٠هـ/٩٢٢م
- ١٥٤. رحلة ابن فضال إلى بلاد الترك والروس والصقالبة، دار السويدي، أبو ظبي، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- ابن الفقيه: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق الهمداني ت٣٦٥هـ/٩٧٥م
- ١٥٥. البلدان، تح: يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب ت٨١٧هـ/١٤١٤م
- ١٥٦. القاموس المحيط، تح: محمد العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨،

- ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- الفيومي: أحمد بن محمد بن علي ت ٧٧٠هـ/١٣٦٨م
 - ١٥٧. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المكتبة العلمية، بيروت، د.ت.
 - القاري: علي بن سلطان محمد ت ١٠١٤هـ/١٦٠٥م
 - ١٥٨. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت، ط ١،
 - ١٤٢٢هـ/٢٠٠٠م.
 - ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦هـ/٨٨٩م
 - ١٥٩. عيون الأخبار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
 - ١٦٠. الإمامة والسياسة، تح: علي شيري، دار الأضواء، ط ١، بيروت،
 - ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
 - ١٦١. المعارف، تح: ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢،
 - ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
 - ١٦٢. غريب القرآن، تح: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
 - القرشي: أبو زيد محمد بن أبي الخطاب ت ١٧٠هـ/٧٨٦م
 - ١٦٣. جمهرة أشعار العرب، تح: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة، القاهرة،
 - د.ت.
 - القرطبي: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م
 - الاستذكار، تح: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، دار الكتب العلمية،
 - بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
 - القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح ت ٦٧١هـ/١٢٧٢م
 - ١٦٥. الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار
 - الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

- القرماني: أحمد بن يوسف ت ١٠١٩هـ/١٦١٠م
- ١٦٦. أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تح: فهمي سعد وأحمد حطيط، بيروت، عالم الكتب، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
- القزويني: أبو القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم الرافي ت ٦٢٣هـ/١٢٢٦م
- ١٦٧. التدوين في أخبار قزوين، تح: عزيز الله العطاردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- القزويني: زكريا بن محمد بن محمود ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م
- ١٦٨. آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت.
- القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد الفزاري ت ٨٢١هـ/١٤١٥م
- ١٦٩. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- ١٧٠. قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تح: إبراهيم الإياري، دار الكتاب المصري، مصر، ط ٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- ١٧١. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تح: إبراهيم الإياري، دار الكتاب اللبنانيين، بيروت، ط ٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- ابن القيم: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ت ٧٥١هـ/١٣٥٠م
- ١٧٢. إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تح: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، د. ت.
- الكاشغري: محمود بن الحسين بن محمد ت ٤٦٦هـ/١٠٧٣م
- ١٧٣. ديوان لغات الترك، مطبعة عامرة، دار الخلافة العلية، ١٣٣٥هـ/١٩١٦م.
- الكتاب المقدس:
- ١٧٤. سفر التكوين، الاصحاح الخامس، بيروت، ١٩٠٣م.
- كبريت: محمد بن عبد الله بن محمد ت ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م

١٧٥. رحلة الشتاء والصيف، تح: محمد الطنطاوي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

• ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م

١٧٦. البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

١٧٧. السيرة النبوية، تح: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ/١٩٧٦م.

• الكرديزي: أبوسعيد عبد الحي بن الضحاك بن محمود ت ٤٤٣هـ/١٠٤١م

١٧٨- زين الاخبار، تر: عفاف السيد زيدان، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

• الكرمي: مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد ت ١٠٣٣هـ/١٦٢٣م

١٧٩- مسبوكة الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب، تح: نجم عبد الرحمن خلف، مكتبة الرشيد، الرياض، ط ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

• كشاجم: محمود بن الحسين ت ٣٦٠هـ/٩٧١م

١٨٠. ديوان كشاجم.

• الكشي: أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر ت ٢٤٩هـ/٨٦٣م

١٨١. المنتخب من مسند عبد بن حميد، تح: صبحي البدر السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السنة، القاهرة، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

• ابن الكلبي: أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب ت ٢٠٤هـ/٨١٩م

١٨٢. جمهرة النسب، تح: محمود فردوس العظم، تق: سهيل زكار، دار اليقظة العربية، ط ٢، دمشق، ١٩٨٣م.

١٨٣. أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها، تح: حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

- اللقاني: أبو الإمداد إبراهيم بن حسن ت ١٠٤١هـ/١٦٣١م
١٨٤. بَهْجَةُ الْمُحَافِلِ وَأَجْمَلُ الْوَسَائِلِ بِالْتَعْرِيفِ بِرِوَاةِ الشَّمَائِلِ، تح: شادي بن سالم آل نعمان، مركز النعمان، اليمن، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠١١م.
- الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م
١٨٥. أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.
- المبرد: محمد بن يزيد ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م
١٨٦. الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- المرزباني: أبو عبيد الله محمد بن عمران ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م
١٨٧. معجم الشعراء، تح: ف. كرنكو، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- المرزوقي: أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م
١٨٨. شرح ديوان الحماسة، تح: غدير الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- المروزي: شرف الزمان طاهر ت بعد ٥١٨هـ/١١٢٤م
١٨٩. طبائع الحيوان (أبواب في الصين والترك والهند)، تر: فلاديمير مينورفسكي، ١٣٦١هـ/١٩٤٢م.
- المزني: جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف ت ٧٤٢هـ/١٣٤١م
١٩٠. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- ابن المستوفي: المبارك بن أحمد بن المبارك بن موهوب اللخمي ت ٦٣٧هـ/١٢٢٩م
١٩١. تاريخ إربل، تح: سامي بن سيد خماس الصقار، دار الرشيد، العراق،

- ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.
- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م
١٩٢. مروج الذهب ومعادن الجوهر، المكتبة العصرية، بيروت، ط ١،
١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.
 - ١٩٣. أخبار الزمان ومن أباداه الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار
الأندلس، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
 - ١٩٤. التنبيه والإشراف، تح: عبدالله الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، د. ت.
 - مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م
١٩٥. تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تح: أبو القاسم إمامي، سروش، طهران،
١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
 - ابن معظم شاه: محمد أنور شاه ت ١٣٥٣هـ/١٩٣٤م
١٩٦. فيض الباري على صحيح البخاري، تح: محمد بدر عالم الميرتهبي، دار الكتب
العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
 - المطرزي: أبو الفتح ناصر الدين ت ٦١٠هـ/١٢١٣م
١٩٧. المغرب في تاريخ المغرب، تح: محمود فاخوري، عبد الحميد مختار، مكتبة أسامة
بن زيد، حلب، ط ١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
 - المقدسي: أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري
١٩٨. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار صادر، بيروت، مكتبة مدبولي القاهرة،
ط ٣، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
 - المقدسي: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج
ت ٧٦٣هـ/١٣٦١م
١٩٩. الآداب الشرعية والمنح المرعية، عالم الكتب، د. ت.

- المقدسي: ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد ت ٦٤٣هـ/١٢٤٥م
٢٠٠. الأحاديث المختارة، تح: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، دار خضر، بيروت، ط ٣، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- المقدسي: المطهر بن طاهر ت ٣٥٥هـ/٩٦٥م.
٢٠١. البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، د.ت.
- المقرئ: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي
ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م
٢٠٢. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- الملطي: أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ت ٣٧٧هـ/٩٨٧م
٢٠٣. التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تح: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، د. ت.
- المنجم: إسحاق بن الحسين ت ٤هـ/العاشر م
٢٠٤. آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي ت ٧١١هـ/١٣١١م
٢٠٥. مختصر تاريخ دمشق، تح: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطي، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٤م.
- ٢٠٦. لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط ٣، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ابن المنقذ: أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر
ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م
٢٠٧. لباب الآداب، تح: أحمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، ط ٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- مؤلف مجهول ت ٣٧٢هـ/٩٨٢م
- ٢٠٨. حدود العالم من المشرق إلى المغرب، تر: السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- الميداني: أحمد بن محمد بن إبراهيم، ت ٥١٨هـ/١١٢٤م
- ٢٠٩. مجمع الأمثال، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط ٢، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م.
- ابن نباته: جمال الدين ت ٧٦٨هـ/١٣٦٧م
- ٢١٠. سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، د. ت.
- ابن النديم: أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد الوراق ت ٤٣٨هـ/١٠٤٦م
- ٢١١. الفهرست، تح: إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- الترشيحي: أبو بكر محمد بن جعفر ت ٣٤٨هـ/٩٥٩م
- ٢١٢. تاريخ بخارى، تر: أمين بدوي، ونصر الله الطرازي، دار المعارف، القاهرة، ط ٣، د. ت.
- ابن نما الحلبي: أبو البقاء هبة الله محمد ت ٦٠هـ/١٢م
- ٢١٣. المناقب المزيديّة في أخبار الملوك الأسديّة، تح: محمد عبد القادر خريسات، صالح موسى درادكة، مكتبة الدراسة الحديثية، عمان، ط ١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
- النووي: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف ت ٦٧٦هـ/١٢٧٧م
- ٢١٤. تحرير ألفاظ التنبيه، تح: عبدالعزيز الدقر، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- ٢١٥. دقائق المنهاج، تح: إياد أحمد الغوج، دار ابن حزم، بيروت، د. ت.
- النويري: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م

٢١٦. نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠١م.
- النيسابوري: أبو الحسن مسلم بن الحجاج ت ٢٦١هـ/٨٧٤م
٢١٧. صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- الهرثمي: صاحب المأمون
٢١٨. مختصر سياسة الحروب، تح: عبد الرؤوف عون، المؤسسة المصرية العامة، د.ت.
- الهروي: محمد بن أحمد بن الأزهري ت ٣٧٠هـ/٩٨٠م
٢١٩. تهذيب اللغة، تح: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- الهروي: علي بن أبي بكر بن علي ت ٦١١هـ/١٢١٤م
٢٢٠. الإشارات إلى معرفة الزيارات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- الهروي: علي بن سلطان محمد أبو الحسن نور الدين الملات ١٠١٤هـ/١٦٠٥م
٢٢١. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- ابن هشام: عبد الملك ت ٢١٣هـ/٨٢٨م
٢٢٢. السيرة النبوية لابن هشام، تح: مصطفى السقا وآخرون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.
- الهمداني: أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمي ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م
٢٢٣. الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، تح: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

٢٢٤. عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب، تح: عبد الله كنون، المطابع الأميرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

• الهمذاني: رشيد الدين فضل الله

٢٢٥. جامع التواريخ، تر: محمد صادق وآخرون، دار إحياء الكتب العربي، د. ت.

• الهيثمي: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م

٢٢٦. مجمع الزوائد ومنيع الفوائد، تح: حسين سليم أسد الداراني، دار المأمون، د. ت.

• الواقدي: محمد بن عمر بن واقد السهمي ت ٢٠٧هـ/٨٢٢م

٢٢٧. فتوح الشام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

• ابن الوردي: سراج الدين أبو حفص عمر بن المظفر ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م

٢٢٨. خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تح: أنور محمود زناتي، جامعة عين شمس، مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.

٢٢٩. تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

• الوشاء: أبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى ت ٣٢٥هـ/٩٣٦م

٢٣٠. الظرف والظرفاء، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، مصر، ط ٢، ١٣٧١هـ/١٩٥٣م.

• الياضي: أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م

٢٣١. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

• اليزيدي: أبو عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبي محمد بن المبارك ت ٣١٠هـ/٩٢٢م

٢٣٢. الأمالي، مطبعة جمعية دائرة المعارف، حيدر آباد الدكن، الهند، ط ١، ١٣٩٧هـ/١٩٣٨م.

٢٣٣. البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
٢٣٤. تاريخ اليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
- اليعقوبي: أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح ت ٢٩٢هـ/٩٠٤م
 - اليوسي: الحسن بن مسعود بن محمد ت ١١٠٢هـ/١٦٩٠م
٢٣٥. زهر الأكم في الأمثال والحكم، تح: محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الثقافة، المغرب، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

ثالثاً: المراجع العربية:

١. أحمد: جمال رشيد، ظهور الكرد في التاريخ، مطبعة وزارة التربية، اربيل، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
٢. أحمد: غزوة شهاب، الحركة الفكرية في إقليم خراسان، دار جليس الزمان، عمان، ٢٠١٤.
٣. الأسد: ناصر الدين، مصادر الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط٧، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.
٤. الأعظمي: دراسات في اليهود والمسيحية وأديان الهند، الرشيد، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
٥. الألوسي: محمود شكري، السيوف المشرقة ومختصر الصوابع المحرقة للعلامة الشيخ نصر الدين، تح: مجيد الخليفة، مكتبة الإمام البخاري، القاهرة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٦. أمين: أحمد، فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١٠، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
٧. الأنبا إيسيدورس: الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة، طبع في المحرق، بدير

- العدراء مريم من قبل القمص عطالله أرسانيوس.
٨. البار: محمد علي، أفغانستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو الروسي، د.م، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
٩. كيف أسلم المغول، دار الفتح للدراسات والنشر، الأردن، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
١٠. الباشا: حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والأخبار، النهضة المصرية، القاهرة، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
١١. بدوي: أمين عبد المجيد، القصة في الادب الفارسي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
١٢. البلادي: عاتق بن غيث بن زوير بن زاير، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، دار مكة، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
١٣. البنجوردي: كاظم الموسوي، دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، مركز دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، طهران، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
١٤. بيسون: إبراهيم، من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
١٥. تركماني: أسامة أحمد، تاريخ الأتراك والتركمان، دار الإرشاد، دمشق، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
١٦. الثامري: إحسان ذنون، الحياة العلمية لخراسان وبلاد ما وراء النهر في القرنين الثالث والرابع للهجرة، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
١٧. الجاسر: حمد، باهلة القبيلة المفترى عليها، دار اليمامة، الرياض، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
١٨. الجاف: حسن كريم، الوجيز في تاريخ إيران، مطبعة بيت الحكمة، بغداد،

- ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
١٩. الجنابي: خالد جاسم، تنظيمات الجيش العربي الإسلامي، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الإعلام، بغداد، د.ت.
٢٠. الجندي: أنور، الإسلام وحركة التاريخ، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.
٢١. الجهني: مانع بن حماد، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار الندوة العالمية، الرياض، ط٤، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٢٢. جودة: محمد، عباقرة علماء الحضارة العربية والإسلامية، مكتبة الأسرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.
٢٣. الجويني: عطا ملك، تاريخ فاتح العالم، تح: السباعي محمد السباعي المركز القومي للترجمة، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
٢٤. جيون: إدوارد: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، مر: أحمد نجيب هاشم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ط٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٢٥. الحديثي: قحطان عبد الستار، أرباع خراسان، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة البصرة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
٢٦. حسنين: عبد النعيم محمد، قاموس الفارسية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
٢٧. خصباك: شاكر، الأكراد دراسة جغرافية انثوغرافية، مطبعة شفيق، بغداد، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
٢٨. الخضري بك، محمد: محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية، مطبعة الاستقامة، ط٤، القاهرة، ١٣٥٤هـ/١٩٣٤م.
٢٩. خطاب: محمود شيث، قادة الفتح الإسلامي في بلاد ما وراء النهر، دار ابن حزم،

- بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.
٣٠. خطاب: محمود شيث، قادة فتح بلاد فارس، دار الفتح، بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
٣١. خلف: محمود محمد، الفتح الإسلامي لبلاد ما وراء النهر، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
٣٢. أبو خليل: شوقي، فتح سمرقند، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٣٣. خياطة: نهاد: الفرق والمذاهب المسيحية منذ البدايات حتى ظهور الإسلام، دار الأوائل.
٣٤. دحلان: أحمد بن السيد زيني، الفتوحات الإسلامية، المطبعة الميرية، مكة، ١٣٠٢هـ/١٨٨٤م.
٣٥. رمضان: حميد السيد، الأوزان والمقاييس والمكاييل عند العرب المسلمين، دار الملاح، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
٣٦. ريحان: إصلاح عبد الحميد، الفتح الإسلامي لمدينة كابول، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
٣٧. الزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الاعلام، دار العلم للملايين، ط١٥، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
٣٨. زغلول: عبد الحميد سعد، الإسلام والترك في العصر الإسلامي الوسيط، عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.
٣٩. أبو زهرة: محمد، مقارنات الديانات، معهد الدراسات الإسلامية، د. م، د. ت
٤٠. زكار: سهيل، المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والفرق والطوائف والنحل. . . ، دار الكتاب العربي، دمشق، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٤١. الزكي: عبد العزيز محمد، قصة بوذا، مؤسسة المطبوعات الحديثة، د. م، د. ت.

٤٢. زناتي: أنور محمود، موسوعة تاريخ العالم تاريخ العرب والمسلمين منذ ظهور الإسلام وحتى العصر المعاصر، د.م، د.ت.
٤٣. زيادة: محمود، الحجاج بن يوسف الثقفي المفترى عليه، دار السلام، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
٤٤. الساداتي: أحمد محمود، تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
٤٥. السحمراني: أسعد، ترجمان الأديان، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
٤٦. سعداوي: نظير حسان، نظام البريد في الدولة الإسلامية، دار مصير للطباعة، مصر، ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م.
٤٧. السعدي: طارق خليل، مقارنة الأديان، دار العلوم العربية، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.
٤٨. السقار: منقذ محمود، الله جلّ جلاله واحد أم ثلاثة؟، سلسلة الهدى والنور دار الإسلام، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
٤٩. سلطان: طارق فتحي، انتشار الإسلام في آسيا، دار الفكر، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠١٠م.
٥٠. سهيل: زكار، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، دمشق، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
٥١. شاكر: محمود، تركستان الشرقية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
٥٢. موسوعة الفتوحات الإسلامية، دار أسامة، عمان، ط١، ٢٠٠٣م.
٥٣. التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، ط٧، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
٥٤. شاهين: حمدي، الدولة الأموية المفترى عليها، دار الكتاب، القاهرة،

- ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
٥٥. شلبي: أحمد، أديان الهند الكبرى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط ١١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
٥٦. الصالح: صبحي، فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت.
٥٧. شيخ علي: محمد علي، كشف اصطلاحات الفنون، دار صادر، بيروت، د.ت.
٥٨. شير: السيد أدي، الألفاظ الفارسية المعربة، دار العرب، القاهرة، ط ٢، ١٩٨٨م.
٥٩. شيركوه: بله، ماضي الأكراد وحاضرهم، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م.
٦٠. الصلابي: علي محمد محمد، تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
٦١. الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، دار المعرفة، بيروت، ط ٢، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٦٢. معاوية بن أبي سفيان - شخصيته وعصره، دار الأندلس الجديدة، مصر، ط ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٦٣. ضياء الدين: الرئيس، عبد الملك بن مروان موحد الدولة، دار الثقافة، القاهرة، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
٦٤. العبد: عبد الرحمن يوسف، ذو القرنين، دار البشير، القاهرة.
٦٥. عبد اللطيف: عبد الشافي محمد، العالم الإسلامي في العصر الأموي دراسة سياسية، دار السلام، ط ١، القاهرة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٦٦. السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
٦٧. عبدالله: جهاد عزت، دور العرب الحضاري في سمرقند من الفتح العربي، بغداد، كلية الآداب، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

٦٨. عبد القادر: حامد، زرادشت الحكيم؛ نبي قدامى الإيرانيين، مركز الإنماء الحضاري، قطر، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
٦٩. بوذا الأكبر حياته وفلسفته، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٥٧م.
٧٠. عبد المنعم: ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، الانجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م.
٧١. أبو عبيدة: طه عبد المقصود عبد الحميد، موجز عن الفتوحات الإسلامية، دار النشر للجامعات، القاهرة، د. ت.
٧٢. عثمان: شوقي عبد القوي: تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، عدد ١٥١، الكويت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.
٧٣. العسلي: بسام، قتيبة بن مسلم الباهلي، دار النفائس، بيروت، ط٤، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
٧٤. عصفور: محمد أبو المحاسن، معالم حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
٧٥. عطوان: حسين، الشعر في خراسان من الفتح إلى نهاية العصر الأموي، دار الجيل، ط٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
٧٦. عطية الله: أحمد، القاموس الإسلامي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.
٧٧. علي: جاسم صكبان، تاريخ صدر الإسلام والخلافة الأموية، دار الفكر، عمان، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.
٧٨. علي: جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقى، د. ت، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٥م.
٧٩. العلي، صالح أحمد: التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن

- الأول الهجري، دار الطليعة، ط٢، بيروت، ١٩٦٩م.
٨٠. عماش: صالح مهدي: قتيبة بن مسلم الباهلي وحركات جيش المشرق الشمالي فيما وراء النهر، منشورات وزارة الثقافة، العراق، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م.
٨١. عمايرة: إسماعيل أحمد، المستشرقون والمناهج اللغوية، دار حنين، الأردن، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٨٢. عمر: فاروق، الإدارة العربية لبلاد فارس في القرن الأول الهجري، مجلة الرسالة الإسلامية، الدار العربية، بغداد، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
٨٣. العمري: أكرم ضياء، عصر الخلافة الراشدة، العبيكان الرياض، د.ت.
٨٤. عوض: سامي، معجم المصطلحات العسكرية، دار أسامة، الأردن، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٨٥. غربال: محمد شفيق وآخرون، الموسوعة العربية الميسرة، دار النهضة، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.
٨٦. الغزي: كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى، نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم، حلب، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٨٧. طقوش: محمد سهيل، تاريخ الخلفاء الراشدين الفتوحات والإنجازات السياسية، دار النفائس، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
٨٨. الطيبي: عمر، قورش، دار التعاونية، د.م، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.
٨٩. فايد: يوسف عبد المجيد، جغرافية المناخ والنبات، دار النهضة العربية، مصر، د.ت.
٩٠. فروخ: عمر، العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، دار التجاري، بيروت، ط١، ١٣٨٧هـ/١٩٥٩م.
٩١. تجديد التاريخ في تعليقه وتدوينه، دار الباحث، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.

٩٢. فيصل: شكري، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، دار العلم، بيروت، ط٣، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
٩٣. المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.
٩٤. القاسمي: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، محاسن التأويل، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
٩٥. القحطاني: سعيد بن علي بن وهف، أبراج الزجاج في سيرة الحجاج، د.م، د.ت.
٩٦. القطوري: الصفصافي أحمد: إطلالة على ثقافة الترك وحضارتهم القديمة، النسر الذهبي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
٩٧. الكايد: أحمد، المجوسية، البحرين، المطبعة الشرقية، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
٩٨. كتابجي: زكريا، الترك في مؤلفات الجاحظ ومكانتهم في التاريخ الإسلامي، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
٩٩. كحالة: عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
١٠٠. كرد علي: محمد بن عبد الرزاق بن محمّد، خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
١٠١. كفاي: محمد عبد السلام، في أدب الفرس وحضارتهم، دار النهضة، بيروت، ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.
١٠٢. كمال: أحمد عادل، الجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى، دار السلام، مصر، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
١٠٣. محمد بن: محمد محمود، الفراء: طه عثمان، المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة، دار المريخ، ط٤، مصر، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

١٠٤. محمود: حسن أحمد، الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي، دار الفكر العربي، د.ت.
١٠٥. المدني: عباس بن محمد بن أحمد بن السيد رضوان، مختصر فتح رب الأرباب بما أهمل في لب اللباب من واجب الأنساب، مطبعة المعاهد، مصر، ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م.
١٠٦. المغلوث: سامي بن عبدالله بن أحمد، أطلس الأديان، العبيكان، الرياض، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
١٠٧. مظهر: سليمان، قصة الديانات، مكتبة مدبولي، مصر، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
١٠٨. ملحم: محمد فيصل، صفحات من تاريخ الدولة الأموية والأندلس، دار الفحاء، دمشق، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
١٠٩. مؤنس: حسين، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
١١٠. الإسلام الفاتح، الزهراء، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
١١١. ندا: طه، دراسات في الشاهنامة، دار الطالب، الإسكندرية، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.
١١٢. الندوي: علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت.
١١٣. أبو النصر: عمر، سيوف أمية في الحرب والإدارة، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.
١١٤. نومسوك: عبد الله مصطفى، البوذية تاريخها وعقائدها، مكتبة أضواء، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
١١٥. نيكتين: باسيل، الأكراد، دار الروائع، بيروت، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.
١١٦. هويدي: فهمي، الإسلام في الصين، عالم المعرفة، الكويت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

١١٧. واكيم: سليم، إيران والعرب والعلاقات العربية الإيرانية عبر التاريخ، مكتبة واكيم، بيروت، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
١١٨. وافي: علي عبد الواحد، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، مكتبة النهضة، مصر، ط١، ١٩٨٤هـ/١٩٦٤م.
١١٩. يحيى: أسامة عدنان، تاريخ الشرق الأدنى القديم، آشور بانيبال للكتاب، بغداد، ط١، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

رابعاً: المراجع المعربة:

- ١- أرنولد: سير توماس. ه، الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، تر: حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، إسماعيل البحراوي، مكتبة النهضة المصري، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ٢- إنجيل بوذا: تر: عيسى سابا، صادر، بيروت، ١٩٨٥م.
- ٣- بارتولد: فاسيلي فلاديميروفيتش، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
- ٤- تاريخ الترك في آسيا الوسطى، تر: أحمد السعيد السليمان، الهيئة العامة المصرية للكتاب، الاسكندرية، د.ت.
- ٥- بارو: جان كلود، وبيغو: غيوم، التاريخ الكامل للعالم، تر: حسن عيساني، مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، دار الفارابي، بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م.
- ٦- بروكلمان: كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- ٧- بروي: إدوارد، تاريخ الحضارات العام القرون الوسطى، تر: يوسف داغر، وفريد داغر، منشورات عويدات، بيروت، ط٢، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

- ٨- بل: ألفرد، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، تر: عبدالرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- ٩- بيرنيا: حسن، تاريخ إيران القديم من البداية حتى العهد الساساني، تر: محمد عبد المنعم والسباعي السباعي، تق: يحيى الخشاب، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- ١٠- توفيق: حسين: دروس في تاريخ الأديان، تر: أنور الرصافي، المركز العالمي للدراسات، ١٣٨١هـ/١٩٦١م.
- ١١- توماس: هنري، أعلام الفلسفة كيف نفهمهم، تر: متري أمين، دار النهضة العربية، القاهرة.
- ١٢- توينبي: أرنولد، مختصر دراسة التاريخ، تر: فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.
- ١٣- جابريلي: فرانسيسكو، الإسلام في عالم البحر المتوسط، ضمن "تراث الإسلام"، تر: محمد زهير السمهوري وآخرون، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ١٤- جرونيانوم: جوستاف، حضارة الإسلام، تر: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- ١٥- حتي: فيليب، صانعو التاريخ العربي، تر: أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨٠م.
- ١٦- دُوزي: رينهارت بيتر آن، تكملة المعاجم العربية، تر: محمد النعيمي، جمال خياط، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط١، ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م.
- ١٧- معجم الملابس، تر: أكرم فاضل، دار الحرية، بغداد، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.
- ١٨- ديورانت: ويليام جيمس، قصة الحضارة، تق: محيي الدين صابر، تر: زكي نجيب

- محمود وآخرون، دار الجيل، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- ١٩- ر. س. زيهنير: الزرادشتية الفجر- الغروب، تر: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- ٢٠- رو: جورج، العراق القديم، تر: حسين علوان، دار العربية، بغداد، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
- ٢١- روزنتال: فرانز، علم التأريخ عند المسلمين، تر: صالح العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- ٢٢- ريسلر: جاك، الحضارة العربية، تر: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- ٢٣- سعيد: إدوارد، الاستشراق المعرفة، السلطة، الانشاء، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م.
- ٢٤- سميث: هوستن، أديان العالم، تر: سعد رستم، دار الجسور الثقافية، حلب، ط٣، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- ٢٥- سورويل: دومينيك، الإسلام... العقيدة، السياسة، الحضارة، تر: سليم قندلفت، دار حوران، دمشق، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- ٢٦- لاسيديو: لويس، تاريخ العرب العام، تر: عادل زعيتر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.
- ٢٧- شعبان: محمد عبد الحي، الثورة العباسية، تر: عبد المجيد حسيب القيسي، دار الدراسات الخليجية، أبو ظبي، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م.
- ٢٨- غرديه: لويس، وقنواتي: جورج، فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية تر: صبحي الصالح وفريد جبر، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
- ٢٩- ف. هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصر الوسيط، تر: أحمد رضا، تق: عزالدين فودة، الهيئة المصرية للكتاب، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.

- ٣٠- فامبري: أرمينوس، تاريخ بخارى منذ أقدم العصور إلى العصر الحالي، تر: أحمد محمود الساداتي، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
- ٣١- فرانك: إيرين وبراونستون: ديفيد، طريق الحرير، تر: أحمد محمود، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، العدد ٧، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص ٨٥-١٠٤.
- ٣٢- فلهاوزن: يوليوس، تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، تر: محمد عبد الهادي أبو ريده، وحسن مؤنس، القاهرة، د.ت.
- ٣٣- فيزهوفر، يزف: فارس القديمة ٥٥٠ ق.م - ٦٥٠م: تر: محمد جديد، دار قدمس، سوريا، ط ١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- ٣٤- كاهن: كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، تر: بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، لبنان، ط ٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.
- ٣٥- كريستنسن: آرثر، إيران في عهد الساسانيين، تر: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٩هـ/١٩٩٨م.
- ٣٦- لال نهرو: جواهر، لمحات من تاريخ العالم، تر: عبد العزيز توفيق، دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م.
- ٣٧- لاندو: روم، الإسلام والعرب، تر: منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م.
- ٣٨- لسترنج: كي، بلدان الخلافة الشرقية، تر: بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- ٣٩- لوبون: جوستاف، حضارة العرب، تر: عادل زيتون، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- ٤٠- لويس: برنارد، السياسة والحرب، ضمن "سلسلة تراث الإسلام"، تر: محمد

- السمهوري، حسين مؤنس، عالم المعرفة، الكويت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٨م.
- ٤١- مايكل: هارت، الخالدون مائة أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم، تر: أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ط٦، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
- ٤٢- نتيج: أنتوني، العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، تر: راشد البراوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.
- ٤٣- نغرين: جيواويد، ماني والمانوية، تر: سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.
- ٤٤- نومكين: فيتالي، بخارى، تر: صلاح صلاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ط١، ١٣٧٥هـ/١٩٩٥م.
- ٤٥- سمرقند، تر: صلاح صلاح، المجمع الثقافي، الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٣٧٤هـ/١٩٩٦م.
- ٤٦- ه. سانت: ميلاد العصور الوسطى، تر: عبد العزيز جاويد و السيد الباز العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- ٤٧- هوخام: هيلدا، تاريخ الصين من قبل التاريخ إلى القرن العشرين، تر: أشرف محمد كيلاي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م.
- ٤٨- هيروودوت: تاريخ هيروودوت، تر: عبد الإله الملاح، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
- ٤٩- ولز. ه. ج: معالم تاريخ الإنسانية، تر: عبد العزيز جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٤، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- ٥٠- موجز تاريخ العالم، تر: عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.

خامساً: الرسائل الجامعية:

- ١- حسين: ناهد، خراسان في العصر الأموي، رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراة، إشراف: شكران خربوطلي، جامعة دمشق، ١٤٣٩هـ/٢٠١٧م.
- ٢- عيزوقي: محمود، أوضاع خراسان أيام الحجاج بن يوسف الثقفي، رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير، إشراف: نهى حميد، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م.

سادساً: المقالات والمجلات:

- ١- إبراهيم، نجم عيدان: فتوح بلاد خراسان، مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، مج ١١، العدد ١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- ٢- البياتي: بهجة علي محمد، الفتح الإسلامي لبخارى في المصادر العربية، مجلة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، مج ٢٣/٤، ١٤٣٤هـ/٢٠١٢م.
- ٣- جورافسكي: أليسكي، الإسلام والمسيحية، تر: خلف محمد الجراد، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢١٥، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.
- ٤- حبيب: كمال، نحو بناء إسلامي لمصطلح الأقلية، مجلة البيان، العدد ٩٢.
- ٥- حسين: حيدر علوان، أثر العرب في نشر الإسلام والحضارة العربية الإسلامية عبر طريق الحرير، معهد التاريخ، كلية التربية، العدد ٧٤، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
- ٦- الداغر: نزار عبد المحسن جعفر، ممالك ما وراء النهر، مجلة أبحاث البصرة، العدد ١، مج ٤٣، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.
- ٧- الساعدي: عمار محمد يونس، قبائل الترك، مجلة جامعة كربلاء العلمية كربلاء، العدد ١، مج ١٣، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.
- ٨- السري: أحمد علي، نهاية الفاتح قتيبة بن مسلم، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الإمارات العربية المتحدة، العدد ٢٢.

٩- الصيني: يوسف بن عبد الله ، الصين أكبر سوق مفتوح للدعوة الإسلامية ولكن!، مجلة البيان، العدد ٢٢١.

١٠- ضميرية: عثمان، القانون الدولي، مجلة البيان، العدد ١٠٣.

١١- معن: رنا كاظم، الزرادشتية، جامعة واسط، مجلة كلية التربية، العدد ١١.

سابعاً: المراجع الأجنبية

- 1- Compareti: (Matteo): Traces of Buddhist Art in Sogdiana University of Pennsylvania USA 2008.
- 2- Emmerik, R,E, Buddahism Among Iranian people, The Cambridge History of Iran, the Seleucid, Parthian and Sasanian Periods, Cambridge university press,1983,vol. 3 (I).
- 3- E. Van Donzel, B.Lewis and Ch. Pellat, Encyclopaedia of Islam, E.J. Broll, Leiden, 1997, Third Impression, vol.IV Iran-Kha, vol.4.
- 4- GIBB, H.A.R : The Arb Conquests in Central Asia, New yark, 1970.
- 5- Widengren, G; Manichaeism And its Iranian Background, The Cambridge History of Iran, the Seleucid, Parthian and Sasanian Periods, Cambridge university press, 1983, vol. 3 (I).
- 6- Skrine, Francis Henry-Denision Ross, Edward; The heart of Asia, a history of Russian Turkestan and the Central Asian Khanates from the Earliest times, Methuen, London, 1899.